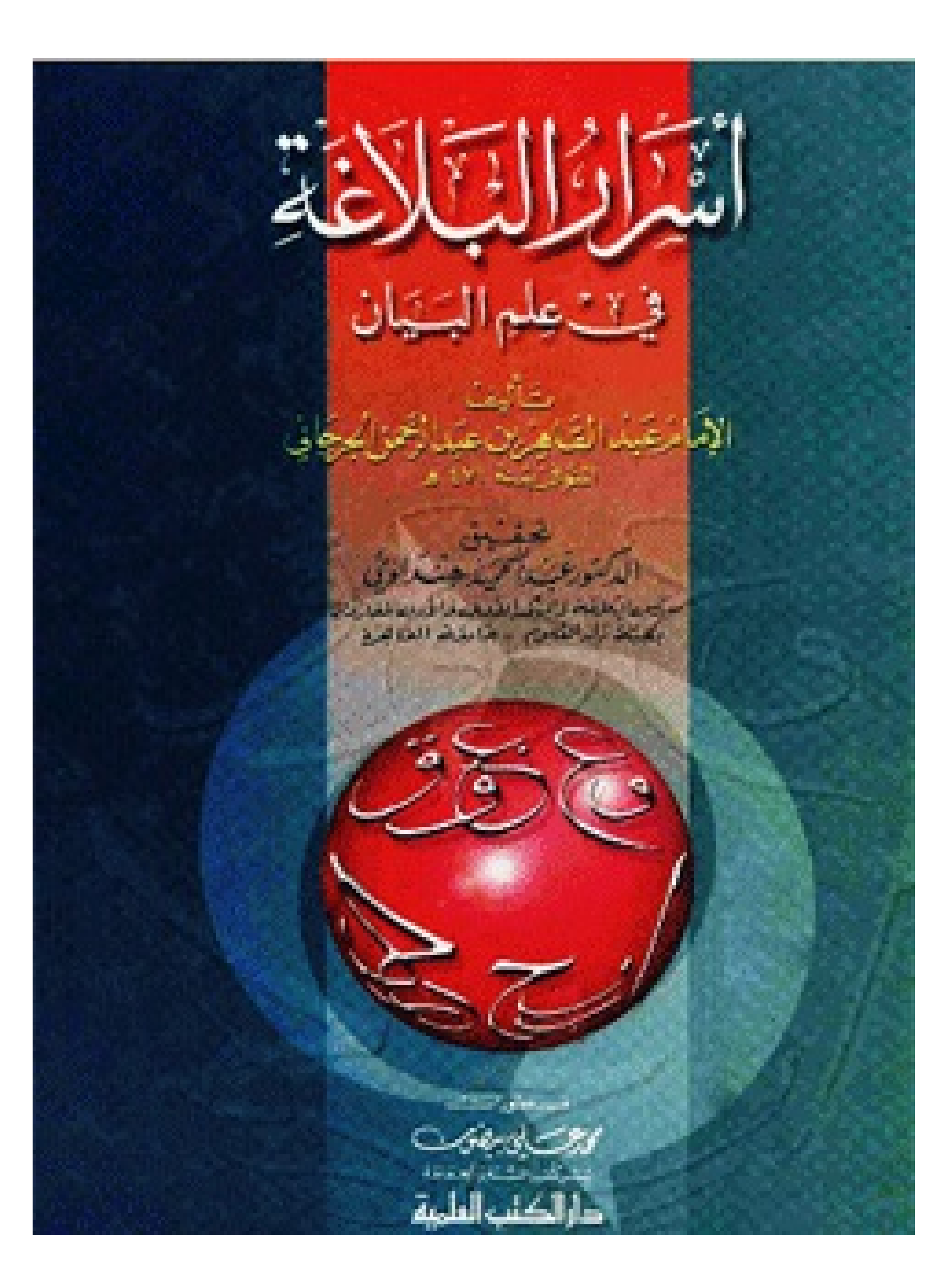

أسرار البلاغة
في علم البيان
تأليف
الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني
تحقيق
الدكتور عبد الحميد هنداوي
دار الكتب العلمية



اسرار البلاغه فى علم البيان

كاتب:

عبدالقاهر بن عبد الرحمن جرجانى

نشرت فى الطباعة:

دار الكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

أسرار البلاغه فی علم البیان

اشاره

نام کتاب: أسرار البلاغه فی علم البیان

نویسنده: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانی

موضوع: اعجاز بیانی

تاریخ وفات مؤلف: ۴۷۱ ق

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دار الکتب العلمیه

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۲ / ۲۰۰۱

نوبت چاپ: اوّل

مقدمه السید محمد رشید رضا

مقدمه السید محمد رشید رضا

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَیانَ فله الحمد أن علم، و الشکر علی ما أنعم، و منه الصلاه و التسلیم، علی نبیه الرءوف الرحیم، الـذی جاء بتوحیـد اللغه و الدین، و جعل الکتاب و الحکمه فی الأمیین، فکانوا بذلک أئمه و کانوا هم الوارثین.

الإنسان یمتاز بالعلم، و إنما العلم بالتعلم، و التعلم باللغه، و اللغات تتفاضل فی حقیقتها و جوهرها بالبیان، و هو تأدیه المعانی التی تقوم بـالنفس تامه علی وجه یکون أقرب إلی القبول و أدعی إلی التأثیر. و فی صورتها و أجراس کلمها بعـذوبه النطق، و سـهوله اللفـظ و الإلقـاء، و الخفه علی السـمع. و إن للغه العربیه من هـذه الممیزات المیزان الراجـح، و الجـواد القـارح، یعرف ذلـک من أخـذها بحق، و جری فیها علی عرق، فکان من مفرداتها علی علم، و ضـرب فی أسالیبها بسـهم. و من آیه ذلک لعیر العارف، أن أولئک الشـراذم و الأوزاع من أهلها قـد حملوهـا إلی الأمم التی کان للغاتها فی العلوم قـدم، و لم یحملوهم علیها بالإلزام، و لا بالتعلیم العام. و کان من أمرها مع هـذا أن نسـخت بطبیعتها لغه المصـریین من مصـرهم، و الرومانیین من شامهم، و اسـتعلت علی

الفارسيه العذبه فی مهدها و موطنها، و امتد شعاعها إلی الأندلس فی غربی أوربه.

بعد ما طاف ساحل إفریقیا الشمالی، و إلی جدار الصین من الشرق- کل ذلک فی زمن قریب لم یعرف فی

التاريخ مثله للغه أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم، و تعميمها بالتعليم العام، و ضرب الترغيب و الترهيب.

كانت لغه أميين و ثنيين جاهليين، فظهر فيها أكمل الأديان، فكانت له أكمل مظهر، و تجلى لها العلم فكانت له خير مجلى. و صارت بذلك لغه الدين و الشريعه، و علوم العقل و الطبيعه، و لكن عدت على أهلها عواد كونيه، و طرأت عليهم أمراض اجتماعيه، فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم الحيه. و من تلك المقومات الحقيقيه اللغه فقد فسدت ملكتها فى الألسنه، و التوى طريق تعليمها فى المدارس، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴

ظهر ضعف اللغه فى القرن الخامس، و كانت فى ريعان شبابها، و أوج عزها و شرفها، و كان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، و مدلول الألفاظ المفرده، و الجمل المركبه، و الانصراف عن معانى الأساليب، و مغازى التركيب، و عدم الاحتفال بتصريف القول و مناحيه، و ضروب التجوز و الكنايه فيه- و هذا ما بعث عزيمه الشيخ عبد القاهر الجرجانى إمام علوم اللغه فى عصره إلى تدوين علم البلاغه، و وضع قوانين للمعانى و البيان، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ فى الإعراب. فوضع هذا الكتاب فى البيان، و من فاتحته يتنسم القارئ أن دوله الألفاظ كانت قد تحكمت فى عصره، و استبدت على المعانى، و أنه يحاول بكتابه تأييد المعانى و نصرها، و تعزيز جانبها و شد أزرها.

كتب قبل عبد القاهر

فی مسائل من البیان بعض البلغاء کالجاحظ و ابن درید و قدامه الکاتب، و لکنهم لم یبلغوا فیما بنوه أن جعلوه فنا مرفوع القواعد مفتح الأبواب کما فعل عبد القاهر من بعدهم فهو واضع علم البلاغه کما صرح به بعض علمائها، و إن لم یذکر له هذه المنقبه المؤرخون الذین رأینا ترجمته فی کتبهم، حتی أن ابن خلدون الذی تصدی دون القوم للإلمام بتاریخ الفنون أهمل ذکره، و زعم أن الذی هذب الفن بعد أولئک الذین کتبوا فی مسائل متفرقه منه هو السکاکی، و ما کان السکاکی إلا عیالا علی عبد القاهر، تلا تلوه، و أخذ عنه، مع المخالفه فی شی ء من الترتیب و التبویب، و لکنه لم یسلم من التکلف فی بعض عباراته، و التعقید فی بعض منازعه، فإذا جاز لنا أن نقول: إنه فاق لتأخره بالترتیب المعلوم، و بما حرره من الحدود و الرسوم. فإننا لا ننسی من فضل المتقدم سلامه عبارته، و صفاء دیباجته، و غوصه علی أسرار الکلام، و وضع دررها فی أبدع نظام.

کان السکاکی وسطا بین عبد القاهر الذی جمع فی البلاغه بین العلم و العمل و أضرابه من البلغاء العاملین، و بین المتکلفین من المتأخرین الذین سلکوا بالبیان مسلک العلوم النظریه، و فسروا اصطلاحاته کما یفسرون المفردات اللغویه، ثم تنافسوا فی الاختصار و الإیجاز، حتی صارت کتب البیان أشبه بالمعمیات و الألغاز، فضاعت حدود بتلک الحدود. و درست رسومه بهاتیک الرسوم «۱»، و کان من أثر فساد ذوق

---

(۱) توسط الشیخ هنا فی حقّ السکاکی و جعله قد سلک مسلکا وسطا بین مسلک عبد القاهر و المتأخرین الذین غالوا فی الطریقه التی سنها لهم السکاکی فی تعقید البلاغه بالمبالغه

فى تعقيدها. انظر كلامنا بالتفصيل على منهج السكاكى فى كتابه مفتاح العلوم بتحقيقنا (ط) (دار الكتب العلميه- بيروت).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵

اللغه اختيار هذه الكتب التى ملكت العجمه عليها أمرها، على الكتب التى ملكت العجمه عليها أمرها، على الكتب التى تهديك إلى العلم الصحيح بمعانيها، و تهدى إليك الذوق السليم بأساليبها، فكادت كتب عبد القاهر تمحى و تنسخ، و صارت حواشى السعد تطبع و تنسخ، و هذا هو حظ العلم النافع إذا ألقى إلى الأمه فى طور التدلى و الضعف، فمثل عبد القاهر فى أسرار بلاغته و دلائل إعجازه، كمثل ابن خلدون فى مقدمته و السلطان سليمان العثمانى فى قوانينه.

رب غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض ألم بها حتى إذا نقهت أو أبلت اشتهته و طلبته. و هذا هو مثلنا أمس و اليوم، فقد كنا متفقهين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين كما يختار المريض الغذاء الضار، فظهر فينا هداه مرشدون يسعون فى إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا و مصنفات أئمتنا، و يدلوننا على العلم الحى الذى تفجر من ينابيع النفوس الحيه، لنفرق بينه و بين الرسوم الميته التى سماها الجهل علما.

و لما هاجرت إلى مصر فى سنه ۱۳۱۵ لإنشاء (المنار) الإسلامى ألفيت إمام النهضه الإسلاميه الحديثه الأستاذ الحكيم الشيخ محمدا عبده رئيس جمعيه إحياء العلوم العربيه و مفتى الديار المصريه، اليوم مشتغلا فى بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى. و قد استحضر نسخه من المدينه المنوره و من بغداد ليقابلها

على النسخه التى عنده، فسألته عن كتاب (أسرار البلاغه) للإمام المذكور فقال: إنه لا يوجد فى هذه الديار فأخبرته بأن فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام نسخه منه، فحثنى على استحضارها و طبعها فطلبتها من صديقى الحميم العالم الأديب عبد القادر أفندى المغربى، و هى مما تركه والده فلبى الطلب.

و علمنا أن نسخه أخرى من الكتاب فى إحدى دور الكتب السلطانيه فى دار السلطنه السنيه، فندبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابله نسختنا بتلك النسخه، فخرج لنا من مجموعهما نسخه صحيحه سرعنا فى طبعها و وضعنا فى ذيل المطبوع شرحا لطيفا ضبطنا فيها الكلمات الغريبه و فسرنا منها و من جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير. و أشرنا إلى الخلاف بين النسختين، فيما يحتمل صحه الاثنتين.

أما كون عبد القاهر واضع الفن و مؤسسه. فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام، أجلهم قدرا، و أرفعهم ذكرا، أمير المؤمنين محيى علوم اللغه و الدين، السيد يحيى بن حمزه الحسينى صاحب كتاب (الطراز، فى علوم حقائق الإعجاز)، فقد

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶

قال فى فاتحه كتابه هذا و هو من أحسن ما كتب فى البلاغه بعد عبد القاهر ما نصه:

«و أول من أسس من هذا الفن قواعده و أوضح براهينه، و أظهر فرائده و رتب أفانينه، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، و هد من سور المشكلات بالتسوير المشيد، و فتح أزهاره من أكمامها. و فتق أزراره بعد استغلاقها و استبهامها، فجزاه اللّه

عن الإسلام أفضل الجزاء، و جعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب و الإجزاء، و له من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز. و الآخر لقبه بأسرار البلاغه، و لم أقف على شي ء منهما. مع شغفى بحبهما و شده إعجابى بهما، إلا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منهما» «۱».

و أما مكانه هذا الكتاب و بيان ما يمتاز به على كتب البيان فحسبى فى بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسألتين نافعتين (إحداهما) أن العلم هو صوره المعلوم مأخوذه عنه بواسطه الإدراك كما تؤخذ الصوره الشمسيه بالآله المعروفه فإن كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانونا كليا يرشد إليها فهو القاعده. و إن كان صوره تناسبها و تقربها من الفهم فهو المثل. (و الثانيه) أن القاعده الكليه هى صوره إجماليه للمعلومات الجزئيه، و الأمثله و الشواهد صور تفصيليه لها. و التعليم النافع إنما يكون بقرن الصور المفصله بالصوره المجمله، إذ بالتفصيل تعرف المسائل، و بالإجمال تحفظ فى العقل. و بهذه الطريقه يجمع بين العلم و العمل الذى يثبت به العلم، و هى طريقه عبد القاهر فى كتابه هذا و كتاب دلائل الإعجاز، على أن كلام الشيخ رحمه اللّه تعالى كله من آيات البلاغه فهو يعطيك علمها بمعانيه، و عملها بمبانيه، و بهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع ما بين أيدينا من كتب الفن لأنها إنما تقتصر على سرد القواعد و الأحكام بعبارات اصطلاحيه، تنكرها بلاغه الأساليب العربيه. و لا تذكر من الشواهد و الأمثله إلا القليل النادر، الذى أدلى به السابق إلى اللاحق و الأول إلى الآخر.

لهذا بادر الإمام، مفتى الديار المصريه فى هذه الأعوام، إلى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عقيب شروعنا فى طبعه فأقبل

على حضور درسه مع أذكياء الطلاب كثيرون من العلماء و المدرسين و أساتذه المدارس الأميريه. و قد قال أحد فضلاء هؤلاء

---

(١) انظر كلامه بنصّه فى الطراز للعلوى بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى (ط) المكتبه العصريه (بيروت).

الأستاذين «١» بعد حضور الدرس الأول «إننا قد اكتشفنا فى هذه الليله معنى علم البيان».

و قد ظهر للأستاذ فى غضون التدريس و المطالعه أغلاط فى الكتاب بعضها من الطبع، و بعضها من تحريف النساخ فى الأصل، و أغلاط أخرى فى التعليقات فأحصيناها كلها من نسخته، و وضعنا لها جدولا فى آخر الكتاب إتماما للفائده و مما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هى من وضعنا فإن المصنف رحمه اللّه تعالى كان يكتفى فى كثير منها بكلمه (فصل).

و نختم هذه المقدمه بملخص ترجمه المصنف رحمه اللّه تعالى فنقول:

اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم و الدين، و لقبوه بالإمام، و اشتهر بالنحوى من قبل أن يضع علم البلاغه. على أنه كان متكلما و فقيها أيضا، قال الحافظ الذهبى فى تاريخه (دول الإسلام): «و فى سنه إحدى و سبعين و أربعمائه مات إمام النحاه أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى صاحب التصانيف» و قال تاج الدين السبكى فى (طبقات الشافعيه الكبرى): عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير أبو بكر الجرجانى النحوى المتكلم على مذهب الأشعرى الفقيه على مذهب الشافعى أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى، و

صار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات، مع الدين المتين، و الورع و السكون». قال السلفى: كان ورعا قانعا دخل عليه لص و هو فى الصلاه فأخذ ما وجد و عبد القاهر ينظر و لم يقطع صلاته. (ثم قال السبكى):

«و من مصنفاته كتاب (المغنى على شرح الإيضاح) فى نحو ثلاثين مجلدا، و كتاب (المقصد فى شرح الإيضاح) أيضا ثلاث مجلدات، و كتاب (إعجاز القرآن الصغير) و (العوامل المائه). و (المفتاح)، و (شرح الفاتحه)، و (العمده فى التصريف)، و كتاب (الجمل المختصر المشهور).

و فى كتاب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) نحو من ذلك و زاد فى ذكر المصنفات شرح كتاب الجمل، و ذكر أن على بن أبى زيد الفصيحى أخذ عنه و ذكروا له شعرا فمنه ما أورده الصلاح الكتبى فى فوات الوفيات:

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدى بك مدرس البلاغه و آداب اللغه العربيه فى المدارس العليا: دار العلوم فمدرسه القضاء الشرعى و الجامعه المصريه. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٨

لا تأمن النفثه من شاعر ما دام حيا سالما ناطقا

فإن من يمدحكم كاذبا يحسن أن يهجوكم صدقا

و اتفقوا على أنه توفى سنه ٤٧١، قال السبكى: (و قيل: ٤٧٤) رحمه

اللّه تعالی.

السید محمد رشید رضا منشئ مجله (المنار)

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۹

مقدمه المحقق

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

مقدمه المحقق

الحمد للّه الذی شرفنا بعد أخذ آیات القرآن، بتعلم علوم البلاغه و البیان؛ فلا جرم أنها تقع من سائر العلوم اللغویه بمنزله الرأس من الجسد، فهی باسمی منزله، و أعلی مکان، و ذلک لتعلقها ببیان أسرار الکتاب المجید، و من ثم بیان مقصود اللّه و مراده من العبید.

و بعد؛ فإن کتاب (أسرار البلاغه) یعد و هو و کتاب (دلائل الإعجاز) لشیخ البلاغیین- بلا منازع- الإمام عبد القاهر الجرجانی، یعدان بالمقام الأول من کتب البلاغه بلا نزاع بین أهل العلم بهذا الفن، و لم أر فی کلام أحد من المتقدمین أو المتأخرین من یقدم علیهما کتابا فی هذا الفن؛ بل إنک إذا سألت أحدا عن کتاب جید یحفظ للبلاغه رونقها و طلاوتها غیر هذین الکتابین فإنه یقف باهتا متحیرا فلا یعیرک جوابا، غیر النفی القاطع، فإن سألته عن أجود الکتب بعدهما، فإنه یتردد و یتلعثم من جهه عظم الهوّه و عظم الفارق و البون، بین هذین الکتابین و ما یجعل تالیا لهما و ما ذلک إلا لأن کتب المتقدمین قبل عبد القاهر کانت عباره عن مباحث متفرقه، و إشارات خاطفه، و عبارات متناثره، تکد فی جمعها من هنا و هناک، فجاء ذلک الإمام فجمع أصول هذا العلم، و ردّ إلیها فروعه، و وضع له قواعده و أصوله، بغیر جفاف و لا تعقید، و بغیر مبالغه فی الحصر و الإحصاء و التفریع و التمییز،

و التحديد، مما عرف عن المتأخرين كالسكاكی و من تابعه من صرامه المنطق و المبالغه فی التحديد و التجريد.

فكانت طريقته قصدا بين الطريقه الأدبيه القديمه فی تحليل النصوص و ترک الأمور هملا دون تقييد و لا تعقيد و لا تجريد لقواعد العلم و أصوله، و بين طريقه المتأخرين الذين غلب عليهم جفاف المنطق و صرامته، و شده التجريد و التعقيد و قوته. و يأتی هذا الكتاب الجليل (أسرار البلاغه) ليفرده الشيخ لمعالجه أكثر

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ١٠

مباحث علمی البديع و البيان بحسب التقسيم الثلاثی للبلاغه عند المتأخرين، كما اشتمل كتابه دلائل الإعجاز على أكثر مباحث (علم المعانی).

و تأتی قيمه هذا الكتاب الجليل (أسرار البلاغه) فی أنه يبين وجه الحق فی قضيه المحسنات البديعيه التی اعتبرها البلاغيون المتأخرون أمرا خارجا عن مطابقه الكلام لمقتضى الحال، فهی مجرد زينه لفظيه يؤتی بها بعد استيفاء الكلام وجوه المطابقه، فيؤتی به لمجرد الزخرف و الزينه و الكلام فی غنى عنه.

هذه النظره الخاطئه هی التی جعلت من البديع حجر عثره فی سبيل ارتقاء النصوص الأدبيه فی العصر الذی شاعت فيه تلک النظره العقيمه حيث تباری قارضو الشعر فی تدبيج قصائدهم بصور الزخرف اللفظی الكثيره المتعدده التی تباری هؤلاء البلاغيون فی تعدادها و بيانها و الإيصاء بها.

فكانت سمه تلک العصور هی الإكثار من تلک المحسنات و الزخارف دون أن يكون لها دور فی التعبير عن المعانی أو الأفكار التی صيغت لها تلک النصوص و الأشعار، و لعل هذه النظره الخاطئه قد ظهرت بوادرها فی

عصر الإمام عبد القاهر الجرجانى بدليل ما استشهد به من الأبيات الداله على التكلف فى استخدام صور الجناس و غيرها من فنون البديع.

الأمر الذى دعاه إلى أن يرد الأمر إلى نصابه، و يكشف النقاب عن الدور الذى يمكن أن تضطلع به تلك المحسنات إذا ما أتى بها مواكبه للمعنى، موافقه له، و ذلك إذا أرسلت النفوس على سجيتها، و لم يتكلف فى إيراد تلك الوجوه من المحسنات.

و لذا فقد اجتهاد الإمام عبد القاهر فى وضع ضوابط توظيف تلك المحسنات، و بيان متى تحسن، و متى تقبح؛ فمن ذلك قوله: «أما التجنيس؛ فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، و لم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ... إلخ».

و تراه ينعى على المتأخرين فى زمانه المغالاه فى أمر تلك المحسنات فيقول:

«و قد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، و يقول ليبين، و يخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء، و أن يوقع

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١١

السامع من طلبه فى خبط عشواء، و ربما طمس بكثره ما يتكلفه على المعنى و أفسده، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها».

هذا و قد فصلت الكلام على هذه القضيه مرارا فى تعليقاتى على هذا الكتاب، و فيما كتبته من قبل فى

رسالتى للماجستير عن الجهود البلاغيه للإمام الطيبى «۱»، و غيرها من كتبى، و أمر آخر مما يحمد لعبد القاهر فى هذا الكتاب و هو تناوله لمباحث علمى البديع و البيان بلا فصل بينهما فهى لديه جميعا مجرد أساليب لغويه بلاغيه ينبغى على البلاغى أن يقف أمامها بالتحليل الأدبى البلاغى الذى يوازن فيها بين الصياغه التعبيريه الأسلوبيه التى تشكلت بها تلك الفنون و الأساليب و بين المعانى الفنيه التى تدل عليها، بلا تفريق بين تلك المباحث و بغير تشتيت للنظر بوضع الحدود المصطنعه بينها بلا داع و لا ضروره تملها النظره البلاغيه الأدبيه، اللهم إلا أن تكون النظره المنطقيه العقلانيه المتجرده المهوّمه فى خيالات العقول بغير مطابقه لحقيقه تلك الفنون، و لا مناسبه لطبيعتها. و الحق أننا هنا لسنا بصدد تعداد مظاهر الجوده و التوفيق فى هذا السفر العظيم فهى عديده تنأى عن الحصر، و قد كتب فى دراستها و تحليلها أسفار عديده، و سيقف القارئ بنفسه على كثير من تلك الفوائد و الأسرار كلما نظر فى هذا الكتاب ثم راح يوازن بينه و بين ما انتهت إليه أحدث النظريات الأسلوبيه و البلاغيه فى علوم البلاغه و الأسلوب.

منهج التحقيق:

منهج التحقيق:

أما عن منهجنا فى تحقيق هذا الكتاب فيتلخص فى تلك النقاط:

۱- ضبط متن الكتاب اعتمادا على نسخه المتداوله لا سيما نسختى الشيخ (رشيد رضا) و نسخه الشيخ (محمود شاكر) و هى أجود طبعات الكتاب و تحقيقاته.

۲- تخريج جميع شواهد الكتاب و نصوصه القرآنيه و الحديثيه و الشعريه فى مصادرها الأصليه ما أمكن مع الاهتمام بعزو الشواهد الشعريه إلى مصادرها التى استشهدت بها فى كتب البلاغه العربيه لخدمه القارئ إذا ما أراد الوقوف على وجه الاستشهاد بالبيت أو

جمع كلام البلاغيين فى الاستشهاد به.

---

(۱) ط مكتبه نزار الباز (المكتبه التجاريه) مكه المكرمه.

۳- شرح الغريب.

۴- إثبات أهم فروق النسخ المؤثره فى إحاله المعانى.

۵- إثبات أهم تعليقات الشيخ رشيد رضا، و شيخه محمد عبده لأهميتها و جلالتها، مع الانتفاع بتعليقات الشيخ محمود شاكر كذلك، و قد رمزت لتعليقات الشيخ رشيد بكلمه (رشيد) بين قوسين بعد تمام النقل. و لشيخه محمد عبده برمز (ش) و لكلام الشيخ محمود شاكر برمز (شاكر).

و وضحت تعليقاتى و إضافاتى لما عقبت به بعد أحدهم بقولى (قلت) بين قوسين.

هذا، و لا يفوتنا فى هذا المقام أن نتوجه بالشكر لدار الكتب العلميه على ما قامت به من جهد مشكور فى مراجعه تجارب الكتاب و تصحيحه و طباعته تلك الطباعه اللائقه.

هذا، و اللّه نسأل أن يجزل لنا المثوبه فى هذا العمل، و لكل من شارك فيه بجهد مشكور، و أن ينفع به و يعين على معرفه أسرار كتابه العزيز، إنه سبحانه مولى ذلك و هو القادر عليه.

و كتبه د. عبد الحميد هنداوى المدرس بقسم البلاغه و النقد الأدبى و الأدب المقارن بكليه دار العلوم- جامعه القاهره الجيزه فى رجب ۱۴۲۱ ه.

مقدمه المؤلف

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

[مقدمه المؤلف]

قال الشيخ الإمام مجد الإسلام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى النحوى

رحمه اللّه عليه و رضوانه:

الحمد للّه رب العالمين، و صلواته على سيدنا محمد النبى و آله أجمعين.

اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها، و يبيّن مراتبها، و يكشف عن صورها، و يجنى صنوف ثمرها، و يدلّ على سرائرها، و يبرز مكنون ضمائرها، و به أبان اللّه تعالى الإنسان من سائر الحيوان، و نبّه فيه على عظم الامتنان، فقال عزّ من قائل:

الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ [الرحمن ١- ٤]، فلولاه لم تكن لتتعدّى فوائد العلم عالمه، و لا صحّ من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، و لتعطّلت قوى الخواطر و الأفكار من معانيها، و استوت القضيّه فى موجودها و فانيها.

نعم، و لوقع الحىّ الحسّاس فى مرتبه الجماد، و لكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد، و لبقيت القلوب مقفله على ودائعها، و المعانى مسجونه فى مواضعها، و لصارت القرائح عن تصرّفها معقوله، و الأذهان عن سلطانها معزوله، و لما عرف كفر من إيمان، و إساءه من إحسان، و لما ظهر فرق بين مدح و تزيين، و ذمّ و تهجين. ثم إنّ الوصف الخاصّ به، و المعنى المثبت لنسبه، أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها، و يقرّر كيفياتها التى تناولها «١» المعرفه إذا سمت إليها.

و إذا كان هذا الوصف مقوّم ذاته و أخصّ صفاته، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى و أظهر، و به أولى و أجدر. و من هاهنا يبيّن للمحصل، و يتقرّر فى نفس المتأمّل، كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسّم بينها حظوظها من الاستحسان، و يعدّل القسمه بصائب القسطاس و الميزان.

و من البيّن الجلىّ أن التباين فى هذه الفضيله، و التباعد عنها

إلى ما ينافيها من

---

(۱) تناولها: أصله تتناولها على المضارع: حذفت إحدى التاءين تخفيفا، و فى نسخه: (تناولتها) على المضى.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۴

الرذيله، ليس بمجرّد اللفظ «۱». كيف؟ و الألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضربا خاصّا من التأليف، و يعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب و الترتيب. فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء و اتّفق، و أبطلت نضده «۲» و نظامه الذى عليه بنى، و فيه أفرغ المعنى و أجرى، و غيّرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد ما أفاد، و بنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول فى: [من الطويل] قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل «۳» «منزل قفا ذكرى من نبك حبيب»، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان. نعم و أسقطت نسبته من صاحبه، و قطعت الرّحم بينه و بين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافه إلى قائل، و نسب يختصّ بمتكلم. و فى ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أنّ المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقه معلومه، و حصولها على صوره من التأليف مخصوصه. و هذا الحكم- أعنى الاختصاص فى الترتيب- يقع فى الألفاظ مرتّبا على المعانى المرتّبه فى النفس، المنتظمه فيها على قضيّه العقل «۴». و لا يتصوّر فى الألفاظ وجوب تقديم و تأخير، و تخصّص فى ترتيب و تنزيل، و على ذلك وضعت المراتب و المنازل فى الجمل المركّبه، و أقسام الكلام

المدوّنه، فقيل: من حق هذا أن يسبق ذلك، و من حقّ ما هاهنا أن يقع هنالك، كما قيل فى المبتدأ و الخبر و المفعول و الفاعل، حتى حظر

---

(۱) و فى نسخه: الألفاظ، قلت: و لعله هو الأولى لاتفاقه مع ما بعده.

(۲) أى: نسقه و نظامه.

(۳) البيت لامرئ القيس من معلقته الشهيره و هو فى ديوانه: ۱۱۰، و انظر شرحه فى شرح المعلقات العشر للشنقيطى: ۵۸، و شرح القصائد العشر للتبريزى: ۲۰، و تمامه:

بسقط اللّوى بين الدخول فحومل و البيت من مفتاح العلوم تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، طبعه دار الكتب العلميه: ۶۲۵، و الأزهيه: ۲۴۴، و خزانه الأدب: ۱/ ۳۳۲، ۳/ ۲۲۴، و الدرر: ۶/ ۷۱، و لسان العرب: ۲۰۹ (لوى)، و الإيضاح: ۳۶۹، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى.

المعنى: قفا: يخاطب الشاعر نفسه أو صاحبه أو صاحبيه لأن العرب قد يخاطب الواحد منهم صاحبه مخاطبه الاثنين كما يخاطب الجماعه كذلك، ذكرى حبيب، و منزل: تذكر الحبيب و منزله الذى ألف النزول به. سقط اللوى: منقطع الرمل، و يقال للوى وحده كذلك: منقطع الرمل، و الدخول و حومل: قيل: إنهما موضعان من شرق اليمامه.

(۴) كلام المصنف هنا على قضيه النظم، و قد فصل الكلام عليها، و أشرنا إلى ذلك فى كتابه الآخر دلائل الإعجاز فراجعه.

فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلّا سابقا، و فى آخر أن يوجد إلا مبنيّا على غيره و به لاحقا، كقولنا: إن الاستفهام له صدر الكلام،

و إن الصفه لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفيه إلى غيرها من الأحكام.

فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللّفظ فيقول: حلو رشيق، و حسن أنيق، و عذب سائغ، و خلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف «۱»، و إلى ظاهر الوضع اللغوىّ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، و فضل يقتدحه العقل من زناده.

و أمّا رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، و كونه من أسبابه و دواعيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا، و هو أن تكون اللفظه مما يتعارفه الناس فى استعمالهم، و يتداولونه فى زمانهم، و لا يكون وحشيا غريبا، أو عامّيا سخيفا، سخفه بإزالته عن موضوع اللغه، و إخراجه عما فرضته من الحكم و الصفه، كقول العامه «أشغلت» و «انفسد». و إنما شرطت هذا الشرط، فإنه ربما استسخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرّد اللفظ، كما يحكى من قول عبيد اللّه بن زياد لما دهش: «افتحوا لى سيفى»، و ذلك أن «الفتح» خلاف «الإغلاق»، فحقّه أن يتناول شيئا هو فى حكم المغلق و المسدود، و ليس السّيف بمسدود، و أقصى أحواله أن يكون كونه فى الغمد بمنزله كون الثوب فى العكم «۲»، و الدرهم فى الكيس، و المتاع فى الصندوق. و «الفتح» فى هذا الجنس «۳» يتعدّى أبدا إلى الوعاء المسدود على الشى ء الحاوى له لا إلى ما فيه، فلا يقال: «افتح الثوب»، و إنما يقال: «افتح العكم» و «أخرج الثوب» و «افتح الكيس».

و هاهنا أقسام قد يتوهّم فى بدء الفكره، و قبل إتمام العبره، أنّ الحسن و

القبح فيها لا- يتعدّى اللفظ و الجرس، إلى ما يناجى فيه العقل النفس، و لها إذا حقّق النظر مرجع إلى ذلك، و منصرف فيما هنالك، منها: «التجنيس» و «الحشو».

---

(١) جمع جرس- بكسر الجيم و بفتحها- و هو الصوت، أو الخفى منه.

(٢) العكم- بالكسر- كالعدل وزنا و معنى، و المراد بالعدل هنا الغراره و الجوالق، و هو نصف الحمل يكون على أحد جانبى البعير، أى: يكون على جانبى البعير عدلان، و قد سمى عدلا لتعادله و تماثله مع نظيره فى الشق الآخر. و العكم أيضا: نمط تجعل المرأه فيه ذخيرتها.

(٣) و فى نسخه: المعنى.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١۶

القول فى التجنيس

القول فى التجنيس

أما «التجنيس» فإنك لا- تستحسن تجانس اللفظتين إلا- إذا كان وقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، و لم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله: [من الكامل]

ذهبت بمذهبه السّماحه فالتوت فيه الظّنون: أ مذهب أم مذهب «١»

و استحسنت تجنيس القائل: [من الرجز] حتى نجا من خوفه و ما نجا «٢» و قول المحدث: [من الخفيف]

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أو دعانى «٣»

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائده ضعفت عن

الأوّل و قويت فى الثانى؟ و رأيتك لم يزدك «بمذهب و مذهب» على أن أسمعك حروفا مكرره، تروم فائده فلا تجدها إلا مجهوله منكره، و رأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظه كأنه يخدعك عن الفائده و قد أعطاها، و يوهمك كأنه لم يزدك و قد أحسن الزياده و وفّاها، فبهذه السريره صار «التجنيس»- و خصوصا المستوفى منه المتّفق فى الصوره- من حلى الشّعر، و مذكورا فى أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطى «التجنيس» من الفضيله، أمر لم يتمّ إلا بنصره المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، و لما وجد فيه معيب مستهجن. و لذلك ذمّ الاستكثار منه و الولوع به.

و ذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ

---

(١) البيت هو فى ديوانه: ۴۳، من قصيده يمدح بها الحسن بن وهب و يصف غلاما أهداه إليه، و البيت من دلائل الإعجاز: ۵۲۳.

(٢) البيت هو من إعجاز القرآن: ۵۲۳، و البيان و التبيين ١/ ١۵٠، و الحيوان: ٣/ ٧۵، و «نجا» الأولى بمعنى أحدث، و الثانيه بمعنى خلص (رشيد). قلت: «نجا» الأولى من النجو و هو ما يخرج من البطن من الغائط، يريد أنه من خوفه أحدث، ثم لم ينج من النجاه.

(٣) البيت هو ثانى بيتين يرويان لشمسويه البصرى، و لشداد بن إبراهيم الجزرى، و لأبى الفتح البستى، و هو فى دلائل الإعجاز: ۵۲۳. و قبله:

قيل للقلب ما دهاك؟ أجبنى قال لى: بائع الفرانى فرانى

و كان حق المصنف أن يذكره كذلك

فهو شاهد لما هو فيه من الجناس كذلك.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٧

خدم المعانى و المصرّفه فى حكمها، و كانت المعانى هى المالكه سياستها، المستحقّه طاعتها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشى ء عن جهته، و أحاله عن طبيعته، و ذلك مظنّه من الاستكراه، و فيه فتح أبواب العيب، و التّعرّض للشّين.

و لهذه الحاله كان كلام المتقدّمين الذين تركوا فضل العنايه بالسجع، و لزموا سجيّه الطبع، أمكن فى العقول، و أبعد من القلق، و أوضح للمراد، و أفضل عند ذوى التّحصيل، و أسلم من التفاوت، و أكشف عن الأغراض، و أنصر للجهه التى تنحو نحو العقل، و أبعد من التّعمّد الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق، و الرضى بأن تقع النقيصه فى نفس الصّوره. و إنّ الخلقه، إذا أكثر فيها من الوشم و النقش، و أثقل صاحبها بالحلى و الوشى، قياس الحلى على السيف الدّدان «١»، و التوسّع فى الدعوى بغير برهان، كما قال: [من الطويل]

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها و أعضائها فالحسن عنك مغيّب «٢»

و قد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع، إلى أن ينسى أنّه يتكلم ليفهم، و يقول ليبين، و يخيّل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء،

و أن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء، و ربّما طمس بكثره ما يتكلّفه على المعنى و أفسده، كمن ثقّل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها »[3].

---

(1) الددان من السيوف: نحو الكهام. و قال ثعلب: هو الذى يقطع به الشجر، و هو عند غيره إنما هو المعضد، و سيف كهام و ددان بمعنى واحد.

(2) البيت للمتنبى فى ديوانه: ٢/ ٢٣٠، من قصيده أغالب فيك الشوق، و قبله:

و ما الخيل إلا كالصديق قليله و إن كثرت فى عين من لا يجرب

و البيت فى الإيضاح: ٣٤٦، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، طبعه مؤسسه المختار. و الشيات:

جمع شيه و هى كل لون فى الشى ء مخالف معظم لونه الأصلى و الضمير للخيل التى يصفها.

(3) لا يفهم من هذا الكلام أن عبد القاهر يمنع من التحسين اللفظى أو يقف معارضا له، بل إن ذمه منصب على من بالغ فى هذا الأمر حتى جعل هذا التحسين همّه و دأبه و نسى غرضه، و تناسى وظيفه هذا التحسين و دوره فى تحقيق مطابقه الكلام لمقتضى الحال خلافا لمتأخرى البلاغيين الذين قصروا دور المحسنات اللفظيه على وظيفه التزيين و التحسين دون أن يكون لها أدنى دور فى تحقيق المطابقه، شأنها فى ذلك شأن العلمين الآخرين (المعانى و البيان) و قد فصلت القول فى هذه القضيه فى أكثر من موضع من كتبى، من ذلك الفصل الذى عقدته لذلك فى رسالتى للماجستير عن الجهود البلاغيه للإمام الطيبى، ط مكتبه نزار الباز، مكه المكرمه. و قد

بینت فیها أن تلک المحسنات منها ما هو بلیغ، و منها ما هو مطابق، و منها ما هو متکلف، فلیراجع ما کتبناه هنالک.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ١٨

فإن أردت أن تعرف مثالا فیما ذکرت لک، من أن العارفین بجواهر الکلام لا یعرّجون علی هذا الفنّ إلا بعد الثقه بسلامه المعنی و صحّته، و إلا حیث یأمنون جنایه منه علیه، و انتقاصا له و تعویقا دونه، فانظر إلی خطب الجاحظ فی أوائل کتبه هذا- و الخطب من شأنها أن یعتمد فیها الأوزان و الأسجاع، فإنها تروی و تتناقل تناقل الأشعار، و محلّها محلّ النسیب و التشبیب «١» من الشعر الذی هو کأنه لا یراد منه إلّا الاحتفال فی الصنعه، و الدّلاله علی مقدار شوط القریحه «٢»، و الإخبار عن فضل القوه، و الاقتدار علی التفنّن فی الصنعه- قال فی أول کتاب الحیوان:

«جنّبک اللّه الشّبهه، و عصمک من الحیره، و جعل بینک و بین المعرفه سببا، و بین الصدق نسبا، و حبّب إلیک التثبّت، و زیّن فی عینک الإنصاف، و أذاقک حلاوه التقوی، و أشعر قلبک عزّ الحق، و أودع صدرک برد الیقین و طرد عنک ذلّ الیأس، و عرّفک ما فی الباطل من الذلّه، و ما فی الجهل من القلّه».

فقد ترک أوّلا- أن یوفّق بین «الشبهه» و «الحیره» فی الإعراب، و لم یر أن یقرن «الخلاف» إلی «الإنصاف»، و یشفع «الحق» «بالصدق»، و لم یعن بأن یطلب «للیأس» قرینه تصل جناحه، و شیئا یکون ردیفا له، لأنه رأی التوفیق

بين المعانى أحقّ، و الموازنه فيها أحسن، و رأى العنايه بها حتى تكون إخوه من أب و أمّ؛ و يذرها على ذلک تتّفق بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أولى من أن يدعها، لنصره السجع و طلب الوزن، أولاد علّه «٣»، عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر، فأما أن يتعدّى ذلک إلى الضمائر، و يخلص إلى العقائد و السّرائر، ففى الأقلّ النادر.

و على الجمله فإنک لا تجد تجنيسا مقبولا، و لا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه و استدعاه و ساق نحوه، و حتى تجده لا تبتغى به بدلا، و لا تجد عنه حولا، و من هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه و أعلاه، و أحقّه بالحسن و أولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، و تأهّب لطلبه، أو ما هو- لحسن ملاءمته، و إن كان مطلوبا- بهذه المنزله و فى هذه الصوره، و ذلک كما يمثّلون به أبدا من قول الشافعى رحمه اللّه تعالى و قد سئل عن النّبيذ فقال: «أجمع

---

(١) نسب بالمرأه:- كنصر و ضرب- وصف محاسنها بالشعر، و النسيب و التشبيب بالنساء واحد.

(٢) الشوط: هو الجرى مره واحده إلى غايه.

(٣) أولاد العله و العلات: هم الذين أبوهم واحد، و أمهاتهم شتى، و قد ورد فى الحديث: «نحن معشر الأنبياء إخوه لعلات» يقصد أن الدين واحد و الشرائع شتّى.

أهل الحرمين على تحريمه». و مما تجده كذلک قول البحترى: [من الكامل]

يعشى عن المجد الغبىّ و لن ترى فى سؤدد أربا لغير أريب «۱»

و قوله: [من الوافر]

فقد أصبحت أغلب تغلبيّا على أيدى العشيره و القلوب «۲»

و مما هو شبيه به قوله: [من الكامل]

و هوى هوى بدموعه فتبادرت نسقا يطأن تجلّدا مغلوبا «۳»

و قوله: [من الكامل]

ما زلت تقرع باب بابل بالقنا و تزوره فى غاره شعواء «۴»

و قوله: [من الكامل]

ذهب الأعالى حيث تذهب مقله فيه بناظرها حديد الأسفل «۵»

و مثال ما جاء من السجع هذا المجى ء و جرى هذا المجرى فى لين مقادته، و حل هذا المحلّ من القبول قول القائل: «اللّهم هب لى حمدا، و هب لى مجدا، فلا مجد إلا بفعال، و لا فعال إلّا بمال» «۶»، و قول ابن العميد: «فإن الإبقاء على خدم السلطان عدل الإبقاء على ماله، و الإشفاق على حاشيته و حشمه، عدل الإشفاق على ديناره و درهمه».

---

(۱) البيت هو فى ديوانه، و الإيضاح: ۳۳۷، تحقيق د. عبد الحميد

هنداوى، يعشى: أراد يعمى، و القصد أنه لا يشغل به و طريقه الكنايه. السؤدد: رفعه القدر و كرم المنصب. أرب: غايه، و مأرب، أريب: عاقل لبيب.

(۲) البيت فى ديوانه.

(۳) البيت من الكامل، و هو فى ديوانه.

(۴) البيت فى ديوانه.

(۵) البيت فى ديوانه فى وصف الفرس، و قبله:

جذلان ينفض عذره فى غره يقق تسيل حجولا فى جندل

كالرائح النشوان أكثر مشيه عرضا على السنن البعيد الأطول

(۶) هو مشهور من دعاء قيس بن سعد بن عباده الخزرجى رضى اللّه عنه، صحابى، و هذا الدعاء أورده الجاحظ فى البيان و التبيين ۳/ ۲۸۴، و هو مذكور فى ترجمته أيضا. و لكن أصح منه أنه من دعاء أبيه سعد بن عباده، رواه ابن سعد قال: أخبرنا أبو أسامه قال: حدثنا هشام بن عروه عن أبيه أن سعدا بن عباده كان يدعو» و ذكر الدعاء، و تمامه عنده: «اللهم لا يصلحنى القليل و لا أصلح عليه»، طبقات ابن سعد ۳/ ۱۴۳ [محمود شاكر].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰

و لست تجد هذا الضرب يكثر فى شى ء، و يستمرّ كثرته و استمراره فى كلام القدماء، كقول خالد: «ما الإنسان، لو لا اللسان، إلا صوره ممثله، و

بهيمه مهمله»، و قول الفضل بن عيسى الرقاشى: «سل الأرض فقل: من شقّ أنهارک، و غرس أشجارک، و جنى ثمارک، فإن لم تجبک حوارا، أجابتک اعتبارا».

و إن أنت تتبعته من الأثر و كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، تثق كلّ الثقه بوجودک له على الصّفه التى قدمت، و ذلک كقول النبى عليه السلام: «الظّلم ظلمات يوم القيامه»، و قوله صلوات اللّه عليه: «لا تزال أمّتى بخير ما لم تر الغنى مغنما، و الصدقه مغرما»، و قوله: «يا أيّها الناس؛ أفشوا السلام، و أطعموا الطعام، و صلوا الأرحام، و صلّوا بالليل، و الناس نيام، تدخلوا الجنّه بسلام».

فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع، و ترک له ما هو أحقّ بالمعنى منه و أبرّ به، و أهدى إلى مذهبه.

و لذلک أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل ألما بقوله: «حلأت «۱» ركابى، و شقّقت ثيابى، و ضربت صحابى»، فقال له العامل: «أو تسجع أيضا» إنكار العامل السجع حتى قال: «فكيف أقول؟»، و ذاک أنّه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ و لم يره بالسجع مخلّا بمعنى، أو محدثا فى الكلام استكراها، أو خارجا إلى تكلّف و استعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه. و قال الجاحظ: «لأنه لو قال: «حلّئت إبلى» أو «جمالى» أو «نوقى» أو «بعرانى» أو «صرمتى» «۲» لكان لم يعبّر عن حقّ معناه، و إنما حلّئت ركابه، فكيف يدع «الركاب» إلى غير الرّكاب؟ و كذلک قوله: «و شقّقت ثيابى، و ضربت صحابى».

فقد تبين من هذه الجمله أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النّحو بالقبول:

هو أنّ المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس و السّجع، بل قاده المعنى إليهما، و عبر

(۱) الرّكاب بالكسر: الإبل التى يسار عليها، واحدتها: راحله، و لا واحد لها من لفظها، و جمعها «ركب» بضم الكاف مثل «كتب» و فى حديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الرّكاب أسنتها» أى: أمكنوها من الرعى، و أما قوله: (حلأت ركابى) فيقال: حلأ الإبل و الماشيه عن الماء تحليئا و تحلئه: طردها أو حبسها عن الورود و منعها أن ترده.

(۲) الصّرمه بالكسر: القطعه من الإبل، قيل: هى ما بين العشرين إلى الثلاثين، و قيل: ما بين الثلاثين إلى الخمسين و الأربعين، فإذا بلغت الستين فهى: «الصّدعه»، و قيل: ما بين العشره إلى الأربعين، و قيل: ما بين عشره إلى بضع عشره.

به الفرق عليهما، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه و لا سجع، لدخل من عقوق المعنى و إدخال الوحشه عليه، فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتّجنيس المستكره، و السجع النّافر. و لن تجد أيمن طائرا، و أحسن أوّلا و آخرا، و أهدى إلى الإحسان، و أجلب للاستحسان، من أن ترسل المعانى على سجيّتها، و تدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت و ما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، و لم تلبس من المعارض إلا ما يزينها. فأمّا أن تضع فى نفسك أنه لا بدّ من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين، فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه «۱»، و على خطر من الخطأ و الوقوع فى الذّمّ، فإن ساعدك

الجدّ كما ساعد فى قوله: «أو دعانى أمت بما أو دعانى»، و كما ساعد أبا تمام فى نحو قوله: [من الطويل]

و أنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد «٢»

و قوله: [من الكامل]

هنّ الحمام، فإن كسرت عيافه من حائهن فإنهنّ حمام «٣»

فذاك، و إلّا أطلقت ألسنه العيب، و أفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب، إلى أفحش الإساءه و أكبر الذنب، و وقعت فيما ترى من ينصرك، لا يرى أحسن من أن لا يرويه لك، و يودّ لو قدر على نفيه عنك، و ذلك كما تجده لأبى

---

(١) أى: بجانب الاستكراه، و المقصود ذم تكلف التجنيس و طلب التحسين و تعمده و استكراه اللفظ عليه دون أن يقتضيه المعنى، و تنقاد له النفس، و يستلذه الحسّ؛ و ليس معنى ذلك أن اختيار التجنيس و أشباهه من المحسنات مذموم إذا كان موافقا للمعنى، مطابقا للمقتضى، فإذا حضرك لفظان أحدهما يوافق المعنى بلا تجنيس، و الآخر يوافقه مع زياده التجنيس أو التحسين؛ فإن حق البلاغه و الفصاحه هنا اختيار اللفظ الذى هو آنق فى السمع، و أوفق للنفس و الحسّ؛ فإن التحسين و التزيين المطابق لا يخفى أنه يقع من البلاغه بمكان، و أنه هو الذى يجذب النفس إلى المعانى، و يهون عليها ثقل اللفظ و رتابته.

(٢) البيت فى ديوانه: ١٢٠ من قصيده قالها فى

مدح موسى بن إبراهيم الرافقىّ و يعتذر إليه، و قبله:

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى و محّت كما محّت و شائع من برد

و البيت فى الإيضاح: ۳۳۷، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى.

أنجدتم: سكنتم نجدا. إتهام داركم: اتخاذها فى تهامه. أنجدنى: ساعدنى و عاونى.

(۳) البيت لأبى تمام فى ديوانه: ۲۶۳، عن قصيده فى مدح المأمون، و قبله:

أ تحدّرت عبرات عينك أن دعت ورقاء حين تصعصع الإظلام

لا تنشجينّ لها فإن بكاءها ضحك و إن بكاءك استغرام

العيافه: زجر الطير. و الحمام: الموت. استغرام: أى: داع للغرام و هو الهلاك.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۲

تمام إذا أسلم نفسه للتكلف، و يرى أنه إن مرّ على اسم موضع يحتاج إلى ذكره أو يتصل بقصه يذكرها فى شعره، من دون أن يشتقّ منه تجنيسا، أو يعمل فيه بديعا، فقد باء بإثم، و أخلّ بفرض حتم، من نحو قوله: [من البسيط]

سيف الإمام الذى سمّته هبّته

لمّا تخرّم أهل الكفر مخترما

إنّ الخليفه لمّا صال كنت له خليفه الموت فيمن جار أو ظلما

قرّت بقرّان عين الدين و اشتترت بالأشترين عيون الشّرك فاصطلما «۱»

و كقول بعض المتأخرين: [من الكامل]

البس جلابيب القنا عه إنّها أوقى رداء

ينجيك من داء الحرى ص معا و من أوقار داء «۲»

و كقول أبى الفتح البستى: [من السريع]

جفّوا فما فى طينهم للذى يعصره من بلّه بلّه «۳»

و قوله: [من الوافر]

أخ لى لفظه درّ و كلّ فعاله برّ

تلقّانى فحيّانى بوجه بشره بشر «۴»

لم يساعدهما حسن التوفيق كما ساعد فى نحو قوله:

[من الوافر]

و كلّ غنى يتيه به غنىّ فمرتجع بموت أو زوال

---

(۱) الأبيات لأبى تمام فى ديوانه: ۲۸۴، من قصيده قالها فى مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبى.

و الشتر: انقلاب الجفن من أعلى و أسفل قلما يكون خلقه، و قيل: هو أن ينشق الجفن حتى ينفصل الحتار. و قرّان (بالضم و تشديد الراء) و الأشتران: مواضع فى بلاد الخرميه بين نهاوند و همدان. و الجناس فى البيت الأخير يسمونه المطلق.

(۲) أوقار داء: الأوقار: جمع وقر بالفتح و هو الحمل الثقيل، أى: أثقال داء، و الجناس فى قافيه البيتين يسمونه المركب و تركيبه فى الطرفين (رشيد رضا).

(۳) فى المخطوطه و المطبوعتين: «من بله باللّه» و هو كلام بلا معنى، و الصواب ما فى ترجمته فى يتيمه الدهر للثعالبى، و البلّه الأولى: البلل. و البله الثانيه: الخير و الرزق و ما ينتفع به (محمود شاكر).

(۴) البيتان هما لأبى الفتح البستى فى ديوانه. و البشر (بالتحريک) جمع بشره: و هى ظاهر الجلد و سكن الشين للضروره.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۳

و هب جدّى طوى لى الأرض طرّا أ ليس الموت يزوى ما زوى لى «۱»

و نحوه: [من السريع]

منزلتى تحفظ من ذلّتى و باحتى تكرم ديباجتى «۲»

و اعلم أنّ النكته التى ذكرتها فى التجنيس، و جعلتها العلّه فى استيجابه الفضيله و هى حسن الإفاده، مع أنّ الصوره صوره التكرير و الإعاده و إن كانت لا تظهر الظهور التامّ الذى لا يمكن دفعه، إلا فى المستوفى المتفق الصوره منه كقوله: [من الكامل]

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيى لدى يحيى بن عبد اللّه «۳»

أو المرفوّ الجارى هذا المجرى كقوله: «أو دعانى أمت بما أو دعانى». فقد يتصوّر فى غير ذلك من أقسامه أيضا، فمما يظهر ذاک فيه ما كان نحو قول أبى تمام:

[من الطويل]

يمدّون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب «۴»

و قول البحترى: [من الطويل]

لئن صدفت عنّا فربّت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصّوادف «۵»

---

(۱) البيتان هما لأبى الفتح البستى فى ديوانه، و أخطأ من نسبهما لأبى الفضل الميكالىّ، و روايه الديوان: «طوى لى الأرض طيا» و هى أجود [محمود شاكر].

(۲) البيت لأبى الفتح البستى فى ديوانه، و فى مطبوعه محمود شاكر: «منزلتى يحفظها منزلى».

و الديباجه: صفحه الوجه، و الباجه: الكيس تكون فيه الدراهم، فهى التى تحفظ

على الوجه دياجه وجهه.

(۳) البيت لأبى تمام فى ديوانه، و المصباح: ۱۸۴، و الإيضاح: ۵۳۶، و التجنيس بين الفعل «يحيا» و الاسم «يحيى».

(۴) البيت فى ديوانه: ۴۶، من قصيده قالها يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى، و قبله:

جحافل لا يتركن ذا جبريه سليما و لا يحربن من لم يحارب

و البيت فى الإيضاح: ۳۳۵، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و الطراز: ۲/ ۳۶۲، و المصباح:

۱۸۷، و إعجاز القرآن: ۸۷، و كتاب الصناعتين: ۳۴۳، و نهايه الإعجاز: ۱۲۸، و الشاهد فى قوله:

عواص عواصم، و قواض قواضب.

القواضب: السيوف القاطعه.

(۵) البيت فى ديوانه. و الصوادف: الإبل التى تأتى على الحوض فتقف عند أعجازها تنتظر انصراف الشاربه لتدخل.

و ذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمه كالميم من «عواصم» و الباء من «قواضب»، أنها هى التى مضت، و قد أرادت أن تجيئك ثانيه، و تعود إليك مؤكّده، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها، و وعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنّك الأول، و زلت عن الذى سبق من التخيّل، و فى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائده بعد أن يخالطك اليأس منها، و حصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال.

فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا، و ذلك أن تختلف الكلمات من أوّلها كقول البحترى: [من

الخفيف]

بسيوف إيماضها أوجال للأعادى و وقعها آجال «۱»

و كذا قول المتأخر: [من الطويل]

و كم سبقت منه إلىّ عوارف ثنائى من تلك العوارف وارف

و كم غرر من برّه و لطائف لشكرى على تلك اللّطائف طائف

و ذلك أنّ زياده «عوارف» على «وارف» بحرف اختلاف من مبدأ الكلمه فى الجمله، فإنه لا يبعد كلّ البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيّل فيه، و إن كان لا يقوى تلك القوه، كأنك ترى أن اللفظه أعيدت عليك مبدلا من بعض حروفها غيره أو محذوفا منها. و يبقى فى تتبّع هذا الموضع كلام حقّه غير هذا الفصل و ذلك حيث يوضع.

فصل فى قسمه التجنيس و تنويعه

فصل فى قسمه التجنيس و تنويعه

فالذى يجب عليه الاعتماد فى هذا الفنّ، أن التوهّم على ضربين: ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقادا.

و ضرب لا ـ يبلغ ذلك المبلغ، و لكنه شى ء يجرى فى الخاطر، و أنت تعرف ذلك و تتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التامّ؛ و الشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب، فاعرفه.

و أما «الحشو» فإنما كره و ذمّ و أنكر و ردّ، لأنه خلا من الفائده، و لم يحل منه

---

(۱) البيت فى ديوانه.

بعائـده، و لو أفاد لم يكن حشوا، و لم يـدع لغوا. و قـد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعا من القبول أحسن موقع، و مدركا من الرّضى أجزل حظّ، و ذاک لإفادته إيّاک، على مجيئه مجى ء ما لا يعوّل فى الإفاده عليه، و لا طائل للسامع لديه، فيكون مثله مثل الحسنه تأتيک من حيث لم ترقبها، و النافعه أتتک و لم تحتسـبها، و ربّما رزق الطّفيلىّ ظرفا يحظى به حتى يحلّ محلّ الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم، و الأحباب الذين وثق بالأنس منهم و بهم.

و أما التطبيق و الاستعاره و سائر أقسام البديع، فلا شبهه أنّ الحسن و القبح لا يعترض الكلام بهما إلّا من جهه المعانى خاصّه، من غير أن يكون للألفاظ فى ذلک نصيب، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد و تصويب.

أما «الاسـتعاره»، فهى ضـرب من التشبيه، و نمط من التمثيل، و التشبيه قياس، و القياس يجرى فيما تعيه القلوب، و تدركه العقول، و تستفتى فيه الأفهام و الأذهان، لا الأسماع و الآذان.

و أمـا «التطبيق»، فأمره أبين، و كونه معنويا أجلى و أظهر، فهو مقابله الشـى ء بضـده، و التضادّ بين الألفاظ المركّبه محال، و ليس لأحكام المقابله ثمّ مجال.

فخذ إليک الآن بيت الفرزدق الذى يضرب به المثل فى تعسّف اللفظ: [من الطويل]

و ما مثله فى الناس إلا مملّكا أبو أمّه حىّ أبوه يقاربه «۱»

فانظر أ تتصوّر أن یکون ذلک للفظه من حیث إنّک أنکرت شیئا، من حروفه، أو صادفت وحشیّا غریبا، أو سوقیّا ضعیفا؟ أم لیس إلّا لأنه لم یرتّب الألفاظ فی الذکر، علی موجب ترتیب المعانی فی الفکر، فکدّ و کدّر، و منع السامع أن یفهم الغرض إلّا بأن یقدّم و یؤخّر، ثم أسرف فی إبطال النّظام، و إبعاد المرام، و صار کمن رمی بأجزاء تتألّف منها صوره، و لکن بعد أن یراجع فیها بابا من الهندسه، لفرط ما عادی بین أشکالها، و شدّه ما خالف بین أوضاعها.

و إذا وجدت ذلک أمرا بیّنا لا یعارضک فیه شکّ، و لا یملکک معه امتراء، فانظر

---

(۱) البیت للفرزدق، و موجود فی الإشارات و التنبیهات: ۱۱، الخصائص: ۱/ ۱۴۶، الإیضاح: ۷۶، الکتاب لسیبویه: ۱/ ۳۲، و الکامل للمبرد: ۱/ ۱۸، و الموشح للمرزبانی: ۹۴، و معاهد التنصیص للعباسی: ۱/ ۱۶، و نهایه الإیجاز: ۲۷۹.

إلی الأشعار التی أثنوا علیها من جهه الألفاظ، و وصفوها بالسلامه، و نسبوها إلی الدّماثه، و قالوا: کأنّها الماء جریانا، و الهواء لطفا، و الریاض حسنا، و کأنها النّسیم، و کأنها الرّحیق مزاجها التّسنیم، و کأنها الدیباج الخسروانیّ فی مرامی الأبصار، و وشی الیمن منشورا علی أذرع التّجار، کقوله: [من الطویل]

و لمّا قضینا من منی کلّ حاجه و مسّح بالأرکان من هو ماسح

و شدّت على دهم المهارى رحالنا و لم ينظر الغادى الّذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا و سالت بأعناق المطىّ الأباطح «۱»

ثم راجع فكرتك، و اشحذ بصيرتك، و أحسن التأمّل، و دع عنك التجوّز فى الرأى، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم و حمدهم و ثنائهم و مدحهم منصرفا، إلّا إلى استعاره وقعت موقعها، و أصابت غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، و استقرّ فى الفهم مع وقوع العباره فى الأذن، و إلا إلى سلامه الكلام من الحشو غير المفيد، و الفضل الذى هو كالزياده فى التحديد، و شى ء داخل المعانى المقصوده مداخله الطفيلىّ الذى يستثقل مكانه، و الأجنبىّ الذى يكره حضوره، و سلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلّب زياده بقيت فى نفس المتكلم، فلم يدلّ عليها بلفظها الخاصّ بها، و اعتمد دليل حال غير مفصح، أو نيابه مذكور ليس لتلك النّيابه بمستصلح.

و ذلك أن أوّل ما يتلقّاك من محاسن هذا الشعر أنه قال:

و لمّا قضينا من منى كلّ حاجه فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها و الخروج من فروضها و سننها، من طريق أمكنه أن يقصّر معه اللفظ، و هو طريقه العموم، ثم نبّه بقوله:

---

(۱) الأبيات فى الإيضاح: ۱۷۵- ۱۷۶، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. و دلائل الإعجاز: ۷۴، ۷۵، ۲۹۵. و

هی تروی لکثیر و لیزید بن الطثریه و لعقبه بن کعب بن زهیر بن أبی سلمی، و انظر تخریجها فی دیوان کثیر، و فی هامش المخطوطه فی لسان العرب: کل مختار طرف و الجمع أطراف، قال ابن سیده: عنی بأطراف الأحادیث مختاره، و ما یتعاطاه المحبون، و یتفاوضه ذوو الصبابه المتیمون، من التعریض و التلویح و الإیماء دون التصریح و ذلک أحلی و أخف و أغزل و أنسب من أن یکون مشافهه و کشفا و مصارحه و جهرا. و طرائف الحدیث: مختاره و هذا نص ما فی لسان العرب (طرف)، فی شرح هذا البیت، و کل ذلک اختطفه ابن سیده من کلام ابن جنی فی الخصائص: ۱/ ۲۲۰، ثم انظر أیضا شرح الأبیات فی الخصائص لابن جنی: ۱/ ۲۱۷، ۲۲۱، و هو فصل جید جدا. [محمود شاکر].

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۷

و مسّح بالأرکان من هو ماسح علی طواف الوداع الذی هو آخر الأمر، و دلیل المسیر الذی هو مقصوده من الشعر. ثم قال:

أخذنا بأطراف الأحادیث بیننا فوصل بذکر مسح الأرکان، ما ولیه من زمّ الرکاب و رکوب الرّکبان، ثم دلّ بلفظه «الأطراف» علی الصّفه التی یختصّ بها الرّفاق فی السّفر، من التصرف فی فنون القول و شجون الحدیث، أو ما هو عاده المتظرّفین، من الإشاره و التلویح و الرّمز و الإیماء، و أنبأ بذلک عن طیب النفوس، و قوّه النشاط، و فضل الاغتباط، کما توجبه ألفه الأصحاب و أنسه الأحباب، و کما یلیق بحال من وفّق لقضاء العباده

الشريفه و رجا حسن الإياب، و تنسّم روائح الأحبّه و الأوطان، و استماع التهانى و التّحايا من الخلّان و الإخوان.

ثم زان ذلک کلّه باستعاره لطیفه طبّق فیها مفصل التشبیه، و أفاد کثیرا من الفوائد بلطف الوحی و التنبیه، فصرّح أوّلا بما أومأ إلیه فی الأخذ بأطراف الأحادیث، من أنهم تنازعوا أحادیثهم علی ظهور الرّواحل، و فی حال التوجّه إلی المنازل، و أخبر بعد بسرعه السیر، و وطاءه الظّهر، إذ جعل سلاسه سیرها بهم کالماء تسیل به الأباطح، و کان فی ذلک ما یؤکّد ما قبله، لأن الظّهور إذا کانت وطیئه و کان سیرها السّیر السهل السریع، زاد ذلک فی نشاط الرّکبان، و مع ازدیاد النشاط یزداد الحدیث طیبا.

ثم قال: «بأعناق المطیّ»، و لم یقل «بالمطیّ»، لأن السرعه و البطء یظهران غالبا فی أعناقها، و یبین أمرهما من هوادیها و صدورها، و سائر أجزائها تستند إلیها فی الحرکه، و تتبعها فی الثّقل و الخفّه، و یعبّر عن المرح و النشاط، إذا کانا فی أنفسها، بأفاعیل لها خاصّه فی العنق و الرأس، و تدلّ علیهما بشمائل مخصوصه فی المقادیم.

فقل الآن: هل بقیت علیک حسنه تحیل فیها علی لفظه من ألفاظها حتی إنّ فضل تلک الحسنه یبقی لتلک اللفظه لو ذکرت علی الانفراد، و أزیلت عن موقعها من نظم الشاعر و نسجه و تألیفه و ترصیفه، و حتی تکون فی ذلک کالجوهره التی هی، و إن ازدادت حسنا بمصاحبه أخواتها، و اکتست بهاء بمضامّه أترابها، فإنها إذا جلیت للعین فرده، و ترکت فی الخیط فذّه، لم تعدم الفضیله الذاتیه، و البهجه التی فی نفسها مطویّه و الشّذره من الذهب تراها بصحبه الجواهر لها فی القلاده، و اکتنافها لها

فى عنق الغاده، و وصلها بريق جمرتها و التهاب جوهرها، بأنوار تلك الدّرر التى

تجاورها، و لألاء اللآلئ تناظرها تزداد جمالا فى العين، و لطف موقع من حقيقه الزين. ثم هى إن حرمت صحبه تلك العقائل، و فرّق الدهر الخئون بينها و بين هاتيك النفائس، لم تعر من بهجتها الأصيله، و لم تذهب عنها فضيله الذّهبيه. كلّا، ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ، و إن كان لا يبعد أن يتخيّله من لا ينعم النظر، و لا يتمّ التدبّر، بل حقّ هذا المثل أن يوضع فى نصره بعض المعانى «۱» الحكميه و التشبيهيه بعضا، و ازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا، و أن يصل الذّكر بين متدانيات فى ولاده العقول إياها، و متجاورات فى تنزيل الأفهام لها.

و اعلم أن هذه الفصول التى قدّمتها و إن كانت قضايا لا يكاد يخالف فيها من به طرق، فإنه قد يذكر الأمر المتّفق عليه، ليبنى عليه المختلف فيه. هذا و ربّ وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظر فيها، و ضروب من التلخيص و التهذيب لم يبحث عن أوائلها و ثوانيها، و طريقه فى العباره عن المغزى فى تلك الموافقه لم يمهّدها، و دقيقه فى الكشف عن الحجه على مخالف لو عرض من المتكلفين لم يجدها، حتى تراه يطلق فى عرض كلامه ما يبرز به وفاقا فى معرض خلاف، و يعطيك إنكارا و قد هم باعتراف، و ربّ صديق والاک قلبه، و عاداک فعله، فتركک

مكدودا لا تشتفى من دائك بعلاج، و تبقى منه فى سوء مزاج.

المقصد

المقصد

و اعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته، و الأساس الذى وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعانى كيف تختلف و تتفق، و من أين تجتمع و تفترق، و أفصل أجناسها و أنواعها، و أتتبع خاصّيها و مشاعها، و أبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل، و تمكّنها فى نصابه، و قرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه، و كونها كالحليف الجارى مجرى النّسب، أو الزّنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه، و لا يمتعضون له و لا يذبّون دونه.

و إنّ من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز الذى تختلف

---

(١) أى: فالحسن دائما راجع إلى المعانى اه. (رشيد). قلت: ليس معنى ذلك انعدام المزيه عن التحسين و التزيين بل عن اللفظ غير المطابق للمعنى فكأن التحسين اللفظى لما كان حسنه موقوفا على اتساقه مع المعنى، كان المرجع فى الحسن إلى المعانى، و لكن دون انتقاص لحق اللفظ و مزيته فتأمل. (عبد الحميد).

عليه الصور و تتعاقب عليه الصناعات، و جلّ المعوّل فى شرفه على ذاته، و إن كان التصوير قد يزيد فى قيمته و يرفع من قدره، و منه ما هو كالمصنوعات العجيبه من موادّ غير شريفه، فلها، ما دامت الصوره محفوظه عليها لم تنتقض، و أثر الصنعه باقيا معها لم يبطل قيمه تغلو، و منزله تعلو، و للرغبه إليها انصباب، و للنفوس بها إعجاب، حتى إذا خانت

الأيام فيها أصحابها، و ضامت الحادثات أربابها، و فجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصّنعه، و جمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلاـ المـادّه العاريه من التصوير، و الطّينه الخاليه من التشـكيل سـقطت قيمتها، و انحطت رتبتها، و عادت الرّغبات التى كانت فيها زهدا، و أوسـعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضا دونها، و صدّا، و صارت كمن أحظاه الجدّ «۱» بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه، و قـدّمه البخت من غير معنى يقضـى بتقـدّمه، ثم أفـاق فيه الـدهر عن رقـدته، و تنبّه لغلطته، فأعـاده إلى دقّه أصله، و قلّه فضله.

و هذا غرض لا ينال على وجهه، و طلبه لا تدرك كما ينبغي، إلا بعد مقدّمات تقدّم، و أصول تمهّد، و أشـياء هى كالأدوات فيه حقّها أن تجمع، و ضروب من القول هى كالمسافات دونه، يجب أن يسار فيها بالفكر و تقطع.

و أوّل ذلك و أولاه، و أحقّه بأن يسـتوفيه النظر و يتقصّاه، القول على «التشبيه» و «التمثيل» و «الاسـتعاره»، فإن هـذه أصول كبيره، كـأنّ جـلّ محـاسن الكلاـم إن لم نقـل: كلّها، متفرّعه عنها، و راجعه إليها، و كأنها أقطاب تـدور عليها المعانى فى متصـرّفاتها، و أقطار تحيط بها من جهاتها، و لا يقنع طالب التحقيق أن يقتصـر فيها على أمثله تذكر، و نظائر تعدّ، نحو أن يقال: «الاسـتعاره» مثل قولهم «الفكره فخّ العمل»، و قوله: [من الطويل] و عرّى أفراس الصّبا و رواحله «۲» و قوله: «السفر ميزان القوم»، و قول الأعرابى: «كانوا إذا اصطفّوا سفرت بينهم

---

(۱) فى تاج العروس: أحظيت فلانا على فلان: فضلته عليه (رشيد) و الجد: بالفتح- الحظ و البخت.

(۲) البيت لزهير بن أبى سلمى فى ديوانه، و

صدره:

صحا القلب عن سلمى و أقصر باطله و البيت فى مفتاح العلوم: ۴۸۶، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و أورده بدر الدين بن مالك فى المصباح: ۱۳۲، و عزاه إليه، و القزوينى فى الإيضاح: ۴۴۶، و الطيبى فى التبيان: ۱ / ۳۰۲، و شرحه على مشكاه المصابيح: ۱/ ۱۱۸، و العلوى فى الطراز: ۱/ ۲۳۳.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰

السهام، و إذا تصافحوا بالسيوف قفز الحمام»، و «التمثيل» كقوله:

فإنك كاللّيل الّذى هو مدركى «۱» و يؤتى بأمثله إذا حقّق النّظر فى الأشياء يجمعها الاسم الأعمّ، و ينفرد كل منها بخاصّه، من لم يقف «۲» عليها كان قصير الهمّه فى طلب الحقائق، ضعيف المنّه فى البحث عن الدقائق، قليل التّوق إلى معرفه اللطائف، يرضى بالجمل و الظواهر، و يرى أن لا يطيل سفر الخاطر، و لعمرى إنّ ذلك أروح للنفس، و أقلّ للشّغل، إلا أنّ من طلب الراحه ما يعقب تعبا، و من اختيار ما تقلّ معه الكلفه ما يفضى إلى أشدّ الكلفه، و ذلك أن الأمور التى تلتقى عند الجمله و تتباين لدى التفصيل، و تجتمع فى جذم ثم يذهب بها التشعّب و يقسمها قبيلا بعد قبيل، إذا لم تعرف حقيقه الحال فى تلاقيها حيث التقت، و افتراقها حيث افترقت، كان قياس من يحكم فيها، إذا توسّط الأمر قياس من أراد الحكم بين رجلين فى شرفهما و كرم أصلهما و ذهاب عرقهما فى الفضل، ليعلم أيّهما أقعد فى السؤدد، و أحقّ بالفخر، و أرسخ فى أرومه المجد، و هو لا

يعرف من نسبتهما أكثر من ولاده الأب الأعلى و الجد الأكبر، لجواز أنّ يكون واحد منهما قرشيا أو تميميا، فيكون فى العجز عن أن يبرم قضيه فى معناهما، و يبيّن فضلا أو نقصا فى منتماهما فى حكم من لا يعلم أكثر من أن كل واحد منهما آدميّ، ذكر، أو خلق مصوّر.

و اعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر، و ما يسبق إلى الفكر، أن يبدأ بجمله من القول فى «الحقيقه» و «المجاز» و يتبع ذلك القول فى «التشبيه» و «التمثيل»، ثم ينسّق ذكر «الاستعاره» عليهما، و يؤتى بها فى أثرهما. و ذلك أن «المجاز» أعمّ من «الاستعاره»، و الواجب فى قضايا المراتب أن يبدأ بالعامّ قبل الخاصّ، و «التشبيه» كالأصل فى «الاستعاره»، و هى شبيه بالفرع له، أو صوره مقتضبه من صوره إلّا أنّ

---

(۱) البيت للنابغه الذبيانى فى ديوانه و تمامه:

«و إن خلت أن المنتأى عنك واسع» و البيت أورده القزوينى فى الإيضاح: ۱۷۷، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و أورده محمد بن على الجرجانى فى الإشارات: ۱۶۶. و فى الكلام إشاره إلى تشبيه النعمان بالسيل فى اندفاعه و قوته بعد تشبيهه بالليل تشبيها يلاحظ من وجهه الرهبه و الخوف مع ضروره اللحاق و الإدراك، و البيت من إحدى الاعتذاريات التى نبغ فيها النابغه.

(۲) جمله «من لم يقف عليها» فى محل خفض صفه «خاصه». (رشيد).

هاهنا أمورا اقتضت أن تقع البدايه بالاستعاره، و بيان صدر منها، و التنبيه على طريق الانقسام فيها، حتى

إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها، و يقف على سعه مجالها، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين، فوفّيا حقوقها، و بيّن فروقهما، ثم ينصرف إلى استقصاء الكلام فى «الاستعاره».

تعريف الاستعاره

تعريف الاستعاره

اعلم أن «الاستعاره» فى الجمله أن يكون للّفظ أصل فى الوضع اللغوى معروف تدلّ الشواهد على أنه اختصّ به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل، و ينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعاريه.

تقسيم الاستعاره

تقسيم الاستعاره

ثم إنها تنقسم أوّلا قسمين:

أحدهما: أن يكون لنقله فائده.

و الثانى: أن لا يكون له فائده، و أنا أبدأ بذكر غير المفيد، فإنه قصير الباع، قليل الاتساع، ثم أتكلم على المفيد الذى هو المقصود.

و موضع هذا الذى لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسّع فى أوضاع اللغه، و التنوّق «۱» فى مراعاه دقائق فى الفروق فى المعانى المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيره بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع «الشفه» للإنسان و «المشفر» للبعير و «الجحفله» للفرس، و ما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت فى غير لغه العرب و ربما لم توجد، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها فى غير الجنس الذى وضع له، فقد استعاره منه و نقله عن أصله و جاز به موضعه، كقول العجّاج: [من الرجز] و فاحما، و مرسنا مسرّجا «۲» يعنى أنفا يبرق كالسّراج، و «المرسن» فى الأصل للحيوان، لأنه الموضع الذى يقع عليه «الرسن» و قال آخر: يصف إبلا: [من الرجز]

---

(۱) التنوق: تنوّق فى الأمر أى: تأنّق فيه، و بعضهم لا يقول: تنوّق و الاسم منه: النيقه، و فى المثل:

خرقاء ذات نيقه، يضرب للجاهل بالأمر، و هو مع جهله يدّعى المعرفه و يتأنق فى الإراده. ذكره أبو عبيد. ابن سيده: تنوق فى أموره: تجوّد و بالغ مثل تأنّق فيها.

(۲) فى ديوانه، و قوله هذا معطوف على ما

قبله، يذكر صاحبته ليلى. و الفاحم: شعرها الأسود.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۲

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها و بين الجحفل «۱»

و قال آخر: [من الرجز] و الحشو من حفّانها كالحنظل «۲» فأجرى «الحفّان» على صغار الإبل، و هو موضوع لصغار النعام، و قال الآخر:

[من المتقارب]

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ننزّع من شفتيه الصّفارا «۳»

فاستعمل «الشفه» فى الفرس، و هى موضوعه للإنسان. فهذا و نحوه لا يفيدك شيئا، لو لزمت الأصلىّ لم يحصل لك، فلا فرق من جهه المعنى بين قوله «من شفتيه» و قوله «من جحفلتيه» لو قاله، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب، بل الاستعاره هاهنا بأن تنقصك جزءا من الفائده أشبه، و ذلك أنّ الاسم فى هذا النحو، إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعاره، دلّ ذكره على العضو و ما هو منه، فإذا قلت «الشفه» دلّ على الإنسان، أعنى يدلّ على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره، فإذا توهمت جرى الاستعاره فى الاسم، زالت عنها هذه الدلاله بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك. فإذا قلت «الشفه» فى موضع قد جرى فيه ذكر الإنسان و الفرس، دخل على السامع بعض الشبهه، لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس، و لو

فرضنا أن تعدم هذه الاستعاره من أصلها و تحظر، لما كان لهذه الشبهه طريق على المخاطب، فاعرفه.

و أمّا «المفيد» فقد بان لك باستعارته فائده و معنى من المعانى و غرض من الأغراض، لو لا مكان تلك الاستعاره لم يحصل لك. و جمله تلك الفائده و ذلك الغرض «التشبيه»، إلا أنّ طرقه تختلف حتى تفوت النهايه، و مذاهبه تتشعب حتى لا غايه، و لا يمكن الانفصال «۴» منه إلا بفصول جمّه، و قسمه بعد قسمه. و أنا أرى أن

---

(۱) لأبى النجم العجلى فى ديوانه، و فى الطرائف الأدبيه للراجكوتى- رحمه اللّه- فى لاميته المشهوره. و المسحل: حمار الوحش، سمّى باسم سحيله و هو صوت نهاقه.

(۲) الرجز من لاميه أبى النجم فى صفه الإبل أيضا، و حشو الإبل و حاشيتها صغارها.

(۳) البيت من شعر أبى دؤاد الإيادى يصف فرسا فى ديوانه، و فى الأصمعيات رقم: ۶۶، و فى المعانى الكبير لابن قتيبه. و الصّيفار: بفتح الصاد، و هو يبيس البهمى، و هو من أحرار البقول ترعاه الإبل، و يخرج لها إذا يبست شوك، إذا وقع فى أنوف الإبل و الخيل و الغنم أنفت منه حتى ينزعه الناس من أفواهها و أنوفها.

(۴) و فى نسخه: الانتصاف، بدل الانفصال.

أقتصر الآن على إشاره تعرّف صورته على الجمله بقدر ما تراه، و قد قابل خلافه الذى هو «غير المفيد»، فيتمّ تصوّرك للغرض و المراد، فإن الأشياء تزداد بيانا بالأضداد.

و مثاله قولنا: «رأيت أسدا»، و أنت تعنى

رجلا شجاعا، و «بحرا»، تريد رجلا جوادا و «بدرا» و «شمسا»، تريد إنسانا مضى ء الوجه متهلّلا و «سللت سيفا على العدوّ» تريد رجلا ماضيا فى نصرتك، أو رأيا نافذا و ما شاكل ذلك، فقد استعرت اسم الأسد للرجل، و معلوم أنك أفدت بهذه الاستعاره ما لولاها لم يحصل لك، و هو المبالغه فى وصف المقصود بالشجاعه، و إيقاعك منه فى نفس السامع صوره الأسد فى بطشه و إقدامه و بأسه و شدّته، و سائر المعانى المركوزه فى طبيعته، مما يعود إلى الجرأه. و هكذا أفدت باستعاره «البحر» سعته فى الجود و فيض الكفّ، و «بالشمس و البدر» ما لهما من الجمال و البهاء و الحسن المالئ للعيون الباهر للنواظر.

و إذ قد عرفت المثال فى كون الاستعاره مفيده على الجمله، و تبيّن لك مخالفه هذا الضرب للضرب الأوّل الذى هو «غير المفيد»، فإنى أذكر بقيه قول مما يتعلق به، أعنى بغير المفيد، ثم أعطف على أقسام المفيد و أنواعه، و ما يتصل به و يدخل فى جملته من فنون القول بتوفيق اللّه عز و جل. و أسأله عز اسمه المعونه، و أبرأ إليه من الحول و القوه، و أرغب إليه فى أن يجعل كل ما نتصرّف فيه منصرفا إلى ما يتصل برضاه «۱»، و مصروفا عمّا يؤدّى إلى سخطه.

اعلم أنه إذا ثبت أن اختصاص «المرسن» بغير الآدمى لا يفيد أكثر مما يفيد الأنف فى الآدمى و هو فصل هذا العضو من غيره و لم تكن باستعارته للآدمىّ مفيدا ما لا تفيده بالأنف لم يتصوّر «۲» أن يكون استعاره من جهه المعنى. و إذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون فى غير لغه العرب.

بلى، إن وجد فى لغه الفرس مراعاه نحو هذه الفروق، ثم نقلوا الشى ء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر، كانوا قد سلكوا فى لغتهم مسلك العرب فى لغتها.

و ليس كذلك «المفيد»، فإن الكثير منه تراه فى عداد ما يشترك فيه أجيال الناس، و يجرى به العرف فى جميع اللغات. فقولك «رأيت أسدا»، تريد وصف رجل بالشجاعه و تشبيهه بالأسد على المبالغه، أمر يستوى فيه العربىّ و العجمىّ، و تجده فى كل جيل، و تسمعه من كل قبيل، كما أن قولنا «زيد كالأسد» على التصريح

---

(١) و فى نسخه: إلى ما يرضاه.

(٢) قوله: «لم يتصور» جواب «إذا ثبت» (رشيد).

بالتشبيه كذلك. فلا يمكن أن يدّعى أنا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعاره، فقد عمدنا إلى طريقه فى المعقولات لا يعرفها غير العرب، أو لم تتفق لمن سواهم، لأن ذلك بمنزله أن تقول: إن تركيب الكلام من الاسمين، أو من الفعل و الاسم، يختصّ بلغه العرب، و إنّ الحقائق التى تذكر فى أقسام الخبر و نحوه، مما لا نعقله إلّا من لغه العرب، و ذلك مما لا يخفى فساده.

فإذا ذكر المجاز، و أريد أن يعدّ هذا النحو من الاستعاره فيه، فالوجه أن يضاف إلى العقلاء جمله، و لا تستعمل لفظه توهم أنه من عرف هذه اللغه و طرقها الخاصه بها، كما تقول مثلا- فيما يختصّ باللغه العربيه من الأحكام، نحو الإعراب بالحركات، و الصّرف و منع الصّرف، و وضع المصدر مثلا مواضع اسم الفاعل نحو

«رجل صوم» و «ضيف»، و جمع الاسم على ضروب، نحو جمع السلامه و التكسير و جمع الجمع، و إعطاء الاسم الواحد فى التكسير عدّه أمثله نحو «فرخ» و «أفرخ» و «فراخ» و «فروخ»، و كالفرق بين المذكّر و المؤنّث فى الخطاب و جمله الضمائر و ما شاكل ذلك. و لإغفال هذا الموضع و التجوّز فى العباره عنه، دخل الغلط على من جعل الشى ء من هذا الباب سرقه و أخذا حتى نعى عليه. و بيّن أنه من المعانى العاميّه و الأمور المشتركه التى لا فضل فيها للعربىّ على العجمىّ، و لا اختصاص له بجيل دون جيل، على ما ترى القول فيه، إن شاء اللّه تعالى فى موضعه. و هو تعالى ولىّ المنّ بالتوفيق له بفضله و جوده.

و لو أن مترجما ترجم قوله: [من المتقارب] و إلّا النّعام و حفّانه «١» ففسّر «الحفّان» باللفظ المشترک الذى هو كالأولاد و الصغار، لأنه لا يجد فى اللغه التى بها يترجم لفظا خاصّا، لكان مصيبا و مؤدّيا للكلام كما هو. و لو أنه ترجم قولنا: «رأيت أسدا»، تريد رجلا شجاعا، فذكر ما معناه معنى قولک: «شجاعا شديدا»، و ترک أن يذكر الاسم الخاص فى تلک اللغه بالأسد على هذه الصوره، لم يكن مترجما للكلام، بل كان مستأنفا من عند نفسه كلاما.

و هذا باب من الاعتبار يحتاج إليه، فحقّه أن يحفظ، و عسى أن يجى ء له زياده بسط فيما يستقبل.

---

(١) هو لأسامه بن أبى الصلت و تمامه:

و طغيا من اللهق الناشط يعنى و نبذا من البقر البيض التى تخرج من أرض إلى أرض.

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ٣٥

فاعلم أنک قد تجد الشی ء يخلط بالضّرب الأول الذی هو استعاره من طريق اللفظ و يعدّ فی قبيله، و هو إذا حقّقت ناظر إلی الضرب الآخر الذی هو مستعار من جهه المعنی و جار فی سبيله. فمن ذلک قولهم: «إنه لغليظ الجحافل، و غليظ المشافر»، و ذلک أنه کلام يصدر عنهم فی مواضع الذّمّ، فصار بمنزله أن يقال: کأنّ شفته فی الغلظ مشفر البعير و جحفله الفرس، و علی ذلک قول الفرزدق: [من الطويل]

فلو کنت ضبّيّا عرفت قرابتی و لکنّ زنجيّا غليظ المشافر «١»

فهذا يتضمّن معنی قولک: «و لکن زنجيا کأنه جمل لا يعرفنی و لا يهتدی لشرفی». و هکذا ينبغی أن يکون القول فی قولهم: «أنشب فيه مخالبه»، لأنّ المعنی علی أن يجعل له فی التعلّق بالشی ء و الاستيلاء عليه، حاله کحاله الأسد مع فريسته، و البازی مع صيده.

و کذا قول الحطيئه: [من الطويل]

قروا جارک العيمان لمّا جفوته و قلّص عن برد الشّراب مشافره «٢»

حقّه، إذا حقّقت، أن يکون فی القبيل المعنویّ، و ذلک أنه و إن کان عنی نفسه بالجار، فقد يجوز أن يقصد إلی وصف نفسه بنوع من سوء الحال، و يعطيها صفه من صفات النقص، ليزيد بذلک فی التهکم بالزّبرقان، و يؤکّد ما قصده من رميه بإضاعه الضيف و اطراحه و إسلامه

للضرّ و البؤس، و ليس ببعيد من هذه الطريقه من ابتدأ شعرا فى ذمّ نفسه، و لم يرض فى وصف وجهه بالتقبيح و التشويه إلا بالتصريح الصريح دون الإشاره و التنبيه:

و أما قول مزرّد: [من الطويل]

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق و حافر «۳»

---

(۱) البيت للفرزدق. و هكذا يدور فى كتب البلاغه و النحو و صوابه: «غليظا مشافره». و هو أول تسعه أبيات فى هجاء أيوب بن عيسى الضبى لما حبسه.

(۲) البيت فى ديوانه. العيمان: المشتهى للبن، عام الرجل إلى اللبن يعام و يعيم عيما و عيمه: اشتهاه.

(۳) البيت ليس لمزرد بن ضرار، بل هو لجبيها الأشجعى (و اسمه يزيد بن خيثمه بن عبيد)، نشأ و توفى فى أيام بنى أميه، و إن كان الأصمعى نسب البيت لمزرد بن ضرار. و معنى يمريه: المرى:

مسح ضرع الناقه لتدرّ، مرى الناقه مريا. و الاسم: المريه، و أمرت هى درّ لبنها. الكسائى: المرىّ:

الناقه التى تدرّ على من يمسح ضروعها، و قيل: هى الناقه الكثيره اللبن، و قد أمرت، و جمعها مرايا. ابن الأنبارىّ: فى قولهم مارى فلان فلانا، معناه قد استخرج ما عنده من الكلام و الحجّه، مأخوذ من قولهم: مريت الناقه إذا مسحت ضرعها لتدرّ. [لسان العرب- ماده: مرا].

فقد قالوا إنه أراد أن يقول: «بساق و قدم»، فلما

لم تطـاوعه القـافيه وضع الحـافر موضع القـدم. و هو و إن كـان قـد قال بعـد هـذا البيت ما يـدلّ على قصـده أن يحسن القول فى الضيف، و يباعده من أن يكون قصد الزرايه عليه، أو يحول حول الهزء به و الاحتقار له، و ذلك قوله:

فقلت له أهلا و سهلا و مرحبا بهذا المحيّا من محىّ و زائر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضـى، و أن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر، قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره، و تقاذف نواحى الأرض به، و أن يبالغ فى ذكره بشدّه الحرص على تحريك بكره، و استفراغ مجهوده فى سيره، و يؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل:

و أشعث مسترخى العلابى طوّحت به الأرض من باد عريض و حاضر

فأبصر نارى و هى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النّواظر «۱»

و بعـده «فما رقـد الولـدان»، فإذا جعله «أشـعث مسترخى العلابىّ»، فقد قربت المسافه بينه و بين أن يجعل قدمه حافرا، ليعطيه، من الصلابه و شده الوقع على جنب البكر حظّا وافرا.

و هكذا قول الآخر: [من الطويل]

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها

إلى ملك أظلافه لم تشقّق «٢»

هو فى حد التشبيه و الاستعاره، لأن المعنى على أن الأظلاف لمن يربأ بالملك عن مشابهته، كأنه قال: «أجعل أمرها إلى ملك، لا إلى عبد جاف متشقق الأظلاف». و يدلّ على ذلك أن أبا بكر بن دريد قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعاره: «يقولون للرجل إذا عابوه: جاءنا حافيا متشقّق الأظلاف» ثم أنشد البيت. فإذا كان من شرط هذه الاستعاره أن يؤتى بها فى موضع العيب و النقص، فلا شك فى أنها معنويه.

---

(١) العلابى: جمع علباء: ممدود بالكسر، و هو عصب العنق، قال الأزهرى: الغليظ خاصه، قال ابن سيده: و هو العقب، و قال اللحيانى: العلباء مذكر لا غير له. و هما علباوان، يمينا و شمالا بينهما منبت العنق. [لسان العرب- ماده: علب].

(٢) البيت لعقفان بن قيس بن عاصم بن عبيد اليربوعى، جاهلى و يعنى بالملك: النعمان بن المنذر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٣٧

و كذا قوله: [من المنسرح]

و ذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا «١»

فأجرى «التولب» على ولد المرأه، و هو لولد الحمار فى الأصل، و ذلك لأنه يصف حال ضرّ و بؤس، و يذكر امرأه بائسه فقيره، و العاده فى مثل ذلك الصفه بأوصاف البهائم، ليكون أبلغ فى سوء الحال و شدّه الاختلال.

و مثله سواء قول الآخر: [من مجزوء الكامل]

و ذكرت أهلى بالعرا ء و حاجه الشعث التّوالب «٢»

كـأنه قال: «الشـعث التى لو رأيتها حسـبتها توالب»، لما بها من الغبره و بـذاذه الهيئه «٣». و «الجـدع» فى البيت بالدال غير معجمه. حكى شيخنا رحمه اللّه قال:

أنشد المفضّل «تصمت بالماء تولبا جذعا» بالذال المعجمه، فأنكره الأصمعى و قال:

إنما هو «تصـمت بالماء تولبا جدعا» و هو السيّئ الغذاء. قال: فجعل المفضّل يصـيح، فقال الأصـمعى: لو نفخت فى الشّبّور «۴» ما نفعك، تكلّم بكلام الحكل «۵» و أصب!.

---

(١) البيت لأوس بن حجر فى مرثيه فضاله بن كلده الأسدى و هو معطوف على الذى قبله:

ليبكك الشرب و المدامه و الفتيان طرّا و طامع طمعا

و الهدم بالكسر: الثوب الخلق المرقّع، و قيل: هو الكساء الذى ضوعفت رقاعه، و خصّ ابن الأعرابى به الكساء البالى من الصوف دون الثوب، و الجمع: أهـدام و هـدم (الأخيره عن أبى حنيفه و هى نادره). [لسان العرب- ماده: هدم]. و النواشـر: عصب الذراع من داخـل و خـارج أو عروق و عصب باطن الـذراع أو العصب فى ظاهرها، واحـدتها ناشـره. [القاموس المحيط]. الجـدع: جـدع الغلام يجدع جدعا، فهو جدع: ساء غذاؤه. [لسان العرب- ماده: جدع].

(٢) البيت للأعلم الهـذلى فى شـرح أشـعار الهـذليين. و العراء: ما اتسع من فضاء الأرض، و قال ابن سـيده: هو المكان الفضاء لا يستتر فيه شى ء، و قيل: هى الأرض الواسعه، و فى التنزيل: «فنبذناه

بـالعراء و هو مليم» و جمعه أعراء، و قـال أبو عبيـده: إنمـا قيـل له: عراء لأنه لا شـجر فيه و لا شـى ء يغطيه، و قيل: إن العراء وجه الأرض الخالى. [لسان العرب- ماده: عرا].

(۳) بذاذه الهيئه: رثاثتها، و فى الحديث: «البذاذه من الإيمان» صحيح الجامع للألبانى.

(۴) الشّبّور: شى ء ينفخ فيه، و ليس بعربى صحيح، و الشّبّور على وزن تنور: البوق، و يقال: هو معرب.

و فى حـديث الأذان ذكر له الشـبور، قـال ابن الأثير: جاء فى تفسـيره أنه البوق، و فسـروه أيضـا بـالقبع، و اللقطه عبرانيه. [لسان العرب- ماده: شبر].

(۵) الحكـل: الحكله كـالعجمه لا يبين صاحبهـا الكلام. و الحكله و الحكيله: اللثغه، ابن الأعرابى فى لسانه حكله أى: عجمه لا يبين الكلام، و الحكل: العجم من الطيور البهائم. قال ابن سيده:

و الحكل من الحيوان ما لا يسمع له صوت كالذّرّ و النمل، و كلام الحكل: كلام لا يفهم. [لسان العرب- ماده: حكل].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۸

و أما قول الأعرابى: «كيف الطلا و أمّه؟» فمن جنس «المفيـد» أيضا، لأنه أشار إلى شـى ء من تشبيه المولود بولد الظبى، أ لا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضى، و بعد أن سكن عنه فوره الجوع الذى دعاه إلى أن قال: «ما أصنع به؟

آكله أم أشربه» حتى قالت المرأه «غرثان فاربكوا له» «۱».

و أمّا قوله: [من البسيط]

إذا أشرف الدّيك يدعو بعض أسرته

عند الصّباح، و هم قوم معازيل «۲»

فاستعاره «القوم» هاهنا، و إن كانت فى الظاهر لا تفيد أكثر من معنى الجمع، فإنها مفيده من حيث أراد أن يعطيها شبها مما يعقل. على أن هذا إذا حقّقنا فى غير ما نحن فيه و بصدده فى هذا الفصل، و ذلک أنه لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين حتى قدّم تنزيلها منزلتهم فقال: «هم»، فأتى بضمير من يعقل. و إذا كان الأمر كذلک، كان «القوم» جاريا مجرى الحقيقه. و نظيره أنک تقول: «أين الأسود الضّاريه»؟ و أنت تعنى قوما من الشجعان، فيلزم فى الصفه حكم ما لا يعقل، فتقول:

«الضاريه»، و لا تقول «الضارون» البته، لأنک وضعت كلامک على أنک كأنک تحدّث عن الأسود فى الحقيقه.

و على هذه الطريقه ينبغى أن يجرى بيت المتنبى: [من الكامل]

زحل، على أنّ الكواكب قومه لو كان منک لكان أكرم معشرا «۳»

---

(۱) أصل المثل. أن ابن لسان الحمره دخل على أهله و هو جائع عطشان فبشروه بمولود و أتوه به، فقال ما أدرى أ آكله أم أشربه؟ فقالت امرأته (غرثان فاربكوا له) من الربيكه و هو شى ء من حساء و أقط و فى روايه (فابكلوا له) من البكيله و هى أقط يلت بسمن فلما طعم و شرب قال: (كيف الطلا و أمه) فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه و تفرغ لغيره و ضبط شيخنا «الحمره» (بضم الحاء و تشديد الميم المفتوحه) قال و اسمه عبد اللّه بن حسنين أو ورقاء بن الأشعر. (رشيد).

(۲)

البيت لعبده بن الطبيب حين كان فى جيش النعمان بن مقرّن و هو يحارب الفرس. و قبله:

و قد غدوت و قرن الشمس منفتق و دونه من سواد الليل تجليل

المعازيل: الـذين لا سـلاح معهم. جمع معزال. [لسان العرب- ماده: عزل]. و المعزال: الـذى ينزل ناحيه من السّـفر ينزل وحده، و هو ذم عند العرب بهذا المعنى، و المعزال: الراعى المنفرد، قال الأعشى:

تخرج الشيخ عن بنيه و تلوى بلبون المعزابه المعزال

و هذا المعنى ليس بذم عندهم لأن هذا من فعل الشجعان و ذوى البأس و النجده من الرجال.

(۳) البيت فى ديوانه. و المعنى: إن زحل شيخ النجوم و لو كان من عشيرتک لكان أكرم معشرا منه الآن، و النجوم قومه، و ذلک أن قومک أشرف من النجوم فلو كان من قومک كان أشرف مما هو فيه مع أن معشره النجوم. التبيان: ۱/ ۳۸۳.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۹

و إن لم يكن معنـا اسم آخر سـابق حكم مـا يعقـل للكواكب، كالضـمير فى قوله «و هم قوم»، و ذلک أنّ ما يفصـح به الحال من قصـده أن يـدّعى للكواكب هذه المنزله يجرى مجرى التصـريح بذلک. أ لا ترى أنه لا يتّضح وجه المدح فيه إلا بدعوى أحوال الآدميين

و معارفهم للكواكب، لأنه يفاضل بينه و بينها فى الأوصاف العقليه بدلاله قوله: «لكان أكرم معشرا»، و لن يتحصّل ثبوت وصف شريف معقول لها و لا الكرم على الوجه الذى يتعارف فى الناس حتى تجعل كأنها تعقل و تميز، و لو كانت المفاضله فى النور و البهاء و علوّ المحلّ و ما شاكل ذلك، لكان لا يلزم حينئذ ما ذكرت. و حقّ القول فى هذا القبيل أعنى ما يدّعى فيه لما لا يعقل العقل فصل يفرد به، و لعله يجى ء فى موضعه بمشيئه اللّه و توفيقه.

القول فى الاستعاره المفيده

القول فى الاستعاره المفيده

اعلم أنّ الاستعاره فى الحقيقه هى هذا الضرب دون الأول، و هى أمدّ ميدانا، و أشدّ افتنانا، و أكثر جريانا، و أعجب حسنا و إحسانا، و أوسع سعه و أبعد غورا، و أذهب نجدا فى الصّناعه و غورا، من أن تجمع شعبها و شعوبها، و تحصر فنونها و ضروبها، نعم، و أسحر سحرا، و أملأ بكل ما يملأ صدرا، و يمتع عقلا، و يؤنس نفسا، و يوفر أنسا، و أهدى إلى أن تهدى إليك أبدا عذارى قد تخيّر لها الجمال، و عنى بها الكمال، و أن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدّت فى الشرف و الفضيله باعا لا يقصر، و أبدت من الأوصاف الجليله محاسن لا تنكر، و ردّت تلك بصفره الخجل، و وكلتها إلى نسبتها من الحجر و أن تثير من معدنها تبرأ لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تعطّل الحلىّ، و تريك الحلى الحقيقى و أن تأتيك على الجمله بعقائل «۱» يأنس إليها الدين و الدنيا، و شرائف «۲» لها من الشرف الرّتبه العليا، و هى أجلّ من أن تأتى

الصفه على حقيقه حالها، و تستوفى جمله جمالها.

و من الفضيله الجامعه فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صوره مستجدّه تزيد قدره نبلا، و توجب له بعد الفضل فضلا، و إنّك لتجد اللفظه الواحده قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكرّره فى مواضع، و لها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، و شرف منفرد، و فضيله مرموقه، و خلابه موموقه.

---

(۱) هو جمع عقيله كسفينه، و هى من النساء الكريمه المخدره، و من القوم سيدهم، و من كل شى ء أكرمه. و عقيله البحر: درته.

(۲) و فى نسخه: و فضائل بدل و شرائف.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۰

و من خصائصها التى تذكر بها، و هى عنوان مناقبها، أنّها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفه الواحده عدّه من الدّرر، و تجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثّمر. و إذا تأمّلت أقسام الصّنعه التى بها يكون الكلام فى حدّ البلاغه، و معها يستحق وصف البراعه، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها، و تقصر عن أن تنازعها مداها و صادفتها نجوما هى بدرها، و روضا هى زهرها، و عرائس ما لم تعرها حليها فهى عواطل، و كواعب ما لم تحسّنها فليس لها فى الحسن حظّ كامل.

فإنك لترى بها الجماد حيّا ناطقا، و الأعجم فصيحا، و الأجسام الخرس مبينه، و المعانى الخفيّه باديه جليّه، و إذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها و لا ناصر لها أعزّ منها، و لا رونق لها ما لم تزنها، و تجد

التشبيهات على الجمله غير معجبه ما لم تكنها. إن شئت أرتك المعانى اللطيفه التى هى من خبايا العقل، كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون، و إن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانيه حتى تعود روحانيه لا تنالها إلّا الظنون.

و هذه إشارات و تلويحات فى بدائعها، و إنما ينجلى الغرض منها و يبين، إذا تكلّم على هذه التفاصيل، و أفرد كلّ فن بالتمثيل، و سترى ذلك إن شاء اللّه، و إليه الرغبه فى أن توفّق للبلوغ إليه و التوفّر عليه.

و إذ قد عرّفتك أن لها هذا المجال الفسيح، و الشّأو البعيد، فإنى أضع لك فصلا، بعد فصل، و أجتهد بقدر الطاقه فى الكشف و البحث.

فصل

فصل

و هذا فصل قسّمتها فيه قسمه عاميه. و معنى «العاميه»، أنك لا تجد فى هذه الاستعاره قسمه إلا أخصّ من هذه القسمه، و أنها قسيمه الاستعاره من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس و أصناف اللغات، و ما تجد و تسمع أبدا نظيره من عوامّ الناس كما تسمع من خواصهم.

اعلم أن كل لفظه دخلتها الاستعاره المفيده، فإنها لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا، فإذا كانت اسما فإنه يقع مستعارا على قسمين:

أحدهما: أن تنقله عن مسمّاه الأصلى إلى شى ء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه، و تجعله متناولا له تناول الصفه مثلا للموصوف، و ذلك قولك «رأيت أسدا» و أنت تعنى «رجلا شجاعا» و «عنّت لنا ظبيه» و أنت تعنى امرأه و «أبديت نورا» و أنت

تعنى هدى و بيانا و حجّه و

ما شاكل ذلك، فالاسم فى هذا كله كما تراه متناول «شيئا معلوما» يمكن أن ينصّ عليه فيقال: إنه عنى بالاسم و كنى به عنه و نقل عن مسمّاه الأصلى فجعل اسما له على سبيل الإعاره و المبالغه فى التشبيه.

و الثانى: أن يؤخذ الاسم على حقيقته، و يوضع موضعا لا يبين فيه شى ء يشار إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم و الذى استعير له، و جعل خليفه لاسمه الأصلى و نائبا منابه، و مثاله قول لبيد: [من الكامل]

و غداه ريح قد كشفت و قرّه إذ أصبحت بيد الشّمال زمامها «١»

و ذلك أنه جعل للشمال يدا، و معلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء «الأسد» و «السيف» على الرجل فى قولك «انبرى لى أسد يزئر» و «سللت سيفا على العدوّ لا يفلّ»، و «الظباء» على «النساء» فى قوله:

الظباء الغيد و «النور» على الهدى و البيان فى قولك «أبديت نورا ساطعا» و كإجراء «اليد نفسها على من يعزّ مكانه كقولك «أ تناز عنى فى يد بها أبطش، و عين بها أبصر» تريد إنسانا له حكم اليد و فعلها، و غناؤها و دفعها، و خاصّه «العين» و فائدتها، و عزّه موقعها، و لطف موضعها لأنّ معك فى هذا كله ذاتا ينصّ عليها، ترى مكانها فى النفس، إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ.

و ليس لك شى ء من ذلك فى بيت لبيد، بل ليس أكثر من أن تخيّل إلى نفسك أن «الشّمال» فى تصريف «الغداه» على حكم طبيعتها، كالمدبّر المصرّف لما زمامه بيده،

و مقـادته فی کفّه، و ذلـک کلّه لاـ یتعـدّی التخیّل و الوهم و التقـدیر فی النفس، من غیر أن یکون هناک شـی ء یحسّ، و ذات تتحصّل. و لا سبیل لک أن تقول: کنی بالیـد عن کذا، و أراد بالید هذا الشـی ء، أو جعل الشـی ء الفلانیّ «یدا» کما تقول: «کنی بالأسـد عن زیـد، و عنی به زیـدا، و جعـل زیـدا أسـدا»، و إنما غایتک التی لا مطّلع وراءها أن تقول: «أراد أن یثبت للشـمال فی الغداه تصرّفا کتصرّف الإنسان فی الشی ء یقلّبه، فاستعار لها «الید» حتی یبالغ فی تحقیق الشبه، و حکم «الزمام» فی

---

(۱) البیت من معلقته الشـهیره. و قوله: و غـداه ریـح إلـخ: هـذه روایه الخطیب. و روی إذا أصـبحت موضع قـد أصـبحت. و روی محمد بن خطاب: و غداه ریح قد کشفت و قره إذ أصبحت إلخ. شرح المعلقات العشر للشنقیطی ص ۹۳.

اسـتعارته للغداه حکم «الید» فی اسـتعارتها للشـمال، إذ لیس هناک مشار إلیه یکون الزمام کنایه عنه، و لکنه وفّی المبالغه شرطها من الطرفین، فجعل علی «الغداه» «زماما»، لیکون أتمّ فی إثباتها مصرّفه، کما جعل للشمال «یدا»، لیکون أبلغ فی تصییرها مصرّفه.

و یفصل بین القسـمین أنک إذا رجعت فی القسم الأول إلی التشبیه الذی هو المغزی من کل استعاره تفید، وجدته یأتیک عفوا، کقولک فی «رأیت أسـدا» «رأیت رجلا کالأسـد» أو «رأیت مثل الأسـد» أو «شبیها بالأسـد» و إن رمته فی القسم الثانی وجدته لا یؤاتیک تلک المؤاتاه، إذ لا وجه

لأن تقول: «إذا أصبح شى ء مثل اليد للشمال» أو «حصل شبيه باليد للشّمال»، و إنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترا، و تعمل تأمّلا و فكرا، و بعد أن تغيّر الطريقه، و تخرج على الحد الأول «١»، كقولك: «إذ أصبحت الشّمال و لها فى قوه تأثيرها فى الغداه شبه المالك تصريف الشى ء بيده، و إجراءه على موافقته، و جذبه نحو الجهه التى تقتضيها طبيعته، و تنحوها إرادته»، فأنت كما ترى تجد الشّبه المنتزع هاهنا إذا رجعت إلى الحقيقه، و وضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلقاك من المستعار نفسه، بل مما يضاف إليه. أ لا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشّمال كاليد و مشبهه باليد، كما جعلت الرجل كالأسد و مشبّها بالأسد، و لكنك أردت أن تجعل «الشمال» كذى اليد من الأحياء، فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له و هو نحو «الشمال» ذا شى ء، و غرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشى ء فى فعل أو غيره، لا نفس ذلك الشى ء، فاعرفه.

و هكذا قول زهير: [من الطويل] و عرّى أفراس الصّبا و رواحله «٢» لا تستطيع أن تثبت ذواتا أو شبه الذوات تتناولها الأفراس و الرّواحل فى البيت،

---

(١) و فى نسخه: الحذو الأول.

(٢) البيت و صدره:

«صحا القلب عن سلمى و أقصر باطله» صحا: انكشف عنه ما كان من سكر الباطل. و أقصر: كفّ. و تقول: قد أقصرت عن ذلك، أى:

كففت. و عرّى أفراس، مثل ضربه أى: تركت الصبا فلا أركبه و لا آتيه. و صبا: مال إلى الشى ء و كل مائل صاب. و هذا البيت مطلع قصيده لزهير بن أبى سلمى يمدح فيها حصن بن

حذيفه بن بدر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۳

على حدّ تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعه، و البدر الموصوف بالحسن أو البهاء، و السحاب المذكور بالسخاء و السماحه، و النور العلم، و الهدى و البيان، و ليس إلّا أنك أردت أن الصّبا قد ترک و أهمل، و فقد نزاع النفس إليه و بطل، فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطّل آلاته، و تطرح أداته كالجهه من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجاره يقضى منها الوطر، فتحطّ عن الخيل التى كانت تركب إليها لبودها، و تلقى عن الإبل التى كانت تحمّل لها قتودها «۱».

و قد يجى ء و إن كان كالتكلّف أن تقول إن «الأفراس» عباره عن دواعى النفوس و شهواتها، و قواها فى لذّاتها، أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا، و تنصر جانب الهوى، و تلهب أريحيّه النشاط، و تحرّك مرح الشّباب، كما قال: [من الوافر] و نعم مطيّه الجهل الشباب و قال: [من الكامل] كان الشباب مطيّه الجهل و ليس من حقّك أن تتكلّف هذا فى كل موضع، فإنه ربّما خرج بک إلى ما يضرّ المعنى و ينبو عنه طبع الشعر، و قد يتعاطاه من يخالطه شى ء من طباع التعمّق، فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح.

و لو أنک تطلبت «للمطيه» فى بيت الفرزدق: [من الطويل]

لعمرى لئن قيّدت نفسى لطالما سعيت و أوضعت المطيّه فى الجهل «۲»

مثل هذا

التأوّل، تباعدت عن الصواب، و عدلت عما يسبق إلى القلب، و ذلك أن المعنى على قولك: «لطالما سعيت فى الباطل، و قديما كنت فى الإسراع إلى الجهل بصوره من يوضع المطيّه فى سفره».

---

(١) جمع قتد بالتحريك و بالكسر: خشب الرحل.

(٢) البيت من قصيده للفرزدق قالها فى جرير عند ما بلغ نساء بنى مجاشع فحش جرير بهن فأتين الفرزدق مقيدا فقلن: قبح اللّه قيدك، فقد هتك جرير عورات نسائك فلحيت شاعر قوم! فأحفظنه ففض قيده، و قد قيد نفسه قبل ذلك و حلف أن لا يطلق قيده حتى يجمع القرآن فقال:

ألا استهزأت منى هنيده أن رأت أسيرا يدانى خطوه حلق الحجل

و لو علمت أن الوثائق أشدّه إلى النار قالت لى مقاله ذى عقل

لعمرى لئن قيدت ....

ديوان الفرزدق: ص ١٥٢.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۴

و سرّ هذا الموضع يتجلّى تمام التجلّى إذا تكلّم على الفرق بين التشبيه و التمثيل، و سيأتيك ذلك إن شاء اللّه تعالى.

و كذا قولهم: «هو مرخى العنان، و ملقى الزّمام»، لا

وجه لأن تروم شيئا تجرى العنان عليه و يتناوله، بل المعنى على انتزاع الشبه من الفرس فى حال ما يرخى عنانه، و أن ينظر إلى الصوره التى توجد من حاله تلك فى العقل، ثم يجاء بها فيعارها الرجل، و يتصوّر بمقتضاها فى النفس و يتمثّل، و لو قلت: إن «العنان» هاهنا بمعنى النهى، و أن المراد أن النهى قد أبعد عنه و نحو ذلك، دخلت فى ظاهر من التكلّف، و أتعبت نفسك فى غير جدوى، و عادت زيادتك نقصانا، و طلبك الإحسان إساءه.

و اعلم أن إغفال هذا الأصل الذى عرّفتك من أن الاستعاره تكون على هذا الوجه الثانى كما تكون على الأوّل مما يعدو إلى مثل هذا التعمّق، فإنه نفسه قد يصير سببا إلى أن يقع قوم فى التشبيه، و ذلك أنهم إذا وضعوا فى أنفسهم أن كل اسم يستعار فلا بد من أن يكون هناك شى ء يمكن الإشاره إليه يتناوله فى حال المجاز، كما يتناول مسمّاه فى حال الحقيقه، ثم نظروا فى نحو قوله تعالى: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي [طه: ٣٩] و وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا [هود: ٣٧]، فلما لم يجدوا للفظه «العين» ما يتناوله على حدّ تناول «النّور» مثلا للهدى و البيان ارتبكوا فى الشكّ و حاموا حول الظاهر، و حملوا أنفسهم على لزومه، حتى يفضى بهم إلى الضلال البعيد، و ارتكاب ما يقدح فى التوحيد، و نعوذ باللّه من الخذلان.

و طريقه أخرى، فى بيان الفرق بين القسمين، و هو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو «رأيت أسدا» تريد رجلا شجاعا، وصف موجود فى الشى ء الذى له استعرت، و اليد ليست توصف لشبه، و لكنه صفته تكسبها اليد صاحبها، و تحصل

له بهـا، و هى التصـرف على وجه مخصـوص و كـذا قولـك «أفراس الصّبا»، ليس الشـبه الـذى له اسـتعرت الأفـراس موجودا فى الأفراس، بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس، حيث يراد الحقيقه نحو قولنا: «عرّى أفراس الغزو»، و «أجمّت خيل الجهاد»، و ذلـك ما يوجبه الفعل الواقع على الأفراس، نحو أنّ وقوع الفعل الـذى هو «عرّى» على أفراس الغزو، يوجب الإمساك عن الغزو و الترك له و على هذا القياس.

و إذ قد تقرر أمر الاسم فى كون اسـتعارته على هذين القسـمين، فمن حقّنا أن ننظر فى «الفعل» هل يحتمل هذا الانقسام. و الذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصوّر فيه أن يتناول ذات شى ء، كما يتصور فى الاسم، و لكن شأن الفعل أن يثبت

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۵

المعنى الذى اشـتقّ منه للشـى ء فى الزمان الذى تدل صـيغته عليه. فإذا قلت: «ضـرب زيد»، أثبتّ الضرب لزيد فى زمان ماض، و إذا كان كذلك، فإذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل، فإنه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه.

بيـان ذلـك أن تقول: «نطقت الحـال بكـذا»، و «أخبرتنى أسـارير وجهه بمـا فى ضـميره»، و «كلّمتنى عيناه بما يحوى قلبه»، فتجد الحـال وصـفا هو شبيه بـالنطق من الإنسـان، و ذلك أن «الحال» تـدلّ على الأمر و يكون فيها أمارات يعرف بها الشـى ء، كما أن النطق كذلك. و كذلك «العين» فيها وصف شبيه بالكلام، و هو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها و فى نظرها و

خواصّ أوصاف يحدس بها على ما فى القلوب من الإنكار و القبول.

أ لا ترى إلى حديث الجمحى؟ حكى عن بعضهم أنه قال: أتيت الجمحى أستشيره فى امرأه أردت التزوج بها فقال: أ قصيره هى أم غير قصيره؟ قال: فلم أفهم ذلك. فقال لى: كأنك لم تفهم ما قلت، إنّى لأعرف فى عين الرّجل إذا عرف، و أعرف فيها إذا أنكر، و أعرف إذا لم يعرف و لم ينكر، أمّا إذا عرف، فإنها تخاوص، و إذا لم يعرف و لم ينكر فإنها تسجو، و إذا أنكر فإنها تجحظ «۱». أردت بقولى «قصيره»، أى هى قصيره النسب تعرف بأبيها أو جدّها.

قال الشيخ أبو الحسن: و هذا من قول النسّابه البكرى لرؤبه بن العجاج لما أتاه، فقال لرؤبه: قصرت و عرفت. قال: و على هذا المعنى قول رؤبه: [من الرجز]

قد رفع العجّاج ذكرى، فادعنى باسم إذا الأنساب طالت يكفنى «۲»

و أمر «العين» أظهر من أن تحتاج فيه إلى دليل، و لكن إذا جرى الشى ء فى الكلام هو دعوى فى الجمله، كان الآنس للقارئ أن يقترن به ما هو شاهد فيه، فلم ير شى ء أحسن من إيصال دعوى ببرهان.

---

(۱) تخاوص: أصله تتخاوص مضارع من تخاوص إذا غض من بصره قليلا- مع تحديق كمن يقوم سهما، و تسجو: تسكن، تجحظ: من جحظت العين إذا عظمت مقلتها و نتأت و جاء «جحظ إليه» بالتشديد: أى حدد النظر.

(۲) البيت لرؤبه بن العجاج. و هو الراجز المعروف، و قد اختلف فى معنى اسمه و اتهم بأنه لا يعرف

معنى اسمه و ذلك أمر بعيد الاحتمال.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۶

و إذا كان أمر الفعل فى الاستعاره على هذه الجمله، رجع بنا التحقيق إلى أنّ وصف الفعل بأنه مستعار، حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتقّ منه، فإذا قلنا فى قولهم: «نطقت الحال»، أن «نطق» مستعار، فالحكم بمعنى أن «النّطق» مستعار، و إذا كانت الاستعاره تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على ما مضى.

و مما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعاره مرّه من جهه فاعله الذى رفع به، و مثاله ما مضى و يكون أخرى استعاره من جهه مفعوله، و ذلك نحو قول ابن المعتزّ:

[من المديد]

جمع الحقّ لنا فى إمام قتل البخل و أحيى السّماحا «۱»

«فقتل» و «أحيى» إنّما صارا مستعارين بأن عدّيا إلى البخل و السماح، و لو قال: «قتل الأعداء و أحيى»، لم يكن «قتل» استعاره بوجه، و لم يكن «أحيى» استعاره على هذا الوجه و كذا قوله: [من الطويل] و أقرى الهموم الطارقات حزامه «۲» هو استعاره من جهه المفعولين جميعا. فأما من جهه الفاعل فهو محتمل للحقيقه، و ذلك أن تقول: «أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط «۳»» و مثله قوله:

[من الطويل] قرى الهمّ إذ ضاف الزّماع «۴» و قد يكون الذى يعطيه حكم الاستعاره أحد المفعولين دون الآخر كقوله:

[من البسيط]

---

(۱) البيت من ديوانه: ص ۱۴۱. و ابن المعتز

هو عبد اللّه بن المعتز، الخليفه العباسی، ولد فی بغداد و نشأ فيها بعيدا عن البلاط و دسائسه، مات سنه ۲۹۶ ه.

(۲) الشطر من البيت للذهلول بن كعب العنبری، و تمام هذا البيت كما فی شرح الحماسه: ۲/ ۱۱۶.

إذا كثرت لطارقات الوساوس أقری: من قری للضيف قری و قراء: أضافه، و استقرانی و اقترانی و أقرانی: طلب منی القری. و إنه لقریّ للضيف و الأنثی قريّه. لسان العرب- ماده: قرا.

(۳) العبيط: الطری.

(۴) تمام البيت:

قری الهم إذ ضاف الزماع فأصبحت منازله تعتس فيها الثعالب

شرح الحماسه ۲/ ۱۰۰ للقتال الكلابی.

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۴۷

نقريهم لهذميّات نقدّ بها ما كان خاط عليهم كلّ زرّاد «۱»

فصل

فصل

اعلم أن الاستعاره كما علمت تعتمد التشبيه أبدا، و قد قلت: إنّ طرقه تختلف، و وعدتک الكلام فيه، و هذا الفصل يعطی بعض القول فی ذلک بإذن اللّه تعالی، و أنا أريد أن أدرّجها من الضّعف إلی القوه، و أبدأ فی تنزيلها بالأدنی، ثم بما يزيد فی الارتفاع، لأن التقسيم إذا أريغ فی خارج من الأصل، فالواجب أن يبدأ بما كان أقلّ خروجا منه، و أدنی مدی فی مفارقته.

و إذا كان الأمر كذلک، فالذی يستحقّ بحكم هذه الجمله أن يكون

أوّلا من ضروب الاستعاره، أن يرى معنى الكلمه المستعاره موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقه، إلا أنّ لذلك الجنس خصائص و مراتب فى الفضيله و النقص و القوّه و الضعف، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه.

و مثاله استعاره «الطيران» لغير ذى الجناح، إذا أردت السرعه، و «انقضاض الكواكب» للفرس إذا أسرع فى حركته من علوّ، و «السباحه» له إذا عدا عدوا كان حاله فيه شبيها بحاله السابح فى الماء. و معلوم أن الطيران و الانقضاض و السباحه و العدو كلها جنس واحد من حيث الحركه على الإطلاق، إلاـ أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام فى حركتها، فأفردوا حركه كل نوع منها باسم، ثم إنهم إذا وجدوا فى الشى ء فى بعض الأحوال شبها من حركه غير جنسه، استعاروا له العباره من ذلك الجنس، فقالوا فى غير ذى الجناح «طار» كقوله: [من الوافر] و طرت بمنصلى فى يعملات «٢»

---

(١) البيت للقطامى فى ديوانه، و فى الكامل للمبرد ١/ ٨٢، ٨٣. الزّرّاد: من الزرده و هى حلقه الدرع، و السّرد ثقبها و الجمع: زرود. و الزراد: صانعيها، و قيل الزاى فى ذلك كله بدل من السين فى السّرد و السّرّاد، و الزّرد مثل السّرد و هو تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض. لسان العرب- ماده: زرد.

(٢) الشطر لمضرس بن ربعى فى شرح أبيات سيبويه ١/ ٦٢، و شرح شواهد الشافيه: ص ٤٨١، و لسان العرب ١٣/ ٨١ (ثمن)، ١٥/ ٤٢٠ (يدى)، و له أو ليزيد بن الطثريّه فى شرح شواهد المغنى:

ص ٥٩٨، و لسان العرب ٥/ ٣٢٠ (جزز)، و المقاصد النحويه ٤/ ٥٩١، و بلا نسبه فى الأشباه و النظائر: ٢/ ٦٠،

و الإنصاف ٢/ ٥۴٥، و جمهره اللغه ص ٥١٢، و خزانه الأدب ١/ ٢۴٢، و الخصائص ٢/ ٢۶٩، و سر صناعه الإعراب ص ٥١٩، ٧٧٢، و الكتاب ١/ ٢٧، ۴/ ١٩٠، و لسان العرب ٧/ ٢٨١ (ضبط)، و مغنى اللبيب ١/ ٢٢٥، و المنصف ٢/ ٧٣، و تمامه و بيت قبله:

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴٨

و كما جاء فى الخبر: «كلّما سمع هيعه طار إليها» «١»، و كما قال: [من الرمل]

لو يشا طار به ذو ميعه لاحق الآطال نهد ذو خصل «٢»

و من ذلك أن «فاض» موضوع لحركه الماء على وجه مخصوص، و ذلك أن يفارق مكانه دفعه فينبسط، ثم إنه استعير للفجر، كقوله: [من الكامل] كالفجر فاض على نجوم الغيهب «٣» لأن للفجر انبساطا و حاله شبيهه بانبساط الماء و حركته فى فيضه.

فأما استعاره «فاض» بمعنى الجود، فنوع آخر غير ما هو المقصود هاهنا، لأن القصد الآن إلى المستعار الذى توجد حقيقه معناه من حيث الجنس فى المستعار له.

و كذلك قول أبى تمام: [من الطويل]

و قد نثرتهم روعه ثمّ أحدقوا به مثلما ألّفت عقدا منظّما «۴»

و ضيف جاءنا و الليل داج

و ريح القرّ تحفز منه روحا

فطرت بمنصلى فى يعملات و وامى الأيد يخبطن السّريحا

يقول: غشيهم الضيف، و برد الشتاء تدفع روحه للخروج لضعفه. فأسرع لسيفه إلى نوق يعقرها ليقريه. و المنصل، بضم الميم و الصاد، و المنصل: السيف اسم له. قال ابن سيده: لا نعرف فى الكلام اسما على مفعل و مفعل إلا هذا. اليعملات: جمع يعمله، و اليعمله من الإبل: النجيبه المعتمله المطبوعه على العمل و لا يقال ذلك إلا للأنثى. هذا قول أهل اللغه و قد حكى أبو علىّ يعمل و يعمله. السريح: جمع سريحه: و كل قطعه من خرقه متمزقه أو دم سائل مستطيل يابس، فهو و ما أشبهه سريحه، و تجمع أيضا على سرائح، و السريحه: الطريقه من الدم إذا كانت مستطيله. لسان العرب: نصل- عمل- سرح.

(١) جزء من حديث رواه أبو هريره عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل اللّه، يطير على متنه كلّما سمع هيعه، أو فزعه طار على متنه، يبتغى القتل أو الموت مظانّه ...» الحديث رواه مسلم (١٨٨٩)، و مظانّه: أى فى المكان الذى يظن وجوده فيه.

(٢) البيت لامرأه من بنى الحارث بن كعب ترثى بعض من يخصها، فى شرح الحماسه ٣/ ٧٣، و الخزانه ١١/ ٢٩٨- ٣٠٣، و هو من ثلاثه أبيات هو ثانيها، و أوله:

فارس ما

غادروه ملحما غير زميل و لا نكس و كل

الميعه: أول جرى الفرس و أنشطه. النهد: فرس نهد: جسيم، مشرف، تقول منه: نهد الفرس، بالضم، نهوده، و قيل: كثير اللحم حسن الجسم. الخصل: جمع خصله: الشعر المجتمع. الليث:

الخصله بالضم: لفيفه من الشعر. لسان العرب: ميع، نهد، خصل.

(۳) البيت للبحترى فى ديوانه و صدره:

يتراكمون على الأسنه فى الوغى

(۴) البيت فى ديوانه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۴۹

و قول المتنبى: [من الطويل]

نثرتهم فوق الأحيدب نثره كما نثرت فوق العروس الدّراهم «۱»

استعاره، لأن «النثر» فى الأصل للأجسام الصغار، كالدراهم و الدنانير و الجواهر و الحبوب و نحوها، لأن لها هيئه مخصوصه فى التفرق لا تأتى فى الأجسام الكبار، و لأن القصد «بالنثر» أن تجمع أشياء فى كفّ أو وعاء، ثم يقع فعل تتفرّق معه دفعه واحده، و الأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك، لكنه لمّا اتّفق فى الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب و نظام، كما يكون فى الشى ء المنثور، عبّر عنه بالنثر، و نسب ذلك الفعل إلى الممدوح، إذ كان هو سبب ذلك الانتثار، فالتفرّق الذى هو حقيقه «النثر» من حيث جنس المعنى و عمومه، موجود فى المستعار له بلا شبهه.

و يبيّنه أن «النّظم» فى الأصل لجمع الجواهر و ما كان مثلها فى السلوك، ثم

لمّـا حصل فى الشّخصـين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبـدع فى الطعن فى رمـح واحـد ذلك الضـرب من الجمع، عبّر عنه «بـالنّظم»، كقولهم: «انتظمهـا برمحه»، و كقوله: [من الكامـل] قالوا: و ينظم فارسـين بطعنه «٢» و كان ذلك اسـتعاره، لأن اللفظه وقعت فى الأصـل لما يجمع فى السّـلوك من الحبوب و الأجسام الصـغار، إذ كانت تلك الهيئه فى الجمع تخصّـها فى الغالب، و كـان حصولهـا فى أشـخاص الرجال من النادر الـذى لا يكاد يقع، و إلا فلو فرضـنا أن يكثر وجوده فى الأشـخاص الكبيره، لكان لفظ «النظم» أصلا و حقيقه فيها، كما يكون حقيقه فى نحو الحبوب، و هذا النحو لشده الشّبه فيه، يكاد يلحق بالحقيقه.

و من هذا الحدّ قوله: [من الطويل]

---

(١) البيت فى ديوانه. الأحيدب: جبل، و النثر: التفريق، يقول: فرقتهم على هذا الجبل مقتولين، و نثرتهم نثر الدراهم على العروس، فتفرقت مصارعهم على هـذا الجبل، كما تتفرق مواقع الـدراهم إذا انتثرت، و هذا من محاسن أبى الطيب، و قد أشار بهذا إلى أن سيف الدوله تحكّم فى الروم قتلا و أسرا و نثر جيشهم فوق هذا الجبل نثرا. التبيان ٢/ ٣٠١.

(٢) الشعر لبكر بن النطاح فى أبى دلف العجلى، و هو فى قصه ذكرها صاحب الأغانى ١٩/ ١٠٩، و تمامه:

قالوا: و ينظم فارسين بطعنه يوم اللقاء و لا يراه جليلا

لا تعجبوا فلو أن طول قناته

ميل، إذا نظم الفوارس ميلا

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵۰

و فى يدك السّيف الّذى امتنعت به صفاه الهدى من أن ترقّ فتخرقا «۱»

و ذلك أن أصل «الخرق» أن يكون فى الثوب، و هو فى الصفاه استعاره، لأنه لمّا قال «ترقّ»، قربت حالها من حال الثوب، و على ذلك فإنّا نعلم أن «الشق» و «الصدع» حقيقه فى الصّفاه، و نعلم أن «الخرق» يجامعهما فى الجنس، لأن الكلّ تفريق و قطع.

و لو لم يكن «الخرق» و «الشق» واحدا، لما قلت: «شققت الثوب»، و «الشقّ عيب فى الثوب»، و «تشقّق الثوب» قول من لا يستعير.

و لكن لو قلت: «خرق الحشمه»، لم يكن من الحقيقه فى شى ء، و كان خارجا من هذا الفن الذى نحن فيه، لأنه ليس هناك شق. و لو جاء «شقّ الحشمه» أو «صدع» مثلا، كان كذلك أعنى لا يكون له أصل فى الحقيقه و لا شبه بها.

و من هذا الضرب قوله تعالى: وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ [سبأ: ۱۹] يعدّ استعاره من حيث إن «التمزيق» للثوب فى أصل اللغه، إلا أنه على ذاک راجع إلى الحقيقه، من حيث إنه تفريق على كل حال، و ليس بجنس غيره، إلّا أنهم خصّوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق، كما خصّوه بالخرق، و إلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من بعض.

و مثله أن «القطع» إذا أطلق، فهو لإزاله الاتصال من

الأجسام التى تلتزق أجزاؤها. و إذا جاء فى تفريق الجماعه و إبعاد بعضهم عن بعض، كقوله تعالى:

وَ قَطَّعْناهُمْ فِی الْأَرْضِ أُمَماً [الأعراف: ۱۶۸]، كان شبه الاستعاره، و إن كان المعنى فى الموضعين على إزاله الاجتماع و نفيه.

فإن قلت: «قطع عليه كلامه»، أو قلت: «نقطع الوقت بكذا»، كان نوعا آخر.

و من الاستعاره القريبه فى الحقيقه قولهم: «أثرى فلان من المجد»، و «أفلس من المروءه»، و كقوله: [من الكامل]

إن كان أغناها السلوّ، فإنّنى أمسيت من كبدى و منها معدما «۲»

---

(۱) البيت للبحترى فى ديوانه.

(۲) البيت للمتنبى فى ديوانه. السلو: البغض و السآمه، و المعدم: الفقير، و روى ابن جنى مصرما و هو بمعنى واحد، و المصرم و المعدم و الممحق و المبلط و المعسر و المقتر و المفلس الذى لا- مال له و لا- شى ء له، و من كلام العرب: كلأ ييجع له كبد المصرم، و هو الذى لا مال له، فيرعاه فأوجعته كبده. و معنى البيت: إن كان السلو تركها غنيه عن وصالى و لا تحتاج إلى وصلى فأنا محتاج إليها، قد عدمتها و عدمت كبدى، يريد أنها غنيه عنى و أنا فقير إليها. التبيان ۲/ ۳۲۹.

و ذلك أن حقيقه «الإثراء من الشى ء»، كثرته عندك. و وصف الرجل بأنه كثير المجد أو قليل المروءه، كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفه،

فى كونه حقيقه.

و كذلك إذا قلت: «أثرى من الشوق» أو «الحزن» كما قال: [من الخفيف]

و فى الرّكب خريب من الغرام و مثرى «۱»

فهو كقولك: «كثر شوقه و حزنه و غرامه»، و إذا كان كذلك، فهو فى أنه نقل إلى شى ء جنسه جنس الذى هو حقيقه فيه، بمنزله «طار»، أو أظهر أمرا منه، و كذا معنى «أعدم من المال»، أنه خلا منه، و أن المال يزول عنه فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه، فهو فى حقيقه من ذهب ماله و عدمه. و العدم فى المال و فى غير المال بمنزله واحده لا تتغيّر له فائده، و «المعدم» موضوع لمن عدم ما يحتاج إليه، فالكبد مما يحتاج إليه، و كذلك المحبوبه، فإنما تقع هذه العباره فى نفسك موقع الغريب من حيث أن العرف جرى فى «الإعدام» بأن يطلق على من عدم ما جنسه جنس المال، و يؤنّسك بما قلت، أنك لو قلت: «عدم كبده»، لم يكن مجازا، و لم تجد بينه و بين «خلا من كبده» و «زالت عنه كبده» كبير فرق. أ لا تراك تقول: «الفرس عادم للطّحال» تريد: ليس له طحال، و هذا كلام لا استعاره فيه، كما أنك لو قلت:

«الطحال معدوم فى الفرس» كان كذلك.

و من اللائق بهذا الباب البيّن أمره، ما أنشده أبو العباس فى الكامل من قول الشاعر: [من البسيط]

لم تلق قوما هم شرّ لإخوتهم

منّا عشيّه يجرى بالدّم الوادى

تقريهم لهذميّات نقدّ بها ما كان خاط عليهم كلّ زرّاد «٢»

---

(١) البيت للبحترى فى ديوانه، و هو من المجتث. و فى نسخه محمود شاكر:

قد وقفنا على الديار و فى الرك ب حريب من الغرام و مثرى

و البيت بهذا الشكل من الخفيف.

الحريب: من حربه يحربه: إذا أخذ ماله، و حريبته: ماله الذى سلبه لا يسمى بذلك إلا بعد ما يسلبه، و الحريب الذى سلب حريبته. لسان العرب، ماده: حرب.

(٢) البيتان هما للقطامى فى ديوانه. اللهذميات: جمع لهذم: سيف لهذم حاد، و كذلك السّنان و الناب و لهذم الشى ء: قطعه، الليث: اللهذم: كل شى ء من سنان أو سيف قاطع. لسان العرب، ماده:

لهذم.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٥٢

قال: لأن «الخياطه»، تضمّ خرق القميص و السّرد يضمّ حلق الدرع». أ فلا تراه بيّن أن جنسهما واحد، و أن كلّا منهما ضمّ و وصل و إنما يقع الفرق من حيث أن «الخياطه» ضمّ أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم، و «الزّرد» ضمّ حلق الدرع بمداخله توجد بينها، إلّا أن الشّكال الذى يلزم أحد طرفى الحلقه الآخر بدخوله فى ثقبتيهما، فى صوره الخيط الذى يذهب فى منافذ الإبره.

و استقصاء القول

فى هـذا الضـرب، و البحث عن أسـراره، لاـ يمكن إلا بعـد أن تقرّر الضـروب المخالفه له من الاسـتعاره، فأقتصـر منه على القـدر المذكور، و أعود إلى القسمه.

ضرب ثان يشبه هذا الضرب الذى مضى، و إن لم يكن إياه، و ذلك أن يكون الشبه مأخوذا من صفه هى موجوده فى كل واحد من المسـتعار له و المسـتعار منه على الحقيقه. و ذلك قولك: «رأيت شـمسا»، تريـد إنسانا يتهلّل وجهه كالشـمس. فهـذا له شـبه باسـتعاره «طـار» لغير ذى الجناح و ذلك أن الشـبه مراعى فى التلألؤ، و هو كما تعلم موجود فى نفس الإنسان المتهلل، لأنّ رونق الـوجه الحسن من حيث حسن البصـر، مجـانس لضوء الأجسـام النّيره. و كـذلك إذا قلت: «رأيت أسـدا» تريـد رجلاـ فالوصـف الجـامع بينهما هو الشـجاعه، و هى على حقيقتها موجوده فى الإنسان، و إنما يقع الفرق بينه و بين السّـبع الـذى اسـتعرت اسـمه له فيهـا، من جهه القوّه و الضـعف و الزيـاده و النقصـان، و ربما ادّعى لبعض الكماه و البهم مساواه الأسـد فى حقيقه الشـجاعه التى عمود صورتهـا انتفـاء المخـافه عن القلب حتى لاـ تخامره، و تفرّق خواطره و تحلّل عزيمته فى الإقـدام على الـذى يباطشه و يريد قهره، و ربمـا كفّ الشّـجاع عن الإقـدام على العـدوّ لاـ لخوف يملـك قلبه و يسـلبه قواه، و لكن كما يكفّ المنهىّ عن الفعل، لا تخونه فى تعـاطيه قوّه. و ذلـك أن العاقـل من حيث الشـرع منهىّ عن أن يهلـك نفسه، أ ترى أنّ البطـل الكمىّ إذا عـدم سـلاحا يقاتل به، فلم ينهض إلى العدوّ، كان فاقدا شجاعته و بأسه، و متبرّئا من النّجده التى يعرف بها.

ثم إن الفرق بين هذا الضرب و بين

الأول أن الاشتراک هاهنا فی صفه توجد فی جنسین مختلفین، مثل أنّ جنس الإنسان غیر جنس الشمس، و کذلک جنسه غیر جنس الأسد، و لیس کذلک «الطیران» و «جری الفرس»، فإنهما جنس واحد بلا شبهه،

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۵۳

و کلاهما مرور و قطع للمسافه. و إنما یقع الاختلاف بالسرعه، و حقیقه «السرعه» قلّه تخلّل السکون للحرکات، و ذلک لا یوجب اختلافا فی الجنس «۱».

فإن قلت: فإذن لا فرق بین استعاره «طار» للفرس و بین استعاره «الشفه» للفرس، فهلّا عددت هذا فی القسم اللّفظیّ غیر المفید؟ ثم إنک إن اعتذرت بأنّ فی «طار» خصوص وصف لیس فی «عدا» و «جری»، فکذلک فی «الشفه» خصوص وصف لیس فی «الجحفله».

فالجواب: أنّی لم أعدّه فی ذلک القسم، لأجل أنّ خصوص الوصف الکائن فی «طار» مراعی فی استعارته للفرس، أ لا تراک لا تقوله فی کل حال، بل فی حال مخصوصه و کذا «السباحه»، لأنک لا تستعیرها للفرس فی کل أحوال حربه. نعم، و تأبی أن تعطیها کلّ فرس، فالقطوف «۲» البلید لا یوصف بأنه سابح.

و أما استعاره اسم لعضو نحو «الشفه» و «الأنف» فلم یراع فیه خصوص الوصف. أ لا ترى أن العجّاج لم یرد بقوله: «و مرسنا مسرّجا»، أن یشبّه أنف المرأه بأنف نوع من الحیوان، لأن هذا العضو من غیر الإنسان لا یوصف بالحسن، کما یکون ذلک فی العین و الجید. و هکذا استعاره «الفرسن» للشاه فی قول عائشه رضی اللّه عنها: «و لو فرسن شاه» «۳»، و هو للبعیر

فى الأصل ليس لأن يشبّه هذا العضو من

---

(١) تقدم أن من ذلك النوع المستعار لحركه الفرس مستعارا من انقضاض الكواكب و الظاهر أن الجنس مختلف هنا و الجواب أن الكلام فى اختلاف المستعار و المستعار له من حيث وجه الشبه فاختلاف الجنس واقع فى وجه الشبه أيضا فإن تلألؤ الشمس غير تلألؤ الوجه فى الجنس، و شجاعه الأسد ليست مثل شجاعه الإنسان فإن شجاعه الإنسان يدخل فيها العقل بخلاف شجاعه الأسد و أما الحركات التى ذكرها فإنها جنس واحد و الخلاف فى عرض و هو السرعه و الجواب الأفضل أن الضرب الأول يكون فيه المستعار له على قرب من الشبه فى مفهوم المستعار منه لو لا غلبه التفرق بالتخصيص و أما فى الضرب الثانى فذلك القرب فى وجه الشبه أتم فشجاعه البطل تدخل فى حد شجاعه الأسد لكن المستعار له لا يمكن أن يدخل فى جنس المستعار منه على وجه الحقيقه بحال، فلا يدخل الرجل فى الأسد و لا فى الشمس إلخ. هذا الذى يظهر من عباره المصنف اه (رشيد).

(٢) القطوف: سيّئ السير بطيئه.

(٣) الحديث متفق عليه رواه البخارى ٥/ ١٤٤، ١٤٥، و مسلم فى ١٠٣٠، و المراد: أى: «لا- تمتنع جاره من الصدقه و الهديه لجارتها لاستقلالها و احتقارها الموجود عندها؛ بل تجود بما تيسر؛ و إن كان قليلا كفرسن الشاه (و هو خف البعير، و يستعار لظلف الشاه كما فى الحديث) فهذا خير من عدمه، قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ بتصرف من شرح رياض الصالحين لابن علان ١/ ٣٤٥- ٣٤٦.

الشاه به من البعير، كيف و لا شبه هناک، و ليس إذن فى مجى ء «الفرسن» بدل «الظلف» أمر أكثر من العضو نفسه.

ضرب ثالث، و هو الصّميم الخالص من «الاستعاره». و حدّه أن يكون الشبه مأخوذا من الصّور العقليه، و ذلک كاستعاره «النّور» للبيان و الحجه الكاشفه عن الحق، المزيله للشکّ النافيه للرّيب، كما جاء فى التّنزيل من نحو قوله عزّ و جلّ:

وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ [الأعراف: ١۵٧] و كاستعاره «الصراط» للدّين فى قوله تعالى: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحه: ۵]، و وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى: ۵٢]، فإنک لا تشکّ فى أنه ليس بين «النور» و الحجه ما بين «طيران الطائر» و «جرى الفرس» من الاشتراک فى عموم الجنس، لأن «النور» صفه من صفات الأجسام محسوسه، و الحجه كلام و كذا ليس بينهما ما بين «الرجل» و «الأسد» من الاشتراک فى طبيعه معلومه تكون فى الحيوان كالشجاعه. فليس الشبه الحاصل من «النور» فى البيان و الحجه و نحوهما، إلّا أنّ القلب إذا وردت عليه الحجّه صار فى حاله شبيهه بحال البصر إذا صادف النور، و وجّهت طلائعه نحوه، و جال فى معارفه «١» و انتشر، و انبثّ فى المسافه التى يسافر طرف الإنسان فيها. و هذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس و لا على طبيعه و غريزه، و لا على هيئه و صوره تدخل فى الخلقه، و إنما هو صوره عقليه.

و اعلم أن هذا الضرب هو المنزله التى تبلغ عندها الاستعاره غايه شرفها، و يتسع لها كيف شاءت المجال فى تفنّنها و تصرّفها، و هاهنا تخلص

لطيفه روحانيه، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافيه، و العقول النافذه، و الطباع السليمه، و النفوس المستعدّه لأن تعى الحكمه، و تعرف فصل الخطاب.

و لها هاهنا أساليب كثيره، و مسالك دقيقه مختلفه، و القول الذى يجرى مجرى القانون و القسمه يغمض فيها، إلا أنّ ما يجب أن تعلم فى معنى التقسيم لها أنها على أصول:

أحدها: أن يؤخذ الشّبه من الأشياء المشاهده و المدركه بالحواسّ على الجمله للمعانى المعقوله.

---

(١) معارف الإنسان ما يعرف به و يتميز به من غيره فى شكل وجهه. و كتب شيخنا فى نسخه الدرس هنا ما نصه: المعارف من الضياء ما يظهر فيه و أصلها ما يظهر من المرأه و الوجوه و المعروفون (كذا) من الناس. و قد يعود الضمير فى معارفه على البصر أى: جال فى الأشياء التى يعرفها البصر و يفسره قوله: و انبث فى المسافه إلخ. أو معارف البصر ما يعرف منه كالمقله اه. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵۵

و الثانى: أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسه لمثلها، إلا أن الشّبه مع ذلك عقلىّ.

و الأصل الثالث: أن يؤخذ الشّبه من المعقول للمعقول.

فمثال ما جرى على (الأصل الأول) ما ذكرت لك من استعاره «النور» للبيان و الحجّه، فهذا شبه أخذ من محسوس لمعقول، أ لا ترى أن «النور» مشاهد محسوس بالبصر، و البيان و الحجّه مما يؤدّيه إليك العقل من غير واسطه من العين أو غيرها من الحواس. و ذلك أن الشّبه ينصرف إلى المفهوم من الحروف و الأصوات، و مدلول الألفاظ هو

الـذى ينوّر القلب لا الألفاظ. هـذا و «النور» يسـتعار للعلم نفسه أيضا و الإيمان، و كذلك حكم «الظلمه»، إذا اسـتعيرت للشّـبهه و الجهل و الكفر، لأنه لا شـبهه فى أن الشّـبه و الشـكوك من المعقول، و وجه التشبيه أن القلب يحصل بالشبهه و الجهل، فى صفه البصـر إذا قيّده دجى الليل فلم يجد منصـرفا و إن اسـتعيرت للضـلاله و الكفر، فلأنّ صاحبهما كمن يسـعى فى الظلمه فيذهب فى غير الطريق، و ربما دفع إلى هلك و تردّى فى أهويّه.

و من ذلك اسـتعاره «القسطاس» للعدل و نحو ذلك من المعانى المعقوله التى تعطى غيرها صفه الاستقامه و السّداد، كما استعاره الجاحظ فى فصل يذكر فيه علم الكلام، فقال: «هو العيار على كل صـناعه»، و الزّمام على كل عباره، و القسطاس الذى به يستبان كل شى ء و رجحانه و الراووق الذى به يعرف صفاء كل شى ء و كدره».

و هكـذا إذا قيل فى النّحو: «إنه ميزان الكلام و معياره»، فهو أخذ شـبه من شـى ء هو جسم يحسّ و يشاهد، لمعنى يعلم و يعقل و لا يدخل فى الحاسّه، و ذلك أظهر و أبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان.

و أما تفنّنه و سعته و تصرّفه من مرضىّ و مسخوط، و مقبول و مرذول، فحقّ الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول.

و مثال (الأصل الثانى)، و هو أخـذ الشّـبه من المحسوس للمحسوس، ثم الشـبه عقلىّ، قول النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «إياكم و خضراء الدّمن» «١»، الشبه مأخوذ للمرأه من النبات

---

(١) تتمه الحديث: قيل و ما ذاک قال: المرأه الحسناء فى المنبت السوء» شبه المرأه بما ينبت فى الدمن من الكلأ يكون له غضاره

و هو ربئ المرعى منتن الأصل قال زفر بن الحارث:

و قد ينبت المرعى على دمن الثرى و تبقى حزازات النفوس كما هيا

و الدمنه: الموضع الذى فيه السرقين (الزبل) و كذلك هو ما اختلط من الماء و الطين عند الحوض (رشيد). قلت: و لكن الحديث لا تصح نسبته للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم (عبد الحميد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵۶

كما لا يخفى و كلاهما جسم، إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات و خضرته، و لا طعمه و لا رائحته، و لا شكله و صورته و لا ما شاكل ذلك و لا ـ ما يسمّى طبعا كالحراره و البروده المنسوبتين فى العاده إلى العقاقير و غيرها مما يسخّن بدن الحيوان و يبرد بحصوله فيها، و لا شى ء من هذا الباب بل القصد شبه عقلىّ بين المرأه الحسناء فى المنبت السوء، و بين تلك النابته على الدّمنه، و هو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن، و طيب الفرع مع خبث الأصل.

و كما أنهم إذا قالوا:

هو عسل إذا ياسرته و إن عاسرته فهو صاب» «۱»

كما قال: [من الرمل]

عسل الأخلاق ما ياسرته

فإذا عاسرت ذقت السّلعا «۲»

فالتشبيه عقلىّ، إذ ليس الغرض الحلاوه و المراره اللتين تصفهما لك المذاقه و يحسّهما الفم و اللسان، و إنما المعنى أنك تجد منه فى حاله الرّضى و الموافقه ما يملؤك سرورا و بهجه، حسب ما يجد ذائق العسل من لذّه الحلاوه و يهجم عليك فى حاله السّخط و الإباء ما يشدّد كراهتك و يكسبك كربا، و يجعلك فى حال من يذوق المرّ الشديد المراره. و هذا أظهر من أن يخفى.

و من هذا الأصل استعاره «الشمس» للرجل تصفه بالنباهه و الرّفعه و الشّرف و الشهره و ما شاكل ذلك من الأوصاف العقليه المحضه التى لا تلابسها إلّا بغريزه العقل، و لا تعقلها إلا بنظر القلب.

و يظهر من هاهنا (أصل آخر) و هو أنّ اللفظه الواحده تستعار على طريقين مختلفين، و يذهب بها فى القياس و التشبيه مذهبين، أحدهما يفضى إلى ما تناله العيون، و الآخر يومئ إلى ما تمثّله الظنون.

---

(۱) الصاب: هو عصاره شجر مر، و قيل: هو شجر إذا اعتصر خرج منه كهيئه اللبن، و ربما نزت منه نزيّه، أى: قطره، فنقع فى العين كأنها شهاب نار، و ربما أضعف البصر، قال أبو ذؤيب الهذلى:

إنى أرقت فبتّ الليل مشتجرا كأن عينى فيها الصّاب مذبوح

و قيل: الصاب شجر مر، واحدته صابه، و قيل: هو عصاره الصبر. لسان العرب، ماده: صوب.

(۲) البيت لا نعرف قائله. السّلع: شجر مثل السّنعبق إلا أنه يرتقى حبالا خضرا لا ورق لها، و لكن لها قضبان

تلتف على الغصون و تتشبک، و له ثمر مثل عناقيد العنب صغار، فإذا أينع اسود فتأكله القرود فقط. لسان العرب، ماده: سلع.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵۷

و مثال ذلک قولک: «نجوم الهدى»، تعنى أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و رضى عنهم، فإنه استعاره توجب شبها عقليّا، لأن المعنى أنّ الخلق بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اهتدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم، و هذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامه، فبالرجوع إلى علومهم و آثارهم و فعالهم و هديهم تنال النجاه من الضلاله، و من لم يطلب الهدى من جهتهم فقد حرم الهدى و وقع فى الضلال، كما أنّ من لم ينظر إلى النجوم فى ظلام اللّيل و لم يتلقّ عنها دلالتها على المسالک التى تفضى إلى العماره و معادن السلامه و خالفها، وقع فى غير الطريق، و صار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد، و الهلک المبيد.

فالقياس على النجوم فى هذا، ليس على حدّ تشبيه المصابيح بالنجوم، أو النيران فى الأماكن المتفرقه، لأن الشّبه هناک من حيث الحس و المشاهده، لأن القصد إلى نفس الضوء و اللّمعان، و الشّبه هاهنا من حيث العقل، لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم و حكمه و عائدته، ثم ما فيها من الدلاله على المنهاج، و الأمن من الزيغ عنه و الاعوجاج، و الوصول بهذه الجمله منها إلى دار القرار و محل الكرامه نسأل اللّه تعالى أن يرزقنا ذلک، و يديم توفيقنا للزوم ذلک الاهتداء، و التصرف

فى هذا الضياء، إنه عزّ و جلّ ولىّ ذلك و القادر عليه.

و مما لا يكون الشبه فيه إلا عقليا، قولنا فى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «ملح الأنام»، و هو مأخوذ من قوله عليه السلام: «مثل أصحابى كمثل الملح فى الطّعام، لا يصلح الطّعام إلا بالملح»، قالوا: فكان الحسن رحمه اللّه عليه يقول: «فقد ذهب ملحنا، فكيف نصنع؟».

فأنت تعلم أن لا وجه هاهنا للتشبيه إلا من طريق الصّوره العقليه، و هو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح، و الشّبه بين صلاح العامّه بالخاصّه و بين صلاح الطعام بالملح، لا يتصوّر أن يكون محسوسا. و ينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاه الصحابه رضى اللّه عنهم، و أن تمزج محبّتهم بالقلوب و الأرواح، كما يمزج الملح بالطعام، فباتّحاده به و مداخلته لأجزائه يطيب طعمه، و تذهب عنه و وخامته، و يصير نافعا مغذيا، كذلك بمحبّه الصحابه رضى اللّه عنهم تصلح الاعتقادات، و تنتفى عنها الأوصاف المذمومه، و تطيب و تغذو القلوب، و تنمّى حياتها، و تحفظ صحتها و سلامتها، و تقيها الزّيغ و الضلال و الشك و الشبهه و الحيره، و ما حكمه فى حال القلب من حيث العقل، حكم الفساد الذى يعرض لمزاج البدن

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۵۸

من أكل الطعام الذى لم يصلح بالملح، و لم تنتف عنه المضار التى من شأن الملح أن يزيلها، و على ذلك جاء فى صفتهم أنّ: «حبّهم إيمان و بغضهم نفاق». هذا، و لا معنى لصلاح الرجل بالرجل

إلّا صلاح نيّته و اعتقاده، و محال أن تصلح نيّتك و اعتقادك بصاحبك و أنت لا تراه معدن الخير و معانه، و موضع الرّشد و مكانه و من علمته كذلك، مازجتك محبّته لا محاله، وسيط ودّه بلحمك و دمك، و هل تحصل من المحبّه إلّا على الطاعه و الموافقه فى الإراده و الاعتقاد، قياسه قياس الممازجه بين الأجسام، أ لا تراك تقول: «فلان قريب من قلبى»، تريد الوفاق و المحبّه.

و على هذه الطريقه جرى تمثيل «النحو» فى قولهم: «النحو فى الكلام، كالملح فى الطعام، إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم و لا تحصل منافعه التى هى الدلالات على المقاصد، إلّا بمراعاه أحكام النحو فيه، من الإعراب و الترتيب الخاصّ، كما لا يجدى الطعام و لا تحصل المنفعه المطلوبه منه، و هى التغذيه، ما لم يصلح بالملح.

فأمّا ما يتخيّلونه من أن معنى ذلك: أن القليل من النحو يغنى، و أن الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه، فتحريف، و قول بما لا يتحصّل على البحث، و ذلك أنه لا يتصوّر الزياده و النقصان فى جريان أحكام النحو فى الكلام. أ لا ترى أنه إذا كان من حكمه فى قولنا: «كان زيد ذاهبا»، أن يرفع الاسم و ينصب الخبر، لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لا يوجد، فإن وجد فقد حصل النحو فى الكلام، و عدل مزاجه به، و نفى عنه الفساد، و أن يكون كالطعام الذى لا يغذو البدن و إن لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزله طعام لم يصلح بالملح، فسامعه لا ينتفع به بل يستضرّ، لوقوعه فى عمياء و هجوم الوحشه عليه، كما يوجبه الكلام الفاسد العارى

من الفائده.

و ليس بين هاتين المنزلتين واسطه يكون استعمال النحو فيها مذموما و هكذا القول فى كلّ كلام، و ذلك أن إصلاح الكلام الأول بإجرائه على حكم النحو، لا يغنى عنه فى الكلام الثانى و الثالث، حتى يتوّهم أن حصول النحو فى جمله واحده من قصيده أو رساله يصلح سائر الجمل، و حتى يكون إفراد كل جمله بحكمها منه تكريرا له و تكثيرا لأجزائه، فيكون مثله مثل زياده أجزاء الملح على قدر الكفايه.

و كذلك لا يتصور فى قولنا: «كان زيد منطلقا»، أن يتكرّر هذا الحكم و يتكثّر على هذا الكلام، فيصير النحو كذلك موصوفا بأن له كثيرا هو مذموم، و أن المحمود منه القليل. و إنما وزانه فى الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى ينبئ عن مساواه ما

فى إحدى الكفتين الأخرى، فكما لا يتصور فى تلك الصفه زياده و نقصان، حتى يكون كثيرها مذموما و قليلها محمودا، كذلك الحكم فى الصّيفه زياده و نقصان، حتى يكون كثيرها مذموما و قليلها محمودا، كذلك الحكم فى الصّيفه التى تحصل للكلام بإجرائه على حكم النحو و وزنه بميزان، فقول أبى بكر الخوارزمى: [من السريع] و البغض عندى كثره الإعراب كلام لا يحصل منه على طائل، لأنّ الإعراب لا يقع فيه قله و كثره، إن اعتبرنا الكلام الواحد و الجمله الواحده، و إن اعتبرنا الجمل الكثيره و جعلنا إعراب هذه الجمله مضموما إلى إعراب تلك، فهى الكثره التى لا بدّ منها، و لا صلاح مع تركها، و الخليق

بالبغض من ذمّها «۱» و إن كان أراد نحو قول الفرزدق:

و ما مثله فى النّاس إلّا مملّكا أبو أمّه حىّ أبوه يقاربه «۲»

و ما كان من الكلام معقّدا موضوعا على التأويلات المتكلّفه، فليس ذلک بكثره و زياده فى الإعراب، بل هو بأن يكون نقصا له و نقضا أولى، لأن «الإعراب» هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه و يبيّنه و يوضّح الغرض و يكشف اللّبس، و الواضع كلامه على المجازفه فى التقديم و التأخير زائل عن الإعراب، زائغ عن الصواب، متعرّض للتلبيس و التعميه. فكيف يكون ذلک كثره فى الإعراب؟ إنما هو كثره عناء على من رام أن يردّه إلى الإعراب، لا كثره الإعراب.

و هذا هو كالاعتراض على طريق شجون الحديث، و يحتاج إليه فى أصل كبير، و هو أن من حق العاقل أن لا يتعدّى بالتشبيه الجهه المقصوده، و لا سيما فى العقليات. و أرجع إلى النّسق.

مثال (الأصل الثالث)، و هو أخذ الشبه من المعقول للمعقول.

أوّل ذلک و أعمّه تشبيه الوجود من الشى ء مره بالعدم، و العدم مره بالوجود.

أمّا الأول: فعلى معنى أنه لما قلّ فى المعانى التى بها يظهر للشى ء قدر، و يصير له ذكر، صار وجوده كلا وجود «۳».

---

(۱) مبتدأ و خبر. (رشيد).

(۲) سبق تخريجه: ص ۲۵.

(۳) (رشيد) نظم هذا المعنى بعضهم فقال:

خلقوا و ما خلقوا لمكرمه فكأنهم خلقوا و ما خلقوا

رزقوا و ما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا و ما رزقوا

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۰

و أمّا الثانى: فعلى معنى أن الفانى كان موجودا ثم فقد و عدم، إلا أنه لما خلّف آثارا جميله تحيى ذكره، و تديم فى الناس اسمه، صار لذلك كأنه لم يعدم.

و أما ما عداهما من الأوصاف فيجى ء فيها طريقان:

أحدهما: هذا، و ذلك فى كلّ موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفه، و إن كانت موجوده، لخلوّها مما هو ثمرتها و المقصود منها، و الذى إذا خلت منه لم تستحق الشّرف و الفضل.

تفسير هذا: أنك إذا وصفت الجاهل بأنه «ميّت»، و جعلت «الجهل» كأنه موت، على معنى أن فائده الحياه و المقصود منها هو «العلم» و «الإحساس»، فمتى عدمهما الحىّ فكأنه قد خرج عن حكم الحىّ، و لذلك جعل النّوم موتا، إذ كان النائم لا يشعر بما بحضرته، كما لا يشعر الميّت.

و الدرجه الأولى فى هذا أن يقال: «فلان لا يعقل» و «هو بهيمه» و «حمار» و ما أشبه ذلك، مما يحطّه عن معانى المعرفه الشريفه، ثم أن يقال: «فلان لا يعلم و لا يفقه و لا يحسّ»، فينفى عنه العلم و الإحساس جمله لضعف أمره فيه، و غلبه الجهل عليه، ثم يجعل التعريض تصريحا فيقال: «هو ميّت خارج من الحياه» و «هو جماد»، توكيدا و تناهيا فى إبعاده عن العلم و المعرفه،

و تشـدّدا فى الحكم بأن لا مطمع فى انحسار غيابه الجهل عنه «۱»، و إفاقته مما به من سـكره الغىّ و الغفله و أن يؤثّر فيه الوعظ و التنبيه.

ثم لمـا كـان هـذا مسـتقرا فى العاده، أعنى جعل الجاهل ميّتا، خرج منه أن يكون المسـتحقّ لصـفه الحياه هو العالم المتيقظ لوجه الرّشـد. ثم لمّا لم يكن علم أشـرف و أعلى من العلم بوحـدانيه اللّه تعالى، و بما نزّله على النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم، جعل من حصل له «۲» هذا العلم بعد أن لم يكن، كأنه وجد الحياه و صارت صـفه له، مع وجود نور الإيمان فى قلبه، و جعل حالته السابقه التى خلا فيها من الإيمان كحاله الموت التى تعدم معه الحياه، و ذلك قوله تعالى: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ [الأنعام: ۱۲۲]، و أشباه ذلك.

من هذا الباب قولهم: «فلان حىّ» و «حىّ القلب» يريدون أنه ثاقب الفهم

---

(۱) الغيابه: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابه.

(۲) المناسب هذا العلم.

جيّد النظر، مستعدّ لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه، بعيد من الغفله التى كالموت و يذهبون به فى وجه آخر، و هو أنه حرك «۱» نافـذ فى الأمور غير بطى ء النهوض و ذلك أن هـذه الأوصاف من أمارات الصـحه و اعتدال المزاج و توقّد نار الحياه، و هذا يصلح فى الإنسان و البهيمه، لأنه تعريض بالقدره و القوه. و المذهب الأول إشاره فى العلم و العقل، و كلتا الصفتين أعنى القدره

و العلم مما يشرف به الحيّ، و مما يضادّه الموت و ينافيه.

و لما كان الأمر كـذلك صار إطلاق «الحياه» مره عباره عن العلم، و أخرى عن القـدره و إطلاق الموت إشاره إلى عدم القدره و ضعفها تاره، و إلى عدم العلم و ضعفه أخرى.

و القول الجامع فى هـذا: أنّ تنزيل الوجود منزله العـدم إذا أريـد المبالغه فى حطّ الشـى ء و الوضع منه و خروجه عن أن يعتدّ به، كقولهم: «هو و العـدم سواء» معروف متمكن فى العـادات، و ربما دعاهم الإيغال و حبّ السّرف إلى أن يطلبوا بعـد العـدم منزله هى أدون منه، حتى يقعوا فى ضـرب من التهوّس، كقول أبى تمام: [من البسيط] و أنت أنزر من لا شى ء فى العدد «٢» و قال ابن نباته: [من البسيط]

ما زلت أعطف أيّامى فتمنحنى نيلا أدقّ من المعدوم فى العدم «٣»

و يتفرع على هذا إثبات الفضيله للمذكور بإثبات اسم الشى ء له، و يكون ذلك على وجهين:

أحدهما: أن تريد المدح و إثبات المزيّه و الفضل على غايه المبالغه، حتى لا تحصل عليه مزيدا. فإذا أردت ذلك جعلت الإثبات كأنه مقصور عليه لا يشارك فيه، و ذلك قولك: «هذا هو الشى ء و ما عداه فليس بشى ء»، أى: إن ما عداه إذا قيس إليه

---

(١) غلام حرك: بوزن فرح خفيف ذكى.

(٢) البيت فى ديوانه، و صدره:

أ فىّ تنظيم قول الزور و الفند و الفند: الخرف و إنكار العقل من الهرم أو المرض، و الفند: الخطأ فى الرأى و القول، و أفنده خطّأ رأيه، و فى

التنزيل العزيز حكايه عن يعقوب عليه السلام: لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ. قال الفراء: يقول لو لا أن تكذبونى و تعجزونى و تضعّفونى.

(۳) البيت من أبيات قالها فى صباه، ذكرها الثعالبى فى يتيمه الدهر ۲/ ۳۵۶. و ابن نباته: هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد الملقب بالسعدى.

صغر و حقر حتى لا يدخل فى اعتداد، و حتى يكون وجدانه كفقدانه، فقد نزّلت الوجود فيمن عدا المذكور منزله العدم.

و أما أن يكون التفضيل على توسّط، و يكون القصد الإخبار بأنه غير ناقص على الجمله، و لا ملغى منزّل منزله المعدوم، و ذلك قولك: «هذا شى ء»، أى: داخل فى الاعتداد.

و فى هذه الطريقه أيضا تفاوت، فإنك تقول مره: «هذا إمّا لا، شى ء»، تريد أن تقول: إن الآخر ليس بشى ء و لا اعتداد به أصلا. و تقول أخرى: «هذا شى ء»، تريد:

شى ء له قدر و خطر. و تجرى لك هذه الوجوه فى أسماء الأجناس كلها تقول: «هذا هو الرجل و من عداه فليس من الرجوليه فى شى ء»، و «هذا هو الشعر فحسب»، تبالغ فى التفضيل، و تجعل حقيقه الجنسيه مقصوره على المذكور. و تقول: «هذا رجل» تريد: كامل من الرجال، لا أن من عداه فليس برجل على الكمال. و قد تقول: «هذا، إمّا لا، رجل»، تريد: يستحقّ أن يعدّ فى الرجال، و يكون قصدك أن تشير إلى أنّ هناك واحدا آخر لا يدخل فى الاعتداد أصلا و لا يستحق اسم الرجل.

و إذا كان هذا

هو الطريق المهيع فى الوضع من الشى ء و ترك الاعتداد به، و التفضيل له و المبالغه فى الاعتداد به، فكل صفتين تضادّتا، ثم أريد نقص الفاضله منهما، عبّر عن نقصها باسم ضدّها، فجعلت الحياه العاريه من فضيله العلم و القدره «موتا»، و البصر و السمع إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع و يبصر فلم يفهم معنى المسموع و لم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته عمى و صمما، و قيل للرجل: «هو أعمى أصمّ»، يراد أنه لا يستفيد شيئا مما يسمع و يبصر، فكأنه لم يسمع و لم يبصر. و سواء عبّرت عن نقص الصفه بوجود ضدّها، أو وصفها بمجرّد العدم، و ذلك أنّ فى إثبات أحد الضدّين وصفا للشى ء، نفيا للضدّ الآخر، لاستحاله أن يوجدا معا فيه، فيكون الشّخص حيّا ميّتا معا، أصمّ سمعيا فى حاله واحده. فقولك فى الجاهل:

«هو ميّت»، بمنزله قولك: «ليس بحيّ»، و أن الوجود فى حياته بمنزله العدم.

هذا هو ظاهر المذهب فى الأمر و الحكم إذا أطلق القول، فأما إذا قيّد كقوله:

[من السريع] أصمّ عمّا ساءه سميع فتثبت له الصفتان معا على الجمله، إلّا أن مرجع ذلك إلى أن يقال إنه كان يفقد السمع فى حال و يعود إليه فى حال أو أنه فى حقّ هذا الجنس فاقد الإدراك مسلوبه،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۳

و فيما عداه كائن على حكم السميع. فلم يثبت له الصم على الجمله، إلّا للحكم بأن وجود سمعه كالعدم، إلا أن ذلك فى شى ء دون شى ء، و على

التقييد دون الإطلاق.

فقد تبيّن أن أصل هذا الباب تنزيل الموجود منزله المعدوم، لكونه بحيث لا يعتدّ به و خلوّه من الفضيله.

و الطريق الثانى فى شبه المعقول من المعقول: أن لا يكون على تنزيل الوجود منزله العدم، و لكن على اعتبار صفه معقوله يتصوّر وجودها مع ضدّ ما استعرت اسمه.

فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشده و الصعوبه، و بالبلوغ فى كونه مكروها إلى الغايه القصوى، فيقال: «لقى الموت»، يريدون لقى الأمر الأشدّ الصعب الذى هو فى كراهه النّفس له كالموت. و معلوم أنّ كون الشى ء شديدا صعبا مكروها صفه معلومه لا تنافى الحياه، و لا يمنع وجودها معه، كما يمنع وجود الموت مع الحياه أ لا ترى أن كراهه الموت موجوده فى الإنسان قبل حصوله، كيف و أكره ما يكون الموت إذا صفت مشاعر الحياه، و خصبت مسارح اللذّات. فكلما كانت الحياه أمكن و أتمّ، كانت الكراهه للموت أقوى و أشدّ، و لم تخفّ كراهته على العارفين إلا لرغبتهم فى الحياه الدائمه الصافيه من الشوائب، بعد أن تزول عنه هذه الحياه الفانيه و يدركهم الموت فيها، فتصوّرهم لذّه الأمن منه، قلّل كراهتهم له، كما أن ثقه العالم بما يعقبه الدواء من الصحه، تهوّن عليه مرارته. فقد عبرت هاهنا عن شدّه الأمر بالموت، و استعرته له من أجلها. و الشّده و محصولها الكراهه، موجوده فى كل واحد من المستعار له و المستعار منه فليس التشبيه إذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم، و تنزيل ما هو موجود كأنه قد خلع صفه الوجود. و ذلك أن هذا الحكم إنما جرى فى تشبيه الجهل بالموت، و جعل الجاهل ميّتا من حيث كان للجهل ضدّ ينافى الموت و يضادّه

و هو العلم. فلما أردت أن تبالغ فى نفى العلم الذى يجب مع نفيه الجهل، و جعلت الجهل موتا لتؤيس من حصول العلم للمذكور. و ليس لك هذا فى وصف الأمر الشديد المكروه بأنه موت، أ لا ترى أن قوله: [من السريع]

لا تحسبنّ الموت موت البلى و إنما الموت سؤال الرجال «۱»

---

(۱) هذا البيت و الذى يليه فى كتاب الحيوان ۳/ ۱۳۰- ۱۳۲، و البيان و التبيين ۲/ ۱۷۱، و دلائل الإعجاز ۲۵۶ و نسخته:

أشد من ذاك على كل حال.

و البيتان لم يعرف لهما قائل فى دلائل الإعجاز.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۴

لا يفيد أنّ للسّؤال ضدّا ينافى الموت أو يضادّه على الحقيقه، و أن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتا نفى ذلك الضدّ، و أن يؤيس من وجوده و حصوله، بل أراد أن فى السؤال كراهه و مراره مثل ما فى الموت، و أن نفس الحرّ تنفر عنه كما تنفر نفوس الحيوان جمله من الموت، و تطلب الحياه ما أمكن فى الخلاص منه.

فإن قلت: المعنى فيه أن السؤال يكسب الذلّ و ينفى العزّ، و الذليل كالميت لفقد القدره و التصرّف، فصار كتسميتهم خمول الذكر موتا، و الذكر بعد الموت حياه، كما قال أمير المؤمنين على رضى اللّه عنه: «مات خزّان المال، و العلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقوده، و أمثالهم فى القلوب موجوده».

قلت: إنى

آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى فى السؤال، و إنما أرادوا الكراهه، و لذلک قال بعد البيت الذى كتبته:

كلاهما موت، و لكنّ ذا أشدّ من ذاک لذلّ السّؤال «۱»

هذا، و ليس كل ما يعبّر عنه بالموت لأنه يكره و يصعب و لا يستسلم له العاقل إلّا بعد أن تعوزه الحيل فإنه يحمل هذا المحمل، و ينقاد لهذا التأويل، أ ترى المتنبى فى قوله: [من المتقارب]

و قد متّ أمس بها موته و لا يشتهى الموت من ذاقه «۲»

أراد شيئا غير أنه لقى شدّه. و أمّا العباره عن خمول الذكر بالموت، فإنه و إن كان يدخل فى تنزيل الوجود منزله العدم، من حيث يقال: إن الخامل لمّا لم يذكر و لم يبن منه ما يتحدّث به، صار كالميت الذى لا يكون منه قول، بل و لا فعل يدلّ على وجوده فليس دخوله فيه ذلک الدخول. و ذلک أن الجهل ينافى العلم و يضادّه كما لا يخفى، و العلم إذا وجد فقد وجدت الحياه حتما واجبا، و ليس كذلک خمول

---

(۱) و فى نسخه. أشد من ذاک على كل حال.

(۲) الضمير راجع إلى الخمر فإن الكلام فيها، و البيت فى ديوانه، و قال قبل هذا البيت:

وجدت المدامه غلابه تهيّج للقلب أشواقه

تسى ء من المرء تأديبه و لكن تحسّن أخلاقه

و أنفس ما للفتى لبّه و ذو اللب يكره إنفاقه

قال شيخنا فى قوله تسى ء المرء تأديبه إلخ: أى تغلبه فتخرجه عن قيود الحشمه فى اللفظ و الحركات، و لكنها تغلب منه الخوف و البخل فيشجع و يسخو هذا ما يريده تحسينها لأخلاقه.

(رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۵

الذكر و الذكر، لأنه ليس إذا وجد الذكر فقد وجدت الحياه، لأنك تحدّث عن الميت بأفعاله التى كانت منه فى حال الحياه، فيتصوّر الذكر و لا حياه على الحقيقه، و لا يتصوّر العلم و لا حياه على الحقيقه.

و هكذا القول فى الطرف الآخر، و هو تسميه من لا يعلم ميّتا. و ذلك أن الموت هاهنا عباره عن عدم العلم و انتفائه، و عدم العلم على الإطلاق، حتى لا يوجد منه شى ء أصلا، و حتى لا يصحّ وجوده، يقتضى وجود الموت على الحقيقه و لا يمكن أن يقال إنّ خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقه. فأنت إذن فى هذا تنزّل الوجود منزله العدم على وجه لا ينصرف إلى الحقيقه و لا يصير إليها. و إنما يمثّل و يخيّل.

و أما فى الضرب الأول و هو جعل من

لا يعلم ميّتا و من يعلم هو الحىّ فإنك تلاحظ الحقيقه و تشير إليها و تحطب فى حبلها «۱»، فاعرفه.

و أمّا قولهم فى الغنىّ إذا كان بخيلا لا ينتفع بماله: «إنّ غناه فقر»، فهو فى الضرب الأول أعنى تنزيل الوجود منزله العدم لتعرّى الوجود مما هو المقصود منه.

و ذلک أن المال لا يراد لذاته، و إنما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدّها العقلاء انتفاعا، فإذا حرم مالكه هذه الجدوى و هذه الفائده، فملكه له و عدم الملک سواء، و الغنى إذا صرف إلى المال، فلا معنى له سوى ملک الإنسان الشى ء الكثير منه، أ لا تراه يذكر مع الثروه فيقال: «غنىّ مثر مكثر»؟ فإذا تبين بالعله التى مضت أنه لا يستفيد بملكه هذا المال معنى، و أن لا طائل له فيه، فقد ثبت أن غناه و الفقر سواء، لأن الفقر أن لا يملک المال الكثير. و أمّا قول اللؤماء: إن انتفاعه فى اعتقاده أنّه متى شاء انتفع به، و ما يجد فى نفسه من عزّه الاستظهار، و أنه يهاب و يكرم من أجله، فمن أضاليل المنى، و قد يهان و يذلّ و يعذّب بسببه حتى تنزع الروح دونه.

ثم إن هذا كلام وضعه العقلاء الذين عرفوا ما الانتفاع، و هذا المخالف لا ينكر أن الانتفاع لو عدم كان ملكه الآن لمال و عدم ملكه سواء، و إنما جاء يتطلّب عذرا، و يرخى دون لؤمه سترا.

و نظير هذا أنک ترى الظالم المجترئ على الأفعال القبيحه، يدّعى لنفسه الفضيله بأنه مديد الباع طويل اليد، و أنه قادر على أن يلجئ غيره إلى التّطامن له، ثم لا يزيده احتجاجه إلا خزيا و ذلا عند اللّه و عند الناس،

و ترى المصدّق له فى دعواه

---

(۱) أى: تنصرها و تميل إليها. و حطب من باب ضرب. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۶

أذمّ له و أهجى من المكـذّب، لأن الـذى صـدّقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانيه بحال، و الـذى كـذّب رجا أن ينزع عند التنبيه و الكشف عن صوره القبيح.

و أمـا قولهم فى «القنـاعه» إنها الغنى كقوله: [من البسـيط] إنّ القنوع الغنى لا كثره المال «۱» يريـد القناعه، و كما قال الآخر: [من الكامل]

إنّ القناعه فاعلمنّ غنى و الحرص يورث أهله الفقرا «۲»

و جعلهم الكثير المـال، إذا كـان شـرها حريصـا على الازدياد، فقيرا، فممّا يرجع إلى الحقيقه المحضه. و إن كان فى ظاهر الكلام كـالتشبيه و التمثيـل، و ذلـك أن حقيقه الغنى هو انتفـاء الحـاجه و الحـاجه أن تريـد الشـى ء و لاـ تجـده، و الكثير المال إذا كان الحرص عليه غالبا، و الشّره له أبدا صاحبا، كان حاله كحال من به كلب الجوع يأكل و لا يشبع، أو من به البغر يشرب و لا يروى. فكما إنّ إصابته من الطعام و الشـراب القـدر الـذى يشـبع و يروى، إذا كان المزاج معتدلا و الصّحه صـحيحه، لا تنفى عنه صـفه الجائع و الظمآن لوجود الشهوه و دوام مطالبه النفس و بقاء لهيب الظمأ و جهد العطش.

كذلك الكثير المال لا تحصل له صفه الغنى و لا تزول عنه

صفه الفقر، مع بقاء حرصه الذى يديم له القرم و الشّره و الحاجه و الطلب و الضجر حين يفقد الزياده التى يريدها، و حين يفوته بعض الرّبح من تجاراته و سائر متصرّفاته، و حتى لا يكاد يفصل بين حاله و قد فاته ما طلب، و بينها و قد أخذ بعض ماله و غصب. و من أين تحصل حقيقه الغنى لذى المال الكثير؟ و قد تراه من بخله و شحّه كالمقيّد دون ما ملكه، و المغلول اليد يموت صبرا و يعانى بؤسا، و لا تمتدّ يده إلى ما يزعم أنه يملكه فينفقه فى لذّه نفس، أو فيما يكسب حمدا اليوم و أجرا غدا، ذاك لأنه عدم كرما يبسط أنامله، وجودا ينصر أمله، و عقلا يبصّره، و همّه تمكّنه مما لديه، و تسلّطه عليه، كما قال البحترى:

و واجد مال أعوزته سجيّه تسلّطه يوما على ذلك الوجد «۳»

فقولهم إذن: «إن القناعه هى الغنى لا كثره المال»، إخبار عن حقيقه نفّذتها

---

(۱) البيت لمحمد بن يسير الحميرى. و القنوع: السؤال؛ القانع: السائل، قال اللّه تعالى: فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ [الحج: ۳۶].

(۲) البيت غير معروف قائله.

(۳) البيت للبحترى فى ديوانه. الوجد و الوجد و الوجد: اليسار و السعه. و فى التنزيل العزيز: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ، و قد قرئ بالثلاث. و الواجد: الغنى، قال الشاعر: الحمد للّه الغنى الواجد. [لسان العرب: وجد].

قضايا العقول، و صحّحتها الخبره و العبره، و لكن ربّ قضيه من العقل نافذه قد صارت كأنها من الأمور المتجوّز فيها، أو دون ذلك فى الصحه، لغلبه الجهل و السفه على الطباع، و ذهاب من يعمل بالعقل و يذعن له، و يطرح الهوى، و يصبو إلى الجميل، و يأنف من القبيح، و لذهاب الحياء و بطلانه، و خروج الناس من سلطانه، و يأس العاقل من أن يصادف عندهم، إن نبّه أو ذكّر، سمعا يعى، و عقلا يراعى، فجرى «الغنى» على كثره المال، و «الفقر» على قلّته، مما يزيله العرف عن حقيقته فى اللغه. و لما كان الظاهر من حال الكثير المال أنه لا يعجز عن شى ء يريده من لذّاته و سائر مطالبه، سمّى المال الكثير «غنى»، و كذلك لمّا من كان قلّ ماله، عجز عن إرادته، سمّى قلّه المال «فقرا»، فهو من جنس تسميه السبب باسم المسبّب، و إلا فحقيقه «الغنى» انتفاء الاحتياج، و حقيقه «الفقر» الاحتياج، و اللّه تعالى الغنىّ على الحقيقه، لاستحاله الاحتياج عليه جلّ و تعالى عن صفات المخلوقين.

و على ذاك ما جاء فى الخبر من أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أ تدرون من المفلس؟

قالوا: المفلس فينا يا رسول اللّه من لا درهم له و لا متاع. قال: المفلس من أمّتى من يأتى يوم القيامه بصلاته و زكاته و صيامه، فيأتى و قد شتم هذا، و أكل مال هذا، و قذف هذا، و ضرب هذا، و سفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، و هذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يفنى ما عليه من الخطايا،

أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار».

ذاک أنه صلّى اللّه عليه و سلّم بيّن الحكم فى الآـخره. فلما كان الإنسان إنما يعدّ غنيّا فى الـدنيا بماله، لأنه يجتلب به المسرّه و يدفع المضرّه، و كان هذا الحكم فى الآخره، للعمل الصالح، ثبت لا محاله أن يكون الخالى، نعوذ باللّه، من ذلک، هو «المفلس»، إذ قد عرى مما لأجله يسمّى الخالى من المال فى الدنيا «مفلسا»، و هو عدم ما يوصله إلى الخير و النعيم، و يقيه الشرّ و العذاب، نسأل اللّه التوفيق لما يؤمن من عقابه.

و إذا كان البحث و النظر يقتضى أن «الغنى» و «الفقر» فى هذا الوجه دالّان على حقيقه هذا التركيب فى اللغه «۱»، كقولک: «غنيت عن الشى ء» و «استغنيت عنه، إذا لم تحتج إليه و «افتقرت إلى كذا»، إذا احتجت إليه وجب أن لاـ يعدواها هاهنا فى المستعار و المنقول عن أصله.

---

(۱) قوله: «حقيقه هذا التركيب» أى: الحاجه إلى الشى ء أو عدم الحاجه إليه قال شيخنا: و المراد من هذا التركيب ما ذكره بقوله: غنيت عن الشى ء و استغنيت عنه. (رشيد).

فصل

اشاره

فصل

إن قال قائل: إنّ تنزيل الوجود منزله العدم، أو العدم منزله الوجود، ليس من حديث التشبيه فى شى ء، لأن التشبيه أن تثبت لهذا معنى من معانى ذاک، أو حكما من أحكامه، كإثباتک للرجل شجاعه الأسد، و للحجه حكم النّور، فى أنک تفصل بها بين الحق و الباطل، كما يفصل بالنور بين الأشياء. و إذا قلت فى

الرجل القليل المعانى: «هو معدوم»، أو قلت: «هو و العدم سواء»، فلست تأخذ له شبها من شى ء، و لكنك تنفيه و تبطل وجوده، كما أنك إذا قلت: «ليس هو بشى ء» أو «ليس برجل»، كان كذلك. و كما لا يسمّى أحد نحو قولنا: «ليس بشى ء» تشبيها، كذلك ينبغى أن لا يكون قولك: و أنت تقلّل الشى ء أخبرت عنه «معدوم» تشبيها. و كذلك إذا جعلت المعدوم موجودا كقولك مثلا للمال يذهب و يفنى و يثمر صاحبه ذكرا جميلا و ثناء حسنا: «إنه باق لك موجود». لم يكن ذلك تشبيها، بل إنكارا لقول من نفى عنه الوجود، حتى كأنك تقول: «عينه باقيه كما كانت، و إنما استبدل بصوره صوره فصار جمالا، بعد ما كان مالا، و مكارم، بعد أن كان دراهم».

و إذا ثبت هذا فى نفس الوجود و العدم، ثبت فى كل ما كان على طريق تنزيل الصفه الموجوده كأنها غير موجوده، نحو ما ذكرت من جعل الموت عباره عن الجهل، فلم يكن ذلك تشبيها، لأنه إذا كان لا يراد بجعل الجاهل ميّتا إلا نفى الحياه عنه مبالغه، و نفى العلم و التمييز و الإحساس الذى لا يكون إلا مع الحياه، كان محصوله أنك لم تعتدّ بحياته، و ترك الاعتداد بالصفه لا يكون تشبيها، إنما نفى لها و إنكار لقول من أثبتها.

فالجواب: إن الأمر كما ذكرت، و لكنّى تتبّعت فيما وضعته ظاهر الحال، و نظرت إلى قولهم: «موجود كالمعدوم»، و «شى ء كلا شى ء»، و «وجود شبيه بالعدم»، فإن أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه، إلا أن من حقّك أن تعلم أنه لا غنى بك عن حفظ الترتيب الذى رتّبته فى إعطاء المعقول اسم معقول آخر

أعنى لا بدّ من أن تعلم أنه يجى ء على طريقين: أحدهما: تنزيل الوجود منزله العدم، كما مضى من أنّ جعل الموت عباره عن الجهل، و إيقاع اسمه عليه يرجع إلى تنزيل حياته الموجوده كأنها معدومه، و الثانى: أن لا يكون هذا المعنى، و لكن على أنّ لأحد المعنيين شبها من الآخر، نحو أن السؤال يشبه، فى كراهته و صعوبته على نفس الحرّ، الموت.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۶۹

و اعلم أنى ذكرت لك فى تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر القريب المتناول الكائن من قبيل المتعارف فى كل لسان، و ما تجد اعترافا به و موافقه عليه من كل إنسان، أو ما يشابه هذا الحدّ و يشاكله، و يداخل هذا الضّرب و يشاركه، و لم أذكر ما يدقّ و يغمض، و يلطف و يغرب، و ما هو من الأسرار التى أثارتها الصنعه، و غاصت عليها فكره الأفراد من ذوى البراعه فى الشّعر، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس، و وضع قواعد القياس، كان الأولى أن يعمد إلى ما هو أظهر و أجلى من الأمثله، لتكون الحجه بها عامّه لا يصرف وجهها بحال، و الشهاده تامه لا تجد من السامعين غير قبول و إقبال، حتى إذا تمهّدت القواعد، و أحكمت العرى و المعاقد، أخذ حينئذ فى تتبع ما اخترعته القرائح، و عمد إلى حل المشكلات عن ثقه بأن هيّئت المفاتح، هذا و فى الاستعاره بعد من جهه القوانين و الأصول، شغل للفكر، و مذهب للقول، و خفايا و لطائف تبرز من حجبها

بالرّفق و التدريج و التلطّف و التأنّى.

و لكنى أظنّ أنّ الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه و التمثيل و حقيقتهما و المراد منهما، خصوصا فى كلام من يتكلم على الشعر، و نتعرّف أ هما متساويان فى المعنى، أو مختلفان، أم جنسهما واحد، إلا أن أحدهما أخصّ من الآخر؟ و أنا أضع لك جمله من القول تبين بها هذه الأمور.

التشبيه و التمثيل أقسام التشبيه

التشبيه و التمثيل أقسام التشبيه

اعلم أن الشيئين إذا شبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما: أن يكون من جهه أمر بيّن لا يحتاج إلى تأوّل.

و الثانى: أن يكون الشبه محصّلا بضرب من التأوّل.

فمثال الأول: تشبيه الشى ء بالشى ء من جهه الصّوره و الشكل، نحو أن يشبّه الشى ء إذا استدار بالكره فى وجه، و بالحلقه فى وجه آخر و كالتشبيه من جهه اللّون، كتشبيه الخدود بالورد، و الشعر بالليل، و الوجه بالنهار، و تشبيه سقط النار «۱» بعين الديک، و ما جرى فى هذا الطريق أو جمع الصّوره و اللون معا، كتشبيه الثّريّا بعنقود

---

(۱) السقط- مثلثه و الكسر أشهر- ما يسقط بين الزندين عقد القدح، و زاد بعضهم: قبل استحكام الورى، و هو القدح.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۰

الكرم المنوّر، و النرجس بمداهن درّ حشوهن عقيق، و كذلك التشبيه من جهه الهيئه نحو: أنه مستو منتصب مديد، كتشبيه قامه الرّجل بالرمح، و القدّ اللطيف بالغصن و يدخل فى الهيئه حال الحركات فى أجسامها، كتشبيه الذاهب على الاستقامه بالسّهم السديد، و من تأخذه الأريحيّه فيهتزّ بالغصن تحت البارح، و نحو

ذلک و کـذلک کل تشبیه جمع بین شـیئین فیما یدخل تحت الحواسّ، نحو تشبیهک صوت بعض الأشـیاء بصوت غیره، کتشبیه أطیط الرحل بأصوات الفراریج، کما قال:

[من البسیط]

کأنّ أصوات، من إیغالهنّ بنا، أواخر المیس إنقاض الفراریج «۱»

تقـدیر البیت «کـأن أصوات أواخر المیس أصوات الفراریـج من إیغـالهن بنـا» ثم فصـل بین المضـاف و المضاف إلیه بقوله: «من إیغالهن» و کتشبیه صریف أنیاب البعیر بصیاح البوازی، کما قال: [من الطویل]

کأنّ علی أنیابها سحره صیاح البوازی من صریف اللّوائک «۲»

و أشـباه ذلـک من الأـصوات المشـبهه له و کتشبیه بعض الفواکه الحلوه بالعسـل و السـکّر و تشبیه اللّین النـاعم بالخزّ، و الخشـن بالمسح، أو رائحه بعض الریاحین برائحه الکافور أو رائحه بعضـها ببعض کما لا یخفی، و هکذا التشبیه من جهه الغریزه و الطباع، کتشـبیه الرجـل بالأسـد فی الشـجاعه، و بالـذئب فی النکر. و الأخلاـق کلّهـا تـدخل فی الغریزه نحـو السّـخاء و الکرم و اللؤم، و کذلک تشبیه الرجل بالرجل فی الشده و القوه و ما یتصل بهما.

فالشبه فی هذا کلّه بیّن لا یجری فیه التأوّل، و لا یفتقر إلیه فی تحصیله، و أیّ

---

(۱) البـیت لـذی الرمه فی دیوانه فی قصـیده: «کأنهـا بکره أدمـاء». ص ۴۲. الإیغال: التقـدم و الـدخول؛ المیس: شـجر تعمل منه الرحال، و یعنی: الرحل.

(۲) البیت لذی الرمه فی دیوانه ص ۱۹۲، و صیغته هکذا:

كأن على أنيابه كل سدفه صياح البوازى من صريف اللوائك

السّحر و السّحر: آخر الليل قبيل الصبح، و الجمع أسحار. و السّحره: السّحر، و قيل: أعلى السحر، و قيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. و اللوائك. جمع لائك، و لائكه: و اللوك: أهون المضغ، و قيل: هو مضغ الشى ء الصلب الممضغه تديره فى فيك، قال الشاعر:

و لو كهم جدل الحصى بشفاههم كأنّ على أكتافهم فلقا صخرا

و اللّوك: إداره الشى ء فى الفم. [لسان العرب: لوك].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٧١

تأوّل يجرى فى مشابهه الخدّ للورد فى الحمره، و أنت تراها هاهنا كما تراها هناك؟

و كذلك تعلم الشّجاعه فى الأسد كما تعلمها فى الرجل.

و مثال الثانى: و هو أشبه الذى يحصل بضرب من التأوّل، كقولك: «هذه حجّه كالشمس فى الظهور»، و قد شبّهت الحجه بالشمس من جهه ظهورها، كما شبّهت فيما مضى الشى ء بالشى ء من جهه ما أردت من لون أو صوره أو غيرهما. إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتمّ لك إلا بتأوّل، و ذلك أن تقول: حقيقه ظهور الشمس و غيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب و نحوه، مما يحول بين العين و بين رؤيتها، و لذلك يظهر الشى ء لك إذا لم يكن بينك

و بينه حجاب، و لا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب.

ثم تقول: إن الشبهه نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤيه ما هى شبهه فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه. و لـذلك توصف الشبـهه بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه، و يصرف فكره للوصول إليه من صحّه حكم أو فساده. فإذا ارتفعت الشبـهه و حصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجّه على صحّه ما ادّعى من الحكم قيل: «هذا ظاهر كالشمس»، أى ليس هاهنا مانع عن العلم به، لا ـ للتوقف و الشكّ فيه مساغ، و أنّ المنكر له إمّا مدخول فى عقله أو جاحد مباهت، و مسرف فى العناد، كما أن الشمس الطالعه لا يشكّ فيها ذو بصر، و لا ينكرها إلّا من لا عذر له فى إنكاره. فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبته بين الحجّه و الشمس إلى مثل هذا التأوّل كما ترى.

ثم إنّ ما طريقه التأوّل يتفاوت تفاوتا شديدا، فمنه ما يقرب مأخذه و يسهل الوصول إليه، و يعطى المقاده طوعا، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شى ء، و هو ما ذكرته لك و منه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمّل، و منه ما يدقّ و يغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل رويّه و لطف فكره.

فمما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ و سهوله المأتى، قوله فى صفه الكلام: «ألفاظه كالماء فى السلاسه»، و «كالنسيم فى الرّقه»، و «كالعسل فى الحلاوه»، يريدون أن اللفظ لا يستغلق و لا يشتبه معناه و لا يصعب الوقوف عليه، و ليس هو بغريب وحشىّ يستكره، لكونه غير مألوف، أو

ليس فى حروفه تكرير و تنافر يكدّ

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۲

اللسان من أجلهما «۱»، فصارت لذلک كالماء الذى يسوغ فى الحلق، و النسيم يسرى فى البدن، و يتخلّل المسالك اللطيفه منه، و يهدى إلى القلب روحا، و يوجد فى الصدر انشراحا، و يفيد النفس نشاطا، و كالعسل الذى يلذّ طعمه، و تهشّ النفس له، و يميل الطبع إليه، و يحبّ وروده عليه، فهذا كله تأوّل، و ردّ شـى ء إلى شى ء بضرب من التلطف، و هو أدخل قليلا فى حقيقه التأوّل، و أقوى حالا فى الحاجه إليه، من تشبيه الحجّه بالشمس.

و أما ما تقوى فيه الحاجه إلى التأوّل حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهه السماع، فنحو قول كعب الأشقرىّ، و قد أوفده المهلّب على الحجّاج، فوصف له بنيه و ذكر مكانهم من الفضل و البأس، فسأله فى آخر القصّه قال: «فكيف كان بنو المهلب فيهم «۲»؟ قال: كانوا حماه السرح نهارا، فإذا أليلوا ففرسان البيات «۳»، قال:

فأيّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقه المفرغه لا يدرى أين طرفاها» «۴».

فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرّفق به و النظر. أ لا ترى أنه لا يفهمه حقّ فهمه إلا من له ذهن و نظر يرتفع به عن طبقه العامّه؟ و ليس كذلک تشبيه الحجّه بالشمس، فإنه كالمشترک البيّن الاشتراک، حتى يستوى فى معرفته، اللبيب و اليقظ و المضعوف المغفّل، و هكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت، قد تجده فى كلام العامى.

فأمّا ما كان مذهبه فى اللّطف مذهب قوله:

«هم كالحلقه»، فلا تراه إلا فى الآداب و الحكم المأثوره عن الفضلاء و ذوى العقول الكامله.

---

(١) الكد: الإتعاب. و يقال: كد لسانه تجوزا كما فى الأساس.

(٢) أى: فى القوم المحاربين.

(٣) السرح: المال السائم من الأنعام. و أليلوا (كأكرموا) دخلوا فى الليل و البيات الهجوم على العدو ليلا. قال شيخنا أى: يقظون لا يطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خير لهم لملاقاته و أنهم يتبعون العدو ليلا فيفجعونه اه. (رشيد).

(۴) هذا المثل من كلام فاطمه بنت الخرشب (بضم فسكون فضم) الأنماريه إحدى المنجبات فى الجاهليه و هى أم الكمله من بنى عبس الربيع و عماره و أنس الفوارس و إخوتهم. سألها أبو سفيان حين قدمت عليه مكه حاجه فى الجاهليه «أى بنيك أفضل؟» فقالت: الربيع لا ـ بل عماره لا ـ بل أنس الفوارس، ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل، هم كالحلقه المفرغه إلخ. فقد أخذه كعب الأشقرى و وصف به بنى المهلب. (رشيد).

الفرق بين التشبيه و التمثيل

الفرق بين التشبيه و التمثيل

و إذ قد عرفت الفرق بين الضّربين، فاعلم أن التشبيه عامّ و التمثيل أخصّ منه، فكل تمثيل تشبيه، و ليس كلّ تشبيه تمثيلا، فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم:

[من الطويل]

و قد لاح فى الصّبح الثريّا لمن رأى كعنقود ملّاحيّه حين نوّرا «١»

«إنّه تشبيه حسن»، و لا تقول: «هو تمثيل»، و

كذلك تقول: «ابن المعتزّ حسن التشبيهات بديعها»، لأنك تعنى تشبيهه المبصـرات بعضها ببعض، و كلّ ما لا يوجد الشبه فيه من طريق التأوّل، كقوله: [من الطويل]

كأنّ عيون النّرجس الغضّ حولها مداهن درّ حشوهنّ عقيق «۲»

و قوله: [من الكامل]

و أرى الثّريّا فى السّماء كأنّها قد تبدّت من ثياب حداد «۳»

و قوله: [من مجزوء الخفيف]

و تروم الثّريا فى الغروب مراما

كانكباب طمرّ كاد يلقى اللّجاما «۴»

و قوله: [من المنسرح]

---

(۱) البيت هو فى الأغانى لأبى قيس بن الأسلت. الأغانى: ۱۷/ ۱۳۴. و فى لسان العرب لأبى قيس أيضا، ماده: (ملح). و الملّاحيه: الملّاحى بالضم و تشديد اللام: ضرب من العنب أبيض فى حبه طول، و هو من الملحه. [لسان العرب: ملح].

(۲) البيت لابن المعتز، (و هو غير موجود فى ديوانه طبعه دار صادر). المـداهن: جمع مـدهن: و هو آله الدهن، و هو أحد ما شـذّ من هـذا الضـرب على مفعل مما يسـتعمل من الأدوات. الليث: المدهن كان فى الأصل مدهنا فلما كثر الاسـتعمال ضـموه. [لسان العرب: دهن].

(۳) البيت لابن المعتز فى ديوانه

۱۷۷ (طبعه دار صادر) و قبله:

قم يا نديمى نصطبح بسواد قد كان يبدو الصبح أو هو باد

و أرى الثريا ....

(۴) البيتان لابن المعتز فى ديوانه ص ۴۰۲، و صيغتهما و البيت قبلهما (طبعه دار صادر):

يا خليلىّ هبّا و اسقيانى المداما

إذ تروم الثريّا فى الغروب مراما

كاسيات طمرّ كاد يلقى اللجاما

و الطّمرّ: بتشديد الراء، الطمرير و الطمرور: الفرس الجواد و قيل: المشمّر الخلق، و قيل: المستفزّ للوثب و العدو، و قيل: هو الطويل القوائم الخفيف، و قيل: المستعدّ للعدو، و الأنثى: طمرّه.

[لسان العرب: طمر].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۴

قد انقضت دوله الصيام و قد

بشّر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود «۱»

و قوله: [من السريع]

لمّا تعرّى أفق الضّياء مثل ابتسام الشّفه اللّمياء

و شمطت ذوائب الظّلماء قدنا لعين الوحش و الظّباء

داهيه محذوره اللّقاء و يعرف الزّجر من الدّعاء

بأذن ساقطه الأرجاء كورده السّوسنه الشّهباء

ذا برثن كمثقب الحذّاء و مقله قليله الأقذاء

صافيه كقطره من ماء «۲» و ما كان من هذا الجنس و لا تريد نحو قوله: [من الكامل]

اصبر على مضض الحسو د فإنّ صبرك قاتله

فالنّار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله «۳»

و ذلك أن إحسانه فى النوع الأول أكثر، و هو به أشهر.

و كل ما لا يصحّ أن يسـمّى «تمثيلا» فلفظ «المثل» لا يسـتعمل فيه أيضا، فلا يقال: «ابن المعتزّ حسن الأمثال»، تريد به نحو الأبيات التى قدّمتها، و إنما يقال:

«صالح بن عبد القدّوس كثير الأمثال فى شعره»، يراد نحو قوله: [من السريع]

و إنّ من أدّبته فى الصّبا كالعود يسقى الماء فى غرسه

حتّى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه «۴»

و ما أشبهه، مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فى التأوّل، و لكن إن قلت فى قول ابن المعتز:

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه «تمثيل»، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صبر

---

(۱) البيتان لابن المعتز فى ديوانه ص ۱۸۱، و البيت الثانى فى الديوان (دار صادر) هكذا:

علّلانى بصوت ناى و عود و اسقيانى دم ابنه العنقود

(۲) الأبيات

لابن المعتز، و هى غير متتاليه (انظر الديوان ص ۱۸، ۱۹).

(۳) البيتان لابن المعتز، و لم أجدهما فى الديوان (طبعه دار صادر).

(۴) البيتان لصالح بن عبد القدوس فى ديوانه ص ۱۴۲، و فى التبيان فى المعانى و البيان ص ۲۶۸.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۵

و سكت عنه، و ترک غيظه يتردّد فيه بالنار التى لا تمدّ بالحطب حتى يأكل بعضها بعضا، مما حاجته إلى التأوّل ظاهره بيّنه.

فقد تبيّن بهذه الجمله وجه الفرق بين «التشبيه»، و «التمثيل». و فى تتبع ما أجملت من أمرهما، و سلوک طريق التحقيق فيهما، ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق.

فصل

فصل

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام، أنّ الاشتراک فى الصفه يقع مرّه فى نفسها و حقيقه جنسها، و مره فى حكم لها و مقتضى. فالخدّ يشارک الورد فى الحمره نفسها و تجدها فى الموضعين بحقيقتها و اللفظ يشارک العسل فى الحلاوه، لا من حيث جنسه، بل من جهه حكم و أمر يقتضيه، و هو ما يجده الذائق فى نفسه من اللّذّه، و الحاله التى تحصل فى النفس إذا صادفت بحاسّه الذّوق ما يميل إليه الطبع و يقع منه بالموافقه، فلمّا كان كذلک، احتيج لا محاله إذا شبّه بالعسل فى الحلاوه أن يبيّن أنّ هذا التشبيه ليس من جهه الحلاوه نفسها و جنسها، و لكن من مقتضى لها، و صفه تتجدّد فى النفس بسببها، و أنّ القصد أن يخبر بأنّ السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه

حـاله فى نفسه، شبيهه بالحـاله التى يجـدها الـذائق للحلاـوه من العسـل، حتى لو تمثّلت الحالتـان للعيون، لكانتا تريان على صوره واحده، و لوجدتا من التناسب على حدّ الحمره من الخدّ، و الحمره من الورد.

و ليس هاهنـا عبـاره أخصّ بهـذا البيان من «التأوّل»، لأن حقيقه قولنا: «تأوّلت الشـى ء»، أنك تطلّبت ما يؤول إليه من الحقيقه، أو الموضع الذى يؤول إليه من العقل، لأن «أوّلت و تأوّلت» فعّلت و تفعّلت من «آل الأمر إلى كذا يؤول»، إذا انتهى إليه، و «المآل»، المرجع و ليس قـول من جعـل «أوّلت و تـأوّلت» من «أوّل» بشـى ء، لأـن مـا فـاؤه و عينه من وضع واحـد «ككوكب» و «ددن» لا يصـرّف منه فعل، و «أوّل» «أفعل» بـدلاله قولنا: «أوّل منه»، كقولنا: «أسـبق منه و أقـدم». فالواو الأولى فاء و الثانيه عين و ليس هذا موضع الكلام فى ذلک فيستقصى.

و أمـا الضـرب الأـول، فـإذا كان المثبت من الشـبه فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل، كان أصـلا بنفسه، و كان ظاهر أمره و باطنه واحدا، و كان حاصل جمعک بين الورد و الخد، أنک وجدت فى هذا و ذاک حمره، و الجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد

فى شيئين، و إنما يتصوّر فيه التفاوت بالكثره و القلّه و الضعف و القوه، نحو أن حمره هذا الشى ء أكثر و أشد من حمره ذاک.

و إذا تقرّرت هذه الجمله، حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقى الأصلى هو الضرب الأول، و أن هذا الضرب فرع له

و مرتّب عليه.

و يزيد ذلك بيانا: أنّ مدار التشبيه على أنه يقتضى ضربا من الاشتراك، و معلوم أن الاشتراك فى نفس الصفه، أسبق فى التصوّر من الاشتراك فى مقتضى الصفه كما أن الصفه نفسها مقدّمه فى الوهم على مقتضاها، فالحلاوه أوّلا، ثم إنها تقتضى اللذّه فى نفس الذائق لها.

و إذا تأملنا متصرّف «۱» تركيبه، وجدناه يقتضى أن يكون الشيئان من الاتفاق و الاشتراك فى الوصف، بحيث يجوز أن يتوهّم أن أحدهما الآخر. و هكذا تراه فى العرف و المعقول، فإنّ العقلاء يؤكّدون أبدا أمر المشابهه بأن يقولوا: «لا يمكنك أن تفرق بينهما»، و لو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئا غير الأوّل، حتى تستدلّ بأمر خارج عن الصّوره. و معلوم أن هذه القضيه إنما توجد على الإطلاق و الوجود الحقيقى فى الضرب الأول و أمّا الضرب الثانى، فإنما يجى ء فيه على سبيل التقدير و التنزيل، فأما أن لا تجد فصلا بين ما يقتضيه العسل فى نفس الذائق، و ما يحصل باللفظ المرضىّ و الكلام المقبول فى نفس السامع، فما لا يمكن ادّعاؤه إلّا على نوع من المقاربه أو المجازفه، فأمّا على التحقيق و القطع فلا.

فالمشابهات المتأوّله التى ينتزعها العقل من الشى ء للشى ء، لا تكون فى حدّ المشابهات الأصليه الظاهره، بل الشبه العقلى كأنّ الشى ء «۲» به يكون شبيها بالمشبّه.

فصل

فصل

ثم إن هذا الشبه العقلى ربما انتزع من شى ء واحد، كما مضى انتزاع الشّبه للفظ من حلاوه العسل و ربما انتزع من عدّه أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه، فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر، حتى تحدث صوره غير ما كان لهما فى حال الإفراد، لا

سبيل الشيئين يجمع بينهما و تحفظ صورتهما.

---

(۱) و فى نسخه: منصرف بالنون.

(۲) و فى نسخه «كاد الشى ء» بدل كان الشى ء.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۷

و مثال ذلك قوله عزّ و جلّ: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً [الجمعه: ۵]، الشبه منتزع من أحوال الحمار، و هو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعيه العلوم و مستودع ثمر العقول، ثم لا يحسّ بما فيها و لا يشعر بمضمونها، و لا يفرّق بينها و بين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شى ء، و لا من الدّلاله عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظّ سوى أنه يثقل عليه، و يكدّ جنبيه فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعه، و نتيجه لأشياء ألّفت و قرن بعضها إلى بعض.

بيان ذلك: أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص، و هو الحمل، و أن يكون المحمول شيئا مخصوصا، و هو الأسفار التى فيها أمارات تدلّ على العلوم، و أن يثلّث ذلك بجهل الحمار ما فيها، حتى يحصل الشبه المقصود. ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد، و لا يتصوّر أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه، من غير أن يقف الأول على الثّانى، و يدخل الثانى فى الأول، لأن الشّبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثم لا يتعلق أيضا بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحموله على ظهره فما لم تجعله

كالخيط الممدود، و لم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد و تخرج عن أن تعرف صوره كلّ واحد منها على الانفراد، بل تبطل صورها المفرده التى كانت قبل المزاج، و تحدث صوره خاصه غير اللواتى عهدت، و يحصل مذاقها «۱» حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج، فرضت ما لا- يكون لم يتمّ المقصود، و لم تحصل النتيجه المطلوبه، و هى الذمّ بالشقاء فى شى ء يتعلق به غرض جليل و فائده شريفه، مع حرمان ذلك الغرض و عدم الوصول إلى تلك الفائده، و استصحاب ما يتضمن المنافع العظيمه و النعم الخطيره، من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سببا إلى نيل شى ء من تلك المنافع و النّعم.

و مثال ما يجى ء فيه التشبيه معقودا على أمرين إلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك قولهم: «هو يصفو و يكدر» و «يمرّ و يحلو» و «يشجّ و يأسو»، و «يسرح و يلجم»، لأنك و إن كنت أردت أن تجمع له الصّفتين، فليست إحداهما ممتزجه بالأخرى، لأنك لو قلت: «هو يصفو»، و لم تتعرض لذكر «الكدر» أو قلت:

---

(۱) و فى نسخه: تحصل بذاتها.

«يحلو»، و لم يسبق ذكر «يمرّ»، وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصّفاء و بالعسل فى الحلاوه بحاله و على حقيقته. و ليس كذلك الأمر فى الآيه لأنك لو قلت:

«كالحمار يحمل أسفارا»، و لم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقرونا بحمله، و أن يكون متعدّيا

إلى ما تعدّى إليه الحمل، لم يتحصل لك المغزى منه.

و كذلك لو قلت: «هم كالحمار فى أنه يجهل الأسفار»، و لم تشرط أن يكون حمله الأسفار مقرونا بجهله لها لكان كذلك. و كذلك لو ذكرت الحمل و الجهل مطلقين، و لم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار، فقلت: «هو كالحمار فى أنه يحمل و يجهل»، وقعت من التشبيه المقصود فى الآيه بأبعد البعد، و النكته أن التشبيه بالحمل للأسفار، إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل، و لم يكن الوصف بالصّفاء و التشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر، و لذلك لو قلت:

«يصفو و لا يكدر» لم تزد فى صميم التشبيه و حقيقته شيئا، و إنما استدمت الصّفه كقولك: «يصفو أبدا و على كل حال».

فصل

فصل

اعلم أن الشّبه إذا انتزع من الوصف لم يخل من وجهين:

أحدهما: أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه.

و الآخر: أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه.

فالأوّل: ما مضى فى نحو تشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوه، و ذلك أنّ وجه التشبيه هناك أنّ كل واحد منهما يوجب فى النفس لذّه و حاله محموده، و يصادف منها قبولا. و هذا حكم واجب للحلاوه من حيث هى حلاوه، أو للعسل من حيث هو عسل.

و أما الثانى: و هو ما ينتزع منه الشبه لأمر لا يرجع إلى نفسه، فمثاله أن يتعدّى الفعل إلى شى ء مخصوص يكون له من أجله حكم خاصّ، نحو كونه واقعا فى موقعه و على الصواب، أو واقعا غير موقعه، كقولهم: «هو كالقابض على الماء» و «الراقم فى الماء»، فالشبه هاهنا منتزع ممّا بين القبض و الماء، و ليس بمنزع من القبض نفسه، و ذلك أن فائده قبض اليد

على الشـى ء أن يحصل فيها، فإذا كان الشى ء مما لا يتماسک، ففعلک القبض فى اليد لغو و كذلک القصد فى «الرّقم» أن يبقى أثر فى الشى ء، و إذا فعلته فيما لا يقبله، كان فعلک كلا فعل و كذلک قولهم: «يضرب فى حديد بارد» و ينفخ فى غير فحم».

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۷۹

و إذا ثبت هـذا، فكل شـبه كان هـذا سبيله، فإنک لا تجـد بين المعنى المذكور و بين المشـبّه إذا أفردته، ملابسه البته. أ لا تراک تضرب الرّقم فى الماء و القبض عليه، لأمور لا شبه بينهما و بينها البته، من حيث هما رقم و قبض؟.

و إذا قـد عرفت هـذا فالحمـل فى الآـيه من هـذا القبيـل أيضا، لأنه تضـمّن الشّـبه من اليهود، لا لأمر يرجع إلى حقيقه الحمل، بل لأمرين آخرين: أحدهما تعدّيه إلى الأسـفار، و الآخر اقتران الجهل للأسـفار به. و إذا كان الأمر كذلک، كان قطعک الحمل عن هذين الأمرين فى البعد من الغرض، كقطعک القبض و الرّقم عن الماء، فى استحاله أن يعقل منها ما يعقل بعد تعدّيهما إلى الماء بوجه من الوجوه، فاعرفه.

فإن قلت: ففى اليهود شـبه من الحمل، من حيث هو حمل على حال. و ذلک أن الحافظ للشـى ء بقلبه، يشبه الحامل للشى ء على ظهره، و على ذلـک يقـال: «حمله الحـديث»، و «حمله العلم» كمـا جاء فى الأثر: «يحمل هـذا العلم من كلّ خلف عـدوله» «۱»، و «ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

فالجواب: أن الأمر و إن كان كذلک، فإنّ هذا

الشبه لم يقصدها هنا و إنما قصد ما يوجبه تعدّى الحمل إلى الأسفار، مع اقتران الجهل بها به، و هو العناء بلا منفعه.

يبيّن ذلک: أنک قد تقول للرجل يحمل فى كمّه أبدا دفاتر علم، و هو بليد لا يفهم، أو كسلان لا يتعلم: «إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضا قد يحمل»، تريد أن تبطل دعواه أن له فى حمله فائده، و أن تسوّى بينه و بين الحمار فى فقد الفائده مما يحمل. فالحمل هاهنا نفسه موجود فى المشبّه بالحمار، ثم التشبيه لا ينصرف إليه من حيث هو حمل، و إنما ينصرف إلى ما ذكرت لک من عدم الجدوى و الفائده.

و إنما يتصوّر أن يكون الشّبه راجعا إلى الحمل من حيث هو حمل، حيث يوصف الرجل مثلا بكثره الحفظ للوظائف، أو جهد النفس فى الأشغال المتراكمه، و ذلک خارج عن الغرض مما نحن فيه.

---

(١) هذا الحديث و ما بعده حديث آخر. أما الأول فقد رواه ابن منده و غيره مرفوعا من حديث إبراهيم ابن عبد الرحمن العذرى و هو مختلف فى صحبته و لفظه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين» و البيهقى فى المدخل مرسلا و ضعفه الكثيرون، و روى عن أحمد تصحيحه، و كتب شيخنا على حاشيه نسخته: قال القعنبى:

سمعت رجلا يحدث مالكا هذا الحديث فأعجبه. و الخلف بالتحريک و السكون: كل من يجى ء بعد من سبقه، إلا أنه بالتحريک فى الخير و بالتسكين فى الشر، و أما الآخر فهو من ضمن حديث رواه الترمذى و الضياء عن زيد بن ثابت بسند صحيح. (رشيد).

و من هذا الباب قولهم: «أخذ القوس باريها»، و ذلک أن المعنى على وقوع الأخذ فی موقعه و وجوده من أهله، فلست تشبّهه من حيث الأخذ نفسه و جنسه، و لكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من بارى القوس على القوس.

و كذلک قولهم: «ما زال يفتل منه فی الذّروه و الغارب» الشبه مأخوذ ما بين الفتل و ما تعدّى إليه من الذّروه و الغارب، و لو أفردته لم تجد شبها بينه و بين ما يضرب هذا الكلام مثلا له، لأنه يضرب فی الفعل أو القول يصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابه، و عن الإباء عليک مرادک، إلى موافقتک و المصير إلى ما تريد منه.

و هذا لا يوجد فی الفتل من حيث هو فتل، و إنما يوجد فی الفتل إذا وقع فی الشّعر من ذروه البعير و غاربه «۱».

و اعلم أن هذا الشبه حكمه واحد، سواء أخذته ما بين الفعل و المفعول الصريح، أو ما يجرى مجرى المفعول.

فالمفعول كالقوس فی قولک: «أخذ القوس باريها».

و ما يجرى مجرى المفعول، الجارّ مع المجرور، كقولک: «الرّقم فی الماء» و «هو كمن يخطّ فی الماء».

و كذلک الحال، كقولهم: «كالحادى و ليس له بعير»، فقولک: «و ليس له بعير»، جمله من الحال، و قد احتاج الشبه إليها، لأنه مأخوذ ما بين المعنى الذى هو «الحدو»، و بين هذه الحال، كما كان مأخوذا بين الرقم و الماء، و ما بين الفتل و الذروه و الغارب.

و قد تجد بک حاجه إلى مفعول و إلى الجارّ مع المجرور كقولک: «و

هل يجمع السيفان فى غمد»، و «أنت كمن يجمع السيفين فى غمد»، أ لا ترى أن الجمع فيه لا يغنى بتعدّيه إلى السيفين، حتى يشترط كونه جمعا لهما فى الغمد؟ فمجموع ذلك كله يحصّل الغرض.

و هكذا نحو قول العامّه: «هو كثير الجور على إلفه»، و قولهم: «كمبتغى

---

(١) فى حديث الزبير: «سأل عائشه الخروج إلى البصره فأبت عليه فما زال يفتل فى الذروه و الغارب حتى أجابته» جعل وبر ذروه البعير و غاربه مثلا ـ لإزالتها عن رأيها كما يفعل بالجمل النفور إذا أريد تأنيسه و إزاله نفاره. و الذروه أعلى السنام من البعير، و الغارب: الكاهل من (ذى) الخف و هو ما بين السنام و العنق اه. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٨١

الصّيد فى عرّيسه الأسد»، لأن «الصيد» مفعول و «فى عرّيسه» جارّ مع المجرور.

فإذا ثبت هذا، ظهر منه أنه لا بدّ لك فى هذا الضرب من الشّبه من جمله صريحه أو حكم الجمله. فالجمله الصريحه قولك: «أخذ القوس باريها» و حكم الجمله أن تقول: «هذا منك كالرّقم فى الماء»، و «كالقابض على الماء»، فتأتى باسم الفاعل. و ذاك أنّ المصدر و اسم الفاعل ليسا بجملتين صريحا و لكن حكم الجمله قائم فيهما، و هو أنك أعملتهما عمل الفعل. أ لا ترى أنك عدّيتهما على حسب ما تعدّى الفعل؟ و خصائص هذا النوع من «التمثيل» أكثر من أن تضبط، و قد وقفتك على الطريقه.

فهذا أحد الوجوه التى يكون الشّبه العقلى بها حاصلا لك من جمله من الكلام، و أظنّه

من أقوى الأسباب و العلل فيه.

و على الجمله، فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيقى، و التشبيه الذى هو الأولى بأن يسمّى «تمثيلا» لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جمله من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إنّ التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليّا محضا، كانت الحاجه إلى الجمله أكثر.

أ لا ترى إلى نحو قوله عزّ و جلّ: إِنَّما مَثَلُ الْحَياهِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ [يونس: ۲۴]، كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنك ترى فى هذه الآيه عشر جمل إذا فصّلت. و هى و إن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جمله واحده، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصله تشير إليها واحده واحده. ثم إنّ الشبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، و إفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جمله واحده من أىّ موضع كان، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه.

و لا ينبغى أن تعدّ الجمل فى هذا النحو بعدّ التشبيهات التى يضمّ بعضها إلى بعض، و الأغراض الكثيره التى كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعدّ جمل تنسق ثانيه منها على أوّله، و ثالثه على ثانيه، و هكذا. فإنّ ما كان من هذا الجنس لم تترتّب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقه و تلك تاليه و الثالثه بعدهما. أ لا ترى أنك إذا قلت: «زيد كالأسد

بأسا، و البحر جودا، و السيف مضاء، و البدر بهاء»، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاما مخصوصا؟ بل لو

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۸۲

بدأت بالبدر و تشبيهه به فى الحسن، و أخّرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعه، كان المعنى بحاله، و قوله: [من السريع]

النّشر مسک و الوجوه دنا نير و أطراف الأكفّ عنم «۱»

إنما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشّعر، فأمّا أن تكون هذه الجمل متداخله كتداخل الجمل فى الآيه، و واجبا فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتّبت ترتيبا مخصوصا كان لمجموعها صوره خاصّه فلا «۲».

و قد يجى ء الشى ء من هذا القبيل يتوهّم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد و تستعمل بنفسها تشبيها و تمثيلا، ثم لا يكون كذلک عند حسن التأمل، مثال ذلک قوله: [من الطويل]

كما أبرقت قوما عطاشا غمامه فلما رجوها أقشعت و تجلّت «۳»

هذا مثل فى أن يظهر للمضطرّ إلى الشى ء، الشديد الحاجه إليه، أماره وجوده، ثم يفوته و يبقى لذلک بحسره و زياده ترح.

و قد يمكن أن يقال: «إن قولک: «أبرقت قوما عطاشا غمامه»، تشبيه مستقلّ بنفسه، لا حاجه به إلى ما بعده من تمام البيت فى إفاده المقصود الذى

هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديـد الحـاجه، إلّا أنه و إن كـان كـذلك، فإن حقّنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه. و نحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداء مطمعا بانتهاء مؤيس، و ذلك يقتضى وقوف الجمله الأوّله على ما بعدها من تمام البيت.

و وزان هذا أن الشرط و الجزاء جملتان، و لكنا نقول: إنّ حكمهما حكم جمله

---

(۱) البيت للمرقش الأكبر فى المفضليات، و فى لسان العرب (ماده: نشر). النّشر: الريح الطيبه، العنم: شجر لين الأغصان لطيفها يشبه به البنان كأنه بنان العذارى، واحدتها عنمه، و هو مما يستاك به، و قيل: العنم أغصان تنبت فى سوق العضاه رطبه لا تشبه سائر أغصانها، حمر اللون، و قيل: هو ضرب من الشجر له نور أحمر تشبّه به الأصابع المخضوبه. [لسان العرب: عنم]. و أراد النشر مثل ريح المسک، لا ـ يكون إلا ـ على ذلك، لأن النشر عرض، و المسک جوهر، و قوله: و الوجوه دنانير، الوجه أيضا لا يكون دينارا، إنما أراد مثل الدنانير، و كذلك قال: و أطراف الأكف عنم إنما أراد مثل العنم لأن الجوهر لا يتحول إلى جوهر آخر. [لسان العرب: نشر].

(۲) و فى نسخه زياده لفظ (مقرره) بعد خاصه.

(۳) البيت لكثير عزه فى ديوانه ص ۱۰۷، و فى التبيان فى المعانى و البيان ص ۲۶۸. أبرقت: جاءت ببرق، أقشعت: انقشع عنه الشى ء و تقشّع غشيه ثم انجلى عنه، كالظلام عن الصبح، و الهم عن القلب، و السحاب عن الجو.

واحـده، من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحـداهما بالأخرى، حتى صارت الجمله لـذلك بمنزله الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائده. فلو قلت: «إن تأتنى» و سكتّ، لم تفد كما لا تفيد إذا قلت: «زيد» و سكتّ، فلم تذكر اسما آخر و لا فعلا، و لا كـان منويّا فى النفس معلومـا من دليـل الحـال. ثم إن الأمر، و إن كان كـذلك، فقـد يجوز أن تخرج الكلام عن الجزاء فتقول: «تأتينى»، فتعود الجمله على الإفاده، لإغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى، و إزالتك المعنى الـذى أوجب فقرها إلى صاحبه لها، إلا أن الغرض الأوّل يبطـل و المعنى يتبـدّل، فكـذلك الاقتصار على الجمله التى هى: «أبرقت قوما عطاشا غمامه»، يخرج عن غرض الشاعر.

فإن قلت: فهـذا يلزمك فى قولك: «هو يصـفو و يكـدر». و ذلك أن الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل، و قصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين، و أن الصفاء لا يدوم.

فالجواب: أن بين الموضـعين فرقا، و إن كان يغمض قليلا، و هو أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعا مؤنسا أدّى إلى انتهاء مؤيس موحش، و كون الشى ء ابتداء لآخر هو له انتهاء، معنى زائد على الجمع بين الأمرين، و الوصف بأن كلّ واحد منها يوجد فى المقصود. و ليس لـك فى قولك: «يصـفو و يكـدر»، أكثر من الجمع بين الوصـفين. و نظير هـذا أن تقول: «هو كالصّـفو بعد الكدر»، فى حصول معنى يجب «١» معه ربط أحد الوصفين بالآخر فى الذكر و يتعيّن به الغرض، حتى لو قلت:

«يكدر ثم يصفو»، فجئت بثمّ التى توجب الثانى مرتّبا على الأوّل، و أنّ أحدهما مبتدأ و الآخر بعده، صرت بالجمله

إلى حد ما نحن عليه من الارتباط، و وجوب أن يتعلّق الحكم بمجموعهما، و يوجد الشبه إن شبّهت ما بينهما، على التشابک و التداخل، دون التباين و التزايل.

و من الواضح فی کون الشّبه معلّقا بمجموع الجملتين، حتى لا يقع فی الوهم تميّز إحداهما على الأخرى قوله: «بلغنی أنک تقدّم رجلا و تؤخّر أخرى، فإذا أتاک کتابی هذا فاعتمد على أيّهما شئت و السّلام» ۲، و ذلک أن المقصود من هذا الکلام:

التردّد بين الأمرين، و ترجيح الرأی فيهما، و لا يتصوّر التردّد و الترجيح فی الشی ء الواحد، فلو جهدت وهمک أن تتصوّر لقولک: «تقدّم رجلا» معنى و فائده ما لم تقل: «و تؤخّر أخرى»، أو تنوه فی قلبک، کلّفت نفسک شططا.

---

(۱) و فی نسخه: يوجب بدل يجب.

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۸۴

و ذکر أبو أحمد العسکری أن هذا النحو من الکلام يسمّى: «المماثله»، و هذه التسميه توهم أنه شی ء غير المراد «بالمثل» و «التمثيل» و ليس الأمر کذلک، کيف و أنت تقول: «مثلک مثل من يقدم رجلا و يؤخّر أخرى»؟ و وزان هذا أنک تقول: «زيد الأسد»، فيکون تشبيها على الحقيقه و إن کنت لم تصرّح بحرف التشبيه و مثله أنک تقول: «أنت ترقم فی الماء»، و «تضرب فی حديد بارد»، و «تنفخ فی غير فحم»، فلا تذکر ما يدلّ صريحا على أنک تشبّه، و لکنک تعلم أن المعنى على قولک: «أنت کمن يرقم فی الماء، و کمن يضرب فی حديد بارد، و کمن ينفخ فی غير فحم»، و

ما أشبه ذلک مما تجی ء فیه بمشّبه به ظاهر تقع هذه الأفعال فی صله اسمه أو صفته.

و اعلم أن «المثل» قد یضرب بجمل لا بدّ فیها من أن یتقدّمها مذکور یکون مشبّها به، و لا یمکن حذف المشبّه به و الاقتصار علی ذکر المشبّه، و نقل الکلام إلیه حتی کأنه صاحب الجمله، إلا أنه مشبّه بمن صفته و حکمه مضمون تلک الجمله.

بیان هذا، أن قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: «النّاس کإبل مائه لا تکاد تجد فیها راحله» «۱»، لا بدّ فیه من المحافظه علی ذکر المشبّه به الذی هو «الإبل»، فلو قلت: «الناس لا تجد فیهم راحله أو «لا تجد فی الناس راحله»، کان ظاهر التعسّف.

و هاهنا ما هو أشدّ اقتضاء للمحافظه علی ذکر ما تعلّق الجمله به و تسند إلیه، و ذلک مثل قوله عزّ و جلّ: إِنَّما مَثَلُ الْحَیاهِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ [یونس: ۲۴]، لو أردت أن تحذف «الماء» الذی هو المشبّه به، و تنقل الکلام إلی المشبّه الذی هو «الحیاه»، أردت ما لا- تحصل منه علی کلام یعقل، لأن الأفعال المذکوره المحدّث بها عن الماء، لا یصحّ إجراؤها علی الحیاه فاحفظ هذا الأصل فإنک تحتاج إلیه، و خصوصا فی الاستعاره، علی ما یجی ء القول فیه إن شاء اللّه تعالی.

و الجمله إذا جاءت بعد المشبّه به، لم تخل من ثلاثه أوجه:

أحدها: أن یکون المشبّه به معبّرا عنه بلفظ موصول، و تکون الجمله صله،

---

(۱) رواه مسلم عن ابن عمر بلفظ: «تجدون الناس کإبل مائه لا یجد الرجل فیها راحله» و اختلفوا فیه علی أقوال: قال النووی: أجودها أن معناه: المرضی الأحوال من الناس الکامل الأوصاف الحسن المنظر القوی علی

الأحمال و الأسـفار، و سميت راحله لأنها ترحل أی: يجعل عليها الرحل، فهی فاعله: بمعنی مفعوله كعيشه راضيه بمعنی مرضيه و نظائره اه. (رشيد).

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۸۵

كقولك: «أنت الذی من شأنه كيت و كيت»، كقوله تعالی: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ [البقره: ۱۷].

و الثانی: أن يكون المشبّه به نكره تقع الجمله صـفه له، كقولنا: «أنت كرجل من أمره كذا و كذا»، و قول النبی صلّی اللّه عليه و سلّم: «النّاس كإبل مائه لا تجد فيها راحله»، و أشباه ذلك.

و الثالث: أن تجی ء مبتـدأه، و ذلك إذا كان المشبّه به معرفه، و لم يكن هناك «الذی»، كقوله تعالی: كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً [العنكبوت: ۴۱].

فصل فی مواقع التمثيل و تأثيره

فصل فی مواقع التمثيل و تأثيره

و اعلم أنّ ممـا اتفق العقلاء عليه، أن «التمثيـل» إذا جـاء فی أعقاب المعانی، أو برزت هی باختصار فی معرضه «۱»، و نقلت عن صورهـا الأصـليه إلی صورته، كساهـا أبّهه، و كسـبها منقبه، و رفع من أقـدارها، و شبّ من نارهـا، و ضـاعف قواهـا فی تحريك النّفوس لها، و دعا القلوب إليها، و استثار لها من أقاصی الأفئده صبابه و كلفا، و قسر الطّباع علی أن تعطيها محبّه و شغفا.

فإن كان مدحا، كان أبهی و أفخم، و أنبل فی النفوس و أعظم، و أهزّ للعطف،

---

(۱) يقـول إن للتمثيـل مظهرين، و يتجلی للأنظـار فی ثـوبين (أحـدهما) أن يجی ء المعنی ابتـداء فی صوره التمثيـل، و هو النـادر القليل. و لكنه علی قلته فی كلام البلغاء كثير

فى القرآن العزيز، فمنه قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً الآيه، و قوله بعدها: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ الآيه. و قوله عز و جل: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً، و قوله تبارك و تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً الآيه، و قوله: تبارك اسمه أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ الآيه. و غير ذلك. (و ثانيهما) ما يتأثر المعانى و يجى ء فى أعقابها لإيضاحها و تقريرها فى النفوس و إيداعها التأثير المخصوص، و هو الذى جعله المصنف أولا، مثاله من القرآن قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ فقد أورده بعد ما قرر أمر التوحيد من أول السوره و شنع على الذين اتخذوا من دونه أولياء يقربونهم إليه زلفى، و نصب الدلائل على نفى هذا الشرك و ذكر الجزاء. و مثله من الشعر ما يجى ء فى ضروب الكلام الآتيه.

(رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۸۶

و أسرع للإلف، و أجلب للفرح، و أغلب على الممتدح، و أوجب شفاعه للمادح، و أقضى له بغرّ المواهب و المنائح، و أسير على الألسن و أذكر، و أولى بأن تعلقه القلوب و أجدر «۱».

و إن كان ذمّا، كان مسّه أوجع، و ميسمه ألذع، و وقعه أشده،

و حدّه أحدّ «٢».

و إن كان حجابا، كان برهانه أنور، و سلطانه أقهر، و بيانه أبهر «٣».

---

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى فى وصف الصحابه: وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ و من الشعر قولنا فى المقصوره:

و إن قسا و ديده لان و إن يكدر عليه راق وردا و صفا

يؤمن منه الطيش فى شرته و الحلم و الإغضاء منه يرتجى

تواضع عن شمم و رفعه ورقه من غير عجز و ونى

أ لم تر الهواء فى رقته و لطفه أوتى شده القوى

يكاد يلمس الثريا رفعه من حيث تلقاه يصافح الثرى

و التمثيل فى البيتين الأخيرين و هو من النوع الأول، و منها قول بعضهم:

فتى عيش فى معروفه بعد موته

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(رشيد).

(٢) مثاله من القرآن قوله تعالى فى الذى أوتى الآيات فانسلخ منها: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أى: يخرج لسانه من العطش أو التعب و هو من باب منع، و قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنا فِى أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ* وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ و مقمحون من أقمح الغل الأسير: ترك رأسه مرفوعا لضيقه، و من الشعر قوله:

رأيتكم تبدون للحرب عده و لا يمنع الأسلاب منكم مقاتل

فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه و لا يمنع الخراف ما هو حامل

الخراف بالتشديد صيغه مبالغه اسم الفاعل من حرف الثمار إذا جناها و منه المثل:

و لو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يا لك من حمار

(رشيد).

(٣) مثاله من القرآن ما تقدم من الآيات فى بيان طريقتى التمثيل و من الشعر قول أبى العتاهيه:

ترجو النجاه و لم تسلك مسالكها إن السفينه لا تجرى على اليبس

و قول غيره:

و نار لو نفخت بها أضاءت و لكن أنت تنفخ فى رماد

و من الأمثال: «إن العوان لا تعلم الخمره» و هى بكسر المعجمه الهيئه من الخمار و العوان بالفتح النصف من النساء أى التى بين الشابه و العجوز، و المثل يضرب فى المجرب العارف المستغنى عن التعليم. و منها كدابغه و قد حلم الأديم، أى: أفسده الحلم و هو بالتحريك دود صغير و قيل:

الحلمه الصغيره من القردان و الضخمه ضد. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٨٧

و إن كان افتخارا، كان شأوه أمدّ، و شرفه أجدّ، و لسانه ألدّ «١».

و إن كان اعتذارا، كان إلى القبول أقرب، و للقلوب أخلب، و للسّخائم أسلّ، و لغرب الغضب أفلّ، و فى عقد العقود أنفث، و على حسن الرجوع أبعث «٢».

و إن كان وعظا، كان أشفى للصدر، و أدعى إلى الفكر، و أبلغ فى التنبيه و الزّجر،

---

(١) الشأو: السبق و الغايه و الأمد. و قوله أجد أى: أعظم. و الألد: الشديد الخصومه. ما يجى ء فى القرآن من بيان عظمه اللّه تعالى و كماله لا يسمى افتخارا و مثال هذا الضرب من الكلام العزيز و إن اختلفت التسميه قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ، وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ و مثاله من الشعر قول عبد المطلب:

لا

ينزل المجد إلا فى منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(رشيد).

(٢) السخائم: الضغائن، و سلها: نزعها و استخرجها، و غرب السيف: حده، و فل السيف: ثلمه، و للنفث فى العقد هو النفخ فيها مع إلقاء شـى ء من الريق عليها لأجل تسـهيل حلها. و منه نفث الراقى فى العقـده التى يعقـدها ثم يحلها يوهم بـذلك الناس أنه أبرم بعقـدها رابطه المحبه بين فلاـن و فلاـنه و بحلهـا أنه حـل ذلـك العقـد و أبطل ذلك الارتباط بسـحره؟ و إن الكلام البليغ ليفعل بحسن التمثيـل فى حـل عقـد العقود مـا لاـ يفعـل السـحر، و إن من البيان لسـحرا. و الاعتـذار لا يوجـد فى القرآن إلا حكايه عن أصـحاب المعـاذير الكاذبه ليكون الاعتـذار حجه عليهم فهو اعتـذار فى الظاهر و احتجاج فى المعنى و أثره ما ذكر فى الاحتجاج دون مـا ذكر هنـا كقوله تعـالى: وَ قالُوا: قُلُوبُنا فِی أَكِنَّهٍ مِمَّا تَـدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِی آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ و أما أمثلته فى الشعر فكثيره منها:

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طرب فالطير يرقص مذبوحا من الألم

و منها فى الاعتذار عن صدود الحبيب:

بأبى حبيبا زارنى فى غفله فبدا الوشاه له قولى معرضا

فكأننى و كأنه و كأنهم

أمل و نيل حال بينهما القضا

و من الاعتذار بذكر التمثيل ما وقع لأبى تمام فى قصيده يمدح بها أحمد بن المعتصم قيل: إنه كان ينشده إياها فبلغ قوله:

إقدام عمرو فى سماحه حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فلامه بعض الناس قائلا: قد شبهت ابن عم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأجلاف العرب (أو ما هذا معناه) فأطرق هنيهه و قال و لم يكونا من القصيده:

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى و الباس

فاللّه قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاه و النبراس

و عمرو هذا هو ابن جابر بن هلال الفزارى و يقال العمران له و لبدر بن عمرو بن جؤبه الفزارى- و مما يصلح للاعتذار من الأمثال قولهم: «كل امرئ فى بيته صبى» يعتذر به عن الدعابه و الاسترسال فى المباسطه فى الخلوه و قولهم: «لو ترك القطا ليلا لنام». (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٨٨

و أجدر بأن يجلّى الغيايه «١»، و يبصّر

الغايه، و يبرئ العليل، و يشفى الغليل «۲».

و هكذا الحكم إذا استقريت فنون القول و ضروبه، و تتبّعت أبوابه و شعوبه «۳».

---

(۱) الغيايه بياءين مثناتين: كل ما أظلك من فوق رأسک كالسحاب و نحوه.

(۲) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى فى وصف نعيم الدنيا: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً الكفار الزراع لأنهم يكفرون الحب أى: يسترونه بالتراب، و قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ الآيه. و قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا و قوله عز و جل: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، و قوله سبحانه: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ، و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، و قوله فى الآيه الأخرى: كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ، و قوله فى تمثيل من يحبط عمله الصالح بالإيذاء أو الرياء:

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ، و فى معناه قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْ ءٍ ذلِكَ

هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

و من الأمثال حديث: «إن المنبت لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى» و حديث: «حفت الجنه بالمكاره و حفت النار بالشهوات»، و من الشعر قول ابن النبيه:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

و قول غيره:

و غير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى و الطبيب مريض

(رشيد).

(۳) يشير المصنف إلى سائر مناحى الكلام كالغزل و الرثاء و الوصف و الشكوى و هى مع الذى ذكر وشائج متشابكه، و أمشاج متمازجه. و أعمها الوصف فهو الطويل الذيل، المتدفق السيل، و من أمثلته فى القرآن قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ و مثله قوله تعالى: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي الآيه. و منها قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها، و قوله بعده: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ و هكذا الحق يثبت و الباطل يزهق. و من ذلك الرؤى فإنها تمثيل الواقع الذى تعبر به كالرؤى المذكوره فى سوره يوسف عليه السلام. و مثاله من الشعر قول ابن النبيه:

و الليل تجرى الدرارى فى بحرته

كالروض تطفو على نهر أزاهره

و قول بعضهم فى وصف الكأس يعلوها الحباب و الساقى. (أو هذا من تعدد التشبيه):

و كأنها و كأن حامل كأسها إذ قام يجلوها على الندماء

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٨٩

و إن أردت أن تعرف ذلك و إن كان تقلّ الحاجه فيه إلى التعريف، و يستغنى فى

شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

و فى وصف الأمير و الجيش:

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

و منه قولنا فى المقصوره فى وصف الرفاق:

لم تختلف فى مبتدأ مسأله إلا و كان للوفاق المنتهى

كمن على المحيط من دائره أنى تفارقا فبعد ملتقى

و قولنا منه فى وصف روضه:

و الشمس تبدو من خلال دوحها آونه تخفى و طورا تجتلى

كغاده وضاحه قد تلعت من خلل السجوف ترنو و الكوى

تلقى على الروض تثير عسجد فتحسب الروض عروسا تجتلى

و قولنا منها:

و الباسقات رفعت أكفها تستنزل الغيث و تطلب الندى

ثبت فى العلوم الطبيعيه أن الأشجار تكون سببا لنزول المطر فمثلت هنا بحال المستسقين يجاب دعاؤهم. و يليه قولنا:

تمتلج الكربون من ضرع الهوا تؤثرنا بالأكسجين المنتقى

و معناه أن الأشجار الباسقه ترضع غاز الكربون و تمتصه من الهواء تتغذى به و هو سام لنا و تترك لنا أكسجين الهواء المطهر للدم فى أبداننا باستنشاقنا له فى الهواء فمثلت بحال ما يضر الناس و يؤثرهم بما ينفعهم. و قول ابن دريد فى وصف النوق:

يرسبن فى بحر الدجى بالضحى يطفون فى الآل إذا الآل طفا

و من أحسن ما يدخل فى

التمثيل باب الغراميات قول المجنون:

و قد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل بى النقص و الإبرام حتى علانيا

و قوله:

كأن القلب ليله قيل يغدى بليلى العامريه أو يراح

قطاه عزها شرك فباتت تجاذبه و قد علق الجناح

و قول بعضهم:

ويلاه إن نظرت و إن هى أعرضت وقع السهام و نزعهن أليم

و قول الآخر:

إنى و إياك كالصادى رأى نهلا و دونه هوه يخشى بها التلفا

رأى بعينيه ماء عز مورده و ليس يملك دون الماء منصرفا

و من الأمثال التى تدخل من باب الشكوى: «ليس لها راع و لكن حلبه» حلبه بالتحريك جمع حالب، و المثل يضرب للأمه المظلومه. «و لو كويت على داء لم أكره» و يضرب لمن يعاقب غير ذنب. «سال بهم و جاش بنا البحر». (رشيد).

الوقوف علیه عن التوقیف فانظر إلی نحو قول البحتری «۱»: [من الکامل]

دان علی أیدی العفاه، و شاسع عن کل ندّ فی النّدی و ضریب

کالبدر أفرط فی العلوّ وضوءه للعصبه السّارین جدّ قریب

و فکّر فی حالک و حال المعنی معک، و أنت فی البیت الأول لم تنته إلی الثانی و لم تتدبّر نصرته إیّاه، و تمثیله له فیما یملی علی الإنسان عیناه، و یؤدّی إلیه ناظراه، ثم قسهما علی الحال و قد وقفت علیه، و تأمّلت طرفیه، فإنک تعلم بعد ما بین حالتیک، و شدّه تفاوتهما فی تمکّن المعنی لدیک، و تحبّبه إلیک، و نبله فی نفسک، و توفیره لأنسک، و تحکم لی بالصدق فیما قلت، و الحقّ فیما ادّعیت و کذلک فتعهّد الفرق بین أن تقول: «فلان یکدّ نفسه فی قراءه الکتب و لا یفهم منها شیئا» و تسکت، و بین أن تتلو الآیه، و تنشد نحو قول الشاعر «۲»: [من الطویل]

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجیّدها إلّا کعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح، ما فى الغرائر

و الفصل بين أن تقول: «أرى قوما لهم بهاء و منظر، و ليس هناك مخبر، بل فى الأخلاق دقّه، و فى الكرم ضعف و قلّه» و تقطع الكلام، و بين أن تتبعه نحو قول الحكيم: «أما البيت فحسن، و أما السّاكن فردى ء»، و قول ابن لنكك «٣»: [من المنسرح]

فى شجر السرو منهم مثل له رواء و ما له ثمر

و قول ابن الرّومى «۴»: [من الخفيف]

فغدا كالخلاف يورق للعى ن و يأبى الإثمار كلّ الإباء

---

(١) البيتان فى ديوانه، الضريب: المثل و النظير (راجع هامش رقم ۴ ص ١٠١).

(٢) البيتان لمروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصه. يهجو قوما من رواه الشعر، و هو فى دلائل الإعجاز: ٢۵۴، و الكامل للمبرد، و اللسان (زمل). الزوامل: جمع زامله: بعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه و طعامه. الأوساق: جمع وسق، و هو الحمل. الغرائر: جمع الغراره: الجوالق.

(٣) البيت هو أحد ثلاثه أبيات ذكرها الثعالبى فى يتيمه الدهر ٢/ ٣٢٣، قال:

لا تخدعنك اللّحى و لا الصور تسعه أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرا و ليس فيه لطالب مطر

فى شجر ....

و السّرو: شجر، واحدته سروه.

(۴) البيت فى ديوانه: و الخلاف: الصفصاف، و هو بأرض العرب كثير، و يسمى السّوحر و هو شجر عظام و أصنافه كثيره، و كلها خوّار خفيف. [لسان العرب: خلف].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۹۱

و قول الآخر: [من الطويل]

فإن طرّه راقتك فانظر فربّما أمرّ مذاق العود و العود أخضر «۱»

و انظر إلى المعنى فى الحاله الثانيه كيف يورق شجره و يثمر، و يفترّ ثغره و يبسم، و كيف تشتار الأرى من مذاقته، كما ترى الحسن فى شارته.

و أنشد قول ابن لنكك: [من البسيط]

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا رأيت صورته من أقبح الصور «۲»

و تبيّن المعنى و اعرف مقداره، ثم أنشد البيت بعده:

و هبك كالشّمس فى حسن، أ لم ترنا

نفرّ منها إذا مالت إلى الضّرر

و انظر كيف يزيد شرفه عندك؟.

و هكذا فتأمّل بيت أبى تمام: [من الكامل]

و إذا أراد اللّه نشر فضيله طويت أتاح لها لسان حسود «۳»

مقطوعا عن البيت الذى يليه، و التّمثيل الذى يؤدّيه، و استقص فى تعرّف قيمته، على وضوح معناه و حسن بزّته، ثم أتبعه إياه:

لو لا اشتعال النّار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

و انظر هل نشر المعنى تمام حلّته، و أظهر المكنون من حسنه، و زينته، و عطّرك بعرف عوده، و أراك النضره فى عوده، و طلع عليك من طلع سعوده، و استكمل فضله فى النفس و نبله، و استحقّ التقديم كلّه، إلا بالبيت الأخير، و ما فيه من التمثيل و التصوير؟.

و كذلك فرق فى بيت المتنبى: [من الوافر]

و من يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزّلالا «۴»

---

(۱) البيت فى دلائل الإعجاز ص ۵۵۵، غير معروف قائله. و الطّرّه: طره المزاده و الثوب: علمها، و قيل:

طره الثوب موضع هدبه، و هى حاشيته التى لا هدب لها، و طره الجاريه: أن يقطع لها فى مقدّم ناصيتها كالعلم أو كالطره تحت التاج، و الجمع:

طرر و طرار.

(۲) هذا البيت و الذى بعده فى يتيمه الدهر ۲/ ۲۳۰.

(۳) البيت و الذى يليه هما فى ديوانه (أ) ص ۲۷۷ (ب) ۱/ ۴۰۰. و العمده ۲/ ۱۶۷، سر الفصاحه ۱۳۵، المثل السائر ۳/ ۲۴، الإيضاح ۳۳۰، الطراز ۱/ ۱۹۱، الإتقان ۴/ ۲۵۸، معاهد التنصيص ۱/ ۱۴۲، أخبار أبى تمام للصولى ۷۷، نهايه الأرب ۳/ ۹۶، المصباح ۱۱۳.

(۴) البيت فى ديوانه، و التبيان ص ۱۸۳. الزلال: الذى نزل فى الحلق لعذوبته مثل السلسال. (المعنى):

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۹۲

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العباره كقولك: «إن الجاهل الفاسد الطبع يتصوّر المعنى بغير صورته، و يخيّل إليه فى الصواب أنه خطأ»، هل كنت تجد هذه الروعه، و هل كان يبلغ من وقم الجاهل و وقذه، و قمعه و ردعه و التهجين له و الكشف عن نقصه، ما بلغ التمثيل فى البيت، و ينتهى إلى حيث انتهى؟.

و إن أردت اعتبار ذلك فى الفنّ الذى هو أكرم و أشرف، فقابل بين أن تقول:

«إن الذى يعظ و لا يتّعظ يضرّ بنفسه من حيث ينفع غيره»، و تقتصر عليه و بين أن تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «مثل الّذى يعلّم الخير و لا يعمل به، مثل السّراج الذى يضى ء للناس و يحرق نفسه»، و يروى: «مثل الفتيله تضى ء للناس و تحرق نفسها» «۱».

و كذا فوازن بين قولك للرجل تعظه: «إنك لا تجزى السيئه حسنه، فلا

تغرّ نفسک» و تمسک، و بين أن تقول فى أثره: «إنک لا تجنى من الشّوک العنب، و إنما تحصد ما تزرع»، و أشباه ذلک.

و كذا بين أن تقول: «لا تكلّم الجاهل بما لا يعرفه» و نحوه، و بين أن تقول:

«لا تنثر الدّرّ قدّام الخنازير» أو: «لا تجعل الدّرّ فى أفواه الكلاب»، و تنشد نحو قول الشافعى رحمه اللّه:

أ أنثر درّا بين سارحه الغنم «۲» و كـذا بين أن تقول: «الدنيا لا تدوم و لا تبقى»، و بين أن تقول: «هى ظلّ زائل، و عاريّه تستردّ، و وديعه تسترجع»، و تذكر قول النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من فى الدنيا ضيف و ما فى يديه عاريّه، و الضيف مرتحل، و العاريّه مؤدّاه»، و تنشد قول لبيد: [من الطويل]

هذا مثل ضربه يقول مثلهم كمثل المريض الذى يجد الماء الزلال مرّا من مراره فيه، يقول: هم يذمونى لنقصهم و قلّه معرفتهم بى و بفضـلى و بشعرى، فالنقص فيهم لا فيّ، و لو صـحت حواسهم لعرفوا فضلى، و لقد جود فى هذا المعنى لأن المريض يجد كل حلو فى فيه مرّا نقصا، فالمراره من فمه لا من الشـى ء يـدخله، و إنما العيب منه لا من الدواء، فأبو الطيب و الأعداء كذلک، و هو من قول الحكيم النفس الكريمه ترى الأشياء كذلک. [التبيان ۲/ ۱۸۴].

(۱) بهذا اللفظ رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن أبى برزه بسند حسن. (رشيد).

(۲) تمام البيت: و أنظم منثورا لراعيه الغنم. و هى أبيات قالها بمصر فى أثر مجيئه إليها لما كلمه بعض أصحاب مالک، و آخرها:

فمن منح الجهال علما أضاعه

و من منع المستوجبين فقد ظلم

رواها السبكى فى طبقات الشافعيه ۱/ ۲۹۴.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۹۳

و ما المال و الأهلون إلّا وديعه و لا بدّ يوما أن تردّ الودائع «۱»

و قول الآخر: [من الرمل]

إنّما نعمه قوم متعه و حياه المرء ثوب مستعار «۲»

فهذه جمله من القول تخبر عن صيغ «التمثيل» و تخبر عن حال المعنى معه.

فأما القول فى العلّه و السبب، لم كان للتمثيل هذا التأثير؟ و بيان جهته و مأتاه، و ما الذى أوجبه و اقتضاه، فغيرها.

و إذا بحثنا عن ذلک، وجدنا له أسبابا و عللا، كلّ منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل، و ينبل و يشرف و يكمل.

فأوّل ذلک و أظهره، أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفىّ إلى جلىّ، و تأتيها بصريح بعد مكنّى، و أن تردّها فى الشى ء تعلّمها إياه إلى شى ء آخر هى بشأنه أعلم، و ثقتها به فى المعرفه أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس و عما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار و الطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهه الطبع و على حدّ الضروره، يفضل

المستفاد من جهه النّظر و الفكر فى القوه و الاستحكام، و بلوغ الثقه فيه غايه التمام، كما قالوا:

«ليس الخبر كالمعاينه» «٣»، و «لا الظنّ كاليقين»، فلهذا يحصل بها العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهه الاستحكام و القوه.

---

(١) البيت فى ديوانه: ص ٨١، من قصيده فى رثاء أخيه، و فى الشعر و الشعراء ١/ ٢٧٩، و الإيضاح ٢٠٤، و لسان العرب ٤/ ٦٠٣ [عمر]، و تاج العروس [سمم].

(٢) البيت للأفوه الأودى فى ديوانه، و فى الطرائف الأدبيه للراحكوتى، و الحماسه البصريه.

و الأفوه: لقب، و اسمه صلاءه بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبّه بن أود بن الصعب بن سعد العشيره، و كان يقال لأبيه عمرو بن مالك فارس الشوهاء. [الأغانى ١٢/ ١٦٩].

(٣) هذه الجمله حديث نبوى رواه الطبرانى فى الأوسط و الخطيب عن أبى هريره و رويناه مسلسلا بالأشراف عن شيخنا أبى المحاسن القاوقجى، و لا أذكر له روايه بزياده و لا الظن كاليقين و رواه أحمد و الحاكم و الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس بزياده «إن اللّه تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(رشيد).

و ضرب آخر من الأنس، و هو ما يوجبه تقدّم الإلف، كما قيل «١»: [من الكامل] ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل و معلوم أن العلم الأوّل أتى النفس أوّلا من طريق الحواسّ و الطباع، ثم من

جهه النظر و الرّويّه، فهو إذن أمسّ بها رحما، و أقوى لديها ذمما، و أقدم لها صحبه، و آكد عندها حرمه و إذ نقلتها فى الشى ء بمثله عن المدرك بالعقل المحض و بالفكره فى القلب، إلى ما يدرك بالحواسّ أو يعلم بالطّبع، و على حدّ الضروره، فأنت إذن مع الشاعر و غير الشاعر إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثّل ثم مثّله كمن يخبر عن شى ء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب و يقول: «ها هو ذا، فأبصر تجده على ما وصفت».

فإن قلت: إن الأنس بالمشاهده بعد الصفه و الخبر، إنما يكون لزوال الرّيب و الشكّ فى الأكثر، أ فتقول: إن التمثيل إنما أنس به، لأنه يصحّح المعنى المذكور و الصفه السابقه، و يثبت أن كونها جائز و وجودها صحيح غير مستحيل، حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك؟.

فالجواب: إن المعانى التى يجى ء «التمثيل» فى عقبها على ضربين:

غريب بديع يمكن أن يخالف فيه، و يدّعى امتناعه و استحاله وجوده، و ذلك نحو قوله: [من الوافر]

فإن تفق الأنام و أنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال «۲»

و ذلك أنه أراد أنه فاق الأنام و فاتهم إلى حدّ بطل معه أن يكون بينه و بينهم مشابهه و مقاربه، بل صار كأنه أصل بنفسه و جنس برأسه. و هذا أمر غريب، و هو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصّه به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك

---

(۱) البيت لأبى تمام فى ديوانه، و صدره:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى و هو فى

الإيضاح ۲۰۵، و دلائل الإعجاز: ۴۹۵، کما نسبه ابن جنی فی کتاب الخصائص للطائی الکبیر ص ۱۱۷.

(۲) البیت للمتنبی فی دیوانه، و فی التبیان ص ۳۱، و المعنی: یقول إن فضلت الناس و أنت من جملتهم فقد یفضل بعض الشی ء الکل جمله کالمسک، و هو بعض دم الغزال، یفضله فضلا کثیرا و المعنی: إن فاق الأنام و هو منهم و فضلهم مع مشارکته فی الجنس لهم فالمسک من دم الغزلان فی أصله و سائر دم الحیوان یقصر عنه. و رب واحد قد بذّ أمه و بعض قد فات جمله.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۹۵

الجنس، و بالمدّعی له حاجه إلی أن یصحّح دعواه فی جواز وجوده علی الجمله إلی أن یجی ء إلی وجوده فی الممدوح. فإذا قال: «فإن المسک بعض دم الغزال»، فقد احتجّ لدعواه، و أبان أن لما ادّعاه أصلا فی الوجود، و برّأ نفسه من ضعه الکذب، و باعدها من سفه المقدم علی غیر بصیره، و المتوسّع فی الدعوی من غیر بیّنه. و ذلک أن المسک قد خرج عن صفه الدم و حقیقته، حتی لا یعدّ فی جنسه، إذ لا یوجد فی الدم شی ء من أوصافه الشریفه الخاصه بوجه من الوجوه، لا ما قلّ و لا ما کثر، و لا فی المسک شی ء من الأوصاف التی کان لها الدم دما البته.

و الضرب الثانی: أن لا یکون المعنی الممثّل غریبا نادرا یحتاج فی دعوی کونه علی الجمله إلی بیّنه و حجّه و إثبات. نظیر ذلک أن تنفی عن

فعل من الأفعال التى يفعلها الإنسان الفائده، و تدّعى أنه لا يحصل منه على طائل، ثم تمثّله فى ذلك بالقابض على الماء و الرّاقم فيه، فالذى مثّلت ليس بمنكر مستبعد، إذ لا ينكر خطأ الإنسان فى فعله أو ظنّه و أمله و طلبه. أ لا ترى أن المغزى من قوله «۱»: [من الطويل]

فأصبحت من ليلى الغداه كقابض على الماء خانته فروج الأصابع «۲»

أنّه قد خاب فى ظنّه أن يتمتّع بها و يسعد بوصلها، و ليس بمنكر و لا عجيب و لا ممتنع فى الوجود، خارج من المعروف المعهود، أن يخيب ظنّ الإنسان فى أشباه هذا من الأمور، حتى يستشهد على إمكانه، و تقام البيّنه على صدق المدّعى لوجدانه.

و إذا ثبت أن المعانى الممثّله تكون على هذين الضربين، فإن فائده «التمثيل» و سبب الأنس فى الضرب الأول بيّن لائح، لأنه يفيد فيه الصّحه و ينفى الرّيب و الشكّ، و يؤمن صاحبه من تكذيب المخالف، و تهجّم المنكر، و تهكّم المعترض، و موازنته بحاله كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى و يبصر، و يعلم كونه على ما أثبتته الصّفه عليه موازنه ظاهره صحيحه.

و أمّا الضرب الثانى: فإن «التمثيل» و إن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائده، فهو يفيد أمرا آخر يجرى مجراه. و ذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامه الحجه على صحه وجوده فى نفسه، و زياده التثبيت و التقرير فى ذاته و أصله، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، و وضع قياس من غيره يكشف عن حدّه و

مبلغه فی القوه و الضعف و الزیاده و النقصان. و إذا أردت أن تعرف ذلک، فانظر أوّلا إلی التشبیه

---

(۱) و فی نسخه: المغزی فی قوله.

(۲) البیت فی الإیضاح ص ۲۲۱.

الصریح الذی لیس بتمثیل، کقیاس الشی ء علی الشی ء فی اللون مثلا: «کحنک الغراب» «۱»، ترید أن تعرّف مقدار الشده، لا أن تعرّف نفس السواد علی الإطلاق.

و إذا تقرر هذا الأصل، فإن الأوصاف التی یردّ السامع فیها بالتمثیل من العقل إلی العیان و الحسّ، و هی فی أنفسها معروفه مشهوره صحیحه لا- تحتاج إلی الدلاله علی أنها هل هی ممکنه موجوده أم لا- فإنّها و إن غنیت من هذه الجهه عن التمثیل بالمشاهدات و المحسوسات، فإنها تفتقر إلیه من جهه المقدار، لأن مقادیرها فی العقل تختلف و تتفاوت. فقد یقال فی الفعل: إنه من حال الفائده علی حدود مختلفه فی المبالغه و التوسط، فإذا رجعت إلی ما تبصر و تحسّ عرفت ذلک بحقیقته، و کما یوزن بالقسطاس، فالشاعر لمّا قال:

کقابض علی الماء خانته فروج الأصابع أراک رؤیه لا- تشکّ معها و لا- ترتاب أنه بلغ فی خیبه ظنّه و بوار سعیه إلی أقصی المبالغ، و انتهی فیه إلی أبعد الغایات، حتی لم یحظ لا بما قلّ و لا ما کثر.

فهذا هو الجواب. و نحن «۲» بنوع من التسهّل و التسامح، نقع علی أن الأنس الحاصل بانتقالک فی الشی ء عن الصفه و الخبر إلی العیان و رؤیه البصر، لیس له سبب سوی زوال الشکّ و

الرّيب.

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق: فإنّا نعلم أن المشاهده تؤثّر فى النفوس مع العلم بصدق الخبر، كما أخبر اللّه تعالى عن إبراهيم عليه الصلاه و السلام فى قوله: قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [سوره البقره: ۲۶۰]، و الشواهد فى ذلك كثيره، و الأمر فيه ظاهر، و لو لا أن الأمر كذلك، لما كان لنحو قول أبى تمام: [من الطويل]

و طول مقام المرء فى الحىّ مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدّد

فإنّى رأيت الشّمس زيدت محبّه إلى النّاس أن ليست عليهم بسرمد «۳»

معنى، و ذلك أنّ هذا التجدّد لا معنى له، إذا كانت الرؤيه لا تفيد أنسا من حيث هى رؤيه، و كان الأنس لنفيها الشّكّ و الرّيب، أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل.

---

(۱) حنك الغراب بالتحريك: منقاره أو سواده قالهما (رشيد).

(۲) الجمله حاليه.

(۳) البيتان فى ديوانه، و هما فى الإيضاح ۲۰۴. و كذلك فى الإشارات و التنبيهات ۱۷۲، و البيت الأول فى دلائل الإعجاز ۴۹۸، بزياده واو فى صدره، و هما من قصيده يمدح بها يوسف الطائى مطلعها:

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد و عاد قتادا عندها كلّ مرقد

و إذا کـان الأمر کـذلک، فأنت إذا قلت للرجل: «أنت مضـیع للحزم فی سـعیک، و مخطئ وجه الرشاد، و طالب لما لا تناله»، إذا کـان الطّلب علی هـذه الصـفه و من هـذه الجهه، ثم عقّبته بقولـک: «و هل یحصل فی کفّ القابض علی الماء شـی ء مما یقبض علیه؟». فلو ترکنا حدیث تعریف المقدار فی الشده و المبالغه و نفی الفائده من أصـلها جانبا بقی لنا ما تقتضـیه الرّؤیه للموصوف علی ما وصف علیه من الحاله المتجدّده، مع العلم بصدق الصفه.

یبیّن ذلـک، أنه لو کـان الرجـل مثلاـ علی طرف نهر فی وقت مخـاطبه صـاحبه و إخباره له بأنه لا یحصل من سـعیه علی شـی ء، فأدخل یـده فی الماء و قال: «انظر هل حصل فی کفّی من الماء شـی ء؟ فکذلک أنت فی أمرک». کان لذلک ضـرب من التأثیر زائد علی القول و النطق بذلک دون الفعل.

و لو أن رجلاـ أراد أن یضـرب لـک مثلا فی تنافی الشـیئین فقال: «هـذا و ذاک هل یجتمعان؟»، و أشار إلی ماء و نار حاضـرین، وجـدت لتمثیله من التـأثیر مـا لاـ تجـده إذا أخبرک بـالقول فقال: «هل یجتمع الماء و النار؟». و ذلک الـذی تفعل المشاهـده من التحریک للنفس، و الذی یجب بها من تمکّن المعنی فی القلب إذا کان مسـتفاده من العیان، و متصـرّفه حیث تتصـرّف العینان و إلّا فلا حاجه بنا فی معرفه أن الماء و النار لا یجتمعان إلی ما یؤکده من رجوع إلی مشاهده و استیثاق تجربه.

و ممّا یدلّک علی أن «التمثیل» بالمشاهده یزیدک أنسا، و إن لم یکن بک حاجه

إلى تصحيح المعنى، أو بيان لمقدار المبالغه فيه، أنک قد تعبّر عن المعنى بالعباره التى تؤدّيه، و تبالغ و تجتهد حتى لا تدع فى النفوس منزعا، نحو أن تقول و أنت تصف اليوم بالطول: «يوم كأطول ما يتوهّم» و «كأنّه لا آخر له»، و ما شاكل ذلک من نحو قوله: [من البسيط]

فى ليل صول تناهى العرض و الطّول كأنّما ليله باللّيل موصول «١»

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله: [من الطويل] و يوم كظلّ الرّمح قصّر طوله «٢»

---

(١) البيت لحندج بن حندج المرى.

(٢) البيت هو لشبرمه بن الطفيل، و تمامه:

دم الزّقّ عنّا و اصطفاق المزاهر

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٩٨

على أن عبارتک الأولى أشدّ و أقوى فى المبالغه من هذا، فظلّ الرّمح على كل حال متناه تدرک العين نهايته، و أنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له، و كذلک تقول: «يوم كأقصر ما يتصوّر» و «كأنّه ساعه» و «كلمح البصر» و «كلا و لا»، فتجد هذا، مع كونه تمثيلا، لا يؤنسک إيناس قولهم: «أيام كأباهيم القطا»، و قول ابن المعتزّ: [من الكامل]

بدّلت من ليل كظلّ حصاه ليلا كظلّ الرمح غير موات «١»

و قول آخر: [من الوافر]

ظللنا عند باب أبى نعيم بيوم مثل سالفه الذّباب «۲»

و كذا تقول: «فلان إذا همّ بالشى ء لم يزل ذاك عن ذكره و قلبه، و قصر خواطره على إمضاء عزمه، و لم يشغله شى ء عنه»، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن، ثم لا ترى فى نفسك له هزّه، و لا تصادف لما تسمع أريحيّه، و إنما تسمع حديثا ساذجا و خبرا غفلا، حتى إذا قلت: [من الطويل] إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه «۳» امتلأت نفسك سرورا و أدركتك طربه كما يقول القاضى أبو الحسن لا تملك دفعها عنك. و لا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز، فإنه و إن كان يوجب شيئا منه، فليس الأصل له، بل لأن أراك العزم واقعا بين العينين، و فتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين.

و هاهنا، إذا تأمّلنا، مذهب آخر فى بيان السبب الموجب لذلك، هو ألطف مأخذا، و أمكن فى التحقيق، و أولى بأن يحيط بأطراف الباب. و هو أنّ لتصوير الشبه

---

(۱) البيت هو فى ديوانه.

(۲) البيت هو فى الأزمنه و الأمكنه غير منسوب. و السّالفه: أعلى العنق، و قيل: ناحيه مقدّم العنق من لدن معلّق القرط إلى قلت الترقوه، و السالف: أعلى العنق، و قيل هى ناحيته من معلق القرط إلى الحاقنه، و حكى اللحيانى: إنها لوضاحه السوالف، جعلوا كل جزء منها سالفه. [لسان العرب:

سلف].

(۳) البيت لسعد بن ناسب المازنى، و تمامه:

و نكّب عن ذكر العواقب جانبا فى شرح الحماسه ۱/ ۳۵، و انظر دلائل الإعجاز ۲۲۰، تحقيق محمود شاكر- طبعه المدنى.

من الشى ء فى غير جنسه و شكله، و التقاط ذلک له من غير محلّته، و اجتلابه إليه من الشّقّ البعيد، بابا آخر من الظّرف و اللّطف، و مذهبا من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل.

و أحضر شاهدا لک على هذا: أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض، فإن التشبيهات سواء كانت عامّيه مشتركه، أم خاصيّه مقصوره على قائل دون قائل تراها لا يقع بها اعتداد، و لا يكون لها موقع من السامعين، و لا تهزّ و لا تحرّک حتى يكون الشبه مقرّرا بين شيئين مختلفين فى الجنس، فتشبيه العين بالنّرجس، عامّىّ مشترک معروف فى أجيال الناس، جار فى جميع العادات، و أنت ترى بعد ما بين العينين و بينه من حيث الجنس و تشبيه الثريّا بما شبّهت به من عنقود الكرم المنوّر، و اللجام المفضّض، و الوشاح المفصّل، و أشباه ذلک، خاصّىّ، و التباين بين المشبّه و المشبّه به فى الجنس على ما لا يخفى.

و هكذا إذا استقريت التشبيهات، وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشدّ، كانت إلى النفوس أعجب، و كانت النفوس لها أطرب، و كان مكانها إلى أن تحدث الأريحيّه أقرب. و ذلک أن موضع الاستحسان، و مكان الاستظراف، و المثير للدفين من الارتياح، و المتألّف للنافر من المسره، و المؤلّف لأطراف البهجه أنک ترى بها الشيئين مثلين متباينين، و مؤتلفين مختلفين، و ترى الصوره الواحده فى السماء و لأرض، و فى خلقه الإنسان و خلال الروض، و هكذا، طرائف تنثال عليک إذا

فصّلت هذه الجمله، و تتبعت هذه اللّحمه. و لذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله: [من البسيط]

و لازورديّه تزهو بزرقتها بين الرّياض على حمر اليواقيت

كأنّها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت «۱»

أغرب و أعجب و أحقّ بالولوع و أجدر من تشبيه النرجس: «بمداهن درّ حشوهن عقيق»، لأنه أراك شبها لنبات غضّ يرفّ، و أوراق رطبه ترى الماء منها يشفّ، بلهب نار فى جسم مستول عليه اليبس، و باد فيه الكلف.

---

(۱) البيتان لابن المعتز فى الإيضاح (تحقيق د. عبد الحميد هنداوى) و التبيان ۱/ ۲۷۳ تحقيق الدكتور عبد الحميد أيضا، و العلوى فى الطراز ۱/ ۲۶۷، و يرجح الدكتور محمود شاكر أنهما للزاهى أبى القاسم على بن إسماعيل بن خلف البغدادى، كما نسبهما إليه أيضا ابن خلكان فى ترجمته ۳/ ۳۷۲. اللازورديه: البنفسجيه، نسبه إلى اللازورد، و هو حجر نفيس.

و مبنى الطباع و موضوع الجبلّه، على أن الشى ء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه، و خرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابه النفوس به أكثر، و كان بالشّغف منها أجدر. فسواء فى إثاره التعجّب، و إخراجك إلى روعه المستغرب، وجودك الشى ء

من مكان ليس من أمكنته، و وجود شى ء لم يوجد و لم يعرف من أصله فى ذاته و صفته. و لو أنه شبّه البنفسج ببعض النبات، أو صادف له شبها فى شى ء من المتلوّنات، لم تجد له هذه الغرابه، و لم ينل من الحسن هذا الحظ.

و إذا ثبت هذا الأصل، و هو أنّ تصوير الشّبه بين المختلفين فى الجنس، مما يحرّك قوى الاستحسان، و يثير الكامن من الاستظراف، فإن «التمثيل» أخصّ شى ء بهذا الشأن، و أسبق جار فى هذا الرهان، و هذا الصّنيع صناعته التى هو الإمام فيها، و البادئ لها و الهادى إلى كيفيتها، و أمره فى ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه، و عدّ محاسنه فى هذا المعنى، و البدع التى يخترعها بحذقه، و التأليفات التى يصل إليها برفقه، ازدحمت عليك، و غمرت جانبيك، فلم تدر أيّها تذكر، و لا عن أيّها تعبّر، كما قال: [من الرجز]

إذا أتاها طالب يستامها تكاثرت فى عينه كرامها «١»

و هل تشكّ فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق و المغرب، و يجمع ما بين المشئم و المعرق. و هو يريك للمعانى الممثّله بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثله، و الأشباح القائمه، و ينطق لك الأخرس، و يعطيك البيان من الأعجم، و يريك الحياه فى الجماد، و يريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياه و الموت مجموعين، و الماء و النار مجتمعين، كما يقال فى الممدوح هو حياه لأوليائه، موت لأعدائه، و يجعل الشى ء من جهه ماء، و من

أخرى نارا، كما يقال: [من الخفيف]

أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد، ماء جار مع الإخوان «۲»

و كما يجعل الشى ء حلوا مرّا، و صابا عسلا و قبيحا حسنا، كما قال: [من الخفيف]

---

(۱) البيت هو فى الأغانى ۵/ ۳۶۴ بلا نسبه.

(۲) البيت لم يقف عليه الدكتور محمود شاكر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۱

حسن فى وجوه أعدائه أق بح من ضيفه رأته السوام «۱»

و يجعل الشى ء أسود أبيض فى حال، كنحو قوله: [من الطويل]

له منظر فى العين أبيض ناصع و لكنّه فى القلب أسود أسفع «۲»

و يجعل الشى ء كالمقلوب إلى حقيقه ضدّه، كما قال: [من الخفيف]

غرّه بهمه، ألا إنما كن ت أغرّ أيّام كنت بهيما «۳»

و يجعل الشى ء قريبا بعيدا معا، كقوله: [من الكامل] دان على أيدى العفاه و شاسع «۴» و حاضرا و غائبا، كما قال: [من المتقارب]

أيا غائبا حاضرا فى الفؤاد سلام على الحاضر الغائب «۵»

و مشرّقا مغرّبا، كقوله: [من المنسرح]

له إليكم نفس مشرّقه أن غاب عنكم مغرّبا بدنه «۶»

---

(۱) البيت هو للمتنبى فى ديوانه، و التبيان للعكبرى ۳۷۶. و السّوام: المال الراعى، و سامت الراعيه و الماشيه و الغنم تسوم سوما: رعت حيث شاءت فهى سائمه. [لسان العرب: سوم]. و المعنى:

يقول هو أقبح فى عيون أعدائه من ضيفه فى عيون ماله الراعى لأنه ينحر إبله للأضياف فهى تكرههم، و هذا كما قيل فى الضيف.

(۲) البيت لأبى تمام فى ديوانه، و الإيضاح ۳۰۴، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى. مؤسسه المختار. الأسفع: السّفعه و السّفع: السواد و الشحوب، و قيل نوع من السواد ليس بالكثير، و قيل السواد مع لون آخر، و قيل السواد المشرب حمره، الذكر أسفع، الأنثى سفعاء. [اللسان: سفع].

(۳) البيت لأبى تمام فى ديوانه. الغره: الشعر الأبيض، البهمه: يعنى السواد المظلم. يصف الشيب بأنه غره شديده، و إنما كان أغر فى الوقت الذى كان فيه بهيما أى: أسود الشعر.

(۴) البيت للبحترى، و تمامه:

عن كل ند فى الندى و ضريب و هو فى الإيضاح ص ۲۰۳، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى. (طبعه: مؤسسه المختار).

و شرح عقود الجمان ۲/ ۶، و أوردهما محمد بن على بن محمد الجرجانى فى كتابه الإشارات و التنبيهات ص ۱۷۲، منسوب للبحترى. و العفاه جمع عاف، و هو طالب الفضل أو سائل الرزق.

(۵) البيت قيل إنه

على قافيه الراء «سلام على الغائب الحاضر» فى كتاب سندبان للسمرقندى: ۱۸۵ مع أبيات للوأواء الدمشقى على تلك القافيه، و ليس البيت فى ديوانه المطبوع.

(۶) البيت هو للبحترى فى ديوانه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۲

و سائرا مقيما، كما يجى ء فى وصف الشعر الحسن الذى يتداوله الرواه و تتهاداه الألسن، كما قال القاضى أبو الحسن: [من المتقارب]

و جوّابه الأفق موقوفه تسير و لم تبرح الحضره «۱»

و هل يخفى تقريبه المتباعدين، و تقريبه بين المختلفين، و أنت تجد إصابه الرجل فى الحجّه، و حسن تخليصه للكلام، و قد مثّلت تاره بالهناء و معالجه الإبل الجربى به، و أخرى بحزّ القصّاب اللحم و إعماله السكّين فى تقطيعه و تفريقه فى قولهم:

يضع الهناء مواضع النقب «۲» و «يصيب الحزّ» و «يطبّق المفصل»، فانظر: هل ترى مزيدا فى التناكر و التنافر على ما بين طلاء القطران، و جنس القول و البيان؟ ثم كرّر النظر و تأمّل: كيف حصل الائتلاف، و كيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر، ما يأنس إليه العقل و يحمده الطبع؟ حتى إنّك لربما وجدت لهذا المثل إذا ورد عليك فى أثناء الفصول، و حين تبيّن الفاضل فى البيان من المفضول قبولا، و لا ما تجد عند فوح المسك و نشر الغاليه، و قد وقع ذكر «الحزّ» و «التطبيق» منك موقع ما ينفى الحزازات عن القلب، و

يزيل أطباق الوحشه عن النفس.

و تكلّف القول فى أن للتمثيل فى هذا المعنى الذى لا يجارى إليه، و الباع الذى لا يطاول فيه، كالاحتجاج للضّرورات، و كفى دليلا على تصرفه فيه باليد الصّناع، و إيفائه على غايات الابتداع، أنه يريك العدم وجودا و الوجود عدما، و الميّت حيّا

---

(١) البيت للقاضى أبى الحسن شيخه على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطه.

(٢) شطر بيت لدريد بن الصمه فى ديوانه ٤٣، و الأغانى ١٥/ ٧٢، قال صاحب الأغانى: مر دريد بن الصمه بالخنساء بنت عمرو بن الشريد، و هى تهنأ بعيرا لها، و قد تبذلت حتى فرغت منه، ثم نضّت عنها ثيابها فاغتسلت، و دريد بن الصمه يراها، و هى لا تشعر به فأعجبته فانصرف إلى رحله و أنشأ يقول:

حيوا تماضر و اربعوا صحبى و قفوا فإن وقوفكم حسبى

أخناس قد هام الفؤاد بكم و أصابه قبل من الحب

ما إن رأيت و لا سمعت بمثله كاليوم طالى أينق جرب

متبذّلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب

النّقب: القطع المتفرقه من الجرب، الواحده

نقبه، و هی أول ما یبدو من الجرب عامه، و عجز البیت الأخیر مثل یضرب لمن یضع الشی ء فی موضعه فیکون ماهرا مصیبا، أو للذی لا یتکلم إلا فیما یجب الکلام.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۰۳

و الحیّ میّتا أعنی جعلهم الرجل إذا بقی له ذکر جمیل و ثناء حسن بعد موته، کأنه لم یمت، و جعل الذکر حیاه له، کما قال:

ذکر الفتی عمره الثّانی «۱» و حکمهم علی الخامل الساقط القدر الجاهل الدنی ء بالموت، و تصییرهم إیاه حین لم یکن ما یؤثر عنه و یعرف به، کأنه خارج عن الوجود إلی العدم، أو کأنه لم یدخل فی الوجود.

و لطیفه أخری له فی هذا المعنی، هی، إذا نظرت، أعجب، و التعجّب بها أحقّ و منها أوجب، و ذلک جعل الموت نفسه حیاه مستأنفه حتی یقال: إنه بالموت استکمل الحیاه فی قولهم: «فلان عاش حین مات»، یراد الرجل تحمله الأبیّه و کرم النفس و الأنفه من العار، علی أن یسخو بنفسه فی الجود و البأس، فیفعل ما فعل کعب بن مامه فی الإیثار علی نفسه، أو ما یفعله الشجاع المذکور من القتال دون حریمه، و الصبر فی مواطن الإباء، و التصمیم فی قتال الأعداء، حتی یکون له یوم لا یزال یذکر، و حدیث یعاد علی مرّ الدهور و یشهر، کما قال ابن نباته «۲»: [من الکامل]

بأبی و أمّی کلّ ذی

نفس تعاف الضّيم مرّه

ترضى بأن ترد الرّدى فيميتها و يعيش ذكره

و إنه ليأتيک من الشـى ء الواحـد بأشـباه عـده، و يشـتقّ من الأصل الواحـد أغصانا فى كل غصن ثمر على حـده، نحو أن «الزّند» بإيرائه يعطيک شبه الجواد، و الذكىّ الفطن، و شبه النجح فى الأمور و الظفر بالمراد و بإصلاده شبه البخيل لا يعطيک شيئا،

---

(۱) شطر البيت للمتنبى فى ديوانه و تمامه:

ذكر الفتى عمره الثانى، و حاجته ما قاته، و فضول العيش أشغال

(۲) البيتان يمدح صمصام الدوله عند ورود القرامطه إلى الكوفه و يحرضه على لقائهم. الظاهر أن يقال فيفعل كما فعل كعب بن مامه قال شيخنا: هو الأباذى المشهور آثر رفيقه السعدى بالماء حتى مات عطشا و نجا السعدى و له يقول حبيب:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها و الجود بالنفس أقصى غايه الجود

و قال له و لحاتم الطائى:

كعب و حاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف و تليد

و هذا الذى خلف السحاب و مات ذا

فى الجهد ميته خضرم صنديد

إلا يكن فيها الشهد فقومه لا يسمحون له بألف شهيد (رشيد)

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۴

و البليد الذى لا يكون له خاطر ينتج فائده و يخرج معنى و شبه من يخيب سعيه، و نحو ذلك و يعطيك من «القمر» الشهره فى الرجل و النباهه و العزّ و الرفعه، و يعطيك الكمال عن النقصان، و النقصان بعد الكمال، كقولهم: «هلا نما فعاد بدرا»، يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل و العقل و سائر معانى الشرف، كما قال أبو تمام «۱»: [من الكامل]

لهفى على تلك الشواهد منهما لو أمهلت حتى تصير شمائلا

لغدا سكونهما حجى، و صباهما كرما، و تلك الأريحيّه نائلا

إنّ الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

و على هذا المثل بعينه، يضرب

مثلا فى ارتفاع الرجل فى الشرف و العزّ من طبقه إلى أعلى منها، كما قال البحترى «۲»: [من الكامل]

شرف تزيّد بالعراق إلى الذى عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ اللّيالى فيه حتى أقمرا

و يعطيك شبه الإنسان فى نشئه و نمائه إلى أن يبلغ حدّ التمام، ثم تراجعه إذا انقضت مدّه الشباب، كما قال «۳»: [من البسيط]

المرء مثل هلال حين تبصره يبدو ضئيلا ضعيفا ثم يتّسق

يزداد حتّى إذا ما تمّ أعقبه كرّ الجديدين نقصا ثم ينمحق

و كذلك يتفرّع من حالتى تمامه و نقصانه فروع لطيفه، فمن غريب ذلك قول ابن بابك «۴»: [من الكامل]

و أعرت شطر الملك ثوب كماله و البدر فى شطر المسافه يكمل

---

(۱) الأبيات فى ديوانه فى مرثيه ابنين لعبد اللّه بن طاهر، ماتا صغيرين، و الإيضاح: ۲۰۶، تحقيق الدكتور هنداوى، و منسوبه لأبى تمام فى الإشارات و التنبيهات لمحمد بن

على الجرجانى ص ۱۷۳.

(۲) البيتان هما فى ديوانه من قصيده قالها فى مدح إسحاق بن كنداج الخزرى القائد الكبير عند ما توج و قلد السيفين، البيضاء، بلنجر: مدينتان فى بلاد الخزر.

(۳) البيتان لمحمد بن يزداد بن سويد الكاتب المروزى وزير المأمون. اتسق القمر: استوى، و فى التنزيل: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ، وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. قال الفرّاء: و ما وسق أى: و ما جمع و ضم، و اتساق القمر: امتلاؤه و اجتماعه و استواؤه ليله ثلاث عشره و أربع عشره، و قال الفراء: إلى ستّ عشره فيهن امتلاؤه و اتساقه. [اللسان: وسق].

(۴) البيت هو فى الإيضاح تحقيق الدكتور هنداوى و منسوب لابن بابك فى الإشارات و التنبيهات ص ۱۷۴.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۵

قاله فى الأستاذ أبى على، و قد استوزره فخر الدوله بعد وفاه الصاحب و أبا العباس الضبىّ و خلع عليهما و قول أبى بكر الخوارزمى «۱»: [من الطويل]

أراك إذا أيسرت خيّمت عندنا مقيما و إن أعسرت زرت لماما

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوؤه أغبّ، و إن زاد الضياء أقاما

المعنى لطيف، و إن كانت العباره لم تساعده على الوجه الذى يجب، فإن الإغباب أن

يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه، و إنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره، لم يوال الطلوع كل ليله، بل يظهر فى بعض الليالى، و يمتنع من الظهور فى بعض. و ليس الأمر كذلك، لأنه على نقصانه يطلع كل ليله حتى يكون السّرار، و قال ابن بابك فى نحوه: [من المتقارب]

كذا البدر يسفر فى تمّه فإن خاف نقص المحاق انتقب

و هكذا ينظر إلى مقابلته الشّمس و استمداده من نورها، و إلى كون ذلك سبب زيادته و نقصه و امتلائه من النور و الائتلاق، و حصوله فى المحاق، و تفاوت حاله فى ذلك، فتصاغ منه أمثال، و تبيّن أشباه و مقاييس، فمن لطيف ذلك قول ابن نباته «٢»:

[من الخفيف]

قد سمعنا بالعزّ من آل ساسا ن و يونان فى العصور الخوالى

و الملوك الألى إذا ضاع ذكر وجدوا فى سوائر الأمثال

مكرمات إذا البليغ تعاطى وصفها لم يجده فى الأقوال

و إذا نحن لم نضفه إلى مد

حك كانت نهايه فى الكمال

إن جمعناهما أضرّ بها الجم ع و ضاعت فيه ضياع المحال

فهو كالشمس بعدها يملأ البد ر، و فى قربها محاق الهلال

---

(۱) البيتـان فى الإيضاح ص ۲۰۶، تحقيق الـدكتور هنـداوى (طبعه مؤسـسه المختـار)، و الإشارات و التنبيهات ص ۱۷۴، و يتيمه الدهر ۲/ ۲۲۴، و زهر الآداب ۲/ ۹۹. (لماما) بالكسـر: الإلمام النزول، و قد ألمّ به أى نزل به. ابن سيده: لمّ به و ألمّ و التمّ نزل به، و ألمّ به: زاره غبّا، الليث:

الإلمـام الزيـاره غبّـا، و الفعـل ألممت به، و ألممت عليه، و يقـال: فلاـن يزور فلانـا لمامـا أى: فى الأحـايين. و الغبّ: الإتيـان فى اليومين، و يكون أكثر، و أغبّ القوم و غب عنهم: جـاء يومـا و ترک يومـا، و أغبّ عطاؤه إذا لم يأتنا كل يوم، و أغبت الإبل إذا لم تأت كل يوم بلبن و أغبنا فلان: أتانا غبا. [اللسان: لمم، غبب].

(۲) الأبيات فى مدح عضد الدوله من قصيدته فى تاريخ اثنتين و سبعين و ثلاثمائه، مطلع القصيده:

دفع اللّه نائبات الليالى عنک، يا حامل الخطوب الثقال

و غیر ذلک من أحواله: کنحو ما خرج من الشّبه من بعده و ارتفاعه، و قرب ضوئه و شعاعه، فی نحو ما مضی من قول البحتری:

دان علی أیدی العفاه و من ظهوره بکل مکان، و رؤیته فی کل موضع، کقوله «۱»:

کالبدر من حیث التفتّ رأیته یهدی إلی عینیک نورا ثاقبا

فی أمثال لذلک تکثر. و لم أعرض لما یشبّه به من حیث المنظر، و ما تدرکه العین، نحو تشبیه الشی ء بتقویس الهلال و دقّته، و الوجه بنوره و بهجته، فإنّا فی ذکر ما کان «تمثیلا»، و کان الشّبه فیه معنویّا.

فصل

فصل

و إن کان ممّا مضی، إلا أن الأسلوب غیره، و هو أن المعنی إذا أتاک ممثّلا، فهو فی الأکثر ینجلی لک بعد أن یحوجک إلی غیر طلبه بالفکره و تحریک الخاطر له و الهمّه فی طلبه. و ما کان منه ألطف، کان امتناعه علیک أکثر، و إباؤه أظهر، و احتجابه أشدّ.

و من المرکوز فی الطبع أن الشی ء إذا نیل بعد الطلب له أو الاشتیاق إلیه، و معاناه الحنین نحوه، کان نیله أحلی، و بالمزیّه أولی، فکان موقعه من النفس أجلّ و ألطف، و کانت به أضنّ و أشغف، و لذلک ضرب المثل لکل ما لطف موقعه ببرد الماء علی الظمأ، کما قال «۲»: [من البسیط]

و هنّ ینبذن من قول یصبن به

مواقع الماء من ذى الغلّه الصّادى

و أشباه ذلك مما ينال بعد مكابده الحاجه إليه، و تقدّم المطالبه من النفس به.

فإن قلت: فيجب على هذا أن يكون التعقيد و التعميه و تعمّد ما يكسب

---

(۱) البيت للمتنبى فى ديوانه و فى التبيان للعكبرى على شرح ديوان المتنبى ص ۹۵، و البيت من قصيده يمدح بها على بن منصور الحاطب و الإيضاح ص ۲۰۷، و فى نسخه التبيان «نورا ثاقبا»، و المعنى: هو مثل البدر حيثما كان ترى نوره، و كذلك حيثما كنت من البلاد ترى عطاءه، و قد غمر الناس قريبهم و بعيدهم، و الثاقب: المضى ء الذى يثقب ضوؤه الظلام و يبدّده.

(۲) البيت للقطامى فى ديوانه، و موجود فى لسان العرب (صدى). و الصدى: شده العطش، و قيل: هو العطش ما كان، صدى يصدى. صدى، فهو صد و صاد و صديان و الأنثى صديا. الغلّه: شده العطش و حرارته، قلّ أو كثر. [لسان العرب: صدى، غلل].

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۷

المعنى غموضا، مشرّفا له و زائدا فى فضله، و هذا خلاف ما عليه الناس، أ لا تراهم قالوا: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك؟.

فالجواب: أنى لم أرد هذا الحدّ من الفكر و التعب، و إنما أردت القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قوله «۱»: [من الوافر] فإن المسك بعض دم الغزال و قوله «۲»: [من الوافر]

و ما التأنيث لاسم الشمس عيب و لا التذكير فخر للهلال

و قوله: [من الوافر]

رأيتک فی الذين أرى ملوكا كأنّک مستقيم فی محال

و قول النابغه «۳»:

فإنّک كاللّيل الّذی هو مدركی و إن خلت أنّ المتأدی عنک واسع

و قوله «۴»: [من الطويل]

فإنک شمس و الملوک كواكب إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب

و قول البحتری «۵»: [من الطويل]

ضحوک إلی الأبطال و هو يروعهم و للسيف حدّ حين يسطو و رونق

---

(۱) راجع هامش رقم (۲) ص ۹۴.

(۲) البيت و الذی يليه هما للمتنبی فی ديوانه و هما فی التبيان للعكبری علی ديوان أبی الطيب أحمد المتنبی، البيت الأول ۲/ ۲۹، و الثانی ۲/ ۳۱. المعنی: يقول: رب تأنيث يقصر التذكير عنه و لا يبلغ مبلغه، و لا ينال موضعه، ثم بيّن ذلک بأن الشمس مؤنثه، و الفضل لها و القمر مذكر. ثم يقول: بيان فضلک علی الملوک كبيان فضل الاستقامه علی المحال، و المعنی أنت تفضلهم كفضل المستقيم

على المعوج.

(۳) البيت للنابغه الذبيانى فى ديوانه، و فى الإيضاح تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى، (طبعه مؤسسه المختار)، و أورده محمد بن على الجرجانى فى الإشارات ص ۱۶۶، و فى الكلام إشاره إلى تشبيه النعمان بالسيل فى اندفاعه و قوته بعد تشبيهه بالليل تشبيها يلاحظ فى وجهه الرهبه و الخوف مع ضروره اللحاق و الإدراك، و البيت من إحدى الاعتذاريات التى نبغ فيها النابغه الذبيانى.

(۴) البيت للنابغه الذبيانى فى ديوانه، و فى الإيضاح ص ۲۳۱، تحقيق د. هنداوى.

(۵) البيت فى ديوانه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۸

و قول امرئ القيس «۱»: [من الطويل] بمنجرد قيد الأوابد هيكل و قوله «۲»: [من الكامل]

ثم انصرفت، و قد أصبت و لم أصب، جذع البصيره قارح الإقدام

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى، كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلّا أن تشقّه عنه، و كالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه.

ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عمّا اشتمل عليه، و لا كلّ خاطر يؤذن له فى الوصول إليه، فما كل أحد يفلح فى شقّ الصدفه، و يكون فى ذلك من أهل المعرفه، كما ليس كلّ من دنا من أبواب الملوک، فتحت له، و كان «۳»: [من الطويل]

من النّفر البيض الّذين إذا اعتزوا

و هاب رجال حلقه الباب قعقعوا

أو كما قال «۴»: [من الطويل]

تفتّح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملّق

---

(۱) شطر البيت فی معلقته ص ۱۱۸، و صدره:

و قد أغتدی و الطیر فی و کناتها أغتدی: أخرج بفرسی فی غدوه النهار أی: عند تباشیر الصباح، و کناتها: أو کارها أو و کراتها، و الوکر مأوی الطیر فی العش، المنجرد: الفرس القصیر الشعر، الأوابد: الوحوش الآبده. الهیکل:

الفرس الطویل المتین.

(۲) البیت لأبی محمد قطری بن الفجاءه، أحد بنی مازن بن مالک بن عمرو بن تمیم، و لقبه فی الحرب أبو نعامه، و هو منسوب إلی قطر قرب البحرین، انظر ترجمته فی الطبری ۷/ ۲۷۴، و عیون الأخبار ۱/ ۱۷۵، و ذیل أمالی القالی ص ۱۵، و الخزانه ۳/ ۳۶۱، و زهر الآداب ۴/ ۱۶۲، و هو موجود فی الإیضاح تحقیق د. هنداوی، و فی شرح الحماسه ۱/ ۶۸. و الجذع من الخیل الذی بلغ عامین فلا یحتاج إلی الریاضه، و القارح الذی بلغ النهایه من الخیل.

(۳) البیت فی مجموعه أبیات یقع بعضها فی کلمه فی البیان ۳/ ۳۰۵، نسبت لأبی الربیس الثعلبی یقولها فی عبد اللّه بن جعفر بن أبی طالب أو فی عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفان، انظر الکامل فی اللغه و الأدب تحقیق د. هنداوی ۱/ ۲۴۳، و أنساب الأشراف ۴/ ۱/ ۶۰۳، و الخزانه ۲/ ۵۳۲- ۵۳۴، و یقع فی روایتها اختلاف. و البیت

الذى معنا فى خزانه الأدب ۶/ ۷۸- ۸۹، و لسان العرب (لوى) و يروى فيه هكذا:

من النفر اللائى الذين إذا هم يهاب اللّئام حلقه الباب قعقعوا

و بلا نسبه فى الأشباه و النظائر ۴/ ۳۰۸، و الحيوان ۳/ ۴۸۶، و خزانه الأدب ۶/ ۱۵۶، و العقد الفريد ۵/ ۳۴۳، و تاج العروس (لوى)، و البيان و التبيين ۱/ ۳۹۶، و رسائل الجاحظ ۱/ ۲۲۱.

(۴) البيت لجرير فى ديوانه ص ۳۰۶، من قصيده قالها فى رثاء الفرزدق مطلعها:

لعمرى لقد أشجى تميما و هدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق

عشيه راحوا للفراق بنعشه إلى جدث فى هوه الأرض معمق

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۰۹

و أما التعقيد، فإنما كان مذموما لأجل أن اللفظ لم يرتّب الترتيب الذى بمثله تحصل الدّلاله على الغرض، حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيله، و يسعى إليه من غير الطريق، كقوله «۱»: [من الكامل]

و لذا اسم أغطيه العيون جفونها

من أنّها عمل السيوف عوامل

و إنما ذمّ هـذا الجنس، لأنه أحوجك إلى فكر زائـد على المقـدار الـذى يجب فى مثله، و كـدّك بسوء الـدّلاله و أودع لك فى قـالب غير مسـتو و لاـ مملّس، بـل خشن مضـرّس، حتى إذا رمت إخراجه منه عسـر عليك، و إذا خرج خرج مشوّه الصوره ناقص الحسن.

هذا، و إنما يزيدك الطلب فرحا بالمعنى و أنسا به و سـرورا بالوقوف عليه، إذا كان لذلك أهلا، فأمّا إذا كنت معه كالغائص فى البحر، يحتمل المشـقّه العظيمه، و يخاطر بالروح، ثم يخرج الخرز، فالأمر بالضدّ مما بدأت به. و لذلك كان أحقّ أصـناف التعقّد بالـذم ما يتعبك، ثم لا يجـدى عليك، و يؤرّقك ثم لا يورق لك، و ما سبيله إلّا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم فى نفسه، و فساد فى حسّه، إلى أن لاـ يرضـى بضـعته فى بخله، و حرمـان فضـله، حتّى يـأبى التواضـع و لين القول، فيـتيه و يشـمخ بـأنفه، و يسوم المتعرّض له بابـا ثانيـا من الاحتمـال تناهيـا فى سـخفه أو كالـذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريـح إلى اليأس، و لكنه يطمعـك و يسـحب على المواعيـد الكـاذبه، حتى إذا طـال العنـاء و كثر الجهـد، تكشّف عن غير طائل، و حصـلت منه على نـدم لتعبك فى غير حاصل. و ذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسّفه فى اللفظ، و ذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه، و إغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه، و يضلّ فى تعريفه، كقوله «٢»: [من الكامل]

ثانيه فى كبد السّماء، و لم يكن

لاثنين ثان إذ هما فى الغار

---

(١) البيت للمتنبى فى ديوانه ص ٢٢٣، من قصيده يمدح القاضى أبا الفضل بن عبد اللّه بن الحسين الأنطاكى مطلعها:

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت و هن منك أو أهل

يعلمن ذاك و ما علمت و إنما أولاكما يبكى عليه العاقل

و أيضا فى التبيان للعكبرى ٢/ ٢٠١. و الضمير «إنها» للعيون، أى: أنها تعمل عمل السيوف، و لذا سميت أغطيه العيون جفون، و الجفون أغماد السيوف، أى: لأنها تعمل عمل السيوف.

(٢) البيت لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى الشاعر المجيد المتقدم البارع صاحب ديوان الحماسه، فى

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١١٠

و قوله «١»: [من البسيط]

يدى لمن شاء رهن لم يذق جرعا من راحتيك درى ما الصّاب و العسل

و لو كان الجنس الذى يوصف من المعانى باللطافه و يعدّ فى وسائط العقود، لا يحوجك إلى الفكر، و لا يحرّك من حرصك على طلبه، بمنع جانبه و ببعض الإدلال عليك و إعطائك الوصل

بعـد الصـدّ، و القرب بعد البعد، لكان «باقلّى حار» و بيت معنى هو عين القلاده و واسـطه العقد واحدا، و لسـقط تفاضل السامعين فى الفهم و التصوّر و التبيين، و كـان كـلّ من روى الشـعر عالمـا به، و كـلّ من حفظه إذا كـان يعرف اللغه على الجمله ناقـدا فى تمييز جيّده من رديئه، و كان قول من قال «٢»: [من الطويل]

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيّدها إلا كعلم الأباعر

و كقول ابن الرومى «٣»: [من المنسرح]

قلت لمن قال لى: عرضت على الأ خفش ما قلته فما حمده

قصّرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعرا و لا رواه فلا ثعلبه كان لا و لا أسده

فإن يقل: إنّنى رويت، فكالدّف تر جهلا بكلّ ما اعتقده

و ما أشبه ذلك، دعوى غير مسموعه و لا مؤهّله للقبول، فإنما أرادوا بقولهم:

«ما كان معناه إلى قلبك أسبق

من لفظه إلى سمعك»، أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ و تهذيبه و صيانته من كل ما أخلّ بالدّلاله، و عاق دون الإبانه، و لم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان و يتكلّم به العامّه فى السوق.

هذا، و ليس إذا كان الكلام فى غايه البيان و على أبلغ ما يكون من الوضوح،

ديوانه ص ۱۴۵، من قصيده يمدح فيها المعتصم و يذكر إحراق الأفشين، و هو فى دلائل الإعجاز ص ۸۴. و يروى هكذا: «كاثنين ثان».

(۱) البيت لأبى تمام فى ديوانه ص ۲۱۵ من قصيده يمدح فيها المعتصم باللّه، و هو فى دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ۸۴.

(۲) راجع هامش (۲) ص ۹۰.

(۳) الأبيات فى ديوانه. و ابن الرمى كان كثير الهجاء لعلى بن سليم الأخفش و الأبيات من قصيده طويله مطلعها:

رقاب أهل الحلوم متعمده مقصوده بالهوان معتمده

أغناك ذاك عن الفكره إذا كان المعنى لطيفا، فإن المعانى الشريفه اللطيفه لا بدّ فيها من بناء ثان على أوّل، و ردّ تال على سابق. أ فلست تحتاج فى الوقوف على الغرض من قوله: [من الكامل] كالبدر أفرط فى العلوّ «۱» إلى أن تعرف البيت الأول، فتتصوّر حقيقه المراد منه و وجه المجاز فى كونه دانيا شاسعا، و ترقم ذلک فى قلبك، ثم تعود إلى ما يعرض البيت

الثانى عليك من حال البدر، ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى، و تردّ البصر من هذه إلى تلك، و تنظر إليه كيف شرط فى العلوّ و الإفراط، ليشاكل قوله: «شاسع»، لأن الشّسوع هو الشديد البعد، ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاه التناهى فى القرب فقال: «جدّ قريب»؟ فهذا هو الذى أردت بالحاجه إلى الفكر، و بأنّ المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك فى طلبه، و اجتهاد فى نيله.

هذا، و إن توقفت فى حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر فى تحصيله، فهل تشكّ فى أن الشاعر الذى أدّاه إليك، و نشر بزّه لديك، قد تحمّل فيه المشقّه الشديده، و قطع إليه الشّقه البعيده، و أنه لم يصل إلى درّه حتى غاص، و لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع و الاعتياص؟ و معلوم أن الشى ء إذا علم أنه لم ينل فى أصله إلا بعد التّعب، و لم يدرك إلا باحتمال النّصب، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه، و أخذ الناس بتفخيمه، ما يكون لمباشره الجهد فيه، و ملاقاه الكرب دونه. و إذا عثرت بالهوينا على كنز من الذهب، لم تخرجك سهوله وجوده إلى أن تنسى جمله أنه الذى كدّ الطالب، و حمّل المتاعب، حتى إن لم تكن فيك طبيعه من الجود تتحكّم عليك، و محبّه للثناء تستخرج النفيس من يديك كان من أقوى حجج الضّنّ الذى يخامر الإنسان أن تقول: «إن لم يكدّنى فقد كدّ غيرى»، كما يقول الوارث للمال المجموع عفوا إذا ليم على بخله به، و فرط شحّه عليه: «إن لم يكن كسبى و كدّى، فهو كسب أبى و جدى، و لئن لم ألق فيه عناء، لقد عانى سلفى

فيه الشدائد، و لقوا فى جمعه الأمّرين، أ فأضيّع ما ثمّروه، و أفرّق ما جمعوه، و أكون كالهادم لما أنفقت الأعمار فى بنائه، و المبيد لما قصرت الهمم على إنمائه؟».

و إنك لا تكاد تجد شاعرا يعطيك فى المعانى الدقيقه من التسهيل و التقريب،

---

(١) راجع هامش (۴) ص ١٠١.

و ردّ البعيد إلى المألوف القريب، ما يعطى البحترىّ، و يبلغ فى هذا الباب مبلغه، فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضه الماهر، حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلّل، و ينزع من شماس الصعب الجامح، حتى يلين لك لين المنقاد الطّيع، ثمّ لا يمكن ادعاء أنّ جميع شعره فى قلّه الحاجه إلى الفكر، و الغنى عن فضل النظر، كقوله «١»:

[من الهزج]

فؤادى منك ملآن و سرّى فيك إعلان

و قوله «٢»: [من الكامل] عن أىّ ثغر تبتسم و هل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قلّ نشاطه لها و اعتناؤه بها، إلا لأنّه لم يفهم معانيها كما فهم معانى النوع النازل الذى انحطّ له إليه؟ أتراك تستجيز أن تقول: إن قوله:

منى النّفس فى أسماء لو يستطيعها «٣» من جنس المعقّد الذى لا يحمد، و إن هذه الضّعيفه الأسر، الواصله إلى القلوب من غير فكر، أولى بالحمد، و أحقّ بالفضل.

هذا، و المعقّد من الشعر و الكلام لم يذمّ لأنه مما تقع حاجه فيه إلى الفكر

على الجمله، بـل لأنّ صـاحبه يعثر فكرك فى متصـرّفه، و يشـيك طريقـك إلى المعنى، و يوعّر مـذهبك نحوه، بـل ربّمـا قسّـم فكرك، و شعّب ظنّك، حتى لا تدرى من أين تتوصّل و كيف تطلب؟.

و أمّا الملخّص، فيفتح لفكرتك الطريق المستوى و يمهّده، و إن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار، و أوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته، و تقطعه قطع الواثق بالنّجح فى طيّته، فترد الشريعه زرقاء، و الروضه غنّاء، فتنال الريّ، و قطف الزهر الجنيّ، و هل شى ء أحلى من الفكره إذا استمرت و صادفت نهجا

---

(۱) البيت للبحترى فى ديوانه.

(۲) البيت للبحترى أيضا.

(۳) مطلع قصيده للبحترى من جياد قصائده، فى مدح المتوكل، و تمامه:

.... بها وجدها من غاده و ولوعها

و قد راعنى منها الصدر و إنما تصد لشيب فى عذارى يروعها

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۱۳

مستقيما، مـذهبا قويما، و طريقه تنقاد، و تبيّنت لها الغايه فيما ترتاد؟ فقـد قيل: «قرّه العين، و سعه الصدر، و روح القلب، و طيب النفس، من أربعه أمور:

الاستبانه للحجّه، و الأنس بالأحبّه، و الثّقه بالعدّه، و المعاينه للغايه». و قال الجاحظ فى أثناء فصل يذكر فيه ما فى الفكر و النظر

من الفضيله: «و أين تقع لـذّه البهيمه بالعلوفه، و لـذّه السّبع بلطع الـدّم و أكل اللحم، من سرور الظفر بالأعداء، و من انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه، و بعد، فإذا مدّت الحلبات لجرى الجياد، و نصبت الأهداف لتعرف فضل الرّماه فى الإبعاد و السّداد، فرهان العقول التى تستبق، و نضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه، هو الفكر و الرويّه و القياس و الاستنباط».

و لن يبعد المدى فى ذلك، و لا يدقّ المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشّبه بين الأشياء المختلفه، فإنّ الأشياء المشتركه فى الجنس، المتفقه فى النوع، تستغنى بثبوت الشّبه بينها، و قيام الاتفاق فيها، عن تعمّل و تأمل فى إيجاب ذلك لها و تثبته فيها، و إنما الصّنعه تستدعى وجود القريحه و الحذق، و النظر يلطف و يدقّ، فى أن تجمع أعناق المتنافرات و المتباينات فى ربقه، و تعقد بين الأجنبيّات معاقد نسب و شبكه. و ما شرفت صنعه، و لا ذكر بالفضيله عمل، إلا لأنهما يحتاجان من دقّه الفكر و لطف النظر و نفاذ الخاطر، إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما، و يحتكمان على من زاولهما و الطالب لهما من هذا المعنى، ما لا يحتكم ما عداهما، و لا يقتضيان ذلك إلّا من جهه إيجاد الائتلاف فى المختلفات.

و ذلك بين لك فيما تراه من الصناعات و سائر الأعمال التى تنسب إلى الدقه، فإنك تجد الصوره المعموله فيها، كلما كانت أجزاؤها أشدّ اختلافا فى الشكل و الهيئه، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتمّ، و الائتلاف أبين، كان شأنها أعجب، و الحذق لمصوّرها أوجب.

و إذا كان هذا ثابتا موجودا، و معلوما معهودا، من حال الصور المصنوعه و الأشكال المؤلّفه، فاعلم أنها

القضيّه فی «التمثیل» و اعمل علیها، و اعتقد صحّه ما ذکرت لک من أنّ أخذ الشبه للشی ء مما یخالفه فی الجنس و ینفصل عنه من حیث ظاهر الحال، حتی یکون هذا شخصا یملأ المکان، و ذاک معنی لا یتعدّی الأفهام و الأذهان و حتی إن هذا إنسان یعقل، و ذاک جماد أو موات لا یتّصف بأنه یعلم أو یجهل و هذا نور شمس یبدو فی السماء و یطلع، و ذاک معنی کلام یوعی و یسمع و هذا

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۱۴

روح یحیا به الجسد، و ذاک فضل و مکرمه تؤثر و تحمد، کما قال «۱»: [من البسیط]

إنّ المکارم أرواح یکون لها آل المهلّب دون النّاس أجسادا

و هذا مقال متعصّب منکر للفضل حسود، و ذاک نار تلتهب فی عود، و هذا مخلاف، و ذاک ورق خلاف، کما قال ابن الرّومیّ «۲»: [من الخفیف]

بذل الوعد للأخلّاء سمحا و أبی بعد ذاک بذل العطاء

فغدا کالخلاف یورق للعی ن، و یأبی الإثمار کلّ الإباء

و هذا رجل یروم العدوّ تصغیره و الإزراء

به، فيأبى فضله إلّا ظهورا، و قدره إلا سمّوا، و ذاك شهاب من نار تصوّب و هى تعلو، و تخفض و هى ترتفع، كما قال أيضا «٣»: [من الخفيف]

ثم حاولت بالمثيقيل تصغى رى فما زدتنى سوى التّعظيم

كالذى طأطأ الشّهاب ليخفى و هو أدنى له إلى التّضريم

و أخذ هذا المعنى من كلام فى حكم الهند، و هو: «إن الرجل ذا المروءه و الفضل ليكون خامل المنزله غامض الأمر، فما تبرح به مروءته و عقله حتى يستبين و يعرف، كالشعله من النار التى يصوّبها صاحبها و تأبى إلّا ارتفاعا».

هذا هو الموجب للفضيله، و الداعى إلى الاستحسان، و الشفيع الذى أحظى «التمثيل» عند السامعين، و استدعى له الشغف و الولوع من قلوب العقلاء الراجحين، و لم تأتلف هذه الأجناس المختلفه للممثّل، و لم تتصادف هذه الأشياء المتعاديه على حكم المشبّه، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين، و لكن ما يستحضر العقل، و لم يعن بما تنال الرؤيه، بل بما تعلّق الرويّه، و لم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنه بل من حيث تعيها القلوب الفطنه.

ثم على حسب دقّه المسلك إلى ما استخرج من الشّبه، و لطف المذهب و بعد التّصعّد إلى ما حصل من الوفاق، استحقّ مدرك ذلك المدح، و استوجب التقديم، و اقتضاك العقل أن تنوّه بذكره، و تقضى بالحسنى فى نتائج فكره. نعم، و على

---

(۱) البيت من ثلاثه أبيات فى شرح الحماسه ۴/ ۱۴۷، و أمالى القالى، و هو ينسب لعمر بن لجأ فى يزيد بن المهلب.

(۲) راجع هامش رقم (۴) ص ۹۰.

(۳) البيتان فى معجم الشعراء ص ۴۴۸. مثيقل: تصغير مثقال.

المراتب فى ذلك أعطيته فى بعض منزله الحاذق الصّانع، و الملهم المؤيّد، و الألمعى المحدّث، الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعه حتى يصير إماما، و يكون من بعده تبعا له و عيالا عليه و حتى تعرف تلك الصّنعه بالنسبه إليه، فيقال: «صنعه فلان»، و «عمل فلان» و وضعته فى بعض موضع المتعلّم الذكىّ، و المقتدى المصيب فى اقتدائه، الذى يحسن التشبّه بمن أخذ عنه، و يجيد حكايه العمل الذى استفاد، و يجتهد أن يزداد.

و اعلم أنى لست أقول لك إنك متى ألّفت الشى ء ببعيد عنه فى الجنس على الجمله فقد أصبت و أحسنت، و لكن أقوله بعد تقييد و بعد شرط، و هو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس و فى ظاهر الأمر شبها صحيحا معقولا، و تجد للملاءمه و التأليف السوىّ بينهما مذهبا و إليهما سبيلا- و حتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك، من حيث العقل و الحدس، فى وضوح اختلافهما من حيث العين و الحسّ، فأمّا أن تستكره الوصف و تروم أن تصوّره حيث لا يتصوّر، فلا لأنك تكون فى ذلك بمنزله الصّانع الأخرق، يضع فى تأليفه و صوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه و لا يقبلانه، حتى تخرج الصوره مضطربه،

و تجی ء فیها نتوّ، و یکون للعین عنها من تفاوتها نبوّ. و إنما قیل: «شبّهت، و لا تعنی فی کونک مشبّها أن تذکر حرف التشبیه أو تستعیر، إنما تکون مشبّها بالحقیقه بأن تری الشّبه و تبیّنه، و لا یمکنک بیان ما لا یکون، و تمثیل ما لا تتمثّله الأوهام و الظنون.

و لم أرد بقولی إنّ الحذق فی إیجاد الائتلاف بین المختلفات فی الأجناس، أنک تقدر أن تحدث هناک مشابهه لیس لها أصل فی العقل، و إنما المعنی أنّ هناک مشابهات خفیّه یدقّ المسلک إلیها، فإذا تغلغل فکرک فأدرکها فقد استحققت الفضل. و لذلک یشبّه المدقّق فی المعانی بالغائص علی الدرّ، و وزان ذلک أن القطع التی یجی ء من مجموعها صوره الشّنف و الخاتم أو غیرهما من الصور المرکّبه من أجزاء مختلفه الشکل، لو لم یکن بینها تناسب، أمکن ذلک التناسب أن یلائم بینها الملائمه المخصوصه، و یوصل الوصل الخاصّ، لم یکن لیحصل لک من تألیفها الصوره المقصوده. أ لا ترى أنّک لو جئت بأجزاء مخالفه لها فی الشکل، ثم أردتها علی أن تصیر إلی الصوره التی کانت من تلک الأولی، طلبت ما یستحیل؟ فإنما استحققت الأجره علی الغوص و إخراج الدّر، لا أن الدرّ کان بک، و اکتسی شرفه من جهتک، و لکن لمّا کان الوصول إلیه صعبا و طلبه عسیرا، ثم رزقت ذلک، وجب أن یجزل لک، و یکبر صنیعک.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۱۶

أ لا تری أن التشبیه الصریح إذا وقع بین شیئین متباعدین فی الجنس، ثم

لطف و حسن، لم يكن ذلك اللّطف و ذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتا بين المشبّه و المشبّه به من الجهه التى بها شبّهت، إلّا أنه كان خفيا لا ينجلى إلا بعد التأنّق فى استحضار الصور و تذكّرها، و عرض بعضها على بعض، و التقاط النّكته المقصوده منها، و تجريدها من سائر ما يتّصل بها، نحو أن تشبّه الشى ء بالشى ء فى هيئه الحركه، فتطلب الوفاق بين الهيئه و الهيئه مجرّده من الجسم و سائر ما فيه من اللون و غيره من الأوصاف؟ كما فعل ابن المعتز فى تشبيه البرق حيث قال «۱»: [من المديد]

و كأنّ البرق مصحف قار فانطباقا مرّه و انفتاحا

لم ينظر من جميع أوصاف البرق و معانيه إلا إلى الهيئه التى تجدها العين له من انبساط يعقبه انقباض، و انتشار يتلوه انضمام، ثم فلى نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيّها أشبه بها، فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركه الخاصّه فى المصحف، إذا جعل يفتحه مره و يطبقه أخرى. و لم يكن إعجاب هذا التشبيه لك و إيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان فى الجنس أشدّ الاختلاف فقط، بل لأنّ حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون و أتمّه، فبمجموع الأمرين شدّه ائتلاف فى شدّه اختلاف حلا و حسن، وراق و فتن.

و يدخل فى هذا الوضع الحكايه المعروفه فى حديث عدىّ بن الرّقاع، قال جرير: «أنشدنى عدىّ «۲»: [من الكامل] عرف الديار توهّما فاعتادها

---

(۱) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ۱۴۱ (طبعه دار صادر)، من قصيده مطلعها:

عرف الدار، فحيّا و ناحا بعد ما كان صحا و استراحا

و هو فى الإيضاح ص ۲۱۵ تحقيق د. هنداوى.

(۲) تمام البيت:

من بعد ما شمل البلى أبلادها و البيت من قصيده فى مدح الوليد بن عبد الملك و منها:

و لقد أراد اللّه إذ ولاكها من أمه إصلاحها و رشادها

«عومنها» تأتيه أسلاب الأعزه عنوه قسرا و يجمع للحرب عتادها

و البيت فى الإيضاح: تحقيق الدكتور هنداوى، مؤسسه المختار، و الأبلاد: قطع الأرض عامره أو غامره أو الآثار فى قول بعضهم.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۱۷

فلمّا بلغ إلى قوله:

تزجى أغنّ كأنّ إبره روقه رحمته، و قلت: قد وقع! ما عساه يقول و هو أعرابىّ جلف جاف؟ فلما قال:

قلم أصاب من الدّواه مدادها استحالت الرّحمه حسدا» فهل كانت الرحمه فى الأولى، و الحسد فى الثانيه، إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له فى أوّل الفكر و بديهه الخاطر، و فى القريب من محلّ الظنّ شبه، و حين أتمّ التشبيه و أدّاه صادفه قد ظفر بأقرب صفه من أبعد موصوف، و عثر على خبى ء

مكانه غير معروف؟.

و على ذلك استحسنوا قول الخليل فى انقباض كفّ البخيل «١»: [من المتقارب]

كفاك لم تخلقا للنّدى و لم يك بخلهما بدعه

فكفّ عن الخير مقبوضه كما نقضت مائه سبعه

و كفّ ثلاثه آلافها و تسع مئيها لها شرعه

و ذلك أنه أراك شكلا واحدا فى اليدين، مع اختلاف العددين، و مع اختلاف المرتبتين فى العدد أيضا، لأن أحدهما من مرتبه العشرات و الآحاد، و الآخر من مرتبه المئين و الألوف، فلما حصل الاتفاق كأشدّ ما يكون فى شكل اليد مع الاختلاف، كأبلغ ما يوجد فى المقدار و المرتبه من العدد، كان التشبيه بديعا. قال المرزبانى:

«و هذا ما أبدع فيه الخليل، لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العدد، متشاكلين فى الصوره»، و قوله هذا إجمال ما فصّلته.

و مما ينظر إلى هذا الفصل و يداخله و يرجع إليه حين تحصيله، الجنس الذى يراد فيه كون الشى ء من الأفعال سببا لضدّه، كقولنا: «أحسن من حيث قصد الإساءه» و «نفع من حيث أراد الضّرّ»، إذ لم يقنع المتشاغل بالعباره الظاهره و الطريقه المعروفه، و صوّر فى نفس الإساءه الإحسان، و فى البخل الجود، و فى المنع العطاء، و فى موجب الذمّ موجب الحمد،

و فى الحاله التى حقّها أن تعدّ على الرجل حكم ما يعتدّ له، و الفعل الذى هو بصفه ما يعاب و ينكر، صفه ما يقبل المنّه و يشكر، فيدلّ ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البيّن، على حذق شاعره، و على

---

(١) الأبيات للخليل بن أحمد فى عيون الأخبار ٢/ ٣٥، رواها عنه الأخفش.

جوده طبعه و حدّه خاطره، و علوّ مصعده و بعد غوصه، إذا لم يفسده بسوء العباره، و لم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلاله، و كشف تمام الكشف عن سرر المعنى و سرّه بحسن البيان و سحره.

مثال ما كان من الشعر بهذه الصّفه قول أبى العتاهيه «١»: [من الكامل]

جزى البخيل علىّ صالحه عنّى، بخفّته على ظهرى

أعلى و أكرم عن يديه يدى فعلت، و نزّه قدره قدرى

و رزقت من جدواه عافيه أن لا يضيق بشكره صدرى

و غنيت خلوا من تفضّله

أحنو عليه بأحسن العذر

ما فاتنى خير امرئ وضعت عنّى يداه مئونه الشّكر

و من اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر «٢»: [من المنسرح]

أعتقنى سوء ما صنعت من ال رقّ، فيا بردها على كبدى

فصرت عبدا للسّوء فيك، و ما أحسن سوء قبلى إلى أحد

فصل هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه و التمثيل جميعا

فصل هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه و التمثيل جميعا

اعلم أن معرفه الشى ء من طريق الجمله، غير معرفته من طريق التفصيل. فنحن و إن كنّا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب و غير الغريب إذا سمعنا بهما، فإنّ لوضع القوانين و بيان التّقسيم فى كل شى ء، و تهيئه العباره فى الفروق، فائده لا ينكرها المميز، و لا يخفى أن ذلك أتمّ للغرض و أشفى للنفس.

و المعنى الجامع فى سبب الغرابه أن يكون الشّبه المقصود من الشى ء مما لا يتسرّع إليه الخاطر، و لا يقع فى الوهم عند بديهه النظر إلى نظيره الذى يشبّه به، بل بعد تثبت و تذكر و فلى للنفس عن الصور التى تعرفها، و تحريك للوهم فى استعراض ذلك و استحضار ما غاب منه.

---

(١) الأبيات فى ديوانه طبعه بيروت، و دلائل الإعجاز ص ٥١٠، تحقيق د. محمود

شاكر.

(۲) البيتان فى الحماسه الشجريه: ص ۲۹۱، و شرح نهج البلاغه ۱۹/ ۳۳۷، و ابن عساكر ۲/ ۹۷، و دلائل الإعجاز ص ۵۱۰، تحقيق د. محمود شاكر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۱۹

بيان ذلك: أنك كما ترى الشمس و يجرى فى خاطرك استدارتها و نورها، تقع فى قلبك المرآه المجلوّه، و يتراءى لك الشّبه منها فيها.

و كذلك إذا نظرت إلى الوشى منشورا و تطلّبت لحسنه و نقشه و اختلاف الأصباغ فيه شبها، حضرك ذكر الرّوض ممطورا مفترّا عن أزهاره، متبسّما عن أنواره.

و كذلك إذا نظرت إلى السيف الصّقيل عند سلّه و بريق متنه، لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق، و إن كان هذا أقلّ ظهورا من الأوّل، و على هذا القياس.

و لكنّك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشّمس بالمرآه فى كفّ الأشلّ، كقوله «۱»: [من الرجز] و الشّمس كالمرآه فى كفّ الأشل هذا الإسراع و لا قريبا منه.

و لا إلى تشبيه البرق بإصبع السّارق، كقول كشاجم «۲»: [من الرجز]

أرقت أم نمت لضوء بارق مؤتلقا مثل الفؤاد الخافق

كأنّه إصبع كف السّارق و كقول ابن بابك «۳»: [من الطويل]

و نضنض فى حضنى سمائك بارق له جذوه من زبرج اللّاذ لامعه

تعوّج فى أعلى السحاب كأنّها بنان يد من كلّه اللّاذ ضارعه

و لا- إلى تشبيه البرق فى انبساطه و انقباضه و التماعه و ائتلافه، بانفتاح المصحف و انطباقه، فيما مضى من قول ابن المعتز «۴»: [من المديد]

و كأنّ البرق مصحف قار فانطباقا مرّه و انفتاحا

و لا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك فى قوله «۵»: [من الوافر]

بشكل يأخذ الحرف المحلّى كأن سطوره أغصان شوك

---

(۱) البيت لجبار بن جزء بن ضرار، ابن أخى الشماخ، و الأشل: هو مقدار من الذراع معلوم بالبصره، يقولون كذا و كذا حبلا، و كذا و كذا أشلاء لمقدار معلوم عندهم، قال الأزهرى: و ما أراه عربيا.

[تاج العروس].

(۲) البيت فى ديوانه، و فى نسخه الدكتور محمود شاكر «الفؤاد الخافق» بدلا من «الفؤاد العاشق».

(۳) نضنض أى: تحرك، و نضنض الطائر: حرّك جناحيه ليطير و نضنض لسانه: حركه، الضاد فيه أصل و ليست بدلا من صاد كما زعم قوم، الزبرج: الوشى الخفيف، اللاذ: الحرير.

(۴) راجع هامش (۱) ص ۱۱۶.

(۵) البيت فى ديوان ابن المعتز، و قبله يصف دفترا:

دونكه موشّى نمنمته و

حاكته الأنامل أى حوك

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۲۰

و لا إلى تشبيه الشّقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد، كقول الصّنوبرىّ «۱»:

[من الكامل]

و كأنّ محمرّ الشقى ق إذا تصوّب أو تصعّد

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

و لا- إلى تشبيه النجوم طالعات فى السماء مفترقات مؤتلفات فى أديمها، و قد مازجت زرقه لونها بياض نورها، بدرّ منثور على بساط أزرق، كقول أبى طالب الرّقّى «۲»: [من الكامل]

و كأنّ أجرام النّجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

و لا ما جرى فى هذا السبيل، و كان من هذا القبيل. بل تعلم أن الذى سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات لم يسبق إلى مدى قريب، بل أحرز غايه لا ينالها غير الجواد، و قرطس فى هدف لا يصاب إلّا بعد الاحتفال و الاجتهاد.

و اعلم أنك إن أردت أن تبحث بحثا ثانيا حتى تعلم لم وجب أن يكون بعض الشّبه على الذكر أبدا، و بعضه كالغائب عنه، و بعضه كالبعيد عن الحضره لا ينال إلا بعد قطع مسافه إليه، و فضل تعطّف

بـالفكر عليه فإنّ هاهنا ضـربين من العبره يجب أن تضـبطهما أوّلا، ثم ترجع فى أمر التشبيه، فإنّک حينئـذ تعلم السّـبب فى سـرعه بعضه إلى الفكر، و إباء بعض أن يكون له ذلک الإسراع.

فإحدى العبرتين: أنّا نعلم أن الجمله أبدا أسبق إلى النفوس من التفصيل، و أنت تجد الرؤيه نفسها لا تصل بالبديهه إلى التفصيل، لكنک ترى بالنّظر الأوّل الوصف على الجمله، ثم ترى التفصـيل عنـد إعاده النظر، و لذلک قالوا: «النظره الأولى حمقاء»، و قالوا: «لم ينعم النّظر و لم يسـتقص التأمّـل». و هكـذا الحكم فى السـمع و غيره من الحواس، فإنک تتبيّن من تفاصـيل الصّوت بأن يعاد عليک حتى تسمعه مرّه

---

(١) البيتان للصنوبرى، و هما فى مفتاح العلوم ص ۴۶١، تحقيق د. هنداوى، و أورده بدر الدين بن مالک فى المصباح ص ١١۶، و الطيبى فى شرحه على المشكاه ١/ ١١٠ تحقيق د. هنداوى، و العلوى فى الطراز ١/ ٢٧۵.

(٢) الـبيت لأبـى طـالب الرّقّى، و هو فى الإيضـاح تحقيق د. هنـداوى ص ٢١۴، ٢٢٨، ٢٣۶، و مفتـاح العلـوم ص ۴۴۴ تحقيق د. هنداوى، و أورده الطيبى فى التبيان ص ٢٨١، و فيه «نشرن» بدلا من «نثرن»، و الطيبى فى شرحه على مشكاه المصابيح ١/ ١٠٧، و لعلوى فى الطراز، و قبله:

و لقد ذكرتک فى الظلام كأنه يوم النوى و فؤاد من لم يعشق

ثـانيه، مـا لم تتبيّنه بالسـماع الأول، و تـدرك من تفصـيل طعم المـذوق بـأن تعيـده إلى اللّسان ما لم تعرفه فى الـذّوقه الأولى، و بإدراك التّفصيل يقع التفاضل بين راء وراء، و سامع و سامع، و هكذا، فأمّا الجمل فتستوى فيها الأقدام. ثمّ تعلم أنّك فى إدراك تفصـيل مـا تراه و تسـمعه أو تـذوقه، كمن ينتقى الشـى ء من بين جمله، و كمن يميّز الشـى ء ممـا قـد اختلـط به، فإنـك حين لا يهمّك التفصيل، كمن يأخذ الشى ء جزافا و جرفا.

و إذا كانت هـذه العبره ثابته فى المشاهـده و ما يجرى مجراها مما تناله الحاسّه، فالأمر فى القلب كـذلك: تجـد الجمل أبـدا هى التى تسبق إلى الأوهام و تقع فى الخاطر أوّلا، و تجد التفاصيل مغموره فيما بينها، و تراها لا تحضر إلا بعد إعمال للرؤيه و استعانه بالتذكّر.

و يتفـاوت الحـال فى الحـاجه إلى الفكر بحسب مكـان الوصف و مرتبته من حـدّ الجمله و حـدّ التفصـيل، و كلّما كان أوغل فى التفصيل، كانت الحاجه إلى التوقّف و التذكّر أكثر، و الفقر إلى التأمّل و التمهّل أشدّ.

و إذ قد عرفت هذه العبره، فالاشتراك فى الصـفه إذا كان من جهه الجمله على الإطلاق، بحيث لا يشوبه شـى ء من التفصيل نحو أن كلاـ الشـيئين أسود أو أحمر فهو يقـلّ عن أن تحتاج فيه إلى قياس و تشبيه. فإن دخل فى التفصـيل شـيئا نحو: أن هـذا السواد صـاف برّاق، و الحمره رقيقه ناصـعه احتجت بقـدر ذلك إلى إداره الفكر. و ذلك مثل تشبيه حمره الخـدّ بحمره التفّاح و الورد، فإن زاد تفصيله بخصوص تدقّ العباره عنه، و يتعرّف بفضل تأمّل، ازداد الأمر قوّه فى اقتضاء الفكر، و ذلك نحو تشبيه

سقط النار بعين الديک فی قوله: [من الطويل] و سقط کعين الدّيک عاورت صحبتی «۱» و ذلک أنّ ما فی لون عينه من تفصيل و خصوص، يزيد علی کون الحمره رقيقه

---

(۱) البيت لذی الرمه فی ديوانه ص ۸۵ من قصيده مطلعها:

لقد جشأت نفس عشيه مشرف و يوم لوی حزوی فقلت لها صبرا

و هو فی الإيضاح ص ۲۱۳ تحقيق د. عبد الحميد هنداوی. و السّقط: ما سقط بين الزندين قبل استحکام الوری، و قد شبه النار بعين الديک، عاورت صاحبی: تداولت، فأنا أقدح مره، و هو يقدح مره. ثم يقول بعده:

مشهّره لا يمکن الفحل أمّها إذا نحن لم نمسک بأطرافها قسرا

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۱۲۲

ناصعه و السواد صافيًا برّاقا. و علی هذا تجد هذا الحدّ من المرتبه التی لا يستوی فيها البليد و الذکیّ، و المهمل نفسه و المتيقّظ المستعدّ للفکر و التصوّر، فقوله «۱»:

[من الطويل]

کأنّ علی أنيابها کلّ سحره صياح البوازی من صريف اللّوائک

أرفع طبقه من قوله «۲»: [من الطويل]

کأن

صليل المرو حين تشذّه صليل زيوف ينتقدن بعبقرا

لأن التفصيل و الخصوص فى صوت البازى، أبين و أظهر منه فى صليل الزيوف.

و كما أن قوله يصف الفرس «٣»: [من البسيط]

و للفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الغلام وراء الغيب بالحجر

لا يسوّى بتشبيه وقع الحوافر بهزمه الرعد، و تشبيه الصّوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك، كقوله «۴»: [من الطويل]

لها لغط جنح الظّلام كأنّه عجارف غيث رائح متهزّم

لأنّ هناك من التفصـيل الحسن ما تراه، و ليس فى كون الصوت من جنس اللّغط تفصيل يعتدّ به، و إنما هو كالزياده و الشدّه فى الوصف.

و مثـال ذلـك مثـال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لاـ يتجاوز مرتبه الجمل كبير تجاوز، فإذا رأى الرجل شـخصا قـد زاد على المعتاد فى العظم

---

(١) راجع ص ٧٠ هامش رقم (٢).

(٢) البيت لامرئ القيس، و هو فى ديوانه ص ۶٣ من قصـيده قالها فى توجهه إلى قيصر ملك الروم مستجدا به على رد ملكه إليه و الانتقام من بنى أسد، و مطلعها:

سما بك شوق بعد ما كان أقصرا و حلّت سليمى بطن قوم فعرعرا

كنا فيه باتت و فى الصدر ودها مجاوره غسان و الحى يعمرا

و صليل المرو: صوت الحجاره. تشذّه: تنحيه. الزيوف: الدراهم الزائفه التى لا فضه فيها. عبقر:

واد زعموا أنه كثير الجن، و إليه تنسب نفائس الأشياء و بدائع الفكر، فيقال: هذا بساط عبقرى، و هذا رأى عبقرى، و هذا رجل عبقرى، و ذلك لكل حسن مستجاد.

(٣) البيت لتميم بن أبى مقبل فى ديوانه. و الأبهر: عرق مستبطن فى الصلب و القلب متصل به، فإذا انقطع لم تكن معه حياه.

(۴) البيت لعمرو بن أحمر الباهلى فى ديوانه، و هو فى شرح الحماسه يصف القدور. عجارف: شده المطر و الغيث، المنهزم: المتصوت يقال: تهزمت القوس و تهزم الرعد أى صوتا.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٢٣

و الضخامه، لم يحتجّ فى تشبيهه بالفيل أو الجبل أو الجمل أو نحو ذلك إلى شى ء من الفكر، بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهه.

و المقابلات التى تريك الفرق بين الجمله و التفصيل كثيره، و من اللّطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله «١»: [من المتقارب]

يتابع لا يبتغى غيره بأبيض كالقبس الملتهب

ثم تقابل به قوله «٢»: [من الطويل]

جمعت ردينيّا كأنّ سنانه

سنا لهب لم يتّصل بدخان

فإنک ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ما تراه، مع أن المشبّه به فى الموضعين شى ء واحد و هو شعله النار، و ما ذاک إلا من جهه أن الثانى قصد إلى تفصيل لطيف، و مرّ الأوّل على حکم الجمل.

و معلوم أن هذا التفصيل لا يقع فى الوهم فى أول وهله، بل لا بدّ فيه من أن تتثبّت و تتوقّف و تروّى و تنظر فى حال کل واحد من الفرع و الأصل، حتى يقوم حينئذ فى نفسک أن فى الأصل شيئا يقدح فى حقيقه الشبه، و هو الدّخان الذى يعلو رأس الشعله، و أنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلک، و أنه إذا کان کذلک، کان التحقيق و ما يؤدّى الشى ء کما هو، أن تستثنى الدّخان و تنفى اتصاله باللهب، و تقصر التّشبيه على مجرّد السّنا، و تصوّر السنان فيه مقطوعا عن الدخان. و لو فرضت أن يقع هذا کلّه على حدّ البديهه من غير أن يخطر ببالک ما ذکرت لک، قدّرت محالا لا يتصوّر، کما أنک لو قدّرت أن يکون تشبيه الثّريا بعنقود ملّاحيه حين نوّر، بمنزله تشبيهها بالنور على الإطلاق، أو تفتّح نور فقط، کما قال «۳»: [من الطويل]

کأنّ الثّريا فى أواخر ليلها تفتّح نور ....

---

(۱) البيت لعنتره بن شداد العبسى فى ديوانه ص ۱۷، و هو أحد أربعه أبيات قالها فى قتل ورد بن حابس نضله الأسدى. و هو فى الإيضاح ص ۲۳۵ تحقيق د. هنداوى.

تتابع: توالى، و يروى: «تدارك لا يتقى نفسه» و بهذه الروايه ورد فى شعر النصرانيه. الأبيض: السيف. القبس: الشعله تقتبس من معظم النار: يصف سيفه فى إيماضه و بريقه.

(۲) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ص ۱۷۰ يصف رمحه. الردينى: الرمح المقوم، منسوب إلى ردينه، قبيله من العرب كانت معروفه بتقويم الرماح.

(۳) البيت لابن المعتز فى ديوانه، و هو غير كامل و تمامه:

أو لجام مفضّض

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۲۴

حتى ترى حاجتهما إلى التأمّل على مقدار واحد، و حتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس و بحثها عن الصور التى تعرفها، إلا إلى مثل ما يحوج إليه الآخر أسرفت فى المجازفه، و نفضت يدا بالصّواب و التحقيق.

و العبره الثانيه: أن ما يقتضى كون الشى ء على الذّكر و ثبوت صورته فى النفس، أن يكثر دورانه على العيون، و يدوم تردّده فى مواقع الأبصار، و أن تدركه الحواسّ فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات و بالعكس، و هو أنّ من سبب بعد ذلك الشى ء عن أن يقع ذكره بالخاطر، و تعرض صورته فى النفس، قلّه رؤيته، و أنه مما يحسّ بالفينه بعد الفينه، و فى الفرط بعد الفرط، و على طريق النّدره، و ذلك أن العيون هى التى تحفظ صور الأشياء على النفوس، و تجدّد عهدها بها، و تحرسها من أن تدثر، و تمنعها أن تزول، و لذلك قالوا: «من غاب عن العين فقد غاب عن القلب»، و على هذا المعنى كانت المدارسه و المناظره فى العلوم و

كرورها على الأسماع، سبب سلامتها من النّسيان، و المانع لها من التفلّت و الذّهاب.

و إذا كان هذا أمرا لا يشكّ فيه، بان منه أنّ كل شبه رجع إلى وصف أو صوره أو هيئه من شأنها أن ترى و تبصر أبدا، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل، و ما كان بالضدّ من هذا و فى الغايه القصوى من مخالفته، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع، ثم تتفاضل التشبيهات التى تجى ء واسطه لهذين الطّرفين، بحسن حالها منهما، فما كان منها إلى الطّرف الأول أقرب، فهو أدنى و أنزل، و ما كان إلى الطّرف الثانى أذهب، فهو أعلى و أفضل، و بوصف الغريب أجدر.

و اعلم أن قولنا: «التفصيل» عباره جامعه، و محصولها على الجمله أنّ معک و صفين أو أوصافا، فأنت تنظر فيها واحدا واحدا، و تفصل بالتأمّل بعضها من بعض و أنّ بک فى الجمله حاجه إلى أن تنظر فى أكثر من شى ء واحد، و أن تنظر فى الشى ء الواحد إلى أكثر من جهه واحده. ثم إنه يقع فى أوجه:

أحدها: و هو الأولى و الأحقّ بهذه العباره: أن تفصّل، بأن تأخذ بعضا و تدع بعضا، كما فعل فى اللّهب حين عزل الدخان عن السّنا و جرّده، و كما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون، و أثبتها مفرده فيما شبّه، و ذلک قوله: [من الطويل] لها حدق لم تتّصل بجفون «۱»

---

(۱) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ۴۴۰، و صدره:

فجاءت بها فى كأسها ذهبيّه

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۲۵

و يقع فى

هذا الوجه من التفصيل لطائف، فمنها قول ابن المعتزّ «١»: [من الرجز]

بطارح النظره فى كل أفق ذى منسر أقنى إذا شكّ خرق

و مقله تصدقه إذا رمق كأنّها نرجسه بلا ورق

و قوله «٢»: [من المنسرح]

تكتب فيه أيدى المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق

و الثانى: أن تفصّل، بأن تنظر من المشبّه فى أمور لتعتبرها محلها، و تطلبها فيما تشبّه به، و ذلك كاعتبارك، فى تشبيه الثريا بالعنقود، الأنجم أنفسها، و الشكل منها و اللون، و كونها مجتمعه على مقدار فى القرب و البعد. فقد نظرت فى هذه الأمور واحدا واحدا، و جعلتها بتأمّلك فصلا فصلا، ثم جمعتها فى تشبيهك، و طلبت للهيئه الحاصله من عدّه أشخاص الأنجم، و الأوصاف التى ذكرت لك من الشكل و اللون و التقارب على وجه مخصوص هيئه أخرى شبيهه بها، فأصبتها فى العنقود المنور من الملّاحيه و لم يقع لك وجه التشبيه بينهما إلا بأن فصّلت أيضا أجزاء العنقود بالنظر، و علمت أنها خصل بيض، و أن فيها شكل استداره النجم، ثم الشكل إلى الصغر ما هو، كما أن شكل أنجم الثريّا كذلك و أنّ هذه الخصل لا هى مجتمعه اجتماع النظام و التلاصق، و لا هى شديده الافتراق، بل لها

مقادير فى التقارب و التباعد فى نسبه قريبه مما تجده فى رأى العين بين تلك الأنجم.

يـدلّك على أن التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف، أنّا لو فرضـنا فى تلك الكواكب أن تفترق و تتباعد تباعدا أكثر مما هى عليه الآـن، أو قـدّر فى العنقود أن ينتثر، لم يكن التشبيه بحـاله و كـذلك الحكم فى تشبيه الثريّا باللّجـام المفضّـض، لأـنك راعيت الهيئه الخـاصه من وقوع تلـك القطع و الأـطراف بين اتّصـال و انفصال، و على الشـكل الـذى يوجبه موضوع اللجام، و لو فرضت أن تركّب مثلا على سنن واحد طولا فى سير واحد مثلا و يلصق بعضها ببعض، بطل التشبيه.

---

(۱) البيتان فى ديوانه من أرجوزه فى الطرد. و المنسـر: منقاره الذى يستنسر به، و منقار البازى، أبو زيد: منسر الطائر: منقاره بكسر الميم لا غير.

(۲) البيت لابن المعتز فى ديوانه، يذكر قدح خمر، و قبله:

لا شى ء يسلى همى سوى قدح تدمى عليه أوداج إبريق

و التعريق: المد الزائد فى الحروف كالميم و غيرها من الحروف.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۲۶

و كذا قوله «۱»: [من الطويل] ..... تعرّض أثناء الوشاح المفصّل و قـد اعتبر فيه هيئه التفصـيل فى الوشاح، و الشـكل الذى يكون عليه الخرز المنظوم فى الوشاح، فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل فى التشبيه.

و الوجه الثالث: أن تفصّل بأن تنظر إلى خاصّه فى بعض الجنس، كالتى تجدها

فى صوت البازى و عين الديك، فأنت تأبى أن تمرّ على جمله أنّ هذا صوت و ذاك حمره، و لكن تفصّل فتقول فيهما ما ليس فى كل صوت و كل حمره.

و اعلم أن هذه القسمه فى التفصيل موضوعه على الأغلب الأعرف، و إلا فدقائقه لا تكاد تضبط.

و مما يكثر فيه التفصيل و يقوى معناه فيه، ما كان من التشبيه مركّبا من شيئين أو أكثر، و هو ينقسم قسمين:

أحدهما: أن يكون شيئا يقدّره المشبّه و يضعه و لا يكون.

و مثال ذلک تشبيه النرجس بمداهن درّ حشوهنّ عقيق، و تشبيه الشّقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد، لأنک فى هذا النحو تحصّل الشبه بين شيئين تقدّر اجتماعهما على وجه مخصوص و بشرط معلوم، فقد حصّلته فى النرجس من شكل المداهن و العقيق، بشرط أن تكون الداهن من الدرّ، و أن يكون العقيق فى الحشو منها و كذلک اشترطت هيئه الأعلام، و أن تكون من الياقوت، و أن تكون منشوره على رماح من زبرجد فبک حاجه فى ذلک إلى مجموع أمور، لو أخللت بواحد منها لم يحصل الشّبه. و كذلک لو خالفت الوجه المخصوص فى الاجتماع و الاتصال بطل الغرض، فكما بک حاجه إلى أن يكون الشكل شكل المدهن، و أن يكون من الدّرّ و أن يكون معه العقيق، فبک أيضا فقر إلى أن يكون العقيق فى حشو المداهن، و على هذا القياس.

---

(۱) البيت لامرئ القيس فى معلقته الشهيره و صدره:

إذا ما الثريا فى السماء تعرّضت و هو فى ديوانه ص ۱۱۴، و المعنى: كان تجاوزى الأحراس، و تقحمى المعاشر إليها، وقت تعرض الثريا فى السماء. و قد زعموا أنه لم يرد الثريا و إنما أراد

الجوزاء، لأن الثريا لا تتعرض مع أن لها اعتراضا عند السقوط، فإنها تأخذ وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأه. و أثناء الوشاح:

ثناياه. و المفصل: الذى فصل بين كل خرزتين منه بلؤلؤه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٢٧

و القسم الثانى: أن تعتبر فى التشبيه هيئه تحصل من اقتران شيئين، و ذلك الاقتران مما يوجد و يكون، و مثاله قوله «١»: [من الوافر]

غدا و الصبح تحت اللّيل باد كطرف أشهب ملقى الجلال

قصد الشبه الحاصل لک إذا نظرت إلى الصبح و الليل جميعا، و تأمّلت حالهما معا، و أراد أن يأتى بنظير للهيئه المشاهده من مقارنه أحدهما الآخر، و لم يرد أن يشبّه الصبح على الانفراد و الليل على الانفراد، كما لم يقصد الأول أن يشبّه الداره البيضاء من النرجس بمدهن الدّر، ثم يستأنف تشبيها للثانيه بالعقيق، بل أراد أن يشبّه الهيئه الحاصله من مجموع الشكلين، من غير أن يكون بين فى البين. ثم إن هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد و يعهد، إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجلّ، من المعوز فيقال إنه مقصور على التقدير و الوهم. فأما الأوّل فلا يتعدّى التوهم و تقدير أن يصنع و يعمل، فليس فى العاده أن تتّخذ صوره أعلاها ياقوت على مقدار العلم، و تحت ذلک الياقوت قطع مطاوله من الزبرجد كهيئه الأرماح و القامات و كذلک لا

يكون هاهنا مداهن تصنع من الدرّ، ثم يوضع فى أجوافها عقيق. و فى تشبيه الشّقيق زياده معنى يباعد الصوره من الوجود، و هو شرطه أن تكون أعلاما منشوره، و النّشر فى الياقوت و هو حجر، لا يتصوّر موجودا.

و ينبغى أن تعلم أن الوجه فى إلقاء الجلّ، أن يريد أنه أداره عن ظهره، و أزاله عن مكانه، حتى تكشّف أكثر جسده، لا أنه رمى به جمله حتى انفصل منه، لأنه إذا أراد ذلك، كان قد قصد إلى تشبيه الصّبح وحده من غير أن يفكّر فى الليل، و لم يشاكل قوله فى أول البيت: «و الصبح تحت الليل باد».

و أمّا قوله «٢»: [من الرجز]

إذا تفرّى البرق فيها خلته بطن شجاع فى كثيب يضطرب

---

(١) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ٣٨١، و هو من قصيده «مأثور المقال» و مطلعها:

أعاذل قد أبحت اللّهو مالى و هان علىّ مأثور المقال

دعينى، هكذا خلقى، دعينى فما لك حيله فيه، و لا لى

الطرف: الفرس الكريم. الأبلق: ما فيه سواد و بياض. و الجلال: جمع جلّ و هو لباس الفرس يلبسه ليصان به. و هو فى الإيضاح: تحقيق د. عبد الحميد هنداوى ص ٢٢٧.

(٢) البيتان لابن المعتز فى ديوانه ص ٤۴، و قبله:

جاءت بجفن أكحل و انصرفت مرهاء من إسبال دمع منسكب

و تفرّى البرق: تلألأ فى السحاب، الشجاع: ضرب من الحيات دقيق لطيف، الأبلق: من الخيل ما فيه سواد و بياض.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۲۸

و تاره تبصره كأنّه أبلق مال جلّه حين وثب

فالأشبه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البرق، دون أن يدخل لون الجلّ فى التشبيه، حتى كأنّه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام، بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجلّ أن البرق يلمع بغته، و يلوح للعين فجأه، فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند و ثوبه و ميل جلّه عنه.

و قد قال ابن بابك فى هذا المعنى «۱»: [من السريع]

للبرق فيها لهب طائش كما يعرّى الفرس الأبلق

إلّا أن لقول ابن المعتزّ: «حين وثب»، من الفائده ما لا يخفى.

و قد عنى المتقدّمون أيضا بمثل هذا الاحتياط، أ لا تراه قال «۲»: [من الخفيف]

و ترى البرق عارضا مستطيرا

مرح البلق جلن فى الأجلال

فجعلها تمرح و تجول، ليكون قد راعى ما به يتمّ الشّبه، و ما هو معظم الغرض من تشبيهه، و هو هيئه حركته و كيفيه لمعه.

ثم اعلم أن هـذا القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود يتفاوت حاله، فمنه ما يتسع وجوده، و منه ما يوجد فى النادر، و يبين ذلك بالمقابله، فأنت إذا قابلت قوله «۳»:

[من الكامل]

و كأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

بقول ذى الرّمه «۴»: [من البسـيط] كأنّها فضّه قـد مسّـها ذهب علمت فضل الثانى على الأول فى سعه الوجود، و تقدّم الأول على الثانى فى

---

(۱) الضمير فى «فيها» للسحابه.

(۲) البيت لكثير فى ديوانه. و البلقه: مصدر الأبلق، ارتفاع التحجيل إلى الفخذين. الأجلال: جمع «جلّ» شراع السفينه.

(۳) راجع هامش ۲ ص ۱۲۰.

(۴) البيت فى ديوانه ص ۱۲، و صدره:

كحلاء فى برج، صـفراء فى نعج و البيت فى الإيضاح: تحقيق د. هنداوى، و فيه «حوراء» بدلا من «كحلاء». و البرج فى العين: أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله. النّعج: البياض الخالص.

عزّته و قلّته، و كونه نـادر الوجود، فـإنّ الناس يرون أبـدا فى الصـياغات فضّه قـد أجرى فيها ذهب و طليت به، و لا يكاد يتفق أن يوجد درّ قد نثر على بساط أزرق.

و إذ قد عرفت

انقسام المركّب من التشبيه إلى هذين القسمين، فاعتبر موضعهما من العبرتين المذكورتين، فإنك تراهما بحسب نسبتهما منهما، و تحقّقهما بهما، قد أعطتاهما لطف الغرابه، و نفضتا عليهما صبغ الحسن، و كستاهما روعه الإعجاب، فتجد المقدّر الذى لا يباشر الوجود، نحو قوله «۱»:

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

و كقوله فى النيلوفر «۲»: [من الخفيف]

كلّنا باسط اليد نحو نيلوفر ندى

كدبابيس عسجد قضبها من زبرجد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعا، و تجد العبره الثانيه قد أتت فيه على غايه القوه، لأنه لا مزيد فى بعد الشى ء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعا أصلا حتى لا يتصوّر إلا فى الوهم.

و إذا تركت هذا القسم و نظرت إلى القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود نحو قوله:

درر نثرن على بساط أزرق وجدت العبره الثانيه لا تقوى فيه تلك القوه، لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد و يعهد بحال و إن كان لا يتّسع بل ينـدر و يقلّ فقد دنا من الوقوع فى الفكر و التعرّض للذكر دنوّا لا يدنوه الأول الذى لا يطمع أن يدخل تحت الرؤيه للزومه العدم، و امتناعه أن يجوز عليه إلّا التوهّم. و لا جرم، لمّا كان الأمر كذلك، كان للضرب الأول من الروعه

و الحسن، لصاحبه من الفضل فى قوه الذّهن، ما لم يكن ذلك فى الثانى، و قوى الحكم بحسب قوه العله، و كثر الوصف الذى هو الغرابه، بحسب الجالب له.

و فى هذا التقرير ما تعلم به الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت فى كونه غريبا؟

و لم تفاضل فى مجيئه عجيبا؟ و بأى سبب وجدت عند شى ء منه من الهزّه ما لم

---

(۱) راجع هامش ۱ ص ۱۲۰.

(۲) البيتان للصنوبرى فى ديوانه، و هما فى الإيضاح ص ۲۰۷ تحقيق د. هنداوى.

تجده عند غيره علما يخرجك عن نقيصه التّقليد، و يرفعك عن طبقه المقتصر على الإشاره، دون البيان و الإفصاح بالعباره.

و اعلم أن العبره الثانيه التى هى مرور الشى ء على العيون، هو معنى واحد لا- يتكثّر، و لكنه يقوى و يضعف كما مضى. و أما العبره الأولى، و هى التفصيل، فإنها فى حكم الشى ء يتكثر و ينضمّ فيه الشى ء إلى الشى ء. أ لا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت فى أحدهما إلى ثلاثه أشياء، أو ثلاث جهات، و فى الآخر إلى شيئين أو جهتين؟ و المثال فى ذلك قول بشّار «۱»: [من الطويل]

كأنّ مثار النّقع فوق رءوسنا و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

مع قول المتنبى «۲»: [من الطويل]

يزور الأعادى فى

سماء عجاجه أسنّته فى جانبيها الكواكب

أو قول كلثوم بن عمرو «٣»: [من الكامل]

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفا كواكبه البيض المباتير

التفصيل فى الأبيات الثلاثه كأنه شى ء واحد، لأن كل واحد منهم يشبّه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل، إلّا أنك تجد لبيت بشّار من الفضل، و من كرم الموقع و لطف التأثير فى النفس، ما لا يقلّ مقداره، و لا يمكن إنكاره، و ذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره، و هو أن جعل الكواكب تهاوى، فأتمّ الشّبه، و عبّر عن هيئه السيوف و قد سلّت من الأغماد و هى تعلو و ترسب، و تجى ء و تذهب، و لم يقتصر

---

(١) البيت فى ديوانه، و الإيضاح ص ٢١٣، تحقيق د. هنداوى، و المصباح ص ١٠٦، و الشعر و الشعراء ص ٧٥٩، و دلائل الإعجاز ص ٩٦، تحقيق د. محمود شاكر، و التبيان ص ١٩٨، و المفتاح ص ٣٣٧، و يروى «رءوسهم» بدلا من «رءوسنا». مثار النقع: الغبار الذى أثاره المتحاربون. تهاوى:

أصلها تتهاوى خفف بحذف إحدى التاءين: تتساقط.

(٢) البيت فى ديوانه ١/ ١١٩، و الإيضاح ص ٢٣٦، تحقيق د. هنداوى، و التبيان للعكبرى ١/ ٨٠.

العجاجه: الغبار، الأسنه: أطراف الرماح، ضمير جانبيها للسماء أسنته مبتدأ خبره الكواكب.

يقول: إن العجاجه لما ارتفعت فى الهواء حجبت السماء فصارت سماء، و بدت الأسنه لامعه فيها كالكواكب فشبه العجاجه بالسماء، و الأسنه بالكواكب، و هو كثير فى أشعارهم.

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم

و یروی لکلثوم بن عمرو العتابی، من ولـد عمرو بن کلثوم صـاحب المعلقه فی مطبوعه د. محمود شـاکر و هو فی الإیضـاح ص ۲۳۶ تحقیق د. هنداوی.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۳۱

علی أن یریک لمعانها فی أثناء العجاجه کما فعل الآخران، و کان لهذه الزیاده التی زادها حظّ من الدقه تجعلها فی حکم تفصیل بعد تفصیل.

و ذلـک أنّا و إن قلنا إن هـذه الزیاده و هی إفاده هیئه السـیوف فی حرکاتها إنما أتت فی جمله لا تفصـیل فیها، فإنّ حقیقه تلک الهیئه لا تقوم فی النّفس إلا بالنظر إلی أکثر من جهه واحـده، و ذلک أن تعلم أنّ لها فی حال احتدام الحرب، و اختلاف الأیدی بهـا فی الضـرب، اضـطرابا شدیـدا، و حرکـات بسـرعه. ثم إن لتلـک الحرکـات جهات مختلفه، و أحوالا تنقسم بین الاعوجاج و الاسـتقامه و الارتفاع و الانخفاض، و أنّ السـیوف باختلاف هذه الأمور تتلاقی و تتداخل، و یقع بعضها فی بعض و یصدم بعضها بعضـا، ثم أن أشـکال السـیوف مسـتطیله. فقـد نظم هـذه الـدّقائق کلها فی نفسه، ثم أحضـرک صورها بلفظه واحـده، و نبّه علیها بـأحسن التنبیه و أکمله بکلمه، و هی قوله: «تهـاوی»، لأـن الکواکب إذا تهـاوت اختلفت جهـات حرکاتها، و کان لها فی تهاویها تواقع و تداخل. ثم إنها بالتهاوی تستطیل أشکالها، فأمّا إذا لم تزل عن أماکنها فهی علی صوره الاستداره.

و یشبه هذا الموضع فی زیاده أحد التشبیهین مع أن جنسهما جنس واحد، و ترکیبهما علی حقیقه واحده بأنّ فی أحدهما فضل

استقصاء ليس فى الآخر، قول ابن المعتزّ فى الآذريون «1»: [من الطويل]

و طاف بها ساق أديب بمبزل كخنجر عيّار صناعته الفتك

و حمّل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

مع قوله «2»: [من الرجز]

مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

---

(1) البيت الأول فى ديوانه ص 353، طبعه دار صادر و قبله:

فقد خفيت من صفوها، فكأنها بقايا يقين كاد يدركه الفتك

و البيت الثانى فى الإيضاح تحقيق د. هنداوى ص 237. و الكلام فى الخمر، و المنزل: كمنبر و ما يصفى به الشراب. الآذريون: ورد له أورق حمر فى وسطه سواد.

(2) البيت فى ديوانه، و قبله:

سقيا الروضات لنا من كل نور حاليه

عيون آذريونها للشمس فيها كاليه

و البيت فى الإيضاح ص 237 تحقيق د. هنداوى. و المداهن: جمع

مدهن، بالضم لا غير: و هو آله الدهن، و هو أحد ما شذّ من هذا الضرب على مفعل مما يستعمل من الأدوات.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٣٢

الأول ينقص عن الثانى شيئا، و ذلك أن السواد الذى فى باطن الآذريونه الموضوع بإزاء الغاليه و المسک، فيه أمران:

أحدهما: أنه ليس بشامل لها، و الثانى: أن هذا السواد ليس صورته صوره الدّرهم فى قعرها، أعنى أنه لم يستدر هناک، بل ارتفع من قعر الدائره حتى أخذ شيئا من سمکها من کلّ الجهات، و له فى منقطعه هيئه تشبه آثار الغاليه فى جوانب المدهن، إذا کانت بقيّه بقيت عن الأصابع. و قوله: «فى قرارتها مسک» يبيّن الأمر الأوّل، و يؤمن من دخول النقص عليه، کما کان يدخل لو قال: «ککأس عقيق فيها مسک»، و لم يشترط أن يکون فى القراره.

و أمّا الثانى: من الأمرين، فلا يدلّ عليه کما يدلّ قوله: «بقايا غاليه»، و ذلک من شأن المسک و الشى ء اليابس إذا حصل فى شى ء مستدير له قعر، أن يستدير فى القعر و لا يرتفع فى الجوانب الارتفاع الذى تراه فى سواد الأذريونه. و أما الغاليه فهى رطبه، ثم هى تؤخذ بالأصابع، و إذا کان کذلک، فلا بدّ فى البقيّه منها من أن تکون قد ارتفعت عن القراره، و حصلت بصفه شبيهه بذلک السواد، ثم هى لنعومتها ترقّ فتکون کالصبغ الذى لا جرم له يملک المکان، و ذلک أصدق للشّبه.

و من أبلغ الاستقصاء و عجيبه قول ابن المعتز: [من الطويل]

كأنّا و ضوء الصّبح يستعجل الدّجى نطير غرابا ذا قوادم جون «۱»

شبّه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضا، لأن تلك الفرق من الظلمه تقع فی حواشيها، من حيث تلا معظم الصبح و عموده لمع نور يتخيّل منها فی العين كشكل قوادم إذا كانت بيضا.

و تمام التدقيق و السّحر فی هذا التشبيه فی شی ء آخر، و هو أن جعل ضوء الصبح، لقوّه ظهوره و دفعه لظلام الليل، كأنه يحفز الدجی و يستعجلها و لا يرضی

---

(۱) البيت فی ديوانه ص ۴۴۰ طبعه دار صادر، و قبله:

فجاءت بها فی كأسها ذهبيّه لها حدق لم تتصل بجفون

و البيت فی الإيضاح ص ۲۳۴، تحقيق د. هنداوی. القوادم: قوادم ريش الطائر: ضد خوافيها، الواحده: قادمه و خافيه. ابن سيده: القوادم: أربع ريشات فی مقدم الجناح، و الواحده: قادمه، و هی القدامی، و المناكب اللواتی بعدهن إلی أسفل الجناح و الخوافی ما بعد المناكب، و الأباهر من بعد الخوافی. و الجون: الأبيض. و أيضا الأسود المشرب حمره. فهو من الأضداد.

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۱۳۳

منها بأن تتمهّل فی حركتها. ثم لما بدأ بذلك أوّلا اعتبره فی التشبيه آخرا فقال:

«نطير غرابا»، و لم يقل: «غراب يطير»

مثلا، و ذلك أن الغراب و كلّ طائر إذا كان واقعا هادئا فى مكان، فأزعج و أخيف و أطير منه، أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل، كان ذلك لا محاله أسرع لطيرانه و أعجل و أمدّ له و أبعد لأمده، فإنّ تلك الفزعه التى تعرض له من تنفيره، أو الفرحه التى تدركه و تحدث فيه من خلاصه و انفلاته، ربما دعته إلى أن يستمرّ حتى يغيب عن الأفق و يصير إلى أن يستمرّ حتى يغيب عن الأفق و يصير إلى حيث لا تراه العيون، و ليس كذلك إذا طار عن اختيار، لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأوّل، و أن لا يسرع فى طيرانه، بل يمضى على هينته، و يتحرّك حركه غير المستعجل، فاعرفه.

و مما حقّه أن يكون على فرط الاستقصاء فى التشبيه و فضل العنايه بتأكيد ما بدئ به، قول أبى نواس فى صفه البازى: [من الرجز]

كأنّ عينيه إذا ما أتأرا فصّان قيضا من عقيق أحمرا

فى هامه غلباء تهدى منسرا كعطفه الجيم بكفّ أعسرا «۱»

أراد أن يشبّه المنقار بالجيم، و الجيم خطّان: الأول: الذى هو مبدأه و هو الأعلى، و الثانى: و هو الذى يذهب إلى اليسار، و إذا لم توصل فلها تعريق ۴ كما لا يخفى، و المنقار إنّما يشبه الخطّ الأعلى فقط. فلما كان كذلك قال: «كعطفه

الجيم» و لم يقل: «كالجيم»، ثم دقّق بأن جعلها بكف أعسر، لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمنقار من جيم الأيمن. ثم إنه أراد أن يؤكّد أنّ الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال: [من الرجز]

يقول من فيها بعقل فكّرا و لو زادها عينا إلى فاء و را «٢»

فاتّصلت بالجيم صارت جعفرا فأراك عيانا أنه عمد فى التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها، و دون

---

(١) البيتان فى ديوانه ص ٢١٥ و هما من عده أبيات قالها أبو نواس فى نعت البازى، و قبلهما:

أبرش بطنان الجناح أقمرا أرقط ضاحى الدفتين أنمرا

كأن شدقيه إذا تضورا صدغان من عرعره تفطرا

أثأر: أدرك ثأره، قضّا: شقا. المنسر: منقار البازى.

(٢) البيتان لأبى نواس فى ديوانه ص ٢١٥، و هما من تمام الأرجوزه و تمام البيت الثانى:

فالطير يلقاه مدقا مدسرا

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٣٤

الخط الأسفل. أما أمر «التعريق» و إخراجه من التشبيه فواضح، لأن الوصل يسقط التعريق أصلا، و أما الخط الثانى فهو، و إن كان لا بد منه مع

الوصل. فإنه إذ قال:

«لو زادها عينا إلى فاء و را» ثم قال: «فاتصلت بالجيم»، فقد بيّن أن هذا الخط الثانى خارج أيضا من قصده فى التشبيه، من حيث كانت زياده هذه الحروف و وصلها هى السبب فى حدوثه. و ينبغى أن يكون قوله: «بالجيم»، يعنى بالعطفه المذكوره من الجيم. و لأجل هذه الدقه قال: «يقول من فيها بعقل فكّرا»، فمهّد لما أراد أن يقول، و نبّه على أنّ بالمشبّه حاجه إلى فضل فكر، و أن يكون فكره فكر من يراجع عقله و يستعينه على تمام البيان.

و جمله القول أنك متى زدت فى التشبيه على مراعاه وصف واحد أو جهه واحده، فقد دخلت فى التفصيل و التركيب، و فتحت باب التفاضل، ثم تختلف المنازل فى الفضل، بحسب الصّوره فى استنفادك قوّه الاستقصاء، أو رضاك بالعفو دون الجهد.

فصل

فصل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقّه و سحرا، أن يجى ء فى الهيئات التى تقع على الحركات. و الهيئه المقصوده فى التّشبيه على وجهين:

أحدهما: أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل و اللون و نحوهما.

و الثانى: أن تجرّد هيئه الحركه حتى لا يراد غيرها. فمن الأوّل قوله:

و الشمس كالمرآه فى كفّ الأشل أراد أن يريك مع الشّكل الذى هو الاستداره، و مع الإشراق و التلألؤ على الجمله، الحركه التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمّل، ثم ما يحصل فى نورها من أجل تلك الحركه. و ذلك أن للشمس حركه متصله دائمه فى غايه السرعه، و لنورها بسبب تلك الحركه تموّج و اضطراب عجب، و لا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآه فى يد الأشلّ، لأن حركتها تدور و تتصل و يكون فيها سرعه و قلق شديد، حتى ترى المرآه،

لا تقر فى العين و بدوام الحركه و شده القلق فيها يتموج نور المرآه، و يقع الاضطراب الذى كأنه يسحر الطّرف، و تلك حال الشمس بعينها حين تحدّ النظر و تنفذ البصر، حتى تتبيّن الحركه العجيبه فى جرمها و ضوئها، فإنك ترى شعاعها كأنه يهمّ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها، ثم يبدو له فيرجع فى الانبساط الذى بدأه، إلى انقباض كأنه يجمعه

من جوانب الدائره إلى الوسط، و حقيقه حالها فى ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره و تصويره فى النفس، فضلا عن أن تكمل العباره لتأديته، و يبلغ البيان كنه صورته.

و مثل هذا التشبيه، و إن صوّر فى غير المرآه، قول المهلّبى الوزير: [من السريع]

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقه ليس لها حاجب

كأنّها بوتقه أحميت يجول فيها ذهب ذائب «١»

و ذلك أنّ الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقه، فيستدير إذا كانت البوتقه على النار، فإنه يتحرّك فيها حركه على الحدّ الذى وصفت لك، طبع الذهب من النّعومه، و فى أجزائه من شده الاتصال و التلاحم، يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفه التى تكون فى الماء و نحوه، مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديدا، و

لكن جملته كأنها تتحرك بحركه واحده، و يكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب، ثم انقباض إلى الوسط، فاعرفه.

و من عجيب ما جمع فيه بين الشكل و هيئه الحركه، قول الصنوبرى: [من الرجز]

كأنّ فى غدرانها حواجبا ظلّت تمط «٢»

أراد ما يبدو فى صفحه الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتدّ امتدادا ينقص من انحنائها و تحدّبها، كما تباعد بين طرفى القوس و تثنيهما إلى ناحيه الظهر، كأنك تقرّبها من الاستواء و تسلبها بعض شكل التقوّس، الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر. و متى حدثت هذه الصفه فى تلك الأشكال الظاهره على متون الغدران، كانت أشبه شى ء بالحواجب إذا مدّت، لأن الحاجب لا يخفى تقويسه، و مدّه ينقص من تقويسه.

و من لطيف ذلك أيضا: أعنى الجمع بين الشكل و هيئه الحركه، قول ابن المعتزّ يصف وقوع القطر على الأرض: [من الكامل]

---

(١) البيتان للوزير المهلبى و هو أبو محمد الحسن بن محمد من ذريه المهلب بن أبى صفره، كان شاعرا و كاتبا و وزيرا لمعز الدوله البويهى، و مدبرا لأموره فى العراق، توفى سنه ٣٦٢. و هما فى الإيضاح ص ٢١٤، تحقيق د. هنداوى، و أوردهما الرازى فى الإيجاز ص ٢٢٥، و محمد بن على الجرجانى فى الإشارات ص ١٨١، و العلوى فى الطراز ١/ ٣٥٥، و مفتاح العلوم ص ٤٤٣ تحقيق د. هنداوى.

(٢) البيت للصنوبرى هو أحمد بن محمد الحلى، من شعراء الشام الوصافين فى العصر العباسى، و البيت فى ديوانه من قصيده طويله، و فى

الإيضاح تحقيق د. هنداوى.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۳۶

بكرت تعير الأرض ثوب شباب رحبيّه محموده الإسكاب «۱»

نثرت أوائلها حيا فكأنّه نقط على عجل ببطن كتاب

و أمّا هيئه الحركه مجرّده من كل وصف يكون فى الجسم، فيقع فيها نوع من التركيب، بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفه، نحو أنّ بعضها يتحرك إلى يمين و البعض إلى شمال، و بعض إلى فوق و بعض إلى قدّام و نحو ذلك. و كلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشدّ، كان التركيب فى هيئه المتحرّك أكثر، فحركه الرّحا و الدّولاب و حركه السهم لا تركيب فيها، لأن الجهه واحده، و لكن فى حركه المصحف فى قوله:

فانطباقا مرّه و انفتاحا تركيب، لأنه فى إحدى الحالتين يتحرك إلى جهه غير جهته فى الحاله الأخرى.

فمما جاء فى التشبيه معقودا على تجريد هيئه الحركه، ثم لطف و غرب لما فيه من التفصيل و التركيب، قول الأعشى يصف السفينه فى البحر و تقاذف الأمواج بها: [من الكامل]

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرّباح خلا له كرع

«الرّباح» الفصـيل، و قيل: القرد. و «الكرع» ماء السماء. شبّه السفينه فی انحدارها و ارتفاعها بحركات الفصيل فی نزوه. و ذلك أن الفصـيل إذا نزا، و لا ـ سيما فی المـاء، و حين يعـتريه مـا يعـترى المهر و نحوه من الحيوانـات التی هی فی أوّل النّش ء، كـانت له حركـات متفـاوته تصـير لهـا أعضـاؤه فی جهات مختلفه، و يكون هناک تسـفّل و تصـعّد على غير ترتيب، و بحيث تكاد تـدخل إحـدى الحركتين فی الأ ـخرى، فلا ـ يتبيّنه الطرف مرتفعـا حتى يراه منحطّا متسـفّلا، و يهوى مرّه نحو الرأس و مرّه نحو الـذنب، و ذلك أشبه شی ء بحال السّفينه و هيئه حركاتها حين يتدافعها الموج.

---

(۱) البيتان فی ديوانه ص ۹۱ و روايتهما:

بكرت تعير الأرض لون شبابها رحبيه محموده التسكاب

نشرت أوائلها حيا، فكأنه نقط على عجل بطين كتاب

رحبيه: لعله أراد بها غمامه واسعه الامتداد. و فی نسخه الدكتور محمود شاكر «رجبيه» بدل «رحبيه». يعنی: مطر شهر رجب.

(۲) الـبيت ليس فی ديـوانه، و هو فی الإيضـاح ص ۲۱۵ تحقيق د. هنـداوی، و فی نسـخه د. محمود شاكر «يقص» بـدل «تقص»، «كرع» بدل «كرع».

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۱۳۷

و نظيره قول الآخر، يصف الفصيل و هو

يثب على الناقه و يعلوها و يلقى نفسه عليها، لأنّها قد بركت فلا يتمكن من أن يرتضع، فهو يفعل ذلك لتثور الناقه: [من الرجز]

يقتاعها كلّ فصيل مكرم كالحبشىّ يرتقى فى السلّم «۱»

«يقتاعها» «يفتعل» من قولهم: «قاع البعير الناقه، إذا ضربها، يقوعها قوعا»، أراد يعلوها و يثبت عليها، و شبّه بالحبشى فى هذه الحاله المخصوصه، لما يكون له عند ارتقائه فى السلّم من تصعّد بعض أعضائه و تسفّل بعض، على اضطراب مفرط و غيثره شديده، و ذلك كما ترى فى أنه اختلاف فى جهات أبعاض الجسم على غير نظام مضبوط، كحركات الفصيل فى الماء و قد خلا له.

و قد عرّفتك أن الاختلاف فى جهات الحركات الواقعه فى أبعاض الجسم، كالتركيب بين أوصاف مختلفه، ليحصل من مجموعها شبه خاصّ.

و اعلم أنّ هذه الهيئات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبره الثانيه، و ذلك أن كل هيئه من هيئات الجسم فى حركاته إذا لم يتحرك فى جهه واحده، فمن شأنها أن تقلّ و تعزّ فى الوجود، فيباعدها ذلك أيضا من أن تقع فى الفكر بسرعه، زياده مباعده مضمومه إلى ما يوجب حديث التركيب و التفصيل فيها. أ لا ترى أن الهيئه التى اعتمدها فى تشبيه البرق بالمصحف، ليست تكون إلا فى النادر من الأحوال، و بعد عمد من الإنسان، و خروج عن العاده، و بقصد خاصّ أو عبث غالب على النفس غير معتاد؟ و هكذا حال الفصيل فى وثوبه على أمّه ليثيرها و انسيابه فى الماء و نزوه، كما توجبه رؤيته الماء خاليا. و طباع الصّغر

و الفصيله مما لا يرى إلا نادرا، و ليس الأمر فى هذا النحو كالأمر فى حركه الدّولاب و الرّحا و السهم و نحو ذلك من الحركات المعتاده التى تقع فى مصارف العيون كثيرا.

و مما يقوى فيها أن يكون سبب غرابته قلّه رؤيه العيون له، ما مضى من تشبيه الشمس بالمرآه فى كفّ الأشلّ، و ذلك أن الهيئه التى تراها فى حركه المرآه إذا كانت فى كفّ الأشلّ، مما يرى نادرا و فى الأقلّ، فربما قضى الرجل دهره و لا يتفق له أن يرى مرآه فى يد مرتعش. هذا، و ليس موضع الغرابه من التشبيه دوام حركه المرآه فى يد الأشلّ فقط، بل النكته و المقصود فيما يتولّد من دوام تلك الحركه من الالتماع

---

(١) البيت فى اللسان (قوع)، لثعلب. يقتاعها: من قوع، قاع الفحل الناقه و على الناقه يقوعها قوعا و قياعا و اقتاعها و تقوّعها ضربها، و اقتاع الفحل إذا هاج. يقتاعها: يقع عليها، و قال: هذه ناقه طويله، و قد طال فصلانها فركبوها.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٣٨

و تموّج الشعاع، و كونه فى صوره حركات من جوانب الدائره إلى وسطها. و هذه صفه لا تقوم فى نفس الرائى المرآه الدائمه الاضطراب، إلّا أن يستأنف تأمّلا، و ينظر متثبّتا فى نظره متمهلا. فكأن هاهنا هيئتين كلتاهما من هيئات الحركه: إحداهما: حركه المرآه على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد و الثانيه: حركه الشعاع و اضطرابه الحادث من تلك الحركه، و إذا كان كون المرآه فى يد الأشلّ مما يرى

نادرا، ثم كانت هذه الصفه التى هى كائنه فى الشّعاع، إنما ترى و تدرك فى حال رؤيه حركه المرآه بجهد و بعد استئناف إعمال للبصر، فقد بعدت عن حدّ ما تعتاد رؤيته مرّتين، و دخلت فى النادر الذى لا تألفه العيون من جهتين، فاعرفه.

و اعلم أنه كما تعتبر هيئه الحركه فى التشبيه، فكذلك تعتبر هيئه السكون على الجمله و بحسب اختلافه، نحو هيئه المضطجع و هيئه الجالس و نحو ذلك. فإذا وقع فى شى ء من هيئات الجسم فى سكونه تركيب و تفصيل، لطف التشبيه و حسن.

فمن ذلك قول ابن المعتزّ يصف سيلا «۱»: [من المتقارب]

فلما طغا ماؤه فى البلاد و غصّ فبه كلّ واد صدى

ترى الثور فى متنه طافيا كضجعه ذى التاج فى المرقد

و كقول المتنبى فى صفه الكلب: [من الرجز] يقعى جلوس البدوىّ المصطلى «۲» فقد اختصّ هيئه البدوىّ المصطلى، فى تشبيه هيئه سكون أعضاء الكلب و مواقعها فيها، و لم ينل التشبيه حظّا من الحسن، إلا بأنّ فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاصّ، و كان مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفه تؤلّف فتجى ء منها صوره خاصّه.

و من لطيف هذا الجنس قوله: فى صفه المصلوب «۳»: [من البسيط]

كأنه عاشق قد مدّ صفحته

يوم الوداع إلى توديع مرتحل

أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطّيه من الكسل

---

(١) البيتان فى ديوانه: و غصّ: غصّ المكان بأهله أى: ضاق بهم، و أغصّ فلان الأرض علينا أى:

ضيقها فغصت بنا أى: ضاقت. المرقد: المضجع، المرقدىّ: الدائم الرقاد.

(٢) البيت فى ديوانه و تمامه:

بأربع مجدوله لم تجدل و هو فى الإيضاح ص ٢١٦، تحقيق د. هنداوى.

(٣) البيتان ينسبان للأخيطل: [محمد بن عبد اللّه بن شعيب، مولى بنى مخزوم، و يلقب برقوقا]. كما فى مطبوعه د. محمود شاكر، و فى الإيضاح ص ٢١٦، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و طبقات

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٣٩

و لم يلطف إلا لكثره ما فيه من التفصيل، و لو قال: «كأنه متمطّ من نعاس» و اقتصر عليه، كان قريب المتناول، لأن الشّبه إلى هذا القدر يقع فى نفس الرائى المصلوب، لكونه من حدّ الجمله. فأمّا بهذا الشرط و على هذا التقييد الذى يفيد به استدامه تلك الهيئه، فلا- يحضر إلا- مع سفر من الخاطر، و قوّه من التأمل، و ذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهه فيقول: «هو كالمتمطّى»، ثم يقول: المتمطّى يمدّ ظهره و يديه مدّه، ثم يعود إلى حالته، فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب علّته، و هى قيام اللّوثه و الكسل فى

القائم من النعاس.

و هذا أصل فيما يزيد به التفصيل، و هو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف، ثم يطلب له علّه و سبب.

و يشبه التشبيه فى البيت قول الآخر، و هو مذكور معه فى الكتب: [من السريع]

لم أر صفّا مثل صفّ الزّطّ تسعين منهم صلبوا فى خطّ

من كلّ عال جذعه بالشطّ كأنه فى جذعه المشتطّ

أخو نعاس جدّ فى التمطّى قد خامر النوم و لم يغطّ «۱»

فقوله: «جدّ فى التمطى»، شرط يتمّ التشبيه، كما أن قوله: «مواصل» كذلك، إلّا أن فى اشتراط المواصله من الفائده ما ليس فى هذا، و ذلك أنه يجوز أن يبالغ و يجتهد و يجدّ فى تمطّيه، ثم يدع ذلك فى الوقت، و يعود إلى الحاله التى يكون عليها فى السلامه مما يدعو إلى التمدّد. و إذا كان كذلك، كان المستفاد من هذه العباره صوره التمطّى و هيئته الخاصّه، و زياده معنى، و هو بلوغ الصفه. غايه ما يمكن أن يكون عليها. و هذا كلّه مستفاد من الأوّل. ثم فيه زياده أخرى، و هو أخصّ ما يقصد من صفه المصلوب، و هى الاستمرار على الهيئه و الاستدامه لها. فأمّا قوله بعد: «قد خامر النوم و لم

يغطّ»، هو و إن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزياده من

الشعراء لابن المعتز ص ۴۱۳، و الكامل ص ۹۴۴، و سمط اللآلى ص ۵۹۵، و معجم الشعراء ص ۴۳۲. اللّوثه بالضم: الاسترخاء و البطء، و رجل ذو لوثه: بطى ء متمكث ذو ضعف، و رجل فيه لوثه أى: استرخاء و حمق، و هو رجل ألوث: فيه استرخاء بيّن اللّوث، و ديمه لوثاء، [اللسان: لوث].

(۱) الأبيات لدعبل بن على الخزاعى فى ديوانه، و هى فى كتاب الكامل للمبرد ۲/ ۹۴۳، و الإيضاح ص ۲۱۷، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. و الزط: جماعه من الهند ثاروا فى باديه البصره، منذ فتنه الأمين و المأمون إلى أن جرد لهم جيشا قضى على ثورتهم و أسر منهم سبعه و عشرين ألفا، و صلب منهم عددا كثيرا، و هذه الأبيات فى وصف بعض المصلوبين.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۴۰

حيث يقال: إنه إذا أخذه النعاس فتمطّى ثم خامر النوم، فإن الهيئه الحاصله له من جدّه فى التمطّى تبقى له فليس ببالغ مبلغ قوله: «مواصل لتمطّيه». و تقييده من بعد بأنه «من الكسل»، و احتياطه قبل بقوله: «فيه لوثته»:

و شبيه بالأوّل فى الاستقصاء قول ابن الرومى «۱»: [من الطويل]

كأنّ له فى الجوّ حبلا يبوعه إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل

يعانق أنفاس الرّياح مودّعا وداع رحيل لا يحطّ له رحل

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينهى ذرعه حبل آخر يخرج من بوع الأوّل إليه، كقوله: «مواصل لتمطّيه من الكسل»، فى استيفاء الشّبه، و التنبيه على استدامته، لأنه إذا كان لا- يزال يبوع حبلا- لم يقبض باعه و لم يرسل يده، و فى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتّصال، فاعرفه.

و اعلم أن من حقّك أن لا تضع الموازنه بين التشبيهين فى حاجه أحدهما إلى زياده من التأمل على وقتنا هذا، و لكن تنظر إلى حالهما فى قوى العقل و لم تسمع بواحد منهما، فتعلم أن لو أرادهما مريد، أو اتّفقا له جميعا و لم يكن قد سمع بواحد منهما أيّهما كان يكون أسهل عليه، و أسرع إليه، و أعطى بيديه، و أيّهما تجده أدلّ على ذكاء من تسمعه منه، و أرجى لتخرج من يقوله. و ذلك أن تقابل بين تشبيه النّجوم بالمصابيح و المصابيح بها، و بين تشبيه سلّ السيوف بعقائق البرق و تشبيهها بسلّ السيوف، فإنك تعلم أن الأوّل يقع فى نفس الصّبى أوّل ما يحسّ بنفسه، و أن الثانى لا يجيب إجابته، و لا يبذل طاعته و كذلك تعلم أنّ تشبيه الثريا بنور العنقود، لا يكون فى قرب تشبيهها بتفتّح النّور و أنّ تشبيه الشمس بالمرآه المجلوّه كما مضى، يقع فى نفس الغرّ المعاميّ و الصبيّ، و لا يقع تشبيهها بالمرآه فى كفّ الأشلّ إلا فى قلب المميّز الحصيف، و تشبيهها فى حركتها تلك بمرآه تضطرب على الجمله، من غير أن تجعل فى كفّ الأشلّ، قد يقع لمن لا يقع

له بهذا التقييد، و ذلک لما مضـى من حاجته إلى الفکره فی حال الشـمس، و أنّ حرکتها دائمه متصـله، ثم طلب متحرّک حرکه غیر اختیاریه، و جعل حرکه المرآه صادره عن تلک الحرکه و مأسوره فی حکمها دائما.

---

(۱) البیتـان فی دیوانه. یبوعه: بـاع یبوع بوعا: بسط باعه، و باع الحبل یبوعه بوعا: مـد یـدیه معه حتی صار باعا، و قیل: هو مـدّکه بباعک کما تقول شبرته من الشّبر.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۴۱

و إنما اشترطت علیک هـذا الشـرط لأنه لا یمتنع أن یسـبق الأوّل إلى تشبیه لطیف بحسن تأمّله و یـدل على ذکائه و حدّه خاطره، ثم یشـیع و یتّسع، و یـذکر و یشـهر حتى یخرج إلى حـد المبتـذل، و إلى المشترک فی أصـله، و حتى یجری مع دقه تفصـیل فیه مجرى المجمل الذی تقوله الولیده الصـغیره و العجوزه الورهاء، فإنک تعلم أن قولنا: «لا یشقّ غباره» الآن فی الابتذال کقولنا: «لا یلحق و لاـ یـدرک»، و «هو کـالبرق» و نحو ذلـک، إلّا أنّا إذا رجعنا إلى أنفسـنا علمنا أنه لم یکن کـذلک من أصـله، و أن هـذا الابتـذال أتـاه بعـد أن قضـى زمانـا بطراءه الشـباب و جـدّه الفتاء و بعزّه المنیع، و لو قـد منعک جانبه و طوى عنک نفسه، لعرفت کیف یشقّ مطلبه و یصعب تناوله.

و مثل هـذا و أظهر منه أمرا أنّ قولنا: «أمّا بعـد»، منسوب فی الأصل إلى واحـد بعینه، و إن کان الآن فی البـذله کقولنا: «هـذا بعد ذاک»، مثلا.

و هذا الحکم فی

الطرق التى ابتدأها الأوّلون، و العبارات التى لخّصها المتقدمون، و القوانين التى وضعوها حتى صارت فى الاشتراك كالشى ء المشترك من أوّله، و المبتذل الذى لم يكن الصّون من شأنه، و المبذول الذى لم يعترض دونه المنع فى شى ء من زمانه، و ربّ نفيس جلب إليك من الأمكنه الشاسعه، و ركب فيه النّوى الشطون، و قطع به عرض الفيافى، ثم أخفى عنك فضله حتى جهلت قدره أن سهل مرامه، و اتسع وجوده، و لو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مظنّته، لعلمت إحسان الجائى به إليك، و الجالب المقرّب نيله عليك، و لأكثرت من شكره بعد أن أقللت، و أخذت نفسك بتلافى ما أهملت.

و كذلك ربّ شى ء نال فوق ما يستحقّه من شغف النفوس به، و أكثر مما توجبه المنافع الراجعه إليه، لأنه لا يتسع اتّساع الأوّل الذى فوائده أعمّ و أكثر، و وجود العوض عنه عند الفقد أعسر، فكسبت عزّه الوجود هذا عزّا لم يستحقّه بفضله، كما منعت سعته الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله.

و يتصل بهذا الموضع حديث عبد الرحمن بن حسّان، و ذلك أنه رجع إلى أبيه حسّان و هو صبىّ، يبكى و يقول: «لسعنى طائر»، فقال حسان: «صفه يا بنىّ»، فقال: «كأنه ملتفّ فى بردى حبره»، و كان لسعه زنبور، فقال حسّان: «قال ابنى الشّعر و ربّ الكعبه!» أ فلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدلّ به على مقدار قوّه الطبع، و يجعل عيارا فى الفرق بين الذهن المستعدّ للشعر و غير المستعدّ له، و سرّه

ذلك من ابنه كما سرّه نفس الشعر حين قال فى وقت آخر «۱»: [من البسيط]

اللّه يعلم أنّى كنت منتبذا فى دار حسّان أصطاد اليعاسيبا

فإن قلت: إن التشبيه يتصوّر فى مكان الصّبغ و النّقش العجيب، و لم يعجب حسّان هذا، و إنما أعجبه قوله: «ملتفّ»، و حسن هذه العباره، إذ لو قال: «طائر فيه كوشى الحبره»، لم يكن له هذا الموقع، فهو أن يكون مشبها ما أنت فيه، فمن حيث دلالته على الفطنه فى الجمله.

قيل: مسلّم لك أن نكته الحسن فى قوله: «ملتفّ»، و لكن لا يسلّم أنه خارج من الغرض، بل هو عين المراد من التّشبيه و تمامه فيه، و ذلك أنه يفيد الهيئه الخاصّه فى ذلك الوشى و الصّبغ و صوره الزنبور فى اكتسائه لهما، و يؤدى الشبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجمله، فما ظننت أنّه يبعده عما نحن بصدده، هو الذى يدنيه منه، و لقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته.

فصل فى التشبيه المتعدّد و الفرق بينه و بين المركّب

فصل فى التشبيه المتعدّد و الفرق بينه و بين المركّب

اعلم أنّى قد قدّمت بيان المركّب من التشبيه، و هاهنا ما يذكر مع الذى عرّفتك أنه مركّب و يقرن إليه فى الكتب، و هو على الحقيقه لا يستحق صفه التركيب، و لا يشارك الذى مضى ذكره فى الوصف الذى كان له تشبيها مركّبا.

و ذلك أن يكون الكلام معقودا على تشبيه شيئين بشيئين ضربه واحده، إلّا أن أحدهما لا يداخل الآخر فى الشّبه، و مثاله فى قول امرئ القيس «۲»: [من الطويل]

كأنّ قلوب الطّير، رطبا و يابسا، لدى و كرها العنّاب و الحشف البالى

---

(١) البيت فى الكامل للمبرد ١/ ٣٤٢. و اليعسوب: طائر أصغر من الجراد، و قيل: أعظم من الجراده، طويل الذنب لا يضم جناحيه إذا وقع، تشبه به الخيل فى الضّمر. و اليعسوب: غرّه فى وجه الفرس مستطيله، تنقطع قبل أن تساوى أعلى المنخرين، و إن ارتفع أيضا على قصبه الأنف، و عرض و اعتدل، حتى يبلغ أسفل الخليقاء فهو يعسوب أيضا، قل أو كثر، ما لم يبلغ العينين. [اللسان: عسب].

(٢) البيت فى ديوانه ص ١٢٩، من قصيده له تعدّ قرينه معلقته فى الجوده و مطلعها:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى و هل يعمن من كان فى العصر الخالى

و هل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

و البيت فى الإيضاح ص ٢٢٧، ٢٢٨، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و الإشارات ص ١٨٢، و المصباح ص ١٠٨. و هو يعنى: كأن قلوب الطير رطبا. العناب و يابسا: الحشف البالى، و هو يابس التمر.

و ذلـك أنه لم يقصـد إلى أن يجعـل بين الشـيئين اتصالا، و إنما أراد اجتماعا فى مكان فقط. كيف؟ و لا يكون لمضامّه الرّطب من القلوب إلى اليابس هيئه يقصد ذكرها، أو يعنى بأمرها، كما يكون ذلك لتباشير الصّبح فى أثناء الظلماء، و كون الشّقيقه على قامتها الخضـراء، فيؤدّى ذلك الشـبه الحاصل من مـداخله أحـد المـذكورين الآخر و اتّصاله به، اجتماع الحشف البالى و العنّاب. كيف؟ و لا فائـده لأن ترى العنّاب مع الحشف، أكثر من كونهمـا فى مكـان واحـد، و لو أن اليابسه من القلوب كانت مجموعه ناحيه، و الرطبه كذلك فى ناحيه أخرى، لكان التشبيه بحاله.

و كـذلك لو فرّقت التشبيه فقلت: «كـأنّ الرّطب من القلوب عنّـاب، و كـأنّ اليـابس حشف بال»، لم تر أحـد التشبيهين موقوفا فى الفائده على الآخر، و ليس كذلك الحكم فى المركّبات التى تقدّمت.

و قد يكون فى التشبيه المركّب ما إذا فضـضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيها لما كان جاء فى مقابلته مع التركيب بيان ذلك أن «الجلال» فى قوله:

كطرف أشهب ملقى الجلال «١» فى مقابله الليل، و أنت لو قلت: «كأن الليل جلال» و سكتّ لم يكن شيئا.

و قد يكون الشى ء منه إذا فضّ تركيبه استوى التشبيه فى طرفيه، إلا أن الحال تتغير، و مثال ذلك قوله «٢»:

و كأن أجرام النّجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

فـأنت و إن كنت إذا قلت: «كـأنّ النجوم درر، و كأن السـماء بساط أزرق»، وجـدت التشبيه مقبولا معتادا مع التفريق، فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين،

و مقدار الإحسان الذى يذهب من البين. و ذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئه التى تملأ النواظر عجبا و تستوقف العيون و تستنطق القلوب بذكر اللّه تعالى من طلوع النجوم مؤتلفه مفترقه فى أديم السماء و هى زرقاء زرقتها الصافيه التى تخدع العين، و النجوم تتلألأ و تبرق فى أثناء تلك الزرقه، و من لك بهذه الصوره إذا فرّقت التشبيه، و أزلت عنه الجمع و التركيب؟ و هذا أظهر من أن يخفى.

---

(۱) راجع هامش رقم (۱) ص ۱۲۷.

(۲) راجع هامش رقم (۲) ص ۱۲۰.

و إذ قد عرفت هذه التفاصيل، فاعلم أن ما كان من التركيب فى صوره بيت امرئ القيس، فإنما يستحق الفضيله من حيث اختصار اللفظ و حسن الترتيب فيه، لا لأن للجمع فائده فى عين التشبيه. و نظيره أنّ للجمع بين عدّه تشبيهات فى بيت كقوله «۱»: [من الوافر]

بدت قمرا، و ماست خوط بان، و فاحت عنبرا، و رنت غزالا

مكانا من الفضيله مرموقا، و شأوا ترى فيه سابقا و مسبوقا لا أنّ حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع، أو أن الصور تتداخل و تتركّب و تأتلف ائتلاف الشكلين يصيران إلى شكل ثالث. فكون قدّها كخوط البان، لا يزيد و لا ينقص فى شبه الغزال حين ترنو منه العينان. و هكذا الحكم فى أنها تفوح فوح العنبر،

و يلوح وجهها كالقمر.

و ليس كذلك بيت بشار: «كأنّ مثار النقع»، لأن التشبيه هناك كما مضـى مركّب و موضوع على أن يريك الهيئه التى ترى عليها النّقع المظلم، و السيوف فى أثنائه تبرق و تومض و تعلو و تنخفض، و ترى لها حركات من جهات مختلفه كما يوجبه الحال حين يحمى الجلاد، و ترتكض بفرسانها الجياد.

كما أن قول رؤبه مثلا «٢»: [من الرجز]

فيها خطوط من سواد و بلق كأنّها فى الجلد توليع البهق

---

(١) البيت فى ديوانه ١/ ١٨٤، و هو من قصيده قالها فى مدح أبى الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى الطبرستانى مطلعها:

بقائى شاء ليس هم ارتحالا و حسن الصبر زموا لا الجمالا

تولوا بغته فكأن بينا تهيبنى ففاجأنى اغتيالا

المعنى: الخوط: القضيب و جمعه خيطان ككوز و كيزان، و العنبر: ضرب من الطيب. فهو يقول:

بدت هذه المحبوبه قمرا فى حسـنها و مالت مشـبهه غصـنا فى تثنيها و حسن مشـيها، و فاحت مشبهه عنبرا فى طيب ريحها و رنت مشـبهه غزالا ـ فى سواء مقلتهـا و هـذا من أحسن التشبيه لأنه جمع أربع تشبيهات فى بيت واحـد. و البيت فى التبيان للعكبرى على شرح ديوان المتنبى ٢/ ١٨، و الإيضاح ص ٢٢٩، تحقيق د. عبد الحميد

هنداوى.

(۲) البيت فى ديوانه ص ۱۰۴ من قصيده فى وصف المفازه مطلعها:

و قاتم الأعماق حاوى المخترق مشتبه الأعلام لمّاع الخفق

يكل وفد الريح من حيث انخرق شأز بمن عوّه جذب المنطلق

البلق يعنى هنا: البياض، و أصله سواد و بياض، و البهق: بياض يعترى الجسم بخلاف لونه و هو دون البرص، و التوليع، أن يكون فى بياض بلقه استطاله و تفرق.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۴۵

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد، و إنما القصد أن يرى الشّبه من اجتماع اللونين.

و قول البحترى: [من الوافر]

ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام «۱»

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق، بل المقصود الهيئه الخاصّه الحاصله من مخالطه أحد اللونين الآخر.

كذلك المقصود فى بيت بشّار بتشبيه النّقع و السيوف فيه، بالليل المتهاوى كواكبه، لا تشبيه الليل بالنّقع من جانب، و السيوف بالكواكب من جانب. و لذلك وجب الحكم، كما كنت ذكرت فى موضع، بأنّ الكلام إلى قوله: «و أسيافنا» فى حكم الصله للمصدر، و جار مجرى الاسم

الواحد، لئلا يقع فى التشبيه تفريق و يتوهّم أنه كقولنا: «كأن مثار النقع ليل و كأنّ السيوف كواكب»، و نصب «الأسياف» لا يمنع من تقدير الاتصال، و لا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف، لأن الواو فيها معنى «مع»، كقوله: [من الطويل] فإنّى و قيّارا بها لغريب «٢» و قوله: «كلّ رجل و ضيعته»، و هى إذا كانت بمعنى «مع»، لم يكن فى معطوفها الانقطاع، و أن يكون الكلام فى حكم جملتين، أ لا ـ ترى أن قولهم: «لو تركت النّاقه و فصيلها لرضعها»، لا ـ يكون بمنزله أن تقول: «لو تركت الناقه و لو ترك فصيلها»، فتجعل الكلام جملتين و كذا لا يمكنك أن تقول: «كل رجل كذا

---

(١) البيت فى ديوانه، و الإيضاح ص ٢١٧ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. الجهام: بالفتح: السحاب الذى لا ماء فيه، و قيل: الذى قد هراق ماءه مع الريح، الجهام: السحاب الذى فرغ ماؤه. يصعدن فيه: أى: الفرس المحجل.

(٢) البيت لضابئ بن الحارث البرجمى (ضابئ بن الحارث بن أرطاه من بنى غالب بن حنظله من البراجم ت. نحو ٣٠ ه/ ٦٥٠ م) و كان ضابئ ممن أدرك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و هذا البيت من أبيات قالها و هو فى حبس عثمان و صدره:

من يك أمسى بالمدينه رحله و بعده:

فلا تجزعن قيّار من حبس ليله قضيّه ما يقضى لنا فنئوب

و ضیعته کذا»، فتفرّق الخبر عنهما کما یجوز فی قولک: «زید و عمرو کریمان»، أن تقول: «زید کریم و عمرو کریم»، و هذا موضع غامض، و للکلام فیه موضع آخر.

و إن أردت أن تزداد تبیینا، لأن التشبیه إذا کان معقودا علی الجمع دون التفریق، کان حال أحد الشیئین مع الآخر حال الشّی ء فی صله الشی ء و تابعا له و مبنیّا علیه، حتی لا یتصوّر إفراده بالذکر، فالذی یفضی بک إلی معرفه ذلک أنک تجد فی هذا الباب ما إذا فرّق لم یصلح للتشبیه بوجه، کقوله: [من السریع]

کأنّما المرّیخ و المشتری قدّامه، فی شامخ الرّفعه

منصرف باللیل عن دعوه قد أسرجت قدّامه شمعه «۱»

لو قلت: «کأنّ المریخ منصرف باللیل عن دعوه»، و ترکت حدیث المشتری و الشّمعه، کان خلفا من القول، و ذاک أن التشبیه لم یکن للمرّیخ من حیث هو نفسه، و لکن من حیث الحاله الحاصله له من کون المشتری أمامه. و أنت و إن کنت تقول:

«المشتری شمعه»، علی التشبیه العامی الساذج فی قولهم: «کأنّ النّجوم مصابیح و شموع»، فإنه لم یضع التشبیه علی هذا، و إنما قصد إلی الهیئه التی یکتسبها المرّیخ من کون المشتری أمامه.

و هکذا قول ابن المعتزّ «۲»: [من البسیط]

کأنّه و کأنّ الکأس فی فمه

هلال أوّل شهر غاب فى شفق

لم يقصـد أن يشـبه الكأس على الانفراد بالهلال، و الشّـفه بالشـفق على الاستئناف، بل أراد أن يشـبّه مجموع الصّورتين، أ لا ترى أنك لو فرّقت لم تحل من التشبيه بطائل، إذ لا معنى لأن تقول: «كأن الشفه شفق»، و تسكت.

أ ترى أن قوله «٣»: [من الوافر]

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرّت من الخجل الخدود

---

(١) البيتان للقاضى التنوخى، و هما فى مفتاح العلوم ص ۴۴۵، تحقيق د. هنداوى، و نهايه الإيجاز ص ٢٠۵، و الإيضاح ص ٣۶٨، و مشكاه المصابيح ١/ ١٠۶ تحقيق د. هنداوى. قدّام: نقيض وراء، أسرجت: أوقدت.

(٢) البيت فى ديوانه و قبله:

ظبى مخلّى من الأحزان أودعنى ما يعلم اللّه من حزن و من قلق

(٣) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ١٨٨ (طبعه دار صادر) و هو أحد ثلاثه أبيات و قبله:

أتاك الورد محبوبا مصونا كمعشوق تكنّفه الصدود

كأن بوجهه لما توافت نجوم فى مطالعها سعود

استوجبت الفضل و الخروج من التشبیه العامیّ، و أن یقال: «قد زاد زیاده لم یسبق إلیها»، إلا بالترکیب و الجمع، و بأن ترک أن یراعی الحمره وحدها؟.

و قال القاضی أبو الحسن رحمه اللّه: «لو اتفق له أن یقول: «احمرار فی جوانبه بیاض، لکان قد استوفی الحسن» و ذلک لأن خدّ الخجل هکذا، یحدق البیاض فیه بالحمره لا الحمره بالبیاض، إلّا أنه لعله وجد الأمر کذلک فی الورده، فشبّه علی طریق العکس فقال: «هذا البیاض حوله الحمره هاهنا، کالحمره حولها البیاض هناک». فانظر الآن، إن فرّقت، کیف یتفرّق عنک الحسن و الإحسان، و یحضر العیّ و یذهب البیان؟ لأن تشبیه البیاض علی الانفراد لا معنی له، و أما تشبیه الحمره، و إن کانت تصحّ علی الطریقه الساذجه أعنی تشبیه الورد الأحمر بالخد فإنه یفسد من حیث أن القصد إلی جنس من الورد مخصوص، هو ما فیه بیاض تحدق به حمره، فیجب أن یکون وصف المشبّه به علی هذا الشرط أیضا.

و بهذا الاختصاص و لما ذکرت لک، تجد أحد المشبّهین فی الأمر الأعمّ الأکثر و قد ذکر فی صله الآخر، و لم یعطف علیه کقوله: [من الکامل] و الشّیب ینهض فی الشباب «۱» و: بیاض فی جوانبه احمرار و أشباه ذلک. فإن جاءت «الواو» کانت واو حال کقوله: [من السریع]

کأنّما المرّیخ و المشتری قدّامه فی شامخ الرفعه «۲»

و هی إذا کانت حالیّه، فهی کالصفه فی

كونها تابعه، و بحيث لا ينفرد بالذكر، بل يذكر فى ضمن الأول، و على أنه من تبعه و حاشيته.

و هكذا الحكم فى الطرف الآخر، أ لا ترى قوله:

ليـل تهاوى كواكبه «فتهاوى كواكبه»، جمله من الصّـفه لليل، و إذا كان كـذلك، فالكواكب مـذكوره على سبيل التّبع لليل، و لو كانت مستبدّه بشأنها لقلت: «ليل و كواكب».

و كذلك قوله:

---

(١) البيت للفرزدق فى ديوانه و تمامه:

.... كأنّه ليل يصيح بجانبيه نهار

(٢) راجع هامش رقم (١) ص ١۴۶.

ليل يصيح بجانبيه نهار و أشدّ من ذلك أن يجى ء «كما» فى الطّرف الثانى كقوله:

كمـا احمرّت من الخجل الخـدود و بيت امرئ القيس على خلاف هـذه الطريقه، لأن أحـد الشـيئين فيه فى الطرفين معطوف على الآخر، أما فى طرف الخبر، و هو طرف المشبّه به، فبيّن و هو قوله:

العنّاب و الحشف البالى و أما فى طرف المخبر عنه، و هو المشـبّه، فإنک و إن كنت ترى اسـما واحـدا، هو «القلوب»، فإن الجمع الذى تفيده الصـيغه فى المتفق يجرى مجرى العطف فى المختلف، فاجتماع شـيئين أو أشـياء فى لفظ تثنيه أو جمع، لا يوجب أن أحـدهما فى حكم التـابع للآـخر، كمـا يكون ذلـک إذا جرى الثـانى فى صـفه الأول أو حاله أو ما شابه ذلک. هـذا و قـد صـرّح بالعطف فى البدل، و هو المقصود فقال: «رطبا و يابسا».

و

اعلم أنه قد يجى ء فى هذا الباب شى ء له حدّ آخر، و هو نحو قوله: [من الكامل]

إنى و تزيينى بمدحى معشرا كمعلّق درّا على خنزير «١»

هو على الجمله جمع بين شيئين فى عقد تشبيه، إلّا أن التشبيه فى الحقيقه لأحدهما. أ لا ترى أن المعنى على أنّ فعله فى التزيين بالمدح، كفعل الآخر فى محاولته أن يزيّن الخنزير بتعليق الدرّ عليه؟ و وجه الجمع أنّ كل واحد منهما يضع الزينه حيث لا يظهر لها أثر، لأن الشى ء غير قابل للتحسين. و متى كان المشبّه به «كمعلّق» فى البيت، فلا شكّ أن التشبيه لا يرجع إلى ذات الشى ء، بل المعنى المشتقّ منه الصفه. و إذا رجع إليه مقرونا بصلته على ما مضى فى نحو «ما زال يفتل فى الذّروه و الغارب»، فقد شبّه تزيينه بالمدح من ليس من أهله، بتعليق الدّر على الخنزير هكذا بجملته، لا بالتعليق غير معدّى إلى الدّرّ و الخنزير، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر و ما فى صلته. و لا بدّ للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى «مع»، و أمرها فيه أبين، إذ لا يمكن أن يقال: «إنّى كذا و إنّ تزيينى كذا»، لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبرا عن ضمير المتكلم فى «إنى» الذى هو المعطوف عليه،

---

(١) البيت لم أعرف قائله، و هو فى الإيضاح ص ٢٢٦ تحقيق د. هنداوى.

و الآـخر عن «تزیینی» المعطوف، کما یکون نحو بیت بشّار شیئان یمکن فی ظاهر اللفظ أن یجعل أحدهما خبرا عن النّقع، و الآـخر عن الأسیاف، إلی أن تجی ء إلی فساده من جهه المعنی. فأنت فی نحو «إنی و تزیینی» ملجأ إلی جعل «الواو» بمعنی «مع» من کل وجه، حتی لا تقدر علی إخراج الکلام إلی صوره تکون فیها «الواو» عاریه من معنی «مع»، و یکون تشبیها بعد تشبیه.

فإن قلت: إنّ فی «معلّق» معنی الذات و الصفه معا، فیمکن أن یکون أراد أن یشبّه نفسه بذات الفاعل، و تزیینه بالفعل نفسه.

فإن قلت: إنّ فی «معلّق» معنی الذات و الصفه معا، فیمکن أن یکون أراد أن یشبّه نفسه بذات الفاعل، و تزیینه بالفعل نفسه.

أقول: لو أرید إنّی «کمعلّق درّا علی خنزیر، و إن تزیینی بمدحی معشرا کتعلیق درّ علی خنزیر»، کان قولاـ ظاهر السقوط، لما ذکرت من أنه لا یتصوّر أن یشبّه المتکلم نفسه، من حیث هو زید مثلا، بمعلّق الدرّ علی الخنزیر من حیث هو عمرو، و إنما یشبّه الفعل بالفعل، فاعرفه.

فإن قلت: فما تقول فی قوله «۱»: [من الطویل]

و حتی حسبت اللیل و الصبح إذ بدا حصانین مختالین جونا و أشقرا

فإن ظاهره أنه من جنس المفرّق؟.

أقول: نعم، إلاـ أن ثمّه شیئا کالجمع، و هو أنّ لاـقتران الحصانین الجون و الأشقر فی الاختیال ضربا من الخصوصیه فی الهیئه، لکنه لا یبلغ مبلغ «لیل تهاوی کواکبه»، و لا مبلغ قوله: [من الرجز] و الصّبح مثل غرّه فی أدهم کما

أنّ قوله «٢»: [من الكامل]

دون التّعانق ناحلين كشكلتى نصب أدقّهما و ضمّ الشاكل

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) البيت فى ديوان المتنبى ص ٢٢٣، و فى التبيان للعكبرى ص ٢٠١، من قصيده يمدح بها القاضى أبا الفضل بن عبد اللّه بن الحسين الأنطاكى و قبله:

كم وقفه سجرتک شوقا بعد ما غرى الرقيب بنا و كجّ العاذل

و الشاكل الذى يصمّم شكل الكتاب، و هذا فاعل أدق و ضم، الشكله: أراد الشكله التى تكون فى الإعراب و هى الفتحه، و هى من قولهم شكلت الدابه أى: ضبطتها و الشكله تضبط الحروف.

و (المعنى): يقول وقفنا دون التعانق قرب بعضنا من بعض و لم نتعانق، فكأننا لقربنا شكلتان دقيقتان جمع الكاتب بينهما، و هو تشبيه حسن شبه تقاربهما بتقارب الشكلتين و تحولهما بنحول الشكله و وصفها مثله لأن بها ما به من الوجد. التبيان للعكبرى ص ٢٠١.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٥٠

لا يكون كقوله «١»: [من البسيط]

إنى رأيتک فى نومى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا

فإن هذا قد أدّى إليک شكلا مخصوصا لا يتصوّر فى كل

واحـد من المـذكورين على الانفراد بوجه، و صوره لا تكون مع التفريق و أما المتنبى فأراك الشـيئين فى مكان واحد و شدّد فى القرب بينهمـا، و ذاك أنه لم يعرض لهيئه العنـاق و مخالفتها صوره الافتراق، و إنما عمـد إلى المبالغه فى فرط النّحول، و اقتصـر من بيـان حـال المعـانقه على ذكر الضّمّ مطلقـا و الأوّل لم يعن بحـديث الـدقّه و النحول، و إنمـا عنى بأمر الهيئه التى تحصل فى العناق خاصّه، من انعطاف أحد الشـكلين على صاحبه، و التفاف الحبيب بمحبّه، كما قال «٢»: [من المتقارب] لفّ الصّبا بقضيب قضـيبا و أجـاد و أصـاب الشـبه أحسن إصـابه، لأن خطّى اللام و الألف فى «لا» ترى رأسـيهما فى جهتين، و تراهما قـد تماسّا من الوسط، و هذه هيئه المعتنقين على الأمر بالمعروف، فأما قصد المتنبى فليس بصـفه عناق على الحقيقه، و إنما هو تضامّ و تلاصق، و هو بنحو قوله: [من البسيط]

ضممته ضمّه عدنا بها جسدا فلو رأتنا عيون ما خشيناها

أشبه، لأن القصد فى مثله شدّه الالتصاق، من غير تعريج على هيئه الاعتناق.

و ذهب القاضى فى بيت المتنبى إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله:

كمـا تعـانق لاـم الكاتب الألفا و قال: «و لئن كان أخـذه، كما يقولون، فليس عليه معتب، لأنّ التعب فى نقله ليس بأقلّ من التعب فى ابتدائه».

و هـذا التفضـيل و التفصـيل من قول القاضـى ليس قادحا فى غرضـى، لأنّى أردت أن أريك مثالا فى وضع التشبيه على الجمع و التفريق، و أجعل البيتين معيارا فيما

---

(١) البيت

مختلف النسبه، لبكر بن النطاح فى الأغانى ١٩/ ١١٠، و لأبى نواس فى التشبيهات، و لأبى بكر الموسوس فى العقد الفريد ٦/ ١٧٣، و هو فى الأمالى ص ٢٢٦.

(٢) البيت للبحترى فى ديوانه، و صدره:

و لم أنس ليلتنا فى العناق

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٥١

أردت. و لئن كان المتنبى قد زاد على الأوّل، فليس تلك الزياده من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين، و لكن من جهه أخرى، و هى الإغراق فى الوصف بالنحول و جمع ذلك للخلّين معا، ثم إصابه مثال له و نظير من الخطّ. فاعرف ذلك، و لا تظنّ أن قصدى المفاضله بين البيتين من حيث القول فى السابق و المسبوق، و الأخذ و السرقه، فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به.

فصل هذا فنّ غير ما تقدّم فى الموازنه بين التشبيه و التمثيل

فصل هذا فنّ غير ما تقدّم فى الموازنه بين التشبيه و التمثيل

اعلم أنّى قد عرّفتك أن كل تمثيل تشبيه، و ليس كل تشبيه تمثيلا، و ثبتّ وجه الفرق بينهما.

و هذا أصل إذا اعتبرته و عرضت كلّ واحد منهما عليه فوجدته يجى ء فى التشبيه مجيئا حسنا، و ينقاد القياس فيه انقيادا لا تعسّف فيه، ثم صادفته لا يطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعه، و لا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى ظهر لك نوع من الفرق و الفصل بينهما غير ما عرفت، و انفتح منه باب إلى دقائق و حقائق، و ذلك جعل الفرع أصلا و الأصل فرعا، و هو إذا استقريت التشبيهات الصريحه و جدته يكثر فيها.

و ذلك نحو أنهم يشبّهون الشى ء فيها بالشى ء

فى حال. ثم يعطفون على الثانى فيشبّهونه بالأول، فترى الشى ء مشبّها مرّه، و مشبّها به أخرى.

فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم: «كأنها مصابيح»، ثم تقول فى حاله الأخرى فى المصابيح: «كأنها نجوم» و مثله فى الظهور و الكثره تشبيه الخدّ بالورد، و الورد بالخدّ و تشبيه الرّوض المنوّر بالوشى المنمنم و نحو ذلك، ثم يشبّه النقش و الوشى فى الحلل بأنوار الرياض و تشبّه العيون بالنرجس، ثم يشبّه النرجس بالعيون، كقول أبى نواس: [من الطويل]

لدى نرجس عضّ القطاف كأنّه إذا ما منحناه العيون عيون «۱»

---

(۱) البيت فى ديوانه ص ۳۲۵، و قبله:

كأن سطورا فوقها حميريه تكاد و إن طال الزمان تبين

و البيت فى الديوان يروى «أرى نرجسا» بدلا من «لدى نرجس».

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۲

و كذلك تشبيه الثّغر بالأقاحى، ثم تشبيهها بالثغر، كقول ابن المعتز: [من السريع]

و الأقحوان كالثّنايا الغرّ قد صقلت أنواره بالقطر «۱»

و قول التّنوخى: [من الخفيف]

أقحوان معانق لشقيق

كثغور تعضّ ورد الخدود

و بعده، و هو تشبيه النرجس بالعيون:

و عيون من نرجس تتراءى كعيون موصوله التّسهيد «۲»

و كما يشبّهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق، كما قال: [من الوافر]

و سيفى كالعقيقه و هو كمعى سلاحى، لا أفلّ و لا فطارا

ثم يعودون فيشبّهون البرق بالسيوف المنتضاه، كما قال ابن المعتزّ يصف سحابه: [من المتقارب]

و ساريه لا تملّ البكا جرى دمعها فى خدود الثّرى

سرت تقدح الصّبح فى ليلها ببرق كهنديه تنضى «۳»

و كقول الآخر يصف نار السّذق: [من المتقارب]

و ما زال يعلو عجاج الدّخان إلى أن تلوّن منه زحل «۴»

و كنّا نرى الموج من فضّه فذهّبه النّور حتى اشتعل

شرارا

يحاكى انقضاض النجوم و برقا كإيماض بيض تسلّ

و من لطيفه قول على بن محمد بن جعفر: [من الكامل]

دمن كأنّ رياضها يكسين أعلام المطارف «5»

و كأنّما غدرانها فيها عشور من مصاحف

و كأنّما أنوارها تهتزّ فى نكباء عاصف

---

(1) البيت فى ديوانه.

(2) البيت و الذى قبله من أبيات فى يتيمه الدهر 2/ 313 فى صفه الروض.

(3) البيتان فى ديوانه من أول قصيده فى الفخر.

(4) الأبيات لأبى الحسن السلامى فى يتيمه الدهر 2/ 387.

(5) الأبيات لعلى بن محمد بن جعفر هو أبو الحسن العلوى الحمانى و الشعر فى أمالى القالى 1/ 177، و السمط 439، 440. و المطارف: جمع مطرف و هو رداء من القز فيه أعلام، و الطرر:

جمع طرّه، و هو أن يقطع للجاريه من مقدّم ناصيتها كالطرّه تحت التاج، لا تبلغ حاجبها، و المثاقف: هو الذى يحسن المثاقفه بالسيف فى الخصام و الجلاد أى: العمل به (محمود شاكر).

طرر الوصائف يلتق ين بها إلى طرر الوصائف

و كأنّ لمع بروقها فى الجوّ أسياف المثاقف

المقصود البيت الأـخير، و لكن البيت إذا قطع عن القطعه كـان كالكعـاب تفرد عن الأـتراب، فيظهر فيها ذلّ الاغتراب، و الجوهره الثمينه مع أخواتها فى العقد أبهى فى العين، و أملأ بالزين، منها إذا أفردت عن النظائر، و بدت فذّه للناظر.

و يشبّهون الجواشن و الدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسّر، و يقع فيه ذلك الشنج المعلوم كقوله «۱»: [من الطويل]

و بيضاء زغف نثله سلميّه لها رفرف فوق الأنامل من عل

و أشبرنيها الهالكىّ، كأنها غدير جرت فى متنه الرّيح سلسل

و قال «۲»: [من المتقارب]

و سابغه من جياد الدّروع تسمع للسيف فيها صليلا

كمتن الغدير زفته الدّبور يجرّ المدجّج منها فضولا

و قال البحترى «٣»: [من الكامل]

يمشون فى زغف كأنّ متونها فى كل معركه متون نهاء

---

(١) البيتان لأوس بن حجر فى ديوانه، و لسان العرب (شبر). بيضاء: الدرع الزّغف و الزّغفه: الدرع المحكمه، و قيل: الواسعه الطويله، تسكن و تحرك. و قيل: الدرع اللينه، و الجمع: زغف على لفظ الواحد، و أنكر ابن الأعرابى تفسير الزغفه بالواسعه من الدروع، و قال: هى الصغيره الحلق. و النّثله:

الدرع عامه، و قيل: هى السابغه منها، و قيل: هى الواسعه منها السليمه بالضم: نسبه سماعيه إلى سليمان بن داود عليهما السلام. أشبر الرجل: أعطاه و فضله، و شبره سيفا و مالا: أعطاه إياه و يروى البيت فى اللسان (أشبرنيه) و أيضا (أشبرنيها) فتكون الهاء للدرع. قال ابن برى: و هو الصواب لأنه يصف درعا لا سيفا. [اللسان: شبر].

(٢) البيتان لعبد قيس بن خفاف من قصيدته فى المفضليات: ٣٨٦ و مطلعها:

صحوت و زايلنى باطلى لعمر أبيك زيالا طويلا

و القصيده من الأدب الرفيع و الخلق السامى، و فيها يظهرنا هذا الرجل على ما صار إليه من خلق كريم. و عبد قيس بن خفاف: هو من بنى عمرو بن حنظله من البراجم، كما قال الأنبارى، و لم يرفع نسبه و لم نجد شيئا من ترجمته.

(٣) البيت فى ديوانه. و النّهى: الموضع الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه. و قيل: هو الغدير فى لغه أهل

نجد.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۴

و هو من الشـهره بحيث لا يخفى. ثم إنهم يعكسون هـذا التشبيه فيشـبّهون الغدران و البرك بالدروع و الجواشن، كقول البحترى يصف البركه «۱»: [من البسيط]

إذا زهتها الصّبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

و من فاتن ذلك و فاخره، لاستواء أوّله فى الحسن و آخره، قول أبى فراس الحمدانى «۲»: [من مجزوء الكامل]

انظر إلى زهر الربيع و الماء فى برك البديع

و إذا الرياح جرت على ه فى الذّهاب و فى الرجوع

نثرت على بيض الصّفا ئح بيننا حلق الدروع

و تشبّه أنوار الرياض بالنجوم، كقوله «۳»: [من الكامل]

بكت السماء بها رذاذ دموعها فغدت تبسّم عن نجوم سماء

ثم تشبّه النجوم بالنّور كقوله «۴»: [من البسيط]

قد أقذف العيس فی ليل كأنّ به و شيا من النّور أو روضا من العشب

و كقول ابن المعتزّ «۵»: [من الطويل]

كأنّ الثّريّا فی أواخر ليلها تفتّح نور أو لجام مفضّض

و قال «۶»: [من الكامل]

و توقّد المرّيخ بين نجومها كبهاره فی روضه من نرجس

---

(۱) البيت فی ديوانه. الحبک، حبک السماء: طرائقها، و من التنزيل: وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ يعنی:

طرائق النجوم واحدتها: «حبكه»، و قال الفراء فی قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قال: الحبک تكسّر كل شی ء كالرمله إذا مرت عليها الريح الساكنه و الماء القائم إذا مرت به الريح، و الدرع من الحديد لها حبک أيضا. الجوشن: اسم الحديد الذی يلبس من السلاح. الجوهری: الجوشن:

الدرع. [اللسان: حبک، جشن].

(۲) الأبيات فی ديوانه.

(۳) البيت للبحتری فی ديوانه. الرّذاذ: المطر، و قيل: الساكن الدائم الصغار القطر كأنه غبار. و قيل:

هو بعد الطلل. قال الأصمعی: أخف المطر و أضعفه الطلل ثم الرذاذ. [اللسان: رذذ].

(۴) البيت للبحتری فی ديوانه.

(۵) راجع ص ۱۲۳ هامش رقم (۳).

(۶) البيت لابن المعتز فی ديوانه ص ۲۷۶، و هو من خمسه أبيات مطلعها:

كم ليله محموده أحييتها

جاءت بأسعد طائر لم ينحس

بيضاء مقمره لقيها صحبها و ثيابها فى ظلمه لم تدنس

«البهار» بالفتح: نبت طيب الرائحه، واحده البهار.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۵

و كذلك تشبّه غرّه الفرس الأدهم بالنّجم أو الصبح، و يجعل جسمه كالليل، كما قال ابن المعتزّ «۱»: [من الرجز]

جاء سليلا من أب و أمّ أدهم مصقول ظلام الجسم

قد سمّرت جبهته بنجم و كما قال كاتب المأمون يصف فرسا «۲»: [من الرمل]

قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام

فرس يزهى به للح سن سرج و لجام

وجهه صبح، و لكن سائر الجسم ظلام

و الذى يصلح للمو

لى، على العبد حرام

و قال ابن نباته «٣»: [من الوافر]

و أدهم يستمد الليل منه و تطلع بين عينيه الثّريّا

ثم يعكس فيشبّه النجم أو الصبح بالغرّه فى الفرس، كقول ابن المعتزّ «۴»: [من الرجز]

و الصّبح فى طرّه ليل مسفر كأنه غرّه مهر أشقر

و تشبّه الجوارى فى قدودهن بالسّرو تشبيها عامّيا مبتذلا، ثم إنهم قد جعلوا فيه الفرع أصلا، فشبّهوا السّرو بهنّ، كقوله «۵»: [من الكامل]

حفّت بسرو كالقيان تلحّفت خضر الحرير على قوام معتدل

فكأنّها و الرّيح حين تميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

و المقصود من البيت الأول ظاهر، و فى البيت الثانى تشبيه من جنس الهيئه

---

(١) البيتان لم أعثر عليهما فى ديوانه (طبعه دار صادر).

(٢) الأبيات لعمرو بن مسعده، كاتب المأمون و الشعر فى ترجمته فى معجم الأدباء (محمود شاكر).

(٣) البيت و هو فى الإيضاح: ٣٢٢ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. أدهم: فرس أسود. الثريا: كوكب معروف استعاره لغره الفرس.

(۴) البيت لم أجده فى ديوانه (طبعه دار صادر).

(۵) البيتان فى وصف

روضه نسبها ياقوت فى معجم الأدباء لأحمد بن سليمان بن وهب فى ترجمته، و قال: ربما نسبوه إلى غيره، كأنه يعنى نسبتهما إلى سعيد بن حميد كما فى التشبيهات لابن عون ص ۱۹۷، و حماسه الشجرى: ۷۶۲ (محمود شاكر).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۶

المجرّده من هيئات الحركه، و فيه تفصيل طريف فاتن، فقد راعى الحركتين حركه التهيّؤ للدنوّ و العناق، و حركه الرّجوع إلى أصل الافتراق، و أدّى ما يكون فى الحركه الثانيه من سرعه زائده تأديه تحسب معها السّمع بصرا، تبيينا للتشبيه كما هو و تصوّرا، لأن حركه الشجره المعتدله فى حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محاله من حركتها فى حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، و كذلك حركه من يدركه الخجل فيرتدع، أسرع أبدا من حركته إذا همّ بالدنوّ، فإزعاج الخوف و الوجل أبدا أقوى من إزعاج الرجاء و الأمل، فمع الأوّل تمهّل الاختبار، و سعه الحوار، و مع الثانى حفز الاضطرار، و سلطان الوجوب.

و أعود إلى الغرض.

و من تشبيه السّرو بالنساء قول ابن المعتزّ «۱»: [من الطويل]

ظللت بملهى خير يوم و ليله تدور علينا الكأس فى فتيه زهر

بكفّ غزال ذى عذار و طرّه و صدغين كالقافين فى طرفى

سطر

لدى نرجس غضّ و سرو كأنه قدود جوار ملن فى أزر خضر

و تشبّه ثدىّ الكواعب بالرّمان كقوله «٢»: [من الكامل]

و بما تبيت أناملى يجنين رمّان النّحور

و قول المتنبى «٣»: [من الطويل]

و قابلنى رمّانتا غصن بانه يميل به بدر و يمسكه حقف

و قوله «۴»: [من الطويل]

يخطّطن بالعيدان فى كلّ منزل و يخبأن رمّان الثّدىّ النواهد

---

(١) هى ثلاثه أبيات فى ديوانه ص ٢٣٥ (طبعه دار صادر).

(٢) البيت آخر ثلاثه أبيات للنميرى (محمد بن عبيد اللّه) فى ديوان المعانى ١/ ٢٥٣. و النحور:

الصدور. ابن سيده: نحر الصدر: أعلاه، و قيل: هو موضع القلاده منه، و هو المنحر مذكر لا غير.

(٣) البيت غير موجود فى ديوانه (طبعه دار الكتب العلميه) و موجود فى التبيان على شرح ديوان أبى الطيب المتنبى للعكبرى ص ۴۶٠. الحقف: ما اعوج من الرمل و جمعه أحقاف و حقاف و قد نطق القرآن بالأحقاف. و هو يريد بالرمانتين الثديين و بالغصن القد و بالبدر الوجه و بالحقف الردف و معنى البيت يقول: لما قامت للوداع قابلن رمانتان من

ثديها على قد مثل الغصن يميله وجه كالبدر فكان وجهها يميل قامتها ثم يمسك الردف بثقله قامتها الخفيفه فلا تقدر على سرعه الحركه. [التبيان للعكبرى].

(۴) البيت للنابغه الذبيانى فى ديوانه ص ۴۰ من قصيده قالها فى مدح النعمان بن وائل، و قبله:

و شيمه لا وان، و لا واهن القوى و جدّ إذا خاب المفيدون صاعد

فآب بأبكار و عون عقائل أوانس يحميها امرؤ غير زاهد

و نواهد: جمع نهد: الثدى أى: أنهن خجولات يتلهين باللعب بالعيدان.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۷

ثم يقلب فيشبّه الرّمان بالثدى، كقول القائل «۱»: [من الطويل]

و رمّانه شبّهتها إذا رأيتها بثدى كعاب أو بحقّه مرمر

منمنمه صفراء نضّد حولها يواقيت حمر فى ملاء معصفر

و تشبّه الجداول و الأنهار بالسيوف، يراد بياض الماء الصّافى و بصيصه، مع شكل الاستطاله الذى هو شكل السيف، كقول ابن المعتز «۲»: [من السريع]

أعددت للجار و للعفاه كوم الأعالى متساميات

روازقا فى المحل مطعمات يعنى نخلا، ثم قال بعد أبيات:

تسقى بأنهار مفجّرات على حصى الكافور فائضات

بريئه الصّفو من القذاه مثل السّيوف المتعرّيات

ابن بابك «٣»: [من الوافر]

فما سيل تخلّصه المحانى كما سلّت من الخلل المناصل

أبو فراس «۴»: [من الكامل]

و الماء يفصل بين زه ر الرّوض فى الشطّين فصلا

كبساط وشى جرّدت أيدى القيون عليه نصلا

كشاجم «۵»: [من الكامل]

و ترى الجداول كالسّيو ف لها سواق كالمبارد

---

(١) البيتان من ثلاثه أبيات فى محاضرات الأدباء ١/ ٣٨۴ لابن شاه (أبو نصر سعيد بن شاه).

(٢) لم أجدها فى ديوانه (طبعه دار صادر). الكوم: القطعه من

الإبـل، و نـاقه كوماء: عظيمه السـنام طويلته الكوم: عظم فی السـنام، و فی الحـديث: أن النبی صـلّی اللّه عليه و سـلّم رأی فی نعم الصدقه ناقه كوماء، و هی الضخمه السنام أی: مشرفه السنام عاليه [اللسان: كوم].

(۳) المحانی: معاطف الأوديه و محابس الماء. الخلل: جمع خله بالكسر و هی: جفن السيف المغشی بالأدم أو بطانه جفن السيف مطلقا و المناصل: السيوف، واحدها كمنخل (رشيد).

(۴) البيتـان لأبی فراس فی ديوانه فانظره. النصل: حديـده السـهم و الرّمـح، ج: أنصل، و نصول، و نصال الوشـی: الثياب الملونه و الوشی يكون من كل لون، و الوشی فی اللون خلط لون بلون. و الجمع:

و شاء علی فعل و فعال.

(۵) كشـاجم: شـاعر زمـانه، يـذكر مع المتنبی، و هو أبو نصـر محمود بن حسـين، له ذكر فی تاريـخ دمشق و كـان شـاعرا، كاتبا، منجّما، فعمل من حروف ذلک له اللقب.

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۱۵۸

آخر «۱»: [من البسيط]

و فی الجداول أسياف محادثه و الطير تسجع أهزاجا و أرمالا

و قال ذو الرمّه «۲»: [من الطويل]

فما انشقّ ضوء الصبح حتی تبيّنت جداول أمثال السّيوف القواطع

ابن الرومی «۳»: [من الرجز]

علی

حفافى جدول مسجور أبيض مثل المهرق المنشور

أو مثل متن الصارم المشهور ثم يقلبون أحد طرفى التشبيه على الآخر، فيشبّهون السيوف بالجداول، كقوله «۴»: [من الكامل]

و تخال ما ضربوا بهنّ جداولا و تخال ما طعنوا به أشطانا

ابن بابك «۵»: [من الطويل]

و أهدى إلى الغارات عزما مشيّعا و بأسا و باعا فى اللّقاء و مقصلا

سفيه مقطّ الطرّتين أشيمه فيوحى إلى الأعضاء أن تتزيّلا

أغرّ كأنى حين أخضب حدّه خرقت به فى ملتقى الرّوض جدولا

السرّى «۶»: [من الوافر]

و كم خرق الحجاب إلى مقام توارى الشمس فيه بالحجاب

---

(۱) أسياف: جمع سيف، و تجمع أيضا على «سيوف، أسيف»، و محادثه السيف: جلاؤه. و أحدث الرجل سيفه، و حادثه إذا جلاه. الهزج و الرّمل: بحران من بحور الشعر العربى و الهزج: الفرح، و الصوت المطرب، و صوت فيه بحح.

(۲)

البيت لذى الرمه فى ديوانه ص ١٦٧.

(٣) الحفاف: الجانب. و المسجور: المملوء. و المهرق: صحيفه يكتب عليها. الصارم: القاطع من السيوف.

(۴) الشطن: الحبل الذى يستقى به.

(۵) ابن بابک: شاعر وقته، أبو القاسم عبد الصمد بن منصور بن بابک البغدادى، و ديوانه كبير فى مجلدين توفى سنه عشر و أربع مائه. المشيع: الشجاع، المقصل: القطّاع، و يوصف به السيف.

السفيه: المضطرب، المقط: القطع، الطرتين: مثنى طره، و هو الجانب أو الطرف.

(۶) السرى: هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد الكندى، الموصلى، مدح سيف الدوله، و مات سنه نيّف و ستين و ثلاث مائه ببغداد.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۵۹

كأنّ سيوفه بين العوالى جداول يطّردن خلال غاب

و له أيضا: [من الطويل]

كأنّ سيوف الهند بين رماحه جداول فى غاب سما فتأشّبا

و تشبّه الأسنّه، كما لا يخفى، بالنجوم، كما قال «۱»: [من الكامل] و أسنّه زرقا تخال نجوما و قال البحترى «۲»: [من الكامل]

و تراه فى ظلم الوغى فتخاله قمرا يكرّ على الرّجال بكوكب

يعنى السنان، و قال ابن المعتزّ «۳»: [من الكامل]

و تراه يصغى فى القناه بكفّه نجما و نجما فى القناه يجرّه

و مثله سواء قوله «۴»: [من السريع]

كأنما الحربه فى كفّه نجم دجى شيّعه البدر

ثم قد شبّهوا الكواكب بالسّنان، كقول الصنوبرى «۵»: [من المنسرح]

بشّر بالصّبح كوكب الصّبح فاض و جنح الدّجى كلا جنح

فهو على الفجر كالسّنان هوى للعين كما هوى على رمح

ابن المعتزّ «۶»: [من السريع]

شربتها و الديک لم ينتبه سكران من نومته طافح

و لاحت الشّعرى و جوزاؤها كمثل زجّ جرّه رامح

و هذه إن أردت الحقّ، قضيّه قد سبقت و قدمت، فقد قالوا: «المسک الرامح»، على معنى أن كوكبا يتقدّمه و هو رمحه، و لا شک أن جلّ الغرض فى جعل ذلک

---

(۱) البيت لليلى الأخيليه فى ديوانها ص ۱۱۰، و مقاييس اللغه ۲/ ۴۷۹،

و صدره:

قوم رباط الخيل وسط بيوتهم و أسنه زرق ....

(٢) البيت فى ديوانه.

(٣) البيت فى ديوانه.

(۴) البيت فى ديوان البحترى.

(۵) البيت فى المطبوعه: «كما هوى»، و فى طبعه الشيخ (شاكر): «لمّا هوى»، و هو الصواب.

(۶) الزج: حديده تركب فى أسفل الرمح. و السنان: فى أعلى الرمح.

الكوكب رمحا أن يقدّروه سنانا، فالرمح رمح بالسنان، و إذا لم يكن السنان فهو قناه، و لذلك قال «۱»: [من المتقارب] و رمحا طويل القناه عسولا و من ذلك أن الدموع تشبّه إذا قطرت على خدود النساء بالطّلّ و القطر على ما يشبه الخدود من الرياحين، كقول الناشئ «۲»: [من المتقارب]

بكت للفراق و قد راعها بكاء الحبيب لبعد الدّيار

كأنّ الدّموع على خدّها بقيّه طلّ على جلّنار

و شبيه به قول ابن الرومى «۳»: [من المنسرح]

لو كنت يوم الوداع حاضرنا و هنّ يطفئن غلّه الوجد

لم تر إلا الدموع ساكبه تقطر من مقله على خدّ

كأنّ تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس، كقول البحترى «۴»: [من الطويل]

شقائق يحملن الندى فكأنّه دموع التصابى فى خدود الخرائد

و شبيه به قول ابن المعتزّ، و بعد قوله فى النرجس «۵»: [من الطويل]

كأن عيون النرجس الغضّ حولها مداهن درّ حشوهنّ عقيق

إذا بلّهنّ القطر خلت دموعها بكاء عيون كحلهنّ خلوق

و فى فنّ آخر منه خارج عن جنس ما مضى، يشبّه الشيخ إذا أفناه الهرم، و حناه القدم، حتى يدخل رأسه فى منكبيه، بالفرخ، كما قال «۶»: [من الطويل]

ثلاث مئين قد مضين كواملا و ها أنا هذا أرتجى مرّ أربع

---

(۱) عجز بيت لعبد قيس بن خفاف، صدره:

و وقع لسان كحد السنان ....

انظر الأصمعيه ص ٨٨، و المفضليات ص ١١٧.

(٢) البيت للناشئ الأكبر. و الجلنار: زهر الرمان.

(٣) النّرجس، بالكسر، من الرياحين، معروف، و هو دخيل.

(۴) الخريده من النساء: البكر التى لم تمس قط، و قيل: هى الحييه الطويله السكوت، الخافضه الصوت، الخفره المتستره.

(۵) الخلوق: نوع من الطيب لونه أصغر.

(۶) هما لعمرو أو كعب بن حممه الدوسى من المعمرين، و شعره فى المعمرين ص ٢٢، و حماسه البحترى ص ٢٠۵.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۶۱

فأصبحت مثل الفرخ فى العشّ ثاويا إذا رام تطيارا يقال له قع

و هو كثير، ثم يعكس فيشبّه بالشيخ، كما قال أبو نواس يرثى خلفا الأحمر «۱»:

[من الرجز]

لو كان حىّ وائلا من التّلف لوألت شغواء فى أعلى شعف

أمّ فريخ أحرزته فى لجف مزغّب الألغاد لم يأكل بكفّ

كأنه مستقعد من الخرف و أعاده فى قصيده أخرى فى مرثيته أيضا «۲»:

[من المنسرح]

لا تئل العصم فى الهضاب، و لا شغواء تغذو فرخين فى لجف

تحنو بجؤشوشها على ضرم كقعده المنحنى من الخرف

و يشبّه الظّليم فى حركه جناحيه، مع إرسال لهما، بالخباء المقوّض، أنشد أبو العباس لعلقمه «٣»: [من البسيط]

صعل كأنّ جناحيه و جؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم

اشترط أن تتعاطى تقويضه خرقاء، ليكون أشدّ لتفاوت حركاته، و خروج اضطرابه عن الوزن، و قال ذو الرمه: [من الطويل]

و بيض رفعنا بالضّحى عن متونها سماوه جون كالخباء المقوّض

هجوم عليها نفسه غير أنّه متى يرم فى عينيه بالشّبح ينهض

قالوا فى تفسيره: يعنى بالبيض بيض النعام، و «رفعنا»، أى: أثرنا عن ظهورها.

و «سماوه جون» أى: شخص نعام جون، و «سماوه الشى ء»، شخصه. و «الجون» الأسود هاهنا، لأنه قابل بين البياض و السواد. ثم شبّه النّعام فى حال إثارته عن البيض بالخباء المقوّض، و هو الذى نزعت أطنابه للتحويل. و البيت الثانى من

أبيات

---

(١) البيت فى ديوان أبى نواس ص ١٢٧. و البيت الثانى فى الديوان صدره هكذا:

أم فريخ أحرزته فى لجف الوائل: طالب النجاه، و وألت: نجت، الشغواء (بفتح فسكون) العقاب، و الشعف: بفتحتين:

جمع شعفه، و هى رأس الجبل. و الفريخ: تصغير الفرخ، و اللجف: حفر فى جانب البئر، و المزغب:

ذو الريش الدقيق.

(٢) البيت فى ديوان أبى نواس ص ١٢٨. لا تئل: لا تنجو، الجؤشوش: الصرم، الضرم: فرخ العقاب.

(٣) البيت لعلقمه بن عبده فى ديوانه ص ٦٣. و لسان العرب (هجم)، و تاج العروس (هجم). و لذى الرمه فى ملحقات ديوانه ص ١٩١١.

الكتاب، أنشده شاهدا على إعمال «فعول» عمل الفعل، و ذلك قوله: «هجوم عليها نفسه»، فنفسه منصوب بهجوم، على أنه من «هجم» متعدّيا نحو: «هجم عليها نفسه»، أى: طرحها عليها، كأنه أراد أن يصف الظّليم فى خوفه بأمرين متضادّين، بأن يبالغ فى الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم و الثبات و أن يثيره عنها الشى ء اليسير، نحو أن يقع بصره على الشخص من بعد، فعل من كان مستوفزا فى مكانه غير مطمئنّ و لا موطّن نفسه على السّكون، و قوله: «يرم فى عينيه بالشّبح»، كلام ليس لحسنه نهايه.

و قد قال ابن المعتزّ، فعكس هذا التشبيه، فشبّه حركه الخباء بالطائر، إلا أنه راعى أن يكون هناك صفه مخصوصه، فشرط فى الطائر أن يكون مقصوصا، و ذلك قوله: [من الخفيف]

و رفعنا خباءنا تضرب

الرى ح حشاه كالجادف المقصوص

و أخرجه إلى هـذا الشـرط: أنه أراد حركه خبـاء ثـابت غير مقوّض، إلاـ أن الريـح تقع فى جوفه فيتحرك جانبـاه على توال، كما يفعـل المقصوص إذا جـدف، و ذلـك أن يردّ جنـاحيه إلى خلفه فيتحرك جانباه. فحصل له أمران: أحـدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه فى الأكثر، و ذلك إذا صفّ فى طيرانه، فلا يدوم ضربه بجناحيه، و المقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما و الثانى تحريك الجناحين إلى خلف.

و هذا كثير جدّا، و تتبّعه فى كل باب و نوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنه.

و إنما يمتنع هذا القلب فى طرفى التشبيه، لسـبب يعرض فى البين فيمنع منه، و لا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبّه أحدهما بالآخر.

فمن ذلك، و هو أقواه فيما أظنّ، أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله تشبّه، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد، مبالغه و دلاله على أنه يفضل أمثاله فيه.

بيان هذا: أن هاهنا أشياء هى أصول فى شده السّواد كخافيه الغراب، و القار، و نحو ذلك، فإذا شبّهت شيئا بها كان طلب العكس فى ذاك عكسـا لمـا يوجبه العقل و نقضا للعاده، لأن الواجب أن يثبت المشـكوك فيه بالقياس على المعروف، لا أن يتكلّف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول و ما ليس بموجود على الحقيقه.

فأنت إذا قلت فى شى ء: «هو كخافيه الغراب»، فقد أردت أن تثبت له سوادا زائدا

علی ما یعهد فی جنسه، و أن تصحّح زیاده هی مجهوله له، و إذا لم یکن هاهنا ما یزید علی خافیه الغراب فی السواد، فلیت شعری ما الذی ترید من قیاسه علی غیره فیه، و لهذا المعنی ضعف بیت البحتری: [من الطویل]

علی باب قنّسرین و اللیل لاطخ جوانبه من ظلمه بمداد

و ذاک أن «المداد» لیس من الأشیاء التی لا مزید علیها فی السواد، کیف؟ و ربّ مداد فاقد اللون، و اللیل بالسواد و شدّته أحقّ و أحری أن یکون مثلا، أ لا تری إلی ابن الرومی حیث قال: [من السریع]

حبر أبی حفص لعاب اللیل یسیل للإخوان أیّ سیل

فبالغ فی وصف الحبر بالسواد حین شبّهه باللیل، و کأن البحتری نظر إلی قول العامّه فی الشی ء الأسود «هو کالنّقس»، ثم ترکه للقافیه إلی «المداد».

فإن قلت: فینبغی علی هذا أن لا یجوز تشبیه الصّبح بغرّه الفرس لأجل أنّ الصبح بالوصف الذی لأجله شبّه الغره به أخصّ، و هو فیه أظهر و أبلغ، و التفاوت بینهما کالتفاوت بین خافیه الغراب و القار و بین ما یشبّه بهما.

فالجواب: أن الأمر، و إن کان کذلک، فإنّ تشبیه غرّه الفرس بالصبح حیث ذکرت، لم یقع من جهه المبالغه فی وصفها بالضیاء و الانبساط و فرط التلألؤ، و إنما قصد أمر آخر: و هو وقوع منیر فی مظلم، و حصول

بياض فى سواد، ثم البياض صغير قليل بالإضافه إلى السواد، و أنت تجد هذا الشّبه على هذا الحدّ فى الأصل، فإذا عكست فقلت: «كأنّ الصّبح عند ظهور أوّله فى الليل غرّه فى فرس أدهم»، لم تقع فى مناقضه كما أنك لو شبّهت الصّبح فى الظلام بقلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب و على نحو من ذلك قول ابن المعتزّ: [من الطويل]

فخلت الدّجى و الفجر قد مدّ خيطه رداء موشّى بالكواكب معلما

فالعلم فى هذا الرداء هو الفجر بلا شبهه. و له، و هو صريح ما أردت: [من البسيط]

و الليل كالحلّه السّوداء لاح به من الصّباح طراز غير مرقوم

و إن كان التفاوت فى المقدار بين الصّبح و الطّراز فى الامتداد و الانبساط شديدا.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۶۴

و كذلك تشبيه الشّمس بالمرآه المجلوّه، و بالدينار الخارج من السّكّه، كما قال ابن المعتزّ: [من الخفيف]

و كأنّ الشّمس المنيره دينا ر جلته حدائد الضّرّاب

حسن مقبول، و إن عظم التفاوت بين نور الشمس و نور المرآه و الدّينار أو الجرم و الجرم،

لأنك لم تضع التشبيه على مجرّد النّور و الائتلاق، و إنما قصدت إلى مستدير يتلألأ و يلمع، ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآه المجلوّه و الدينار المتخلّص من حمى السّكّه، كما يوجد فى الشمس. فأما مقدار النور، و أنه زائد أو ناقص و متناه، أو متقاصر، و الجرم: أ عظيم هو أم صغير؟ فلم تتعرّض له، و يستقيم لك العكس فى هذا كله، نحو أن تشبّه المرآه بالشمس، و كذلك لو قلت فى الدينار:

«كأنه شمس»، أو قلت: «كأن الدنانير المنثوره شموس صغار» لم تتعدّ.

و جمله القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغه فى إثبات الصفه للشى ء، و القصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد، و اقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصوره و الشكل و اللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حدّه أو قريب منه فى الأصل، فإنّ العكس يستقيم فى التشبيه، و متى أريد شى ء من ذلك لم يستقم.

و قد يقصد الشاعر، على عاده التخييل، أن يوهم فى الشى ء هو قاصر عن نظيره فى الصفه أنه زائد عليه فى استحقاقها، و استيجاب أن يجعل أصلا فيها، فيصحّ على موجب دعواه و سرفه أن يجعل الفرع أصلا، و إن كنّا إذا رجعنا إلى التحقيق، لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه، و مثاله قول محمد بن وهيب: [من الكامل]

و بدا الصّباح كأنّ غرّته وجه الخليفه حين يمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفه كأنه أعرف و أشهر و أتمّ و أكمل

فى النور و الضياء من الصّباح، فاستقام له بحكم هذه النّيه أن يجعل الصباح فرعا، و وجه الخليفه أصلا.

و اعلم أن هـذه الـدعوى و إن كنت تراهـا تشـبه قـولهم: «لا يـدرى أوجهه أنور أم الصّبح، و غرّته أضوأ أم البـدر»، و قولهم إذا أفرطوا: «نور الصـباح يخفى فى ضوء وجهه»، أو «نور الشـمس مسروق من جبينه»، و ما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الإغراق و المبالغه فإن فى الطريقه الأولى خلابه و شـيئا من السـحر، و هو أنه كأنه يسـتكثر للصّباح أن يشبّه بوجه الخليفه، و يوهم أنه قد احتشد له، و اجتهد فى طلب

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۶۵

تشبيه يفخّم به أمره، و جهته الساحره أنه يوقع المبالغه فى نفسک من حيث لا تشـعر، و يفيدكها من غير أن يظهر ادّعاؤه لها، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متّفق عليه، و يزجّى الخبر عن أمر مسـلّم لا حاجه فيه إلى دعوى و لا إشـفاق من خلاف مخالف و إنكار منكر، و تجهّم معترض، و تهكّم قائل: «لم؟»، و «من أين لک ذلک؟».

و المعانى إذا وردت على النّفس هـذا المورد، كان لها ضـرب من السّرور خاصّ و حدث بها من الفرح عجيب، فكانت كالنعمه لم تكدرها المنّه، و الصّنيعه لم ينغّصها اعتداد المصطنع لها.

و فى هـذا الموضع شبيه بالنكته التى ذكرتها فى التجنيس، لأنک فى الموضـعين تنال الربح فى صوره رأس المال، و ترى الفائده قد ملأت يدک من حيث حسبتها قد جازتک و أخلتک، و

تجد على الجمله الوجود من حيث توهمّت العدم.

و لطيفه أخرى، و هو أن من شأن المـدح إذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصـعب الجمع بينهما و توفيه حقّهما: معرفه حقّ المـادح على مـا احتشـد له من تزيينه، و قصـده من تفخيم شـأنه فى عيون النـاس بالإصـغاء إليه و الارتياح له، و الـدّلاله بالبشـر و الطلاقه على حسن موقعه عنده و ملك النفس حتى لا يغلبها السرور عليه، و يخرج بها إلى العجب المذموم و إلى أن يقول: «أنا»، فيقع فى ضـعه الكبر من حيث لاـ يشـعر، و يظهر عليه من أمارته ما يـذمّ لأجله و يحقّر، فما كبر أحـد فى نفسه إلّا غان الكبر على عقله، و فسـخ عقـده من حلمه. و هـذا موقف تزلّ فيه الأقـدام، بل تخفّ عنـده الحلوم، حتى لا يسـلم من خدع النفس هناك إلا أفراد الرجـال، و إلاـ مـن أدام التوفيـق صـحبته، و مـن أين ذلـك و أنّى! فـإذا كـان المـدح على صـوره قـوله: «وجه الخليفه حين يمتدح»، خفّ عنه الشطر من تكاليف هذه الخصله.

و إذ قد تبيّن كيف يكون جعل الفرع أصـلا، و الأصل فرعا فى التشبيه الصـريح، فارجع إلى «التمثيل»، و انظر هل تجى ء فيه هذه الطريقه على هذه السّعه و القوه؟ ثم تأمّل ما حمل من «التمثيل» عليها كيف حكمه؟ و هل هو مساو لما رأيت فى التشبيه الصريح، و حاذ حذوه على التحقيق، أم الحال على خلاف ذلك؟

و المثال فيما جاد من التمثيل مردودا فيه الفرع إلى موضع الأصل، و الأصل إلى محلّ الفرع، قوله «١»: [من الخفيف]

و كأنّ النّجوم بين دجاه

سنن لاح بينهنّ ابتداع

---

(١) البيت للقاضى التنوخى. المصباح ص ١١٠، و نهايه الإيجاز ص ١٩٠، و يتيمه الدهر ٢/ ٣١٠.

و ذلك أن تشبيه السّنن بالنجوم، تمثيل، و الشبه عقلىّ، و كذلك تشبيه خلافها من البدعه و الضلاله بالظّلمه. ثم إنه عكس فشبّه النجم بالسّنن، كما يفعل فيما مضى من المشاهدات، إلا أنّا نعلم أنه لا يجرى مجرى قولنا: «كأن النجوم مصابيح» تاره «و كأن المصابيح نجوم» أخرى، و لا مجرى قولك: «كأنّ السيوف بروق تنعقّ»، و «كأنّ البروق سيوف تسلّ من أغمادها فتبرق»، و نظائر ذلك مما مضى. و ذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس و الحقيقه، و تجده العين فى الموضعين، و ليس هو فى هذا مشاهدا محسوسا، و فى الآخر معقولا متصوّرا بالقلب ممتنعا فيه الإحساس. فأنت تجد فى السيوف لمعانا على هيئه مخصوصه من الاستطاله و سرعه الحركه، تجده بعينه أو قريبا منه فى البروق، و كذلك تجد فى المداهن من الدرّ حشوهن عقيق، من الشكل و اللون و الصوره ما تجده فى النرجس، حتى يتصوّر أن يشتبه الحال فى الشى ء من ذلك، فيظنّ أن أحدهما الآخر: فلو أن رجلا رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغمود، لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقا انعقّت، و ما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريبا مما يجوز وقوع الغلط فيه. و محال أن يكون الأمر كذلك فى

التمثيل، لأن «السنن» ليست بشى ء يتراءى فى العين فيشتبه بالنجوم، و لا هاهنا وصف من الأوصاف المشاهده يجمع السنن و النجوم، و إنّما يقصد بالتشبيه فى هذا الضرب ما تقدّم من الأحكام المتأوّله من طريق المقتضى. فلمّا كانت «الضلاله و البدعه» و كل ما هو جهل، تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظّلمه فلا يهتدى إلى الطريق، و لا يفصل الشى ء من غيره حتى يتردّى فى مهواه، و يعثر على عدوّ قاتل و آفه مهلكه، لزم من ذلك أن تشبّه بالظلمه، و لزم على عكس ذلك أن تشبّه «السّنّه و الهدى و الشريعه و كلّ ما هو علم» بالنّور.

و إذا كان الأمر كذلك، علمت أن طريقه العكس لا تجى ء فى «التمثيل» على حدّها فى التشبيه الصريح، و أنها إذا سلكت فيه كان مبنيّا على ضرب من التأوّل و التخيّل يخرج عن الظاهر خروجا ظاهرا، و يبعد عنه بعدا شديدا.

فالتأويل فى البيت: أنه لما شاع و تعورف و شهر وصف «السنّه» و نحوها بالبياض و الإشراق، و «البدعه» بخلاف ذلك، كما قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أتيتكم بالحنيفيّه البيضاء ليلها كنهارها»، و قيل: «هذه حجّه بيضاء»، و قيل للشبهه و كل ما ليس بحق: «إنه مظلم»، و قيل «سواد الكفر»، و «و ظلمه الجهل»، يخيّل أن «السنن» كلها جنس من الأجناس التى لها إشراق و نور و ابيضاض فى العين، و أن «البدعه» نوع

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۶۷

من الأنواع التى لها فضل اختصاص بسواد اللون، فصار

تشبيهه النّجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع، على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب فى سواد الشباب، أو بالأنوار و ائتلاقها بين النّبات الشديد الخضره، فهذا كلّه هاهنا، كأنه ينظر إلى طريقه قوله:

و بدا الصباح كأنّ غرّته فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر، إلا أنّ التأويل هناك أنه جعل فى وجه الخليفه زياده من النور و الضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد و التأويل هاهنا أنه خيّل ما ليس بمتلوّن كأنه متلوّن، ثم بنى على ذلك.

و من هذا الباب قول الآخر «۱»: [من الكامل]

و لقد ذكرتك و الظّلام كأنه يوم النّوى و فؤاد من لم يعشق

لما كانت الأوقات التى تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال: «اسودّ النهار فى عينى»، و «أظلمت الدنيا علىّ»، جعل يوم النوى كأنه أعرف و أشهر بالسواد من الظلام، فشبّه به، ثم عطف عليه «فؤاد من لم يعشق»، تظرّفا و إتماما للصنعه. و ذلك أن الغزل يدّعى القسوه على من لم يعرف العشق، و القلب القاسى يوصف بشدّه السواد، فصار هذا القلب عنده أصلا فى الكدره و السواد فقاس عليه.

و على ذلك قول العامّه: «ليل كقلب المنافق» أو «الكافر»، إلا أنّ فى هذا شوبا من الحقيقه، من حيث يتصوّر فى القلب أصل السواد، ثم يدّعى الإفراط، و لا يدّعى فى «البدعه» نفس السواد، لأنها ليس مما يتلوّن، لأن اللون من صفات الجسم. فالذى يساويه فى الشبه المساواه التامّه قولهم: «أظلم من الكفر»، كما قال ابن العميد فى كتاب يداعب فيه، و يظهر التظلّم من

هلال الصوم و يدعو على القمر فقال: «و أرغب إلى اللّه تعالى فى أن يقرّب على القمر دوره، و ينقص مسافه فلكه»، ثم قال بعد فصل: «و يسمعنى النّعره فى قفا شهر رمضان، و يعرض علىّ هلاله أخفى من السحر و أظلم من الكفر». و إن تأوّلت فى قوله:

سنن لاح بينهنّ ابتداع أنه أراد معنى قولهم: إن سواد الظلام يزيد النجوم حسنا و بهاء، كان له

---

(١) أورده محمد بن على الجرجانى فى الإشارات ص ١٧٦، و عزاه لأبى طالب الرقى. النوى: البعد، و التحول من مكان إلى آخر.

مذهب، و ذلك أنه لما كان وقوف العاقل على بطلان الباطل، و اطّلاعه على عوار البدعه، و خرقه الستر عن فضيحه الشّبهه، يزيد الحق نبلا فى نفسه، و حسنا فى مرآه عقله، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للمشاهد المبصر هناك، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون خارجا عن الظاهر، لأن الظاهر أن يمثّل المعقول فى ذلك بالمحسوس، كما فعل البحترى فى قوله «١»: [من الطويل]

و قد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من المجد خيّب

و حسن دراریّ النجوم بأن ترى طوالع فى داج من اللّيل

غيهب

فبک مع هذا الوجه حاجه إلى مثل ما مضى من تنزيل السّنّه و البدعه منزله ما يقبل اللون، و يكون له فى رأى العين منظر المشرق المتبسّم، و الأسود الأقتم، حتى يراد أنّ لون هـذا يزيـد فى بريق ذاک و بهائه و حسـنه و جماله، و فى القطعه التى هذا البيت منها غيرها مما مذهبه المذهب الأول، و هو: [من الخفيف]

ربّ ليل قطعته کصدود أو فراق ما کان فيه وداع

موحش کالثّقيل تقذى به العى ن و تأبى حديثه الأسماع «٢»

و كأنّ النجوم البيت، و بعده «٢»: [من الخفيف]

مشرقات كأنّهنّ حجاج يقطع الخصم و الظّلام انقطاع

و مما حقّه أن يعدّ فى هذا الباب قول القائل «۴»: [من الطويل]

كأنّ انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعد وقوع

و ذلک أن العاده أن يشبّه المتخلص من البأساء بالبدر الذى ينحسر عنه الغمام، و الشّـبه بين البأساء و الغمام و الظلماء من طريق العقل، لا من طريق الحسّ.

و أوضح منه فى هذا قول ابن طباطبا «۵»: [من الرجز]

صحو و غيم و ضياء و ظلم مثل سرور شابه عارض غمّ

و من جيّد ما يقع فى هذا الباب قول التنوخىّ فى قطعه، و هى قوله: [من البسيط]

---

(۱) البيتان للبحترى فى ديوانه.

(۲) نفس القصيده للقاضى التنوخى.

(۴) البيت لابن طباطبا العلوى، نقيب الأشراف بمصر. المفتاح ص ۳۴۴، و الإيضاح ص ۳۴۰، و نهـايه الإيجاز ص ۱۹۱، انتضاء البدر: انكشافه و خروجه من الغيم.

(۵) البيت لابن طباطبا فى ديوان المعانى ۱/ ۳۵۱ من أبيات كثيره.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۶۹

أما ترى البرد قد وافت عساكره و عسكر الحرّ كيف انصاع منطلقا

فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد ألبست حبكا أو غشّيت ورقا

فانهض بنار إلى فحم كأنهما فى العين ظلم و إنصاف قد اتّفقا

جاءت و نحن كقلب الصّبّ حين سلا

بردا فصرنا كقلب الصبّ إذ عشقا «۱»

المقصود: «فانهض بنار إلى فحم»، فإنه لما كان فى «الحقّ»: «إنّه منير واضح لائح»، فتستعار له أوصاف الأجسام المنيره، و فى «الظلم» خلاف ذلك، تخيّلهما شيئين لهما ابيضاض و اسوداد، و إناره و إظلام، فشبّه النّار و الفحم بهما.

و من هذا الباب قول ابن بابك «۲»: [من الطويل]

و أرض كأخلاق الكريم قطعتها و قد كحل الليل السّماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعه و الضيق، و كثر ذلك و استمرّ، توهّمه حقيقه، فقابل بين سعه الأرض التى هى سعه حقيقيه و أخلاق الكريم.

و مثله قول أبى طالب المأمونى: [من الكامل]

و فلا كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا

أقريتها بشمله تقرى الفلا عنقا، و تقريها الفلاه نحولا

قاس الفلا فى السعه و هى حقيقه فيها، على الآمال، و هى إذا وصفت بالسعه كان مجازا بلا شبهه، و لكن لما كان يقال: «آمال طوال» و «و آمال لا نهايه لها» و «و اتسعت آماله»، و أشباه ذلك، صارت هذه الأوصاف كأنها موجوده فيها من طريق الحسّ و العيان.

و على ذكر «الأمل»، فمن لطيف ما جاء فى التشبيه به على هذا الحدّ، إن لم يكن فى

معنى السعه و الامتداد، و لكن فى الظّلمه و الاسوداد، قول ابن طباطبا: [من الخفيف]

ربّ ليل كأنّه أملى فى ك و قد رحت عنك بالحرمان

جبته و النّجوم تنعس فى الأف ق و يطرفن كالعيون الرّوانى «۳»

---

(۱) الأبيات هى للتنوخى.

(۲) البيت لابن بابك.

(۳) جبته: قطعته و نعش طرفه: بالمثلثه (من باب فتح) رفعه لينظر و طرفت العين طرفا من باب ضرب تحركت. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۷۰

هاربا من ظلام فعلك بى نح و ضياء الفتى الأغرّ الهجان «۱»

لما كان يقال فى الأمر لا يرجى له نجاح: «قد أظلم علينا هذا الأمر»، و «هذا أمر فيه ظلمه»، ثم أراد أن يبالغ فى التباس وجه النّجح عليه فى أمله، تخيّل كأنّ أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به، كأنه يقول: «تفكّرت فيما أعلمه من الأشياء السود، فرأيت صوره أملى فيك زائده على جميعها فى شدّه السّواد، فجعلته قياسا فى ظلمه ليلى الذى جبته».

و من الباب، و هو حسن، قول ابن المعتزّ: [من الكامل]

لا تخلطوا الدّوشاب فى قدح بصفاء ماء طيّب البرد «٢»

لا تجمعوا باللّه و يحكم غلظ الوعيد و رقّه الوعد

لما كان يقال: «أغلظ له القول»، و يوصف الجافى و كل من أساء و قال ما يكره بالغلظ، و يوصف كلام المحسن و من يعمد إلى الجميل باللطافه، جعل الوعيد و الوعد أصلا فى الصفتين، و قاس عليهما.

فأما قول الآخر: [من الوافر]

شربت على سلامه أفتكين شرابا صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقه لا يدخل فى تشبيه الحقيقه بالمجاز، لأن الصفاء خلوص الشى ء و خلوّه من شى ء يغيّره عن صفته، إلا أنه من حيث يقع فى الأكثر لما له بريق و بصيص، كان كأنه حقيقه فى المحسوسات، و مجاز فى المعقولات.

و أما قولهم: «هواء أرقّ من تشاكى الأحباب»، فمن الباب، لأن الرقّه فى الهواء حقيقه و فى التشاكى مجاز. و هكذا قول أبى نواس فى خلاعته: [من الرمل] حتّى هى فى رقّه دينى لأن الرقّه من صفات الأجسام، فهى فى الدّين مجاز.

و مما كأنه يدخل فى هذا الجنس قول المتنبى: [من الخفيف]

---

(١) الهجان ككتاب الخيار من كل شى ء و رجل هجان كريم الحسب.

(٢) الدوشاب: نبيذ التمر معرب. أو الأسود كما فى شرح ديوان ابن الرومى و قال السمعانى: إنه الدبس العربيه. (رشيد).

يترشّفن من فمى رشفات هنّ فيه أحلى من التّوحيد

و النفس تنبو عن زياده القول عليه. و قد اقتدى به بعض المتأخرين فى هذه الإساءه فقال: [من البسيط]

سواد صدغين من كفر يقابله بياض خدّين من عدل و توحيد

و أبعد ما يكون الشاعر من التوفيق، إذا دعته شهوه الإغراب إلى أن يستعير للهزل و العبث من الجدّ، و يتغزل بهذا الجنس.

و مما هو حسن جميل من هذا الباب، قول الصاحب كتب به إلى القاضى أبى الحسن: روى عن القاضى أنه قال: انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد، فجاءنى رسوله بعطر الفطر، و معه رقعه فيها هذان البيتان: [من الكامل]

يا أيّها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطرا مثل طيب ثنائه، فكأنما أهدى له أخلاقه

و كون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح «۱» أوضح ما يكون، فليس بخاف أنّ العاده أن يشبّه

الثّناء بالعطر و نحوه و يشتقّ منه، و قد عكس كما ترى، و ذلك على ادّعاء أن ثناءه أحقّ بصفه العطر و طيبه من العطر و أخصّ به، و أنه قد صار أصلا حتى إذا قيس نوع من العطر عليه، فقد بولغ فى صفته بالطيب، و جعل له فى الشرف و الفضل على جنسه أوفر نصيب.

إذ قد عرفت الطريقه فى جعل الفرع أصلا فى «التمثيل» فارجع و قابل بينه و بين التشبيه الظاهر، تعلم أن حاله فى الحقيقه مخالفه للحال ثمّ. و ذلك أنك لا تحتاج فى تشبيه البرق بالسيوف و السيوف بالبرق إلى تأويل أكثر من أنّ العين تؤدّى إليك من حيث الشكل و اللون و كيفيه اللمعان، صوره خاصّه تجدها فى كل واحد من الشيئين على الحقيقه. و لا يمكننا أن نقول إن الثريا شبّهت باللجام المفضّض، و بعنقود الكرم المنوّر، و بالوشاح المفصّل، لتأويل كذا، بل ليس بأكثر من أنّ أنجم الثريا لونها لون الفضّه، ثم إن أجرامها فى الصغر قريبه من تلك الأطراف المركّبه على سيور اللّجام، ثم إنها فى الاجتماع و الافتراق، على مقدار قريب من مواقع تلك الأطراف و كذا القول فى: «العنقود»، فإن تلك الأنوار مشاكله لها فى البياض، و فى

---

(۱) أى: ترجيح جانب المجاز و جعله أصلا يشبه به و فى نسخه: التوضيح. (رشيد).

أنها ليست متضامّه تضامّ التلاصق، و لا هى شديده التباين، حتى يبعد الفصل بين بعضها و بعض بل مقاديرها فى القرب و

البعد على صفه قريبه مما يتراءى فى العين من مواقع تلك الأنجم.

و إذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ما تصف من ذاك، لم يكن تشبيه اللجام المفضّض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به، و الحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل، يتعلق بقصد المتكلم، فما بدأ به فى الذكر فقد جعله فرعا و جعل الآخر أصلا.

و ليس كذلك قولنا: «له خلق كالمسك»، و «هو فى دنوّه بعطائه، و بعده بعزّه و علائه، كالبدر فى ارتفاعه، مع نزول شعاعه»، لأن كون الخلق فرعا و المسك أصلا، أمر واجب من حيث كان المعلوم من طريق الإحساس و العيان متقدما على المعلوم من طريق الرويّه و هاجس الفكر.

و حكم هذا فى أنّ الفرع لا- يخرج عن كونه فرعا على الحقيقه، حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغه من المشاهدات و المحسوسات، كقولك: «هو كحنك الغراب فى السواد»، لما هو دونه فيه، و قولك فى الشى ء من الفواكه مثلا: «هو كالعسل».

فكما لا يصحّ أن يعكس فيشبّه حنك الغراب بما هو دونه فى السواد، و العسل بما لا يساويه فى صدق الحلاوه، كذلك لا يصحّ أن تقول: «هذا مسك كخلق فلان»، إلّا على ما قدّمت من التخييل. أ لا ترى أنه كلام لا يقوله إلّا من يريد مدح المذكور؟

فأمّا أن يكون القصد بيان حال المسك، على حدّ قصدك أن تبيّن حال الشى ء المشبّه بحنك الغراب فى السواد و المشبّه بالعسل فى الحلاوه، فما لا يكون. كيف؟

و لو لا سبق المعرفه من طريق الحسّ بحال المسك، ثم جريان العرف بما جرى من تشبيه الأخلاق به، و استعاره الطّيب لها منه، لم يتصوّر هذا الذى تريد تخييله من أنّا نبالغ

فی وصف المسک بالطیب بتشبیهنا له بخلق الممدوح. و علی ذلک قولهم:

«کأنما سرق المسک عرفه من خلقک، و العسل حلاوته من لفظک»، هو مبنیّ علی العرف السابق، من تشبیه الخلق بالمسک و اللفظ بالعسل. و لو لم یتقدم ذلک و لم یتعارف و لم یستقرّ فی العادات، لم یعقل لهذا النحو من الکلام معنی، لأنّ کل مبالغه و مجاز فلا بدّ من أن یکون له استناد إلی حقیقه.

و إذا ثبتت هذه الفروق و المقابلات بین التشبیه الصریح الواقع فی العیان و ما

یدرکه الحسّ، و بین التمثیل الذی هو تشبیه من طریق العقل و المقاییس التی تجمع بین الشیئین فی حکم تقتضیه الصّفه المحسوسه لا- فی نفس الصفه کما بیّنت لک فی أول قول ابتدأته فی الفرق بین التشبیه الصریح و بین التمثیل، من أنک تشبّه اللّفظ بالعسل علی أنک تجمع بینهما فی حکم توجبه الحلاوه دون الحلاوه نفسها.

فهاهنا لطیفه أخری تعطیک للتمثیل مثلا- من طریق المشاهده، و ذلک أنک بالتمثیل فی حکم من یری صوره واحده، إلّا أنه یراها تاره فی المرآه، و تاره علی ظاهر الأمر، و أما فی التشبیه الصریح، فإنک تری صورتین علی الحقیقه.

یبیّن ذلک: أنّا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا و نفوسنا صور الأجسام من القرب و البعد و غیرهما من الأوصاف الخاصه بالأشیاء المحسوسه، لم یمکنّا تخیّل شی ء من تلک الأوصاف فی الأشیاء المعقوله. فلا یتصوّر معنی کون الرجل بعیدا من حیث العزّه و السلطان، قریبا من

حيث الجود و الإحسان، حتى يخطر ببالک و تطمح بفکرک إلى صوره البدر و بعد جرمه عنک، و قرب نوره منک. و ليس کذلک الحال فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهه اللون و الصوره و القدر، فإنک لا تفتقر فى معرفه کون النّرجس و خرطه و استدارته و توسّط أحمره لأبيضه إلى تشبيهه بمداهن درّ حشوهنّ عقيق، کيف؟ و هو شى ء تعرضه عليک العين، و تضعه فى قلبک المشاهده، و إنما يزيدک التشبيه صوره ثانيه مثل هذه التى معک، و يجتلبها لک من مکان بعيد حتى تراهما معا و تجدهما جميعا. و أما فى الأول، فإنک لا تجد فى الفرع نفس ما فى الأصل من الصفه و جنسه و حقيقته، و لا يحضرک التمثيل أوصاف الأصل على التعيين و التحقيق، و إنما يخيّل إليک أنه يحضرک ذلک، فإنه يعطيک من الممدوح بدرا ثانيا، فصار و زان ذلک و زان أن المرآه تخيّل إليک أنّ فيها شخصا ثانيا صورته صوره ما هى مقابله له، و متى ارتفعت المقابله، ذهب عنک ما کنت تتخيّله، فلا تجد إلى وجوده سبيلا، و لا تستطيع له تحصيلا، لا جمله و لا تفصيلا.

فصل فى الفرق بين الاستعاره و التمثيل

فصل فى الفرق بين الاستعاره و التمثيل

اعلم أن من المقاصد التى تقع العنايه بها أن نبيّن حال «الاستعاره» مع «التمثيل»، أ هى هو على الإطلاق حتى لا ـ فرق بين العبارتين، أم حدّها غير حدّه إلا أنها تتضمّنه و تتّصل به؟ فيجب أن نفرد جمله من القول فى حالها مع التّمثيل.

أسرار البلاغه فى علم

البيان، ص: ۱۷۴

قد مضـى فى «الاستعاره» أن حدّها يكون للّفظ اللّغوى أصل، ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم. و هذا الحدّ لا يجى ء فى الـذى تقـدّم فى معنى التمثيـل، من أنه الأصـل فى كونه مثلاـ و تمثيلاـ و هو التشـبيه المنـتزع من مجموع أمور، و الـذى لا يحصّـله لـک إلا جمله من الكلام أو أكثر، لأنک قـد تجـد الألفاظ فى الجمل التى يعقـد منها جاريه على أصولها و حقائقها فى اللغه.

و إذا كـان الأـمر كـذلك، بـان أنّ «الاسـتعاره» يجب أن تقيـد حكما زائـدا على المراد بالتمثيل، إذ لو كان مرادنا بالاسـتعاره هو المراد بالتمثيل، لوجب أن يصحّ إطلاقها فى كل شى ء يقال فيه إنه تمثيل و مثل.

و القول فيها أنّها دلاله على حكم يثبت للّفظ، و هو نقله عن الأصل اللغوىّ و إجراؤه على ما لم يوضع له. ثم إن هذا النقل يكون فى الغالب من أجل شبه بين ما نقل إليه و ما نقل عنه.

و بيان ذلك ما مضـى من أنك تقول: «رأيت أسدا»، تريد رجلا شبيها به فى الشـجاعه و «ظبيه» تريد امرأه شبيهه بالظبيه. فالتشبيه ليس هو «الاستعاره» و لكن الاستعاره كانت من أجل التشبيه، و هو كالغرض فيها، و كالعلّه و السبب فى فعلها.

فـإن قلت: كيف تكون الاسـتعاره من أجـل التشـبيه، و التشبيه يكون و لاـ اسـتعاره؟ و ذلـک إذا جئت بحرفه الظـاهر فقلت: «زيد الأسد؟».

فـالجواب: أن الأـمر كما قلت، و لكنّ التشبيه يحصل بالاسـتعاره على وجه خاصّ و هو المبالغه. فقولى: «من أجل التشبيه»، أردت به من أجل التشبيه على هذا الشرط، و كما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغه غرض فيه و علّه، كذلك الاختصار و

الإيجـاز غرض من أغراضـها. أ لا ترى أنك تفيـد بالاسم الواحـد الموصوف و الصـفه و التشبيه و المبالغه، لأنك تفيـد بقولك: «رأيت أسـدا»، أنـك رأيت شـجاعا شبيهـا بالأسـد، و أنّ شـبهه به فى الشـجاعه على أتمّ ما يكون و أبلغه، حتى إنه لا ينقص عن الأسـد فيهـا. و إذا ثبت ذلـك، فكمـا لاـ يصـحّ أن يقـال: «إن الاسـتعاره هى الاختصـار و الإيجـاز على الحقيقه، و أنّ حقيقتهـا و حقيقتهما واحده»، و لكن يقال: إن الاختصار و الإيجاز يحصـلان بها، أو هما غرضان فيها، و من جمله ما دعا إلى فعلها، كذلك حكم التشبيه معهـا. فـإذا ثبت أنهـا ليست التشبيه على الحقيقه، كـذلك لاـ يكون التمثيـل على الحقيقه، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاصّ، فكلّ تمثيل تشبيه، و ليس كلّ تشبيه تمثيلا.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۷۵

و إذا قد تقرّرت هذه الجمله، فإذا كان الشـبه بين المسـتعار منه و المستعار له من المحسوس و الغرائز و الطّباع و ما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفه، كان حقّها أن يقال إنها تتضمّن التشبيه، و لا يقال إنّ فيها تمثيلا و ضرب مثل. و إذا كان الشّبه عقليا جاز إطلاق التمثيل فيها، و أن يقال: ضرب الاسم مثلا لكذا، كقولنا: «ضرب النور مثلا للقرآن»، و «الحياه مثلا للعلم».

فقـد حصـلنا من هـذه الجمله على أن المسـتعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصـله فى اللغه إلى غيره، و يجوز به مكانه الأصـلىّ إلى مكان آخر، لأجل الأغراض التى ذكرنا من التشبيه و المبالغه و

الاختصار، و الضّارب للمثل لا يفعل ذلك و لا يقصده، و لكنه يقصد إلى تقرير الشّبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى. ثم إن وقع فى أثناء ما يعقد به المثل من الجمله و الجملتين و الثلاث لفظه منقوله عن أصلها فى اللغه، فذاك شى ء لم يعتمده من جهه المثل الذى هو ضاربه. و هكذا كان متعاط لتشبيه صريح، لا يكون نقل اللفظ من شأنه و لا من مقتضى غرضه. فإذا قلت: «زيد كالأسد»، و «هذا الخبر كالشمس فى الشهره»، و «له رأى كالسّيف فى المضاء»، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه. و لو كان الأمر على خلاف ذلك، لوجب أن لا يكون فى الدنيا تشبيه إلا و هو مجاز، و هذا محال، لأن التشبيه معنى من المعانى و له حروف و أسماء تدلّ عليه، فإذا صرّح بذلك ما هو موضوع للدلاله عليه، كان الكلام حقيقه كالحكم فى سائر المعانى، فاعرفه.

و اعلم أن اللفظه المستعاره لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا، فإذا كانت اسما كان اسم جنس أو صفه. فإذا كان اسم جنس فإنك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملا متكفّئا بين أن يكون للأصل، و بين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل إليه. فإذا قلت: «رأيت أسدا»، صلح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيت واحدا من جنس السّبع المعلوم، و جاز أن تريد أنك رأيت شجاعا باسلا شديد الجرأه، و إنما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال، و ما يتّصل به من الكلام من قبل و بعد.

و إن كان فعلا أو صفه، كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال، و ذلك إذا أسندت الفعل

و أجريت الصـفه على اسم مبهم يقع على مـا يكون أصـلا فى تلـك الصـفه و ذاك الفعل، و ما يكون فرعا فيهما، نحو أن تقول: «أنـار لى شـى ء» و «هـذا شـى ء منير». فهـذا الكلام يحتمـل أن يكون «أنار» و «منير» فيه واقعين على الحقيقه، بأن تعنى بالشـى ء بعض الأجسام ذوات النور و أن يكونا واقعين على المجاز، بأن تريد

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۷۶

بالشـى ء نوعـا من العلم و الرأى و مـا أشـبه ذلك من المعانى التى لا يصـحّ وجود النور فيها حقيقه، و إنما توصف به على سبيل التشبيه.

و فى الفعـل و الصـفه شـى ء آخر، و هو أنك كأنك تـدّعى معنى اللّفظ المسـتعار للمسـتعار له، فإذا قلت: «قـد أنارت حجّته»، و «هذه حجّه منيره»، فقد ادّعيت للحجّه النور، و لذلك تجى ء فتضـيفه إليك، كما تضاف المعانى التى يشـتقّ منها الفعل و الصـفه إلى الفاعل و الموصوف فتقول: «نور هذه الحجّه جلا بصرى، و شرح صدرى»، كما تقول: «ظهر نور الشمس». و المثل لا يوجب شيئا من هذه الأحكام، فلا هو يقتضـى تردّد اللفظ بين احتمال شـيئين و لا أن يدّعى معناه للشى ء، و لكنه يدع اللفظ مستقرّا على أصله.

و إذ قـد ثبت هـذا الأصـل، فـاعلم أن هاهنا أصـلا آخر يبنى عليه، و هو أن الاسـتعاره و إن كانت تعتمـد التشبيه و التمثيل و كان التشبيه يقتضـى شـيئين مشبّها و مشبّها به، و كذلك التمثيل، لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلىّ فإن الاستعاره من شأنها أن تسقط ذكر المشبّه

من البين و تطرحه، و تـدّعى له الاسم الموضوع للمشبّه به، كما مضـى من قولك: «رأيت أسـدا»، تريـد رجلا شـجاعا و «وردت بحرا زاخرا»، تريد رجلا كثير الجود فائض الكفّ و «أبديت نورا»، تريد علما و ما شاكل ذلك.

فاسم الّذى هو المشبّه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى، و قد نقلت الحديث إلى اسم المشبّه به، لقصدك أن تبالغ، فتضع اللّفظ بحيث يخيّل أنّ معك نفس الأسـد و البحر و النور، كى تقوّى أمر المشابهه و تشـدّده، و يكون لها هـذا الصـنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجرورا بحرف الجرّ أو مضافا إليه، فالفاعل كقولك: «بـدا لى أسـد» و «انبرى لى ليث» و «بدا نور» و «ظهرت شمس ساطعه» و «فاض لى بالمواهب بحر»، كقوله «۱»: [من الطويل]

و فى الجيره الغادين من بطن و جره غزال كحيل المقلتين ربيب

و المفعول كما ذكرت من قولك: «رأيت أسدا»، و المجرور نحو قولك: «لا

---

(۱) البيت لابن الدمينه فى سـمط اللآلى لابن عبيد البكرى ص ۴۵۸، و فى الأمالى ۱/ ۱۸۷ لأعرابى، و فى شرح الحماسه ۳/ ۱۵۷ غير معزو، و هو فى ديوان ابن الدمينه فى القسم الرابع «صله الديوان:

الزيادات» ص ۲۰۰ تحقيق أحمـد راتب النفاخ. و جره: موضع بين مكه و البصره، ربيب: من الغنم التى تكون فى البيت و ليسـت بسائمه و مؤنثها ربيبه و جمعها: ربائب.

عار إن فرّ من أسد یزأر»، و المضاف إلیه کقوله «۱»: [من الطویل]

یا ابن الکواکب من أئمّه هاشم و الرجّح الأحساب و الأحلام

و إذا جاوزت هذه الأحوال، کان اسم المشبّه مذکورا و کان مبتدأ، و اسم المشبّه به واقعا فی موضع الخبر، کقولک: «زید أسد»، أو علی هذا الحد، و هل یستحقّ الاسم فی هذه الحاله أن یوصف بالاستعاره أم لا:؟ فیه شبهه و کلام سیأتیک إن شاء اللّه تعالی.

و إذ قد عرفت هذه الجمله، فینبغی أن تعلم أنه لیس کل شی ء یجی ء مشبّها به بکاف أو بإضافه «مثل» إلیه، یجوز أن تسلّط علیه الاستعاره، و تنفذ حکمها فیه، حتی تنقله عن صاحبه و تدّعیه للمشبّه علی حد قولک: «أبدیت نورا» ترید علما، و «سللت سیفا صارما»، ترید رأیا نافذا و إنما یجوز ذلک إذا کان الشّبه بین الشیئین مما یقرب مأخذه و یسهل متناوله، و یکون فی الحال دلیل علیه، و فی العرف شاهد له، حتی یمکن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن یعرف الغرض و یعلم ما أردت.

فکل شی ء کان من الضّرب الأول الذی ذکرت أنک تکتفی فیه بإطلاق الاسم داخلا علیه حرف التشبیه نحو قولهم: «هو کالأسد»، فإنک إذا أدخلت علیه حکم الاستعاره وجدت فی دلیل الحال، و فی العرف ما یبیّن غرضک، إذ یعلم إذا قلت:

«رأیت أسدا»، و أنت ترید الممدوح، أنّک قصدت وصفه بالشجاعه و إذا قلت:

«طلعت شمس»، أنت ترید امرأه، علم أنک ترید وصفها بالحسن،

و إن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنّباهه و الشرف.

فأما إذا كان من الضرب الثانى الذى لا سبيل إلى معرفه المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل، فإن الاستعاره لا تدخله، لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن تقتسر الاسم و تغصب عليه موضعه، و تنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه. فلو حاولت فى قوله:

فإنّك كالليل الّذى هو مدركى

---

(١) البيت الثانى لأبى تمام فى ديوانه فى القسم الثانى ص ٢۶٢. و أول القصيده:

ما للدموع تروم كلّ مرام و الجفن ثاكل و هجعه و منام

و الثاكل: الفاقد و القصيده قالها أبو تمام تهنئه للواثق بالخلافه، و يعزيه بالمعتصم أبيه. الحلم:

بالكسر الأناه و العقل، و الجمع: أحلام و حلوم. و الحلم: بالضم و السكون: ما يراه النائم (الرؤيا) و الجمع: أحلام.

أن تعامل الليل معامله الأسد فى قولك: «رأيت أسدا»، أعنى أن تسقط ذكر الممدوح من البين، لم تجد له مذهبا فى الكلام، و لا صادفت طريقه توصّلك إليه، لأنك لا تخلو من أحد أمرين: إمّا أن تحذف الصفه و تقتصر على ذكر الليل مجرّدا فتقول: «إن فررت أظلّنى اللّيل»، و هذا محال، لأنه ليس فى الليل دليل على النكته التى قصدها من أنه لا يفوته و

إن أبعد فى الهرب، و صار إلى أقصى الأرض، لسعه ملكه و طول يده، و أنّ له فى جميع الآفاق عاملا و صاحب جيش و مطيعا لأوامره يردّ الهارب عليه و يسوقه إليه و غايه ما يتأتّى فى ذلك أن يريد أنه إن هرب عنه أظلمت عليه الدنيا، و تحيّر و لم يهتد، فصار كمن يحصل فى ظلمه الليل. و هذا شى ء خارج عن الغرض، و كلامنا على أن تستعير الاسم ليؤدّى به التشبيه الذى قصد فى البيت و لم أرد أنه لا تمكن استعارته على معنى ما، و لا يصلح فى غرض من الأغراض.

و إن لم تحذف الصفه، وجدت طريق الاستعاره فيه يؤدّى إلى تعسّف، إذ لو قلت: «إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى، و إن ظننت أنّ المنتأى واسع و المهرب بعيد» قلت ما لا تقبله الطّباع، و سلكت طريقه مجهوله، لأن العرف لم يجر بأن يجعل الممدوح ليلا هكذا.

فأمّا قولهم: إن التشبيه بالليل يتضمّن الدّلاله على سخطه، فإنه لا يفسح فى أن يجرى اسم الليل على الممدوح جرى الأسد و الشمس و نحوهما، و إنما تصلح استعاره الليل لمن يقصد وصفه بالسّواد و الظلمه، كما قال ابن طباطبا: [من الطويل] بعثت معى قطعا من الليل مظلما «۱» يعنى زنجيّا قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله. هذا، و ربّما- بل كلما- وجدت ما إن رمت فيه طريقه الاستعاره، لم تجد فيه هذا القدر من التمحّل و التكلّف أيضا، و و هو كقول النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «الناس كإبل مائه لا تجد فيها راحله» «۲»، قل الآن من أىّ جهه تصل إلى الاستعاره هاهنا، و بأىّ ذريعه تتذرّع إليها؟

هل

تقـدر أن تقول: «رأيت إبلا مائه لا تجـد فيها راحله» فى معنى: «رأيت ناسا» أو «الإبل المائه التى لا تجد فيها راحله»، تريد الناس، كما قلت: «رأيت أسدا» على معنى «رجلا كالأسد» أو «الأسد»، على معنى: «الذى هو كالأسد؟» و كذا قول

---

(۱) البيت له و لم نجد له ديوانا. و لم نتعرف على تمام البيت.

(۲) سبق تخريجه.

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «مثل المؤمن كمثل النّخله أو مثل الخامه» «۱»، لا تستطيع أن تتعاطى الاستعاره فى شى ء منه فتقول: «رأيت نخله» أو «خامه» على معنى «رأيت مؤمنا».

إنّ من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب: «ملغزا تاركا لكلام الناس الذى يسبق إلى أفئدتهم»، و قد قدّمت طرفا من هذا الفصل فيما مضى، و لكننى أعدته هاهنا لاتصاله بما أريد ذكره.

فقد ظهر أنه ليس كل شى ء يجى ء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف و نحوها، يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقه الاستعاره، و إسقاط ذكر المشبّه جمله، و الاقتصار على المشبّه به. و بقى أن نتعرّف الحكم فى الحاله الأخرى، و هى التى يكون كل واحد من المشبّه و المشبّه به مذكورا فيه، نحو: «زيد أسد» و «وجدته أسدا»، هل تساوق صريح التشبيه حتى يجوز فى كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف و نحوها من الثانى، و تجعله خبرا عن الأول أو بمنزله الخبر؟ و القول فى ذلك أن التشبيه إذا كان صريحا بالكاف، و «مثل»، كان الأعرف الأشهر فى

المشبّه به أن يكون معرفه، كقولك: «هو كالأسد» و «هو كالشمس» و «هو كالبحر» و «كليث العرين» و «كالصبح» و «كالنجم» و ما شاكل ذلك، و لا يكاد يجى ء نكره مجيئا يرتضى نحو:

«هو كأسد» و «كبحر» و «كغيث»، إلا أن يخصّص بصفه نحو «كبحر زاخر»، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معربا بالإعراب الذى يستحقّه الخبر من الرفع أو النصب، كان كلا الأمرين- التعريف و التنكير- فيه حسنا جميلا، تقول: «زيد الأسد» و «الشمس» و «البدر» و «البحر» و «زيد أسد» و «شمس» و «بدر» و «بحر».

و إذ قد عرفت هذا، فارجع إلى نحو:

فإنک كالليل الذى هو مدركى «٢»

---

(١) انظر صحيح الجامع للألبانى. و الخامه: الغضه الرطبه من النبات، و الحديث: «مثل المؤمن مثل الخامه من الزرع تميلها الريح مره هكذا و مره هكذا» قال الطرماح:

إنما نحن مثل خامه زرع فمتى يأن يأت محتصده

(٢) البيت للنابغه الذبيانى فى ديوانه ص ٥٦، و فى لسان العرب ۴/ ۵۰۷، و كتاب العين ٨/ ٣٩٣.

و عجز البيت:

و إن خلت أن المنتأى عنك واسع خلت: حسبت، المنتأى: البعد. و البيت من قصيده يمدح النعمان فيها، و يعتذر إليه، و مطلعها:

عفا ذو حسا من فزتنى فالفوارع فجنبا أريك، فالتلاع الدوافع

عفا: إمحاء الأثر، ذو حسا: اسم مكان فى بلاد مره، فزتنى: اسم امرأه الفوارع: الواحد فرع، و هو فرع الجبل و أعلاه. التلاع: الواحده تلعه، ما

ارتفع من الأرض. الدوافع: تجمع المياه و دفعها إلى الوادى المنحدر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٨٠

و اعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف و تجعل المجرور كان به، خبرا، فتقول: «فإنك الليل الذى هو مدركى»، أو «أنت الليل الذى هو مدركى»، و تقول فى قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «مثل المؤمن مثل الخامه من الزرع»، «المؤمن الخامه من الزرع»، و فى قوله عليه السلام: «الناس كإبل مائه»: «الناس إبل مائه»، و يكون تقديره على أنك قدّرت مضافا محذوفا على حدّ: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢].

تجعل الأصل: «فإنك مثل الليل» ثم تحذف «مثلا».

و النكته فى الفرق بين هذا الضرب الذى لا بدّ للمجرور بالكاف و نحوها من وصفه بجمله من الكلام أو نحوها، و بين الضرب الأول الذى هو نحو «زيد كالأسد» أنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت: «زيد الأسد»، فالقصد أن تبالغ فى التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد، و تشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبّه أصلا فقلت: «رأيت أسدا»، أو «الأسد»، فأمّا فى نحو: «فإنك كالليل الذى هو مدركى»، فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل، و لكنك تنوى أنك أردت أن تقول: «فإنك مثل الليل»، ثم حذفت المضاف من اللفظ، و أبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف. و أمّا هناك، فإنه و إن كان يقال أيضا إن الأصل «زيد مثل أسد» ثم تحذف فليس الحذف فيه على هذا الحدّ، بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغه.

أ لا ـ تراهم يقولون: «جعله الأسـد»؟ و بعيـد أن تقول: «جعله الليـل»، لأن القصـد لم يقع إلى وصف فى الليل كالظلمه و نحوها، و إنّما قصد الحكم الذى له، من تعميمه الآفاق، و امتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه.

و إن أردت أن تزداد علما بأن الأمر كذلك أعنى أن هاهنا ما يصلح فيه التشبيه الظاهر و لا تصلح فيه المبالغه و جعل الأول الثانى فاعمـد إلى ما تجد الاسم الذى افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد و قطع عن الكلام بعده، كقوله تعالى: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ [يونس: ۳۴]، لو قلت: «إنما الحياه الدنيا ماء أنزلناه من السماء» أو «الماء ينزل من السماء فتخضرّ منه الأرض»، لم يكن للكلام وجه غير أن تقدّر حذف مثل نحو: «إنما الحياه الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت و كيت»، إذ لا يتصوّر بين الحياه الدنيا و الماء شبه يصحّ قصده و قد أفرد، كما قد يتخيّل فى البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل فى السّخط.

و هذا موضع فى الجمله مشكل، و لا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۸۱

و لكن لا ـ سبيل إلى جحد أنك تجد الاسم فى الكثير و قد وضع موضعا فى التشبيه بالكاف، لو حاولت أن تخرجه فى ذلك الموضع بعينه إلى حدّ الاستعاره و المبالغه، و جعل هذا ذاك، لم ينقد لك، كالنكره التى هى «ماء» فى الآيه و

فى الآيه و فى الآى الأخر نحو قوله تعالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ [البقره: ١٩]، و لو قلت: «هم صيّب»، و لا تضمر «مثلا» البتّه، على حدّ «هو أسد» لم يجز، لأنه لا معنى لجعلهم صيّبا فى هذا الموضع، و إن كان لا يمتنع أن يقع «صيّب» فى موضع آخر ليس من هذا الغرض فى شى ء استعاره و مبالغه، كقولك: «فاض صيّب منه»، تريد جوده، و «هو صيّب يفيض»، تريد مندفق فى الجود. فلسنا نقول إن هاهنا اسم جنس و اسما صفه لا يصلح للاستعاره فى حال من الأحوال. و هذا شعب من القول يحتاج إلى كلام أكثر من هذا و يدخل فيه مسائل، و لكن استقصاءه يقطع عن الغرض.

فإن قلت: فلا بدّ من أصل يرجع إليه فى الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعاره و المبالغه، و ما لا يحسن ذلك فيه، و لا يجيبك المعنى إليه، بل يصدّ بوجهه عنك متى أردته عليه.

فالجواب: إنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع. و لكن هاهنا نكته يجب الاعتماد عليها و النظر إليها، و هى أن الشّبه إذا كان وصفا معروفا فى الشى ء قد جرى العرف بأن يشبّه من أجله به، و تعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه كالنور و الحسن فى الشمس، أو الاشتهار و الظهور، و أنّها لا تخفى فيها أيضا و كالطيب فى المسك، و الحلاوه فى العسل، و المراره فى الصاب، و الشجاعه فى الأسد، و الفيض فى البحر و الغيث، و المضاء و القطع و الحدّه فى السيف، و النفاذ فى السّنان، و سرعه المرور فى السّهم، و سرعه الحركه فى شعله

النار، و ما شاكل ذلك من الأوصاف التى لكل وصف منها جنس هو أصل فيه، و مقدّم فى معانيه فاستعاره الاسم للشى ء على معنى ذلك الشّبه تجى ء سهله منقاده، و تقع مألوفه معتاده. و ذلك أنّ هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولا فيها، و أنها أخصّ ما توجد فيه بها، فكل أحد يعلم أن أخصّ المنيرات بالنور الشمس، فإذا أطلقت و دلّت الحال على التشبيه، لم يخف المراد. و لو أنك أردت من الشمس الاستداره، لم يجز أن تدلّ عليه بالاستعاره، و لكن إن أردتها من الفلك جاز، فإن قصدتها من الكره كان أبين، لأن الاستداره من الكره أشهر وصف فيها. و متى صلحت الاستعاره فى شى ء، فالمبالغه فيه أصلح، و طريقها أوضح، و لسان الحال فيها أفصح، أعنى أنك إذا قلت:

يا ابن الكواكب من أئمّه هاشم و: يا ابن الليوث الغرّ فأجريت الاسم على المشبّه إجراءه على أصله الذى وضع له و ادّعيته له، كان قولك: «هم الكواكب» و «هم الليوث» أو «هم كواكب و ليوث»، أحرى أن تقوله، و أخفّ مئونه على السامع فى وقوع العلم له به.

و اعلم أن المعنى فى المبالغه و تفسيرنا لها بقولنا: «جعل هذا ذاك»، و «جعله الأسد» و «ادّعى أنه الأسد حقيقه، أنّ المشبّه الشى ء بالشى ء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى به يجمع بين الشيئين، و ينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جمله، فإذا شبّه بالأسد، ألقى صوره الشجاعه بين عينيه،

ألقى ما عـداها فلم ينظر إليه. فإن هو قال: «زيـد كالأسـد»، كان قد أثبت له حظّا ظاهرا فى الشـجاعه، و لم يخرج عن الاقتصاد. و إذا قـال: «هو الأسـد»، تناهى فى الـدعوى، إمّا قريبا من المحقّ لفرط بساله الرجل، و إما متجوّزا فى القول، فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شـجاعه الأسـد و لا يعـدم منها شـيئا. و إذا كان بحكم التشبيه، و بأنه مقصوده من ذكر الأسد فى حكم من يعتقد أنّ الاسم لم يوضع على ذلك السّبع إلا للشجاعه التى فيه، و أنّ ما عداها من صورته و سائر صفاته عيال عليها و تبع لها فى استحقاقه هذا الاسم، ثم أثبت لهذا الذى يشـبّهه به تلك الشـجاعه بعينها حتى لا اختلاف و لا تفاوت، فقد جعله الأسد لا محاله، لأن قولنا: «هو هو» على معنيين:

أحدهما: أن يكون للشـى ء اسـمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر، فإذا ذكر باسمه الآخر توهّم أن معك شيئين، فإذا قلت: «زيد هو أبو عبد اللّه»، عرّفته أن هذا الذى تذكر الآن بزيد هو الذى عرفه بأبى عبد اللّه.

و الثـانى: أن يراد تحقق التشـابه بين الشـيئين، و تكميله لهمـا، و نفى الاختلاـف و التفـاوت عنهما، فيقال: «هو هو»، أى: لا يمكن الفرق بينهمـا، لأـن الفرق يقع إذا اختصّ أحـدهما بصـفه لاـ تكـون فى الآـخر. هـذا المعنى الثـانى فرع على الأـوّل، و ذلـك أن المتشـابهين التشـابه التامّ، لمّا كان يحسب أحـدهما الآخر، و يتوهم الرائى لهما فى حالين أنه رأى شـيئا واحـدا، صاروا إذا حققوا التشابه بين الشيئين يقولون: «هو هو».

و المشبّه إذا وقف وهمه كما عرّفتك على الشجاعه دون سائر الأمور، ثم لم يثبت بين شجاعه صاحبه و شجاعه الأسد

فرقا، فقد صار إلى معنى قولنا: «هو هو» بلا شبهه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۸۳

و إذا تقررت هذه الجمله فقوله:

فإنک کالليل الذى هو مدرکى «۱» إن حاولت فيه طريقه المبالغه فقلت: «فإنک الليل الذى هو مدرکى»، لزمک لا محاله أن تعمد إلى صفه من أجلها تجعله الليل، کالشجاعه التى من أجلها جعلت الرجل الأسد.

فإن قلت: تلک الصفه الظّلمه، و إنّه قصد شدّه سخطه، و راعى حال المسخوط عليه، و توهّم أن الدنيا تظلم فى عينيه حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشه، کما قال: [من الطويل] أعيدوا صباحى فهو عند الکواعب قيل لک: هذا التقدير، إن استجزناه و عملنا عليه، فإنا نحتمله، و الکلام على ظاهره، و حرف التشبيه مذکور داخل على الليل کما تراه فى البيت.

فأمّا و أنت تريد المبالغه، فلا يجى ء لک ذلک، لأن الصفات المذکوره لا يواجه بها الممدوحون، و لا تستعار الأسماء الدالّه عليها لهم إلاـ بعد أن يتدارک و تقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبه، کقوله: [من البسيط] أنت الصّاب و العسل و لا تقول و أنت مادح: «أنت الصاب» و تسکت، و حتى إن الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد و يحتال فى دفع ما يغشى النفس من الکراهه بإطلاق الصفه التى ليست من الصفات المحبوبه، فيصل بالکلام ما يخرج به إلى نوع من المدح، کقول المتنبى: [من الخفيف]

حسن، فى وجوه أعدائه أق

بح من ضيفه، رأته السّوام «٢»

بدأ فجعله حسنا على الإطلاق، ثم أراد أن يجعله قبيحا فى عيون أعدائه، على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت فى ديوانه ص ١/ ٢٠٩. و فى التبيان ٢/ ٣٧٦. يقول: هو فى عيون أعدائه أقبح من ضيفه فى عيون مواشيه التى تكره الضيف لعلمها أنها ستنحر له. فى عيون أعدائه: ظرف لأقبح لا لحسن قدومه عليه كقولك زيد فى الدار أحسن منك فكأنه قال هو حسن و سكت.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٨۴

العاده فى مدح الرجل بأن عدوّه يكرهه، فلم يقنعه ما سبق من تمهيده و تقدّم من احترازه فى تلاقى ما يجنيه إطلاق صفه القبح، حتى وصل به هذه الزياده من المدح، و هى كراهه سوامه لرؤيه أضيافه، و حتى حصل ذكر القبح مغمورا بين حسنين، فصار كما يقول المنجّمون: «يقع النّحس مضغوطا بين سعدين، فيبطل فعله و ينمحق أثره».

و قد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبى تمّام، حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شى ء فى بسط لسان القادح فيه و المنكر لفضله، و أحضر حجّه للمتعصّب عليه. و ذلك أنه لم يبال فى كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ، و اقتصر على صميم التشبيه، و أطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النّبيه، كقوله: [من الخفيف]

و إذا ما أردت كنت رشاء

و إذا ما أردت كنت قليبا «۱»

فصكّ وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء و قليب، و لم يحتشم أن قال: [من الكامل]

ما زال يهذى بالمكارم و العلى حتى ظننّا أنّه محموم «۲»

فجعله يهذى و جعل عليه الحمّى، و ظنّ أنه إذا حصل له المبالغه فى إثبات المكارم له، و جعلها مستبدّه بأفكاره و خواطره، حتى لا يصدر عنه غيرها، فلا ضير أن يتلقّاه بمثل هذا الخطاب الجافى، و المدح المتنافى.

---

(۱) البيت هو لأبى تمام فى ديوانه ص ۳۵، و الرشاء: حبل الدلو، القليب: البئر. و البيت فى الديوان و قاله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرىّ فى قصيده مطلعها:

من سجايا الطلول أن لا تجيبا فصواب من مقلتى أن تصوبا

و البيت بعده:

باسطا بالندى سحائب كفّ بنداها أمسى حبيب حبيبا

(۲) البيت فى ديوان أبى تمام ص ۲۸۳. محموم: مصاب بالحمى، و هذا البيت من قصيده له يمدح أبا الحسين بن محمد بن الهيثم بن شبانه مطلعها:

أسقى طلولهم أجشّ هزيم و غدت عليهم نضره و نعيم

و البيت اذى قبله:

متفجر نادمته فكأننى للنجم أو للمرزمين نديم

غيث خوى كرم الطبائع دهره و الغيث يكرم مره و يلوم

و بعده:

للجود سهم فى المكارم و التقى ما ربّه المكدى و لا المسهوم

و بيان ذلك أن أول من حبا و قرى خليل اللّه إبراهيم

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۸۵

فكذلك أنت، هذه قصّتک، و هذه قضيّتک، فى اقتراحک علينا أن نسلک بالليل فى البيت طريق المبالغه على تأويل السّخط.

فإن قلت: أ فترى أن تأبى هذا التقدير فى البيت أيضا حتى يقصر التشبيه على ما تفيده الجمله الجاريه فى صله «الذى؟».

قلت: إنّ ذلک الوجه فيما أظنّه، فقد جاء فى الخبر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليدخلنّ هذا الدين ما دخل عليه الليل»، فكما تجرّد المعنى هاهنا للحكم الذى هو لليل من الوصول إلى كل مكان، و لم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه، كذلک يجوز أن يتجرّد فى البيت له، و يكون ما ادّعوه من الإشاره

بظلمه الليـل إلى إدراكه له ساخطـا، ضـربا من التعمّق و التطلّب لما لعلّ الشاعر لم يقصـده. و أحسن ما يمكن أن ينتصـر به لهـذا التقـدير أن يقال: إن النهار بمنزله الليل فى وصوله إلى كل مكان، فما من موضع من الأرض إلا و يدركه كلّ واحد منهما، فكما أن الكـائن فى النهـار لا يمكنه أن يصـير إلى مكان لا يكون به ليل، كـذلك الكائن فى الليل لا يجـد موضـعا لا يلحقه فيه نهار، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روّى فى نفسه، فلما علم أن حاله إدراكه و قد هرب منه حاله سـخط، رأى التمثيل بالليل أولى، و يمكن أن يزاد فى نصرته بقوله: [من الرمل]

نعمه كالشّمس لمّا طلعت بثّت الإشراق فى كلّ بلد «۱»

و ذاك أنه قصـد هاهنا نفس ما قصده النابغه فى تعميم الأقطار، و الوصول إلى كل مكان، إلّا أن النعمه لما كانت تسـرّ و تؤنس، أخذ المثل لها من الشمس. و لو أنه ضرب المثل لوصول النعمه إلى أقاصى البلاد، و انتشارها فى العباد، بالليل و وصوله إلى كل بلد، و بلوغه كلّ أحد، لكان قد أخطأ خطأ فاحشا، إلّا أن هذا و إن كان يجى ء مسـتويا فى الموازنه، ففرق بين ما يكره من الشّـبه و مـا يحبّ، لأـن الصـفه المحبوبه إذا اتصـلت بـالغرض من التشبيه، نـالت من العنـايه بهـا و المحافظه عليها قريبا مما يناله الغرض نفسه. و أمّا ما ليس بمحبوب، فيحسن أن يعرض عنها صفحا، و يدع الفكر فيها.

و أما تركه أن يمثّل بالنهار، و

إن كان بمنزله الليل فيما أراه، فيمكن أن يجاب عنه بأنّ هذا الخطاب من النابغه كان بالنهار لا محاله، و إذا كان يكلّمه و هو فى

---

(۱) هو فى زيادات ديوان العباس بن الأحنف، و هو فى الوساطه ص ۲۰۱، منسوبا إليه، و فى المخطوطه و مطبوعه ديتر: «ثبت الإشراق» و فى مطبوعه رشيد رضا و الوساطه ما أثبت (شاكر).

النهار، بعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له، و كان الظاهر أن يمثّل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر، و طريانه على النهار متوقّع، فكأنّه قال و هو فى صدر النهار أو آخره: «لو سرت عنك لم أجد مكانا يقينى الطلب منك، و لكان إدراكك لى و إن بعدت واجبا، كإدراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا إيّاى، و وصوله إلى أىّ موضع بلغت من الأرض».

و هاهنا شى ء آخر: و هو أنّ تشبيه «النعمه» فى البيت بالشمس، و إن كان من حيث الغرض الخاصّ، و هو الدّلاله على العموم، فكان الشّبه الآخر من كونها مؤنسه للقلوب، و ملبسه العالم البهجه و البهاء كما تفعل الشمس، حاصلا على سبيل العرض، و بضرب من التطفّل. فإنّ تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع، و جعله أصلا و مقصودا على الانفراد، مألوف معروف كقولنا: «نعمتك شمس طالعه»، و ليس كذلك الحكم فى «الليل»، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسّخط مستكره، حتى لو قلت: «أنت فى حال السخط ليل و فى الرّضى نهار»، فكافحت هكذا تجعله ليلا لسخطه، لم

يحسن، و إنما الواجب أن تقول: «النهار ليل على من تغضب عليه، و الليل نهار على من ترضى عنه، و زمان عدوّك ليل كله، و أوقات وليّك نهار كلها»، كما قال: [من الكامل]

أيّامنا مصقوله أطرافها بك، و اللّيالى كلّها أسحار «١»

و قد يقول الرجل لمحبوبه: «أنت ليلى و نهارى»، أى: بك تضى ء لى الدنيا و تظلم، فإذا رضيت فدهرى نهار، و إذا غضبت فليل كما تقول: «أنت دائى و دوائى، و برئى و سقامى»، و لا تكاد تجد أحدا يقول: «أنت ليل»، على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا، لأن هذه العباره بالذمّ، و بالوصف بالظلمه و سواد الجلد، و تجهّم الوجه، أخصّ، و بأن يراد بها أخلق، و هذا المعنى منها إلى القلب أسبق، فاعرفه.

---

(١) البيت لأبى تمام فى ديوانه. قال فى اللسان: الصّيقل: الجلاء، صقل الشى ء يصقله صقلا و صقالا فهو مصقول، و صقيل: جلاه و الاسم الصّقال، و هو صاقل و الجمع صقله. انظر ماده صقل الميزان.

و هو من قصيده قالها يمدح بها أبا سعيد الثغرى يقول فى مطلعها:

لا أنت أنت و لا الديار ديار خفّ الهوى و تولّت الأوطار

و بعد البيت:

تندى عفاتك للعفاه و تغتدى رفقا إلى زوارك الزوار

همّى معلقه عليك رقابها مغلوله إن الوفاء إسار

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۸۷

فصل

فصل

اعلم أنك تجد الاسم و قد وقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعارا، ثم لا يكون مستعارا. و ذاک لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره، و ليس له شبه ينفرد به، على ما قدّمت لک من أن الشبه يجى ء منتزعا من مجموع جمله من الكلام، فمن ذلك قول داود بن علىّ حين خطب فقال:

«شكرا شكرا، إنّا و اللّه ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا، و لا لنبنى فيكم قصرا، أظنّ عدوّ اللّه أن لن يظفر به، أرخى له فى زمامه، حتى عثر فى فضل خطامه، فالآن عاد الأمر فى نصابه، و طلعت الشمس من مطلعها، و الآن قد أخذ القوس باريها، و عاد النّبل إلى النزعه، و رجع الأمر إلى مستقرّه فى أهل بيت نبيّكم، أهل بيت الرّأفه و الرّحمه».

فقوله: «الآن أخذ القوس باريها»، و إن كان القوس تقع كنايه عن الخلافه، و البارى عن المستحقّ لها، فإنه لا يجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافه على حدّ استعاره النور و الشمس، لأجل أنه لا يتصوّر أن يخرج للخلافه شبه من القول على الانفراد، و أن يقال: «هى قوس»، كما يقال: «هى نور» و «شمس»، و إنما الشّبه مؤلّف لحال الخلافه مع القائم بها، من حال القوس مع الذى براها، و هو أن البارى

للقوس أعرف بخيرها و شرّها، و أهـدى إلى توتيرها و تصـريفها، إذ كان العامل لها فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبره فى الإمامه و الجامع لها، يكون أهدى إلى توفيه الخلافه حقّها، و أعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل، و أن يراعى فى سياسه الخلق بالأـمر و النّهى التى هى المقصود منها ترتيبا و وزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب، كما أنّ العارف بالقوس يراعى فى تسويه جوانبها، و إقامه وترها، و كيفيه نزعها و وضع السـهم الموضع الخاصّ منها، ما يوجب فى سـهامه أن تصيب الأغراض، و تقرطس فى الأهداف، و تقع فى المقاتل، و تصيب شاكله الرّمى.

و هكذا قول القائل و قد سـمع كلاما حسنا من رجل دميم: «عسل طيّب فى ظرف سوء»، ليس «عسل» هاهنا على حدّه فى قولك: «ألفـاظه عسل»، لأجل أنه لم يقصـد إلى بيان حال اللّفظ الحسن و تشبيهه بالعسل فى هـذا الكلام، و إن كان ذلك أمرا معتادا، و إنمـا قصـد إلى بيـان حـال الكلاـم الحسن من المتكلم المشـنوء فى منظره، و قياس اجتماع فضل المخبر مع نقص المنظر، بالشـبه المؤلّف من العسل و الظّرف.

أ لا ترى أن الذى يقابل الرجل هو «ظرف سوء» و ظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۸۸

على الانفراد، لأن الدّمامه لا تعطيه صـفه الظّرف من حيث هى دمامه، ما لم يتقدم شى ء يشبه ما فى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعيه لها.

فمن حقك: أن

تحافظ على هـذا الأصل، و هو أن الشّـبه إذا كان موجودا فى الشـى ء على الانفراد من غير أن يكون نتيجه بينه و بين شـى ء آخر فالاـسم مسـتعار لما أخـذ له الشّـبه منه، كالنور للعلم و الظلمه للجهل، و الشـمس للوجه الجميل، أو الرجل النبيه الجليل. و إذا لم تكن نسبه الشّبه إلى الشى ء على الانفراد، و كان مركّبا من حاله مع غيره، فليس الاسم بمستعار، و لكن مجموع الكلام مثل.

و اعلم أن هـذه الأـمور التى قصـدت البحث عنها أمور كأنّها معروفه مجهوله، و ذلك أنها معروفه على الجمله، لا ينكر قيامها فى نفـوس العـارفين ذوق الكلاـم، و المتمهّرين فى فصـل جيـده من رديئه، و مجهـوله من حيث لم يتفق فيهـا أوضـاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع إليهـا، فتسـتخرج منهـا العلـل فى حسن ما اسـتحسن و قبـح ما اسـتهجن، حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم، و تضـبط ضـبط المزموم المخطوم. و لعلّ الملال إن عرض لك، أو النشاط إن فتر عنك، قلت: «ما الحاجه إلى كل هذه الإطاله؟ و إنمـا يكفى أن يقـال: الاسـتعاره مثـل كـذا، فتعـدّ كلمـات، و تنشـد أبيات، و هكـذا يكفينا المئونه فى التشبيه و التمثيل يسـير من القول».

فإنـك تعلم أن قائلاـ لو قـال: «الخبر مثل قولنا: زيـد منطلق»، و رضـى به و قنع، و لم تطالبه نفسه بأن يعرف حـدّا للخبر، إذا عرفه تميّز فى نفسه من سـائر الكلاـم، حتى يمكنه أن يعلم هاهنـا كلامـا لفظه لفظ الخبر، و ليس هو بخبر، و لكنه دعاء كقولنا: «رحمه اللّه عليه» و «غفر اللّه له» و لم يجد فى نفسه طلبا لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم، و أنّ أوّل أمره

فی القسمه أنه ینقسم إلی جمله من الفعل و الفاعل، و جمله من مبتدأ و خبر، و أنّ ما عدا هذا من الکلام لا یأتلف.

نعم، و لم یحبّ أن یعلم أن هذه الجمله یدخل علیها حروف بعضها یؤکّد کونها خبرا، و بعضها یحدث فیها معانی تخرج بها عن الخبریه و احتمال الصدق و الکذب.

و هکذا یقول إذا قیل له: «الاسم مثل زید و عمرو»، اکتفیت و لا أحتاج إلی وصف أو حدّ یمیّزه من الفعل و الحرف أو حدّ لهما، إذا عرفتهما عرفت أن ما خالفهما هو الاسم، علی طریقه الکتّاب، و یقول: «لا أحتاج إلی أن أعرف أنّ الاسم

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۱۸۹

ینقسم فیکون متمکّنا أو غیر متمکّن، و المتمکن یکون منصرفا و غیر منصرف، و لا إلی أن أعلم شرح غیر المنصرف، الأسباب التسعه التی یقف هذا الحکم علی اجتماع سببین منها أو تکرّر سبب فی الاسم و لا أنه ینقسم إلی المعرفه و النکره، و أن «النکره» ما عمّ شیئین فأکثر، و ما أرید به واحد من جنس لا بعینه، و «المعرفه» ما أرید به واحد بعینه أو جنس بعینه علی الإطلاق و لا إلی أن أعلم شیئا من الانقسامات التی تجی ء فی الاسم، کان قد أساء الاختیار، و أسرف فی دعوی الاستغناء عما هو محتاج إلیه إن أراد هذا النوع من العلم و لئن کان الذی نتکلّف شرحه لا یزید علی مؤدّی ثلاثه أسماء، و هی «التمثیل» و «التشبیه» و «الاستعاره»، فإن ذلک یستدعی

جملا- من القول يصعب استقصاؤها، و شعبا من الكلام لا- يستبين لأول النظر أنحاؤها، إذ قولنا: «شى ء»، يحتوى على ثلاثه أحرف، و لكنك إذا مددت يدا إلى القسمه و أخذت فى بيان ما تحويه هذه اللفظه، احتجت إلى أن تقرأ أوراقا لا تحصى، و تتجشّم من المشقّه و النظر و التفكير ما ليس بالقليل النزر. و «الجزء الذى لا يتجزّأ»، يفوت العين، و يدقّ عن البصر، و الكلام عليه يملأ أجلادا عظيمه الحجم. فهذا مثلك إن أنكرت ما عنيت به من هذا التتبع، و رأيته من البحث، و آثرته من تجشّم الفكره و سومها أن تدخل فى جوانب هذه المسائل و زواياها، و تستثير كوامنها و خفاياها، فإن كنت ممن يرضى لنفسه أن يكون هذا مثله، و هاهنا محلّه، فعب كيف شئت، و قل ما هويت، و ثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت، و شاهدك فيما ادّعيت، و أنك واجد من يصوّب رأيك و يحسّن مذهبك، و يخاصم عنك، و يعادى المخالف لك.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۹۰

فصل فى الأخذ و السرقه و ما فى ذلك من التعليل، و ضروب الحقيقه و التخييل

القسم العقلى

القسم العقلى

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره و سرق، و اقتدى بمن تقدّم و سبق، لا يخلو من أن يكون فى المعنى صريحا، أو فى صيغه تتعلق بالعباره. و يجب أن نتكلم أوّلا على المعانى، و هى تنقسم أوّلا قسمين: عقلىّ و تخييلىّ، و كل واحد منهما يتنوّع. فالذى هو «العقلى» على أنواع:

أوّلها: عقلىّ صحيح مجراه فى الشعر و الكتابه و البيان و الخطابه، مجرى الأدلّه التى

تستنبطها العقلاء، و الفوائد التى تثيرها الحكماء، و لذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و كلام الصحابه رضى اللّه عنهم، و منقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، و قصدهم الحقّ، أو ترى له أصلا فى الأمثال القديمه و الحكم المأثوره عن القدماء، فقوله: [من الطويل]

و ما الحسب الموروث لا درّ درّه بمحتسب إلّا بآخر مكتسب «۱»

و نظائره، كقوله: [من الطويل]

إنّى و إن كنت ابن سيّد عامر و فى السّرّ منها و الصّريح المهذّب

لما سوّدتنى عامر عن وراثه أبى اللّه أن أسمو بأمّ و لا أب «۲»

معنى صريح محض يشهد له العقل بالصحه، و يعطيه من نفسه أكرم النّسبه، و تتفق العقلاء على الأخذ به، و الحكم بموجبه، فى كل جيل و أمّه، و يوجد له أصل

---

(۱) البيت لابن الرومى. يقول ابن الأعرابى: الدّرّ العمل من خير أو شرّ، و منه قولهم: للّه درّك يكون مدحا و يكون ذما ...، و قالوا: للّه درك أى: للّه عملك، و يقال: هذا لمن يمدح و يتعجب من عمله، فإذا ذمّ عمله قيل: لا درّ درّه.

(۲) البيتان من ديوان عامر بن الطفيل. انظر الكامل بتحقيق الدكتور

عبـد الحميد هنداوى، و فى الحيوان ۲/ ۹۵، و خزانه الأدب ۸/ ۳۴۳، ۳۴۴، ۳۴۵، ۳۴۸، و شـرح شواهد الشافيه ص ۴۰۴، و شرح شواهد المغنى ص ۹۵۳، و شرح المفصل ۱۰/ ۱۰۱، و الشـعر و الشعراء ص ۳۴۳، و لسان العرب، و المقاصـد النحويه ۱/ ۲۴۲، و الخصائص ۲/ ۳۴۲، و شرح الأشمونى ۱/ ۴۵، و شرح شافيه ابن الحاجب ۳/ ۱۸۳، و المحتسب ۱/ ۱۲۷، و مغنى اللبيب ص ۶۷۷.
و البيت بعدهما:

و لكننى أحمى حماها و أتقى أذاها و أرمى من رماها بمقنب

و فى السر منها: من سرّ الوادى و هو أكرم موضع فيه، يريد أنه فى أكرم موضع من نسبها، و الصريح:

الخالص من كل شى ء و المهذب: النقىّ من العيوب.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۹۱

فى كل لسان و لغه، و أعلى مناسبه و أنورها، و أجلّها و أفخرها، قول اللّه تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات: ۱۳]، و قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، و قوله عليه السلام: «يا بنى هاشم، لا تجيئنى الناس بالأعمال و تجيئونى بالأنساب».

و ذلك أنه لو كانت القضيّه على ظاهر يغترّ به الجاهل، و يعتمـده المنقوص، لأدّى ذلك إلى إبطال النّسب أيضا، و إحاله التكثّر به، و الرجوع إلى شرفه، فإن الأوّل لو عدم الفضائل المكتسبه، و المساعى

الشـريفه، و لم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر، و مناقب تدوّن و تسطّر، لما كان أوّلا، و لكان المعلم من أمره مجهلا، و لما تصوّر افتخـار الثـانى بالانتمـاء إليه، و تعويله فى المفاضـله عليه، و لكان لا يتصوّر فرق بين أن يقول: «هـذا أبى، و منه نسبى»، و بين أن ينسب إلى الطين، الـذى هو أصـل الخلق أجمعين، و لـذلك قـال صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «كلّكم لآدم، و آدم من التراب»، و قال محمد بن الربيع الموصلى «۱»: [من البسيط]

الناس فى صوره التّشبيه أكفاء أبوهم آدم و الأمّ حوّاء

فإن يكن لهم فى أصلها شرف يفاخرون به فالطّين و الماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلّاء

و وزن كل امرئ ما كان يحسنه و الجاهلون لأهل العلم أعداء

فهـذا كما ترى باب من المعانى التى تجمع فيها النظائر، و تذكر الأبيات الدالّه عليها، فإنها تتلاقى و تتناظر، و تتشابه و تتشاكل، و مكانه من العقل ما ظهر لك و استبان، و وضح و استنار.

و كـذلك قوله: [من الطويـل] و كل امرئ يولى الجميل محبّب صـريح معنى ليس للشـعر فى جوهره و ذاته نصـيب، و إنما له ما يلبسه من اللفـظ، و يكسوه من العبـاره، و كيفيه التأديه من الاختصار و خلافه، و الكشف أو ضـدّه، و أصـله قول النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها» «٢»، بل قول اللّه عز

---

(١) الأبيات فى ديوان الإمام على بن أبى طالب، و هى من أوائل الأبيات فى أول قصيده فى الديوان فانظره. و منها أيضا:

نقم بعلم و لا تطلب به بدلا فالناس موتى و أهل العلم أحياء

(٢) من الأحاديث المشـهوره على الألسـنه بزياده: «و بعض من أساء إليها» و روى مرفوعا و موقوفا عن ابن مسعود و كلاهما باطل، و قيل أو الموقوف معروف عن الأعمش. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٩٢

و جل: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [فصلت: ٣٤].

و كذا قوله: [من الكامل]

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدّم «١»

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحّته، و يرى العارفون بالسياسه الأخذ بسنّته، و به جاءت أوامر اللّه سبحانه، و عليه

جرت الأحكام الشرعيه و السّنن النبويه، و به استقام لأهل الدّين دينهم، و انتفى عنهم أذى من يفتنهم و يضيرهم. إذ كان موضوع الجبلّه على أن لا- تخلو الدنيا من الطغاه الماردين، و الغواه المعاندين، الذين لا يعون الحكمه فتردعهم، و لا يتصوّرون الرشد فيكفّهم النّصح و يمنعهم، و لا يحسّون بنقائص الغيّ و الضلال، و ما فى الجور و الظلم من الضّعه و الخبال، فيجدوا لذلك مسّ أ لم يحبسهم على الأمر، و يقف بهم عند الزجر، بل كانوا كالبهائم و السّباع، لا يوجعهم إلّا ما يخرق الأبشار من حدّ الحديد، و سطو البأس الشديد، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف، و لم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين و لا دنيا، و لا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبه العليا، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء، و لا تقرّ الروح فى بدن لم تدفع عنه الأدواء.

و كذلك قوله «٢»: [من الطويل]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته و إن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

و وضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضرّ، كوضع السّيف فى موضع الندى

القسم التخييلى

القسم التخييلى

و أما القسم التخييلى، فهو الذى لا- يمكن أن يقال إنه صدق، و إنّ ما أثبته ثابت و ما نفاه منفيّ. و هو مفتّن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلّا تقريبا،

---

(١) البيت للمتنبى.

(٢) البيتان فى ديوانه

من قصيده له يمدح سيف الدوله مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا و عاده سيف الدوله الطعن فى العدى

و فى البيتين يوضح المتنبى فى الثانى منهما أهميه وضع كل فعل فى مكانه المناسب، فلا يساء إلى المحسن و لا يحسن إلى المسى ء لأن ذلك مضر بالعلى و بالأخلاق.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۹۳

و لا يحاط به تقسيما و تبويبا. ثم إنه يجى ء طبقات، و يأتى على درجات، فمنه ما يجى ء مصنوعا قد تلطّف فيه، و استعين عليه بالرفق و الحذق، حتى أعطى شبها من الحقّ، و غشى رونقا من الصّدق، باحتجاج تمحّل، و قياس تصنّع فيه و تعمّل، و مثاله قول أبى تمام: [من الكامل]

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسّيل حرب للمكان العالى «۱»

فهذا قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلوّ، و الرّفعه فى قدره، و كان الغنى كالغيث فى حاجه الخلق إليه و عظم نفعه، وجب بالقياس أن يزلّ عن الكريم، زليل السّيل عن الطّود العظيم. و معلوم أنه قياس تخييل و إيهام، لا تحصيل و إحكام، فالعلّه فى أن السيل لا يستقرّ على الأمكنه العاليه، أن الماء سيّال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه

عن الانصباب، و تمنعه عن الانسياب، و ليس فى الكريم و المال، شى ء من هذه الخلال.

و أقوى من هذا فى أن يظنّ حقّا و صدقا، و هو على التخيّل قوله: [من البسيط]

الشيب كره، و كره أن يفارقنى أعجب بشى ء على البغضاء مودود «٢»

هو من حيث الظاهر صدق و حقيقه، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب، فإذا هو أدركه كره أن يفارقه، فتراه لذلك ينكره و يتكرّهه على إرادته أن يدوم له، إلاـ أنك إذا رجعت إلى التحقيق، كانت الكراهه و البغضاء لاحقه للشيب على الحقيقه، فأما كونه مرادا و مودودا، فمتخيّل فيه، و ليس بالحقّ و الصدق، بل المودود الحياه و البقاء، إلا أنه لما كانت العاده جاريه بأنّ فى زوال رؤيه الإنسان للشيب، زواله عن الدنيا و خروجه منها، و كان العيش فيها محبّبا إلى النفوس، صارت محبّته لما لا يبقى له حتى يبقى الشيب، كأنّها محبّه للشيب.

و من ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شى ء أو نقصه، أو مدحه أو ذمّه، فتعلّقوا ببعض ما يشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيله و النقيصه، و ظواهر أمور لا تصحّح ما قصدوه من التهجين و التزيين على الحقيقه، كما تراه فى باب الشيب و الشباب، كقول البحترى: [من الخفيف]

---

(١) البيت لأبى تمام فى ديوانه، و الإيضاح ص ٣٢٢، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. و عطل الكريم: خلوه و فراغه.

(٢) البيت لابن المعتز فى ديوانه و ينسب أيضا لمسلم بن الوليد.

و بياض البازىّ أصدق حسنا إن تأمّلت من سواد الغراب «۱»

و ليس إذا كان البياض فى البازى آنق فى العين و أخلق بالحسن من السواد فى الغراب، وجب لذلك أن لا يذمّ الشيب و لا تنفر منه طباع ذوى الألباب، لأنه ليس الذنب كلّه لتحوّل الصّبغ و تبدّل اللون، و لا أتت الغوانى ما أتت من الصدّ و الإعراض لمجرّد البياض، فإنهن يرينه فى قباطىّ مصر فيأنسن، و فى أنوار الرّوض و أوراق النرجس الغضّ فلا يعبسن، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون و ذاته، بل لذهاب بهجاته، و إدباره فى حياته. و إنک لترى الصّفره الخالصه فى أوراق الأشجار المتناثره عند الخريف و إقبال الشتاء و هبوب الشّمال، فتكرهها و تنفر منها، و تراها بعينها فى إقبال الربيع فى الزّهر المتفتّق، و فيما ينشئه و يشيه من الديباج المؤنق، فتجد نفسک على خلاف تلک القضيّه، و تمتلئ من الأريحيّه، ذاک لأنک رأيت اللون حيث النماء و الزياده، و الحياه المستفاده، و حيث أبشرت أرواح الرياحين، و بشّرت أنواع التحاسين، و رأيته فى الوقت الآخر حين ولّت السعود، و اقشعرّ العود، و ذهبت البشاشه و البشر، و جاء العبوس و العسر.

هذا، و لو عدم البازى فضيله أنه جارح، و أنه من عتيق الطير، لم تجد لبياضه الحسن الذى تراه، و لم يكن للمحتجّ به على من ينكر الشيب و يذمّه ما تراه من

الاستظهار، كما أنه لو لا ما يهدى إليك المسك من ريّاه التى تتطلع إلها الأرواح، و تهشّ لها النفوس و ترتاح، و لضعفت حجّه المتعلق به فى تفضيل الشّباب. و كما لم تكن العلّه فى كراهه الشيب بياضه، و لم يكن هو الذى غضّ عنه الأبصار، و منحه العيب و الإنكار، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سوادا فقط، بل لأنك رأيت رونق الشباب و نضارته، و بهجته و طلاوته و رأيت بريقه و بصيصه يعدانك الإقبال، و يريانك الاقتبال، و يحضرانك الثقه بالبقاء، و يبعدان عنك الخوف من الغناء. و إنّك لترى الرّجل و قد طعن فى السنّ و شعره لم يبيضّ، و شيبه لم ينقضّ، و لكنه على ذاك قد عدم إبهاجه الذى كان، و عاد لا يزين كما زان، و ظهر فيه من الكمود و الجمود، ما يريكه غير محمود.

---

(۱) البيت للبحترى فى ديوانه و قبله:

عيرتنى المشيب و هى بدته فى عذارى بالصد و الاجتناب

(شاكر).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۹۵

و هكذا قوله: [من الكامل]

و الصّارم المصقول أحسن حاله يوم الوغى من صارم لم يصقل

احتجاج على فضيله الشيب، و أنه أحسن منظرا من جهه التعلق باللون، و إشاره إلى

أن السواد كالصدإ على صفحه السيف، فكما أن السيف إذا صقل و جلى و أزيل عنه الصّدأ و نقّى كان أبهى و أحسن، و أعجب إلى الرائى و فى عينه أزين، كذلك يجب أن يكون حكم الشعر فى انجلاء صدأ السواد عنه، و ظهور بياض الصّقال فيه، و قد ترك أن يفكّر فيما عدا ذلك من المعانى التى لها يكره الشيب، و يناط به العيب.

و على هذا موضوع الشعر و الخطابه، أن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف علـه لحكم يريدونه، و إن لم يكن كذلك فى المعقول و مقتضيات العقول، و لا يؤخذ الشاعر بأن يصحّح كون ما جعله أصلا و علّه كما ادّعاه فيما يبرم أو ينقض من قضيّه، و أن يأتى على ما صيّره قاعده و أساسا بيّنه عقليه، بل تسلّم مقدّمته التى اعتمدها بيّنه، كتسليمنا أنّ عائب الشيب لم ينكر منه إلّا لونه، و تناسينا سائر المعانى التى لها كره، و من أجلها عيب.

و كذلك قول البحترى «١»: [من المنسرح]

كلّفتمونا حدود منطقكم فى الشّعر يكفى عن صدقه كذبه

أراد كلّفتمونا أن نجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق، و نأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقّق، حتى لا ندّعى إلا ما يقول عليه من العقل برهان يقطع به، و يلجئ إلى موجبه. و لا شك أنه إلى هذا النحو قصد، و إيّاه عمد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظّا من الفضل و السّؤدد ليس له، و يبلّغه بالصفه حظّا من التعظيم ليس هو أهله، و أن يجاوز به من الإكثار محلّه،

لأن هـذا الكـذب لا يبين بالحجج المنطقيه، و القوانين العقليه، و إنما يكذّب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور و اختباره فيما وصف به، و الكشف عن قدره و خسّته، و رفعته أو ضعته، و معرفه محلّه و مرتبته.

و كذلك قول من قال: «خير الشعر أكذبه»، فهذا مراده، لأن الشعر لا يكتسب

---

(١) البيت للبحترى فى ديوانه، و يروى عجز البيت:

فى يلغى يكفى عن صدقه كذبه و بعده:

و الشعر لمح تكفى إشارته و ليس بالهذر طولت خطبه

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ١٩٦

من حيث هو شعر فضلا و نقصا، و انحطاطا و ارتفاعا، بأن ينحل الوضيع صفه من الرفعه هو منها عار، أو يصف الشريف بنقص و عار، فكم جواد بخّله الشعر و بخيل سخّاه؛ و شجاع وسمه بالجبن و جبان ساوى به الليث؛ و دنىّ أوطأه قيّمه العيّوق، و غبىّ قضى له بالفهم، و طائش ادّعى له طبيعه الحكم، ثم لم يعتبر ذلك فى الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره و تنشر ديابيجه، و يفتق مسكه فيضوع أريجه.

و أما من قال فى معارضه هذا القول: «خير الشعر أصدقه»، كما قال: [من البسيط]

و إنّ أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا «١»

فقد يجوز أن يراد

به أن خير الشعر ما دلّ على حكمه يقبلها العقل، و أدب يجب به الفضل، و موعظه تروّض جماح الهوى و تبعث على التقوى، و تبيّن موضع القبح و الحسن فى الأفعال، و تفصل بين المحمود و المذموم من الخصال، و قد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال، كما قيل: «كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه»، و الأول أولى، لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر.

فمن قال: «خيره أصدقه» كان ترك الإغراق و المبالغه و التجوّز إلى التحقيق و التصحيح، و اعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح، أحبّ إليه و آثر عنده، إذ كان ثمره أحلى، و أثره أبقى، و فائدته أظهر، و حاصله أكثر، و من قال: «أكذبه»، ذهب إلى أن الصنعه إنما تمدّ باعها، و تنشر شعاعها، و يتّسع ميدانها، و تتفرّع أفنانها، حيث يعتمد الاتّساع و التخييل، و يدّعى الحقيقه فيما أصله التقريب و التخيل و حيث يقصد التلطف و التأويل و يذهب بالقول مذهب المبالغه و الإغراق فى المدح و الذمّ و الوصف و النعت و الفخر و المباهاه و سائر المقاصد و الأغراض، و هناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع و يزيد، و يبدى فى اختراع الصّور و يعيد، و يصادف مضطربا كيف شاء واسعا، و مددا من المعانى متتابعا، و يكون كالمغترف من عدّ لا ينقطع، و المستخرج من معدن لا ينتهى.

و أما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المدانى قيده، و الذى لا تتّسع كيف شاء يده و أيده، ثم هو فى الأكثر يسرد على السامعين معانى معروفه و صورا مشهوره، و يتصرّف فى أصول هى و إن كانت شريفه، فإنها كالجواهر تحفظ

أعدادها، و لا يرجى

---

(١) البيت لحسان بن ثابت فى ديوانه، و المصباح ص ٢٢١. و قبله:

و إنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيسا و إن حمقا

ازديادها، و كالأعيان الجامده التى لا تنمى و لا تزيد، و لا تربح و لا تفيد، و كالحسناء العقيم، و الشجره الرّائقه لا تمتّع بجنى كريم.

هذا و نحوه يمكن أن يتعلّق به فى نصره التخييل و تفضيله، و العقل بعد على تفضيل القبيل الأول و تقديمه و تفخيم قدره و تعظيمه، و ما كان العقل ناصره، و التحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه، و قد قيل: «الباطل مخصوم و إن قضى له، و الحقّ مفلج و إن قضى عليه». هذا، و من سلّم أنّ المعانى المعرقه فى الصدق، المستخرجه من معدن الحقّ، فى حكم الجامد الذى لا ينمى، و المحصور الذى لا يزيد و إن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبى فراس: [من الوافر]

و كنّا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا «١»

أ لست تراه عقليّا عريقا فى نسبه، معترفا بقوّه سببه، و هو على ذلك من فوائد أبى فراس التى هى أبو عذرها «٢»، و السابق إلى

إثاره سرّها.

و اعلم أن «الاستعاره» لا تدخل فى قبيل «التخييل»، لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظه المستعاره، و إنما يعمد إلى إثبات شبه هناك، فلا يكون مخبره على خلاف خبره. و كيف يعرض الشكّ فى أن لا مدخل للاستعاره فى هذا الفنّ، و هى كثيره فى التنزيل على ما لا يخفى، كقوله عز و جل: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً [مريم: ۴]، ثم لا شبهه فى أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهرا، و إنما المراد إثبات شبهه. و كذلك قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «المؤمن مرآه المؤمن»، ليس على إثباته مرآه من حيث الجسم الصّقيل، لكن من حيث الشّبه المعقول، و هو كونها سببا للعلم بما لولاها لم يعلم، لأن ذلك العلم طريقه الرؤيه، و لا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآه و ما جرى مجراها من الأجسام الصّقيله، فقد جمع بين المؤمن و المرآه فى صفه معقوله، و هى أن المؤمن ينصح أخاه و يريه الحسن من القبيح، كما ترى المرآه الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن و خلافه. و كذا قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إياكم و خضراء الدّمن»، معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين، و لكن الشّبه الحاصل من مجموعهما، و ذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل.

---

(۱) البيت لأبى فراس فى ديوانه.

(۲) يقال فلان أبو عذر فلانه إذا كان افترعها و اقتضها، و قولهم: ما أنت بذى عذر هذا الكلام، أى: لست بأول من اقتضه. [اللسان: عذر].

أسرار

البلاغه فى علم البيان، ص: ۱۹۸

و إذا كان هـذا كذلك، بان منه أيضا أنّ لک مع لزوم الصدق، و الثبوت على محض الحقّ، الميدان الفسيح و المجال الواسع، و أن ليس الأـمر على مـا ظنّه ناصـر الإـغراق و التخييـل الخارج إلى أن يكون الخبر على خلاف المخبر، من أنه إنما يتّسع المقال و يفتنّ، و تكثر موارد الصـنعه و يغزر ينبوعهـا، و تكثر أغصانهـا و تتشـعّب فروعها، إذا بسط من عنان الـدعوى، فادّعى ما لا يصـحّ دعواه، و أثبت ما ينفيه العقل و يأباه.

و جمله الحـديث أن الـذى أريـده بالتخييـل هاهنـا، مـا يثبت فيه الشـاعر أمرا هو غير ثـابت أصـلا، و يـدّعى دعوى لاـ طريق إلى تحصيلها، و يقول قولا يخدع فيه نفسه و يريها ما لا ترى.

فأمّا الاسـتعاره، فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف، فى أنک إذا رجعت إلى أصله، وجدت قائله و هو يبت أمرا عقليّا صحيحا، و يدّعى دعوى لها سنخ فى العقل.

و ستمرّ بـک ضـروب مـن «التخييـل» هى أظهر أمرا فى البعـد عن الحقيقه، و أكشـف وجهـا فى أنه خـداع للعقـل، و ضـرب من التزويق، فتزداد اسـتبانه للغرض بهـذا الفصـل، و أزيـدک حينئـذ إن شاء اللّه، كلاما فى الفرق بين ما يـدخل فى حيّز قولهم: «خير الشعر أكذبه»، و بين ما لا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتّساع و تجوّز، فاعرفه.

و كيف دار الأـمر، فـإنهم لم يقولوا: «خير الشـعر أكـذبه»، و هم يريـدون كلاما غفلا ساذجا يكـذب فيه صاحبه و يفرط، نحو أن يصف الحـارس بأوصـاف الخليفه، و يقول للبـائس المسـكين: «إنّک أمير العراقين»، و لكن ما فيه صـنعه يتعمّل لها، و تـدقيق فى المعانى يحتاج معه إلى فطنه لطيفه

و فهم ثاقب و غوص شديد، و اللّه الموافق للصواب.

و أعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقى و غير الحقيقى.

و اعلم أن ما شأنه «التخييل»، أمره فى عظم شجرته إذا تؤمّل نسبه، و عرفت شعوبه و شعبه، على ما أشرت إليه قبيل، لا يكاد تجى ء فيه قسمه تستوعبه، و تفصيل يستغرقه، و إنما الطريق فيه أن يتّبع الشى ء بعد الشى ء و يجمع ما يحصره الاستقراء.

فالذى بدأت به من دعوى أصل و علّه فى حكم من الأحكام، هما كذلك ما تركت المضايقه، و أخذ بالمسامحه، و نظر إلى الظاهر، و لم ينقّر عن السرائر، و هو النمط العدل و النمرقه الوسطى، و هو شى ء تراه كثيرا بالآداب و الحكم البريئه من الكذب.

و من الأمثله فيه قول أبى تمام «١»: [من الخفيف]

إنّ ريب الزمان يحسن أن يه دى الرّزايا إلى ذوى الأحساب

---

(١) البيتان لأبى تمام فى ديوانه.

فلهذا يجفّ بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الرّوابى

و كذا قوله يذكر أنّ الممدوح قد زاده، مع بعده عنه و غيبته، فى العطايا على الحاضرين عنده اللّازمين خدمته «١»: [من الخفيف]

لزموا مركز

النّدى و ذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادى

غير أنّ الرّبى إلى سبل الأن واء أدنى، و الحظّ حظّ الوهاد

لم يقصد من الربى هاهنا إلى العلوّ، و لكن إلى الدنوّ فقط، و كذلك لم يرد بذكر الوهاد الضّعه و التّسفّل و الهبوط، كما أشار إليه فى قوله:

و السّيل حرب للمكان العالى «٢» و إنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الرّبى من فيض الأنواء، ثم إنها تتجاوز الرّبى التى هى دانيه قريبه إليها، إلى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب.

و من هذا النّمط، فى أنه تخييل شبيه بالحقيقه لاعتدال أمره، و أنّ ما تعلّق به من العلّه موجود على ظاهر ما ادّعى، قوله «٣»: [من البسيط]

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إنّ السماء ترجّى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعدّ فى مجرى العاده جودا منها و نعمه، صادره عنها، كما قال ابن المعتز «۴»: [من الخفيف]

ما ترى نعمه السماء على الأر ض و شكر الرّياض للأمطار

و هذا نوع آخر، و هو دعواهم فى الوصف هو خلقه فى الشى ء و طبيعه، أو واجب على الجمله، من حيث هو أنّ

ذلك الوصف حصل له من الممدوح و منه استفاده. و أصل هذا التشبيه، ثم يتزايد فيبلغ هذا الحدّ، و لهم فيه عبارات منها قولهم: «إن الشمس تستعير منه النور و تستفيد، أو تتعلّم منه الإشراق و تكتسب منه الإضاءه». و ألطف ذلك أن قال: «تسرق»، و «أن نورها مسروق من الممدوح».

و كذلك يقال: «المسك يسرق من عرفه، و أنّ طيبه مسترق منه و من أخلاقه»، قال ابن بابك: [من الطويل]

---

(۱) البيتان لأبى تمام فى ديوانه.

(۲) سبق تخريجه فى أول القسم التخييلى.

(۳) البيت لأبى تمام فى ديوانه.

(۴) البيت لابن المعتز فى ديوانه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۰

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق و وصفك منتحل

حكيت أبا سعد، فنشرك نشره و لكن له صدق الهوى، و لك الملل

و نوع آخر، و هو أن يدّعى فى الصفه الثانيه للشى ء أنه إنما كان لعلّه يضعها الشاعر و يختلقها، إمّا لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمر من الأمور، فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسىّ ترجمته «۱»: [من البسيط]

لو لم تكن نيّه الجوزاء خدمته

لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى، أعنى ما أصله التشبيه، ثم أريد التناهى فى المبالغه و الإغراق و الإغراب.

و يدخل فى هذا الفن قول المتنبى «۲»: [من الكامل]

لم تحك نائلك السّحاب، و إنّما حمّت به فصبيبها الرّحضاء

لأنه و إن كان أصله التشبيه، من حيث يشبّه الجواد بالغيث، فإنه وضع المعنى وضعا و صوّره فى صوره خرج معها إلى ما لا أصل له فى التشبيه، فهو كالواقع بين الضربين. و قريب منه فى أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعه فى تشبيهه و خلع عنه صورته خلعا، قوله: [من الوافر]

و ما ريح الرّياض لها، و لكن كساها دفنهم فى الترب طيبا

و من لطيف هذا النوع قول أبى العباس الضبّى: [من الكامل]

لا تركننّ إلى الفرا ق و إن سكنت إلى العناق

فالشمس عند غروبها تصفرّ من فرق الفراق

ادّعى لتعظيم شأن الفراق أنّ ما يرى من الصفره فى الشمس حين يرقّ نورها بدنوّها من الأرض، إنما هو لأنها تفارق الأفق الذى كانت فيه،

أو الناس الذين طلعت عليهم و أنست بهم و أنسوا بها و سرّتهم رؤيتها.

و نوع منه قول الآخر: [من الوافر]

قضيب الكرم نقطعه فيبكى و لا تبكى و قد قطع الحبيب

---

(۱) البيت فى الإيضاح ص ۳۲۴ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. و الجوزاء: برج فى السماء، العقد:

ما يلبس فى العنق، و المنتطق: لابس النطاق.

(۲) البيت للمتنبى فى ديوانه، و فى الإيضاح ص ۳۲۲ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى. و الرحضاء:

عرق الحمى.

و هو منسوب إلى إنشاد الشّبلى، و يقال أيضا أن أبا العباس أخذ معناه فى بيته من قول بعض الصّوفيه و قيل له: «لم تصفرّ الشمس عند الغروب؟ فقال من حذر الفراق».

و من لطيف هذا الجنس قول الصّولى: [من الكامل]

الرّيح تحسدنى على ك، و لم أخلها فى العدا

لمّا هممت بقبله ردت على الوجه الرّدا

و ذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه، فواجب فى طباعها أن تردّ الرداء عليه، و أن تلفّ من طرفيه، و قد ادّعى أن ذلك منها لحسد بها و

غيره على المحبوبه، و هى من أجل ما فى نفسها تحول بينه و بين أن ينال من وجهها.

و فى هذه الطريقه قوله «۱»: [من المتقارب]

و حاربنى فيه ريب الزّمان كأنّ الزّمان له عاشق

إلّا أنه لم يضع علّه و معلولا من طريق النصّ على شـى ء، بل أثبت محاربه من الزمان فى معنى الحبيب، ثم جعل دليلا على علّتها جواز أن يكون شـريكا له فى عشـقه. و إذا حقّقنـا لم يجب لأجـل أن جعل العشق علّه للمحاربه، و جمع بين الزمان و الريـح، فى ادعاء العداوه لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص و التفصيل.

و ذاك أن الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علّه غير معقول كونها علّه لذلك الأمر. و كون العشق علّه للمعاداه فى المحبوب معقول معروف غير بـدع و لا ـ منكر. فإذا بـدأ فادّعى أن الزمان يعاديه و يحاربه فيه، فقـد أعطاك أنّ ذلك لمثل هـذه العلّه و ليس إذا ردّت الريـح الرّداء، فقـد وجب أن يكون ذلك لعلّه الحسـد أو لغيرها، لأن ردّ الرداء شأنها، فاعرفه، فإن من شأن حكم المحصّل أن لا ـ ينظر فى تلاقى المعانى و تناظرها إلى جمل الأمور، و إلى الإطلاق و العموم، بل ينبغى أن يـدقّق النظر فى ذلـك، و يراعى التناسب من طريق الخصوص و التفاصيل. فأنت فى نحو بيت ابن وهيب تـدّعى صـفه غير ثابته، و هى إذا ثبتت اقتضت مثل العلّه التى ذكرها، و فى نحو بيت الريح، تذكر صفه غير ثابته حاصله على الحقيقه، ثم تدّعى لها عله من عند نفسك

وضعا و اختراعا، فافهمه.

---

(۱) البيت لمحمد بن وهيب فى الأغانى ۱۹/ ۸۴. و قبله:

إذا ما سموت إلى وصله تعرض لى دونه عائق

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۲

و هكذا قول المتنبى «۱»: [من الطويل]

ملامى النّوى فى ظلمها غايه الظّلم لعلّ بها مثل الّذى بى من السّقم

فلو لم تغر لم تزو عنّى لقاءكم و لو لم تردكم لم تكن فيكم خصمى

الـدعوى فى إثبات الخصومه، و جعل النّوى كالشـى ء الـذى يعقل و يميّز و يريـد و يختار، و حديث الغيره و المشاركه فى هوى الحبيب، يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك إلى وضع و اختراع.

و مما يلحق بالفنّ الذى بدأت به قوله: [من الطويل]

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه و نرجسه ممّا دهى حسنه ورد

أراقت دمى عمدا محاسن وجهه

فأضحى و فى عينيه آثاره تبدو

لأنه قد أتى لحمره العين و هى عارض يعرض لها من حيث هى عين بعلّه يعلم أنها مخترعه موضوعه، فليس ثمّ إراقه دم. و أصل هذا قول ابن المعتزّ: [من المنسرح]

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثره القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت و الدّم فى النّصل شاهد عجب

و بين هذا الجنس و بين نحو: «الرّيح تحسدنى»، فرق، و ذلك أن لك هناك فعلا هو ثابت واجب فى الريح، و هو ردّ الرداء على الوجه، ثم أحببت أن تتطرّف، فادّعيت لذلك الفعل علّه من عند نفسك. و أما هاهنا فنظرت إلى صفه موجوده، فتأوّلت فيها أنها صارت إلى العين من غيرها، و ليست هى التى من شأنها أن تكون فى العين، فليس معك هنا إلا معنى واحد، و أما هناك فمعك معنيان: أحدهما موجود معلوم، و الآخر مدّعى موهوم، فاعرفه.

و ممّا يشبه هذا الفنّ الذى هو تأوّل فى الصفه فقط، من غير أن يكون معلول و علّه، ما تراه من تأوّلهم فى الأمراض و الحمّيات أنها ليست بأمراض، و لكنها فطن ثاقبه و أذهان متوقّده و عزمات، كقوله «۲»: [من الطويل]

و حوشيت أن تضرى بجسمك علّه

ألا إنّها تلك العزوم الثّواقب

---

(۱) البيتان للمتنبى فى ديوانه ص ۱۲۴.

(۲) البيت لأبى إبراهيم بن أحمد الشاشى العامرى قاله فى مرض أصاب الصاحب بن عباد. يتيمه الدهر ۳/ ۳۵۱، ۳۵۲ (شاكر) و العزوم: الناقه المسنّه و فيها بقيه شباب. و قيل: الهرمه الدّلقم التى أكلت أسنانها من الكبر، و الجمع عوازم.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۳

و قال ابن بابك: [من الوافر]

فترت و ما وجدت أبا العلاء سوى فرط التوقّد و الذّكاء

و لكشاجم، يقوله فى على بن سليمان الأخفش: [من الرمل]

و لقد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل برد فى العصب

هو ذاك الذّهن أذكى ناره و المزاج المفرط الحرّ التهب

و لا يكون قول المتنبى «۱»: [من الكامل]

و منازل الحمّى الجسوم، فقل لنا: ما عذرها فى تركها خيراتها

أعجبتها شرفا

فطال وقوفها لتأمّل الأعضاء لا لأذاتها

من هـذا فى شـى ء، بأكثر من أن كلا القولين فى ذكر الحمّى، و فى تطييب النفس عنها، فهو اشتراك فى الغرض و الجنس، فأما فى عمود المعنى و صورته الخـاصه فلاـ لأـن المتنبى لم ينكر أنه مـا يجـده الممـدوح حمّى كمـا أنكره الآخر، و لكنّه كأنه سأل نفسه: كيف اجترأت الحمّى على الممـدوح، مع جلالـته و هيبته، أم كيف جـاز أن يقصـد شـى ء إلى أذاه مع كرمه و نبله، و أن المحبّه من النفوس مقصوره عليه؟

فتحمّل لذلك جوابا، و وضع للحمّى فيما فعلته من الأذى عذرا، و هو تصريح ما اقتصر فيه على التعجّب فى قوله «٢»: [من الوافر]

أ يدرى ما أرابك من يريب و هل ترقى إلى الفلك الخطوب؟

و جسمك فوق همّه كلّ داء فقرب أقلّها منه عجيب!

إلاـ أن ذلـك الإيهام أحسن من هـذا البيان، و ذلك التعجّب موقوفا غير مجاب، أولى بالإعجاب، و ليس كل زياده تفلـح، و كل استقصاء يملح.

و من واضح هذا النوع و جيّده قول ابن المعتزّ: [من الكامل]

صدّت سرير و أزمعت هجرى و صغت ضمائرها إلى الغدر «٣»

---

(١) البيتان للمتنبى

فی دیوانه ص ۲۳۲. و الأول منهما فی شرح التبیان علی دیوان المتنبی ۱/ ۱۶۴، و یقال: حمی و حمّیه، و المعنی: یرید أن جسمک خیر الأجسام فلا عذر للحمّی فی ترکه و هو أفضل الأجسام و هی محلها الأجسام. و خیراتها: جمع خیره و هی: مؤنث خیر بمعنی: أفضل، و ضمیر خیراتها للجسوم. یقول: أعجبت الحمی لما رأت فیک من خصال الشرف و الکرم فأطالت مکثها فیک لتتأمل أعضاءک الحامله لتلک الخصال لا لأذیتها.

(۲) البیتان فی دیوانه ص ۱۱۵ من قصیده قالها فی دمّل أصاب سیف الدوله فما فی البیت: للدمّل، من: لسیف الدوله. أرابک: من الریب الشک فیما یخبئه المستقبل، و الخطوب: الحوادث.

و جسمک فوق: أی: فوق قدره المرض علی بلوغه، فعجیب أن یقترب منک أضعف الأمراض.

(۳) فی نسخ الدیوان التی بأیدینا «شریر» بالمعجمه. (رشید).

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۰۴

قالت: کبرت و شبت! قلت لها: هذا غبار وقائع الدّهر

أ لا تراه أنکر أن یکون الذی بدا به شیبا، و رأی الاعتصام بالجحد أخصر طریقا إلی نفی العیب و قطع الخصومه، و لم یسلک الطریقه العامّیه فیثبت المشیب، ثم یمنع العائب أن یعیب، و یریه الخطأ فی عیبه به، و یلزمه المناقضه فی مذهبه، کنحو ما مضی، أعنی کقول البحتری: «و بیاض البازیّ».

و هکذا إذا تأوّلوا فی الشیب أنه لیس بابیضاض الشعر الکائن فی

مجرى العاده و موضوع الخلقه، و لكنه نور العقل و الأدب قد انتشر، و بان وجهه و ظهر، كقول الطائى الكبير: [من البسيط]

و لا يروّعك إيماض القتير به فإنّ ذاك ابتسام الرّأى و الأدب

و ينبغى أن تعلم أنّ باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقه بضرب من السّحر، لا تأتى الصفه على غرابته، و لا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللّطف و الظّرف، فإنه قد بلغ حدّا يرد المعروف فى طباع الغزل، و يلهى الثّكلان من الثّكل، و ينفث فى عقد الوحشه، و ينشد ما ضلّ عنك من المسرّه، و يشهد للشّعر بما يطيل لسانه فى الفخر، و يبين جمله ما للبيان من القدره و القدر.

فمن ذلك قول ابن الرومى: [من الكلام]

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا تورّدها عليه شاهد

لم يخجل الورد المورّد لونه إلّا و ناحله الفضيله عاند

للنرجس الفضل المبين و إن أبى آب و حاد عن الطريقه حائد

فصل القضيه أنّ هذا قائد

زهر الرياض و أنّ هذا طارد

شتّان بين اثنين: هذا موعد بتسلّب الدّنيا، و هذا واعد «۱»

ينهى النديم عن القبيح بلحظه، و على المدامه و السماع مساعد

اطلب بعفوك فى الملاح سميّه أبدا، فإنك لا محاله واجد

و الورد إن فكّرت فرد فى اسمه ما فى الملاح له سميّ واحد

---

(۱) يقال تسلبت المرأه إذا لبست السلاب و هى بالكسر ثياب الحداد السود، و البيت بمعنى ما قبله، و المراد أن النرجس المفضل عنده يظهر فى أول الربيع فتتلوه الأزهار و الرياحين و الورد المفضول يظهر فى آخر الربيع فيتوعد الرياحين بسلب بهجتها حيث يذهب فى أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد و الورد كالطارد. و ابن الرومى مشهور بذم الورد و تفضيل النرجس. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۵

هذى النجوم هى التى ربّتهما بحيا السحاب كما يربّى الوالد

فانظر إلى الأخوين من أدناهما شبها بوالده، فذاك الماجد

أين الخدود من العيون نفاسه و رئاسه، لو لا القياس الفاسد

و ترتيب الصنعه فى هذه القطعه، أنه عمل أوّلا على قلب طرفى التشبيه، كما مضى فى فصل التشبيهات، فشبّه حمره الورد بحمره الخجل، ثم تناسى ذلك و خدع عنه نفسه، و حملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقه. ثم لما اطمأنّ ذلك فى قلبه و استحكمت صورته، طلب لذلك الخجل علّه، فجعل علّته أن فضّل على النرجس، و وضع فى منزله ليس يرى نفسه أهلا لها، فصار ينوب «۱» من ذلك، و يتخوّف عيب العائب، و غميزه المستهزئ. و يجد ما يجد من مدح مدحه يظهر الكذب فيها و يفرط، حتى تصير كالهزء بمن قصد بها. ثم زادته الفطنه الثاقبه و الطبع المثمر فى سحر البيان، ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس، و جهه استحقاقه الفضل على الورد، فجاء بحسن و إحسان لا تكاد تجد مثله إلّا له.

و مما هو خليق أن يوضع فى منزله هذه القطع، و يلحق بها فى لطف الصنعه، قول أبى هلال العسكرى: [من الكامل]

زعم البنفسج أنّه كعذاره حسنا، فسلّوا من قفاه لسانه

لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به، فلشدّ ما رفع البنفسج شانه «۲»

و قد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت و لطائف، و بدع و ظرائف، لا يستكثر لها الكثير من الثّناء، و لا يضيق مكانها من الفضل عن سعه الإطراء، فمن ذلک قول ابن نباته فى صفه الفرس: [من الوافر]

و أدهم يستمدّ الليل منه و تطلع بين عينيه الثّريّا

سرى خلف الصّباح يطير مشيا و يطوى خلفه الأفلاک طيّا

فلمّا خاف و شک الفوت منه تشبّث بالقوائم و المحيّا

و أحسن من هذا و أحكم صنعه قوله فى قطعه أخرى: [من الكامل]

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتصّ منه و خاض فى أحشائه

---

(۱) ينوب: يرجع إلى نفسه.

(۲) مثل به: من باب نصر أى:

نكل به.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۶

و أول القطعه «۱»:

قد جاءنا الطّرف الذى أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه «۲»

أ ولايه ولّيتنا فبعثته رمحا سبيب العرف عقد لوائه «۳»

نختال منه على أغرّ محجّل ماء الدّياجى قطره من مائه «۴»

و كأنما لطم الصّباح جبينه فاقتصّ منه و خاض فى أحشائه

متمهّلا و البرق من أسمائه، متبرقعا و الحسن من أكفائه

ما كانت النّيران يكمن حرّها لو كان للنّيران بعض ذكائه

لا تعلق الألحاظ فى أعطافه

إلّا إذا كفكفت من غلوائه

لا يكمل الطرف المحاسن كلّها حتّى يكون الطّرف من أسرائه «۵»

و مما له فى التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإبداع، مع السلامه من التكلّف، قوله «۶»: [من الطويل]

كأنّ بها من شده الجرى جنّه و قد ألبستهنّ الرّياح سلاسلا

---

(۱) القطعتان فى فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدوله جعل غرته أثر لطمه من الصباح على جبينه و تحجيله من خوض قوائمه الأربع فى أحشاء الصباح. و قد ترك المصنف البيت الأول و هو:

يا أيها الملك الذى أخلاقه من خلقه و رواؤه من رائه

أى: أخلاقه مخلوقه له و رواؤه و منظره من رأيه. و بعباره أخرى هو فى خلقه و خلقه كأنه كون نفسه و خلقها كما يرى و يحب من الكمال.

(۲) الطرف: الكريم بالكسر من الخيل و الكريم الأطراف من الآباء و الأمهات و الهادى العنق يغلو فى وصفه بالطول.

(۳) العرف: بالضم شعر رقبه الفرس الذى ينبت فى محدبها و السبيب: الخصله من الشعر شبهه على عنقه الطويل بالرايه على الرمح.

(۴) فى نسختى الكتاب (نختل) و فى نسخه من الديوان (نختال) و هى أظهر.

(۵) كنت

فى الطبعه الأولى ضبطت «الطرف» الأول من البيت بالكسر و الثانى بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لا تكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر إليه، فلا يستطيع أن يتحول عنه، و قد عكس شيخنا الضبط فى نسخه الدرس فضبط الأول بالفتح و الثانى بالكسر و لم يظهر لى جعل الجواد:

أسيرا للطرف كعكسه فتأمله (رشيد).

(۶) (رشيد) هكذا وجدنا البيت فى النسختين محرفا ناقصا و قد أتمه شيخنا فى الدرس بقوله:

و ماء على الرضراض يجرى كأنه أفاع عراها الذعر تطلب موئلا

و كتب بإزائه فى حاشيه نسخته: أتممت البيت على البيت كاملا أن يفيدنا بما وجد. و الرضراض ما دق من الحصى قال:

يبدو له الداء الخفى كما بدا للعين رضراض الغدير الصافى

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۷

و إنما ساعده التوفيق، من حيث وطّئ له من قبل الطريق، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع، فتدرّج من ذلك إلى أن جعلها سلاسل، كما فعل ابن المعتزّ فى قوله: [من الطويل]

و أنهار ماء كالسلاسل فجرّت لترضع أولاد الرياحين و الزهر

ثم أتمّ الحذق بأن جعل للماء صفه

تقتضى أن يسلسل، و قرب مأخذ ما حاول عليه، فإن شده الحركه و فرط سرعتها من صفات الجنون، كما أن التمهّل فيها و التأنّى من أوصاف العقل.

و من هذا الجنس قول ابن المعتزّ فى السيف، فى أبيات قالها فى الموفّق، و هى:

[من السريع]

و فارس أغمد فى جنّه تقطّع السيف إذا ما ورد

كأنها ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد

فى كفّه عضب إذا هزّه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزّه السيف علّه، فجعلها رعده تناله من خوف الممدوح و هيبته.

و يشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيت و علّق منه الرعده فى قوله: [من المتقارب]

فإن عجمتنى نيوب الخطوب و أوهى الزمان قوى منّتى

فما اضطرب السيف من خيفه، و لا أرعد الرمح من قرّه

إلا أنه ذهب بها فى أسلوب آخر، و قصد إلى أن يقول: إنّ كون حركات الرمح

فى ظاهر حركه المرتعد، لا يوجب أن يكون ذلك من آفه و عارض، و كأنه عكس القضيّه فأبى أن تكون صفه المرتعد فى الرمح للعلل التى لمثلها تكون فى الحيوان.

و أمّا ابن المعتزّ فحقّق كونها فى السيف على حقيقه العلّه التى لها تكون فى الحيوان، فاعرفه.

و قد أعاد هذا الارتعاد على الجمله التى وصفت لك، فقال: [من السريع]

قالوا: طواه حزنه فانحنى فقلت، و الشكّ عدوّ اليقين

ما هيف النّرجس من صبوه و لا الضنى فى صفره الياسمين

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۸

و لا ارتعاد السّيف من قرّه و لا انعطاف الرمح من فرط لين

و مما حقّه أن يكون طرازا فى هذا النوع قول البحترى: [من الخفيف]

يتعثّرن فى النّحور و فى الأو جه سكرا لمّا شربن الدماء

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثّرا منها، كما جعل ابن المعتزّ تحريكه للسيف و هزّه له ارتعادا، ثم طلب للتعثّر علّه، كما طلب هو

للارتعاد، فاعرفه.

و من هذا الباب قول علبه: [من الخفيف]

و كأن السّماء صاهرت الأر ض فصار النّثار من كافور

و قول أبى تمام: [من الطويل]

كأنّ السحاب الغرّ غيّبن تحتها حبيبا فما ترقا لهنّ مدامع

و قول السرىّ يصف الهلال: [من المنسرح]

جاءك شهر السّرور شوّال و غال شهر الصّيام مغتال

ثم قال:

كأنه قيد فضّه حرج فضّ عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء قد خدع نفسه عن التشبيه و غالطها، و أوهم أن الذى جرى العرف بأن يؤخذ منه الشّبه قد حضر و حصل بحضرتهم على الحقيقه، و لم يقتصر على دعوى حصوله حتى نصب له علّه، و أقام عليه شاهدا. فأثبت علبه زفافا بين السماء و الأرض، و جعل أبو تمام للسحاب حبيبا قد غيّب فى التراب، و ادّعى السرىّ أن الصائمين كانوا فى قيد، و أنه كان حرجا، فلما فضّ عنهم انكسر بنصفين، أو اتسع فصار على شكل الهلال. و الفرق بين بيت السرىّ و بيتى الطائيين، أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامّىّ جار على الألسن، و جعل القطر الذى ينزل من السحاب دموعا، و وصف السحاب و

السماء بأنها تبكى، كذلك، فأمّا تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلّا أنّ نظيره معتاد، و معناه من حيث الصوره موجود، و أعنى بالنظير ما مضى من تشبيه الهلال بالسّوار المنفصم، كما قال: [من الرمل]

حاكيا نصف سوار من نضار يتوقّد

و كما قال السرى نفسه: [من الوافر]

و لاح لنا الهلال كشطر طوق على لبّات زرقاء اللباس

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۰۹

إلا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سوارا أو طوقا، فاعرفه.

و رأيت بعضهم ذكر بيت السرىّ الذى هو:

كأنّه قيد فضّه حرج مع أبيات شعر جمعه إليها، أنشد قطعه ابن الحجاج «۱»: [من الكامل]

يا صاحب البيت الّذى قد مات ضيفاه جميعا

ما لى أرى فلك الرّغى ف لديك مشترفا رفيعا

كالبدر لا نرجو إلى

وقت المساء له طلوعا

ثم قال: إنّه شبّه الرغيف بالبدر، لعلّتين: إحداهما: الاستداره، و الثانيه: طلوعه مساء، قال: و خير التشبيه ما جمع معنيين، كقول ابن الرومى «٢»: [من مجزوء الرمل]

يا شبيه البدر فى الحس ن و فى بعد المنال

جد فقد تنفجر الصّ خره بالماء الزّلال

و أنشد أيضا لإبراهيم بن المهدى «٣»: [من الكامل]

و رحمت أطفالا كأفراخ القطا و حنين والهه كقوس النّازع

ثم قال: و مثله قول السّرى:

كأنه قيد فضّه حرج و هو لا يشبه ما ذكره، إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المفضوض، و لونه بالفضه، فأمّا إن قصد النكته التى هى موضع الإغراب، فلا يستقيم الجمع بينه و بين ما أنشد، لأن شيئا من تلك الأبيات لا يتضمّن تعليلا، و ليس فيها أكثر من ضمّ شبه إلى شبه، كالحنين و الانحناء من القوس، و الاستداره و الطلوع مساء من البدر، و ليس أحد المعنيين بعلّه للآخر، كيف؟ و لا حاجه بواحد من الشبهين المذكورين إلى تصحيح غيره له.

---

(١) الأبيات فى اليتيمه. الفلك من كل شى ء مستداره و معظمه، فقد يطلق بجانب الرغيف بلا تشبيه، و المشترف: فاعل من اشترف إذا انتصف.

(٢) البيت فى ديوان

ابن الرومى فى الإيضاح ص ۲۳۱ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى.

(۳) البيت لإبراهيم المهدى. و هو من قصيده يعتذر فيها للمأمون عما بدر منه، و يستعطفه. و مطلعها:

يا خير من ذملت يمانيه به بعد الرسول لآيس أو طامع

و النزعه: ج النازع، الرماه، و من أمثالهم عاد السهم إلى النزعه، أى: رجع الحق أو الأمر إلى أهله.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۰

و مما هو نظير لبيت السرىّ و على طريقه قول ابن المعتزّ «۱»: [من المتقارب]

سقانى و قد سلّ سيف الصبا ح، و الليل من خوفه قد هرب

لم يقنع هاهنا بالتشبيه الظّاهر و القول المرسل، كما اقتصر فى قوله «۲»: [من السريع]

حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب

و قوله «۳»: [من الكامل]

أمّا الظلام فحين رقّ قميصه و أتى بياض الصّبح كالسّيف الصّدى

و لكنه أحبّ أن يحقّق دعواه أنّ هناك سيفا مسلولا، و يجعل نفسه كأنها

لا تعلم أن هاهنا تشبيها، و أنّ القصد إلى لون البياض فى الشكل المستطيل، فتوصّل إلى ذلك بأن جعل الظّلام كالعدوّ المنهزم الذى سلّ السّيف فى قفاه، فهو يهرب مخافه أن يضرب به.

و مثل هذا فى أن جعل الليل يخاف الصبح، لا فى الصنعه التى أنا فى سياقها، قوله: [من الطويل]

سبقنا إليها الصّبح و هو مقنّع كمين، و قلب اللّيل منه على حذر

و قد أخذ الخالدىّ بيته الأوّل أخذا، فقال: [من المنسرح]

و الصّبح قد جرّدت صوارمه و الليل قد همّ منه بالهرب

و هذه قطعه لابن المعتزّ، بيت منها هو المقصود: [من الكامل]

و انظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغىّ تبرّجت لزناه

جاءتک زائره كعام أوّل و تلبّست و تعطّرت بنبات

و إذا تعرّى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات

و الورد يضحک من نواظر نرجس

قذيت، و آذن حيّها بممات

هذا البيت الأخير هو المراد، و ذلك أن الضحك فى الورد و كلّ ريحان و نور يتفتّح، مشهور معروف، و قد علّله فى هذا البيت، و جعل الورد كأنه يعقل و يميّز،

---

(۱) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ۶۴ فی قصيده له بعنوان «الحلو الكذاب» و مطلعها:

و حلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب

(۲) البيت فى ديوان ابن المعتز.

(۳) البيت لابن المعتز فى ديوانه ص ۳۷۹. و البيت من مقطوعه له بعنوان «حان الصباح» و مطلعها:

قم يا نديمى من منامک و اقعد حان الصباح و مقلتى لم ترقد

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۱

فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدّته و إدبار دولته، و بدوّ أمارات الفناء فيه، و أعاد هذا الضحک من الورد فقال: [من الخفيف]

ضحک الورد فى قفا المنثور و استرحنا من رعده المقرور

أراد إقبال الصيف و حرّ الهواء، أ لا تراه قال بعده:

و استطبنا المقيل فى

برد ظلّ و شممنا الرّيحان بالكافور

فالرحيل الرحيل يا عسكر الل ذّات عن كلّ روضه و غدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه به ابن الرومى فى قوله:

فصل القضيه أن هذا قائد زهر الرياض و أن هذا طارد

و قد جعله ابن المعتز لهذا الطّرد ضاحكا ضحك من استولى و ظفر و ابتزّ غيره على ولايه الزّمان و استبدّ بها.

و مما يشوب الضحك فيه شى ء من التّعليل قوله أيضا: [من الكامل]

مات الهوى منّى وضاع شبابى و قضيت من لذّاته آرابى

و إذا أردت تصابيا فى مجلس فالشّيب يضحك بى مع الأحباب

لا شكّ أن لهذا الضحك زياده معنى ليست للضحك فى نحو قول دعبل: [من الكامل] ضحك المشيب برأسه فبكى و ما تلك الزياده إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجّب من تعاطى الرجل ما لا يليق به، و تكلّفه الشى ء ليس هو من أهله، و فى ذلك ما ذكرت من إخفاء صوره التشبيه، و أخذ النفس بتناسيه، و هكذا قوله: [من

الرجز]

لمّا رأونا فى خميس يلتهب فى شارق يضحك من غير عجب

كأنّه صبّ على الأرض ذهب و قد بدت أسيافنا من القرب

حتّى تكون لمناياهم سبب نرفل فى الحديد و الأرض تجب

و حنّ شريان و نبع فاصطخب تترّسوا من القتال بالهرب

المقصود قوله: «يضحك من غير عجب»، و ذاك أنّ نفيه العلّه إشاره إلى أنه من جنس ما يعلّل، و أنّه ضحك قطعا و حقيقه. أ لا ترى أنّك لو رجعت إلى صريح التشبيه

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۲

فقلت: «هيئته فى تلألـؤه كهيئه الضاحـك»، ثم قلت: «من غير عجب»، قلت قولاـ غير مقبـول. و اعلم أنـك إن عـددت قول بعض العرب: [من الرجز]

و نثره تهزأ بالنّصال كأنّها من خلع الهلال

الهلال الحيّه

هاهنا، و اللام للجنس فی هذا القبیل، لم یکن لک ذلک.

فصل نوع آخر فی التعلیل

فصل نوع آخر فی التعلیل

و هـذا نوع آخر فی التعلیـل و هو أن یکون للمعنی من المعـانی و الفعـل من الأفعال علّه مشـهوره من طریق العادات و الطباع، ثم یجی ء الشاعر فیمنع أن تکون لتلک المعروفه، و یضع له علّه أخری. مثاله قول المتنبی: [من الرمل]

ما به قتل أعادیه و لکن یتّقی إخلاف ما ترجو الذئاب

الـذی یتعـارفه النـاس أن الرجـل إذا قتـل أعـادیه فلإرادته هلاـکهم، و أن یـدفع مضارّهم عن نفسه، و لیسـلم ملکه و یصـفو من منازعاتهم، و قد ادّعی المتنبی کما تری أن العله فی قتل هذا الممدوح لأعدائه غیر ذلک.

و اعلم أن هـذا لاـ یکون حتی یکون فی استئناف هـذه العلّه المـدّعاه فائـده شـریفه فیما یتصل بالممـدوح، أو یکون لها تأثیر فی الـذمّ، کقصـد المتنبی هاهنا فی أن یبالغ فی وصـفه بالسّـخاء و الجود، و أنّ طبیعه الکرم قد غلبت علیه، و محبّته أن یصدّق رجاء الراجین، و أن یجنّبهم الخیبه فی آمالهم، قـد بلغت به هـذا الحـدّ. فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقّع أن یتسع علیها الرزق، و یخصب لها الوقت من قتلی عداه، کره أن یخلفها، و أن یخیّب رجاءها و لا یسعفها. و فیه نوع آخر من المدح، و هو أنه یهزم العدی و یکسـرهم کسـرا لا یطمعون بعده فی المعاوده، فیسـتغنی بذلک عن قتلهم و إراقه دمائهم، و أنه لیس ممن یسـرف فی القتل طاعه للغیظ و الحنق، و لا یعفو

إذا قدر، و ما يشبه هذه الأوصاف الحميده، فاعرفه.

و من الغريب فى هذا الجنس على تعمّق فيه، قول أبى طالب المأمونى فى قصيده يمدح بها بعض الوزراء ببخارى: [من الخفيف]

مغرم بالثناء، صبّ بكسب ال مجد، يهتزّ للسّماح ارتياحا

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۳

لا يذوق الإغفاء إلّا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

و كأنه شرط الرّواح على معنى أن العفاه و الرّاجين إنّما يحضرونه فى صدر النهار على عاده السلاطين. فإذا كان الرواح و نحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الإذن قلّوا، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤيه طيفهم. و الإفراط فى التعمّق ربما أخلّ بالمعنى من حيث يراد تأكيده به، أ لا ترى أن هذا الكلام قد يوهم أنه يحتجّ له أنه ممن لا يرغب كل واحد فى أخذ عطائه، و أنه ليس فى طبقه من قيل فيه: [من الطويل]

عطاؤك زين لامرئ إن أصبته بخير، و ما كلّ العطاء يزين

و ممّا يدفع عنه الاعتراض و يوجب قلّه الاحتفال به، أن الشاعر يهمّه أبدا إثبات ممدوحه جوادا أو توّاقا إلى السّؤّال فرحا

بهم، و أن يبرّئه من عبوس البخيل و قطوب المتكلّف فى البـذل، الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال: «جواد»، و من يهوى الثّناء و الثّراء معا، و لا يتمكّن فى نفسه معنى قول أبى تمام: [من الطويل]

و لم يجتمع شرق و غرب لقاصد و لا المجد فى كفّ امرئ و الدراهم

فهو يسرع إلى استماع المدائح، و يبطئ عن صله المادح. نعم، فإذا سلّم للشاعر هذا الغرض، لم يفكر فى خطرات الظنون.

و قد يجوز شى ء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبى: [من البسيط]

يعطى المبشّر بالقصّاد قبلهم كمن يبشّره بالماء عطشانا

و هذا شى ء عرض، و لاستقصائه موضع آخر، إن وفّق اللّه.

و أصل بيت «الطيف المستميح»، من نحو قوله: [من الطويل]

و إنّى لأستغشى و ما بى نعسه لعل خيالا منك يلقى خياليا

و هـذا الأصـل غير بعيـد أن يكون أيضا من باب ما اسـتؤنف له علّه غير معروفه، إلّا أنه لا يبلغ فى القوه ذلك المبلغ فى الغرابه و البعـد من العاده، و ذلك أنه قـد يتصوّر أن يريـد المغرم المتيم، إذا بعد عهده بحبيبه، أن يراه فى المنام، و إذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصّه، فاعرفه.

و مما يلحق بهذا الفصل قوله «١»: [من الكامل]

رحل العزاء برحلتى فكأننى أتبعته الأنفاس للتشييع

---

(١) البيت للمتنبى فى ديوانه ص ٨٣. و فى الإيضاح تحقيق د. عبـد الحميد هنداوى ص ٣٢۴، و فى التبيان ١/ ۴٣۶ و فيه «كما لا ترجع إلى أنفاسى لا يرجع إلى صبرى فمعناه ارتحل الصبر عنى بارتحالكم».

و ذلك أنه علّل تصـعّد الأنفاس من صدره بهذه العله الغريبه، و ترك ما هو المعلوم المشهور من السبب و العله فيه، و هو التحسّر و التـأسّف. و المعنى: رحـل عنّى العزاء بارتحـالى عنكم، أى: عنـده و معه أو به و بسـببه، فكـأنه لمـا كان محلّ الصبر الصّـدر، و كانت الأنفاس تتصـعّد منه أيضا، صار العزاء و تنفّس الصّـعداء كأنهما نزيلان و رفيقان، فلما رحل ذاك، كان حقّ هذا أن يشيّعه قضاء لحق الصّحبه.

و مما يلاحظ هذا النوع، يجرى فى مسلكه و ينتظم فى سلكه، قول ابن المعتز «١»:

[من المنسرح]

عاقبت عينى بالدّمع و السّهر إذ غار قلبى عليك من بصرى

و احتملت ذاك و هى رابحه فيك، و فازت بلذّه النّظر

و

ذاک أن العاده فی دمع العین و سهرها أن یکون السبب فیه إعراض الحبیب، أو اعتراض الرقیب، و نحو ذلک من الأسباب الموجبه للاکتئاب. و قد ترک ذلک کله کما تری، و ادّعی أن العله ما ذکره من غیره القلب منها علی الحبیب و إیثاره أن یتفرّد برؤیته، و أنه بطاعه القلب و امتثال رسمه، رام للعین عقوبه، فجعل ذاک أن أبکاها، و منعها النوم و حماها.

و له أیضا فی عقوبه العین بالدّمع و السهر، من قصیده أوّلها «۲»: [من الخفیف]

قل لأحلی العباد شکلا و قدّا أ بجدّ ذا الهجر أم لیس جدّا

ما بذا کانت المنی حدّثتنی لهف نفسی أراک قد خنت ودّا

ما تری فی متیّم بک صبّ خاضع لا یری من الذلّ بدّا

إن زنت عینه بغیرک فاضرب ها بطول السهاد و الدّمع حدّا

قد جعل البکاء و السهاد عقوبه علی ذنب أثبته للعین، کما فعل فی البیت الأول، إلا أنّ صوره الذنب هاهنا غیر صورته هناک. فالذنب هاهنا نظرها إلی غیر الحبیب، و استجازتها من ذلک ما

هو محرّم محظور و الذنب هناك نظرها إلى الحبيب

---

(۱) البيت ليس فى ديوان الشاعر.

(۲) الشّـكل بالكسـر: غنـج المرأه و غزلهـا و حسن دلّها أى: تـدللها على زوجها، و ذلك أن تريه جراءه عليه فى تغنّج و تشـكل كأنهـا تخـالفه و ليس بهـا خلاف، و قال ابن الأثير: دلها حسن هيئتها و حـديثها. و كل هـذا يتحمله المعنى راجع لسان العرب ۲/ ۱۴۱۳، ۴/ ۲۳۱۲. و قال أبو فهر: «هو فى ديوانه» و لم أجده.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۵

نفسـه، و مزاحمتهـا القلب فى رؤيته، و غيره القلب من العين سـبب العقـوبه هنـاك، فأمّـا هاهنـا فـالغيره كـائنه بين الحـبيب و بين شخص آخر، فاعرفه.

و لا ـ شـبهه فى قصور الـبيت الثـانى عن الأـول، و أنّ للأـوّل عليه فضـلا كبيرا، و ذلـك بـأن جعـل بعضه يغـار من بعض، و جعل الخصومه فى الحبيب بين عينيه و قلبه، و هو تمـام الظّرف و اللطف. فأمّـا الغيره فى البيت الآخر، فعلى ما يكون أبـدا. هـذا، و لفظ «زنت»، و إن كان ما يتلوها من أحكام الصنعه يحسّنها، و ورودها فى الخبر «العين تزنى»، و يؤنس بها، فليست تدع ما هو حكمها من إدخال نفره على النفس.

و إن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعه فى أعجب صوره و أظرفها، فانظر إلى قول القائل «۱»: [من المتقارب]

أتتنى تؤنّبنى بالبكا فأهلا بها

و بتأنيبها

تقول، فى قولها حشمه: أ تبكى بعين ترانى بها؟

فقلت: إذا استحسنت غيركم أمرت الدّموع بتأديبها

أعطاك بلفظه التأديب، حسن أدب اللبيب، فى صيانه اللّفظ عما يحوج إلى الاعتذار، و يؤدّى إلى النّفار، إلا أن الأستاذيه بعد ظاهره فى بيت ابن المعتز. و ليس كل فضيله تبدو مع البديهه، بل بعقب النّظر و الرويّه، و بأن يفكّر فى أول الحديث و آخره. و أنت تعلم أنه لا يكون أبلغ فى الذى أراد من تعظيم شأن الذنب، من ذكر الحدّ، و أنّ ذلك لا يتمّ له إلّا بلفظه «زنت»، و من هذه الجهه يلحق الضّيم كثيرا من شأنه و طريقه طريق أبى تمام، و لم يكن من المطبوعين.

و موضع البسط فى ذلك غير هذا، فغرضى الآن أن أريك أنواعا من التخييل، و أضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد بعد من التفصيل و التبيين.

---

(١) فى البيت الثانى الواو ساقطه و الصواب «تقول و فى» و ذكر أبو فهر أن الأبيات فى معاهد التنصيص:

٣٧٦، و لبعضهم بلا نسبه. و فى روايه و قالت بدل تقول، و فى روايه أخرى:

أما تستحى يا قليل الوفاء أ تبكى بعين ترانى بها

و تنسب الأبيات فى «أزهار الرياض»

لابن العربى، و لكنها أقدم منه، و ذلك لأنها من شواهد عبد القاهر، و أبى هلال، و هما قبله، و ينسبها شارح شواهد الإيضاح لابن المعتز، راجع نفح الطيب.

فصل فى تخييل بغير تعليل

فصل فى تخييل بغير تعليل

و هذا نوع آخر من التخييل، و هو يرجع إلى ما مضى من تناسى التّشبيه و صرف النفس عن توهّمه، إلا أنّ ما مضى معلّل، و هذا غير معلّل.

بيان ذلك أنهم يستعيرون الصّفه المحسوسه من صفات الأشخاص للأوصاف المعقوله، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفه بعينها، و أدركوها بأعينهم على حقيقتها، و كأنّ حديث الاستعاره و القياس لم يجر منهم على بال، و لم يروه و لا طيف خيال.

و مثاله استعارتهم «العلوّ» لزياده الرجل على غيره فى الفضل و القدر و السلطان، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علوا من طريق المكان. أ لا ترى إلى قول أبى تمام «۱»:

[من المتقارب]

و يصعد حتّى يظنّ الجهول بأنّ له حاجه فى السماء

فلو لا قصده أن ينسى الشبيه و يرفعه بجهده، و يصمّم على إنكاره و جحده، فيجعله صاعدا فى السماء من حيث المسافه المكانيه، لما كان لهذا الكلام وجه.

و من أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى «۲»: [من الخفيف]

أعلم الناس بالنجوم بنو نو

بخت علما لم يأتهم بالحساب

بل بأن شاهدوا السّماء سموّا بترقّ فى المكرمات الصّعاب

مبلغ لم يكن ليبلغه الطا لب إلّا بتلكم الأسباب

---

(۱) البيت لأبى تمام، و فى الديوان روايه أخرى ص ۳۳۵:

و يصعد حتى يظنّ الجهول أن له منزلا فى السماء

و أورده بدر الدين بن مالك فى المصباح ص ۱۳۸ و عزاه لأبى تمام، و الرازى فى نهايه الإيجاز ص ۲۵۲، و محمد بن على الجرجانى فى الإشارات ص ۲۲۵، و القزوينى فى الإيضاح ص ۴۳۴.

و راجع مفتاح العلوم بتحقيقنا ص ۴۹۴.

(۲) فى البيت الثانى خطأ «بل بأن شاهدوا السما سمرا» و صوابه «بل بأن شاهدوا السماء سموا» أورده بدر الدين بن مالك فى المصباح ص ۱۳۹ و عزاه لابن الرومى. و آل نوبخت أسره اشتغلت بعلم الفلك و النجوم فى العصر العباسى.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۷

و أعاده فى موضع آخر، فزاد الدعوى قوّه، و مرّ فيها مرور من يقول صدقا و يذكر حقّا «۱»:

[من المنسرح]

يا آل نوبخت لا عدمتكم و لا تبدّلت بعدكم بدلا

إن صحّ علم النجوم، كان لكم حقّا، إذا ما سواكم انتحلا

كم عالم فيكم و ليس بأن قاس، و لكن بأن رقى فعلا

أعلاكم فى السماء مجدكم فلستم تجهلون ما جهلا

شافهتم البدر بالسّؤال عن ال أمر إلى أن بلغتم زحلا

و هكذا الحكم إذا استعاروا اسم الشى ء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد، فإنهم يبلغون به هذا الحدّ، و يصوغون الكلام صياغات تقضى بأن لا تشبيه هناك و لا استعاره، مثاله قوله «۲»: [من الكامل]

قامت تظلّلنى من الشمس نفس أعزّ علىّ من نفسى

قامت تظلّلنى و من

عجب شمس تظلّلنى من الشّمس

فلو لا أنه أنسى نفسه أن هاهنا استعاره و مجازا من القول، و عمل على دعوى شمس على الحقيقه، لما كان لهذا التعجّب معنى، فليس ببدع و لا منكر أن يظلّل إنسان حسن الوجه إنسانا و يقيه و هجا بشخصه.

و هكذا قول البحترى «٣»: [من الطويل]

طلعت لهم وقت الشّروق فعاينوا سنا الشّمس من أفق و وجهك من أفق

و ما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقا، من الغرب و الشّرق

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجّب لرؤيه ما لم يروه قط، و لم تجر العاده به. و لم يتمّ للتعجّب معناه الذى عناه، و لا تظهر صورته على وصفها الخاصّ، حتى يجترئ على الدّعوى جرأه من لا يتوقف و لا يخشى إنكار منكر، و لا يحفل بتكذيب الظاهر له، و يسوم النفس، شاءت أم أبت، تصوّر شمس ثانيه طلعت من

---

(١) أورده القزوينى فى الإيضاح ص ٤٣٤ و عزاه لابن الرومى، و محمد بن على الجرجانى فى الإشارات، و راجع مفتاح العلوم بتحقيقنا ص ٤٩٥.

(٢) قال عنها أبو فهر: «هما لابن العميد فى يتيمه الدهر ٣/ ١٦ مع اختلاف فى اللفظ، و هى أربعه أبيات فى معاهد التنصيص ص ٢٣١» راجع الإشارات ص ٢١٠، و نهايه الإيجاز ص ٢٥٢،

و الإيضاح للقزوينى ص ۴۱۵، و التبيان ۱/ ۲۹۸ بتحقيقنا.

(۳) راجع ديوان البحترى، «ضياؤهما بالياء المثناه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۱۸

حيث تغرب الشمس، فالتقتا وفقا، و صار غرب تلك القديمه لهذه المتجدده شرقا.

و مدار هذا النوع فى الغالب على التعجّب، و هو والى أمره، و صانع سحره، و صاحب سرّه، و تراه أبدا و قد أفضى بك إلى خلابه لم تكن عندك، و برز لك فى صوره ما حسبتها تظهر لك، أ لا ترى أن صوره قوله: «شمس تظللنى من الشمس»، غير صوره قوله: «و ما عاينوا شمسين»، و إن اتّفق الشعران فى أنهما يتعجّبان من وجود الشى ء على خلاف ما يعقل و يعرف.

و هكذا قول المتنبى «۱»: [من الكامل]

كبرت حول ديارهم لمّا بدت منها الشّموس و ليس فيها المشرق

له صوره غير صوره الأوّلين و كذا قوله «۲»: [من الطويل]

و لم أر قبلى من مشى البدر نحوه و لا رجلا قامت تعانقه الأسد

يعرض صوره غير تلك الصّور كلها، و الاشتراك بينها عامّىّ لا يدخل فى السّرقه، إذ لا اتّفاق بأكثر من أن أثبت الشى ء فى جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس. فأمّا إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف،

فلا- اتفـاق و لا تناسب، لأن مكان الأعجوبه مرّه أن تظلل شـمس من الشـمس، و أخرى أن يرى للشـمس مثل لا يطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق، و ثالثه أن ترى الشموس طالعه من ديارهم.

و على هذا الحد قوله: «و لم أر قبلى من مشى البدر نحوه»، العجب من أن يمشى البدر إلى آدمىّ، و تعانق الأسد رجلا.

و اعلم أن فى هـذا النوع مـذهبا هو كأنه عكس مذهب التعجب و نقيضه، و هو لطيف جدّا. و ذلك أن ينظر إلى خاصـيّه و معنى دقيق يكون فى المشبّه به، ثم يثبت تلك الخاصيّه و ذلك المعنى للمشبّه، و يتوصّل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج

---

(١) البيت للمتنبى. انظر ديوانه ١/ ٧٢.

(٢) البيت للمتنبى. انظر ديوانه ١/ ٢۴۴، و فى الديوان «البحر» بدل «البدر» و البيت مزدوج القصد فيصح مدحا للممدوح، و يصـح مدحا من الشاعر لنفسه. راجع البيتين فى الإيضاح بتحقيقنا ص ٢٧١.

من البين، و زال عن الوهم و العين أحسن توصّـل و ألطفه، و يقـام منه شـبه الحجّه على أن لا- تشبيه و لا- مجاز، و مثال قوله «١»: [من المنسرح]

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرّ أزراره على القمر

قد عمد، كما ترى، إلى شى ء هو خاصيه فى طبيعه القمر، و أمر غريب من تأثيره، ثم جعل

یرى أن قوما أنكروا بلى الكتّان بسرعه، و أنه قد أخذ ینهاهم عن التعجّب من ذلك و یقول: «أما ترونه قد زرّ أزراره على القمر، و القمر من شأنه أن یسرع بلى الكتان»، و غرضه بهذا كله أن یعلم أن لا شكّ و لا مریه فی أن المعامله مع القمر نفسه، و أن الحدیث عنه بعینه، و لیس فی البین شی ء غیره، و أن التشبیه قد نسی و أنسی، و صار كما یقول الشیخ أبو علیّ فیما یتعلق به الظرف: «إنّه شریعه منسوخه».

و هذا موضع فی غایه اللّطف، لا یبین إلا إذا كان المتصفّح للكلام حسّاسا، یعرف وحی طبع الشعر، و خفیّ حركته التی هی كالخلس، و كمسرى النّفس فی النّفس.

و إن أردت أن تظهر لك صحّه عزیمتهم فی هذا النحو على إخفاء التشبیه و محو صورته من الوهم، فأبرز صفه التّشبیه، و اكشف عن وجهه، و قل: «لا تعجبوا من بلى غلالته، فقد زرّ أزراره على من حسنه حسن القمر»، ثم انظر هل ترى إلّا كلاما فاترا و معنى نازلا، و اخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأریحیّه؟ و انظر فی أعین السامعین هل ترى ما كنت تراه من ترجمه عن المسرّه، و دلاله على الإعجاب؟ و من أین ذلك و أنّى و أنت بإظهار التشبیه تبطل على نفسك ما له وضع البیت من الاحتجاج على وجوب البلى فی الغلاله، و المنع من العجب فیه بتقریر الدّلاله؟

و قد قال آخر فی هذا المعنى بعینه، إلّا أن لفظه لا ینبئ عن القوه التی لهذا البیت فی دعوى القمر، و هو قوله: [من البسیط]

ترى

الثّياب من الكتّان يلمحها نور من البدر أحيانا فيبليها

فكيف تنكر أن تبلى معاجرها، و البدر فى كل وقت طالع فيها «٢»

---

(١) قال أبو فهر معلقا عليه: «نسبه صاحب معاهد التنصيص ص ٢٣٧ لأبى حسن بن طباطبا العلوى أحد ثلاثه أبيات» و الغلاله: الثوب الذى يلبس تحت الثياب، و غلّل الغلاله: لبسها تحت ثيابه.

راجع لسان العرب ٥/ ٣٢٨٧، و نهايه الإيجاز ص ٢٥٣، و المصباح ص ١٢٩.

(٢) قال أبو فهر معلقا عليه: «هو فى يتيمه الدهر ١/ ٧٤ لأبى المطاع ذى القرنين بن ناصر الدوله الحمدانى، و المعاجر جمع معجر و هو ثوب تلفه المرأه على رأسها من غير إداره تحت الحنك ثم تجلبب فوقه بجلبابها». راجع لسان العرب ٤/ ٢٨١٧، و المصباح ١٢٩، و الإشارات للجرجانى ص ٢١٠.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٢٠

و مما ينظر إلى قوله: «قد زرّ أزراره على القمر»، فى أنه بلغ بدعواه فى المجاز حقيقه، مبلغ الاحتجاج به كما يحتجّ بالحقيقه، قول العبّاس بن الأحنف «١»: [من المتقارب]

هى الشّمس مسكنها فى السماء فعزّ الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصّعود و لن تستطيع إليک النزولا

صوره هـذا الکلام و نصـبته و القالب الذی فيه أفرغ، يقتضـی أن التشبيه لم يجر فی خلده، و أنه معه کما يقال: «لست منه و ليس منّی»، و أن الأمر فی ذلک قد بلغ مبلغا لا حاجه معه إلی إقامه دليل و تصحيح دعوی، بل هو فی الصّحّه و الصدق بحيث تصحّح به دعوی ثابته. أ لا تراه کأنه يقول للنفس: «ما وجه الطمع فی الوصول و قـد علمت أن حديثک مع الشـمس، و مسـکن الشـمس السـماء؟» أ فلاـ تراه قـد جعـل کونها الشّـمس حجّه له علی نفسه، يصـرفها بها عن أن ترجو الوصول إليها، و يلجئها إلی العزاء، و ردّها فی ذلک إلی ما لا تشکّ فيه، و هو مسـتقرّ ثابت، کما تقول: «أو ما علمت ذلک؟» و «أ ليس قـد علمت؟»، و يبيّن لک هذا التفسير و التقرير فضل بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر «۲»: [من الطويل]

فقلت لأصحابی: هی الشمس ضوؤها قريب، و لکن فی تناولها بعد

و تتأمّل أمر التشبيه فيه، فإنک تجده علی خلاف ما وصفت لک. و ذلک أنه فی قوله: «فقلت لأصحابی هی الشمس»، غير قاصد أن يجعـل کونهـا الشـمس حجّه علی ما ذکر بعـد، من قرب شخصـها و مثالها فی العين، مع بعـد منالها بل قال: «هی الشـمس»، و هکذا قولا مرسلا يومئ فيه بل يفصح بالتشبيه، و لم

يرد أن يقول: «لا تعجبوا أن تقرب و تبعد بعد أن علمتم أنها الشمس»، حتى كأنه يقول: «ما وجه شكّكم فى ذلك؟»، و لم يشكّ عاقل فى أن الشـمس كذلك، كما أراد العباس أن يقول: كيف الطمع فى الوصول إليها مع علمك بأنها الشـمس، و أن الشمس مسكنها السماء. فبيت ابن أبى عيينه فى أن لم ينصرف عن التشبيه جمله، و لم يبرز فى

---

(۱) البيتان للعباس بن الأحنف. راجع ديوانه ص ۲۲۱، و المصباح ص ۱۳۹، و الإيضاح بتحقيقنا ص ۲۷۱، و الإشارات للجرجانى ص ۲۲۴.

(۲) البيت لمحمد بن أبى عيينه بن المهلب بن أبى صفره، و البيت من أبيات له فى الأغانى ۲۰/ ۱۰۵، فى ترجمته و قبله:

كوجدى غداه البين عند التفاتها و قد شف عنها دون أترابها البرد

صوره الجاحد له و المتبرّئ منه، كبيت بشار الذى صرّح فيه بالتشبيه، و هو «۱»: [من الخفيف]

أو كبدر السّماء، غير قريب حين يوفى، و الضوء فيه اقتراب

و كبيت المتنبى «۲»: [من البسيط]

كأنّها الشمس يعيى كفّ قابضه شعاعها

و يراه الطّرف مقتربا

فإن قلت: فهذا من قولك يؤدّى إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس، بيان حال المرأه فى القرب من وجه، و البعد من وجه آخر، دون المبالغه فى وصفها بالحسن و إشراق الوجه. و هو خلاف المعتاد، لأن الذى يسبق إلى القلوب، أن يقصد من نحو قولنا: «هى كالشمس أو هى شمس»، الجمال و الحسن و البهاء.

فالجواب: إنّ الأمر و إن كان على ما قلت، فإنه فى نحو هذه الأحوال التى قصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن، يصير كالشىء الذى يعقل من طريق العرف، و على سبيل التّبع، فأما أن يكون الغرض الذى له وضع الكلام، فلا.

و إذا تأمّلت قوله: «فقلت لأصحابى هى الشمس ضوؤها قريب»، و قول بشار:

«أو كبدر السماء»، و قول المتنبى: «كأنها الشّمس»، علمت أنهم جعلوا جلّ غرضهم أن يصيبوا لها شبها فى كونها قريبه بعيده. فأما حديث الحسن، فدخل فى القصد على الحدّ الذى مضى فى قوله، و هو للعباس أيضا «۳»: [من الرمل]

نعمه كالشّمس لمّا طلعت بثّت الإشراق فى كلّ بلد

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعم كالشمس فى الضّياء و الإشراق، و لكن عمّت كما تعمّ الشمس بإشراقها كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم على أن يجعلوا المرأه كالشمس و البدر فى الحسن و نور الوجه، بل أمّوا نحو المعنى الآخر، ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشّم. و إذا كان الأمر كذلك، فلم يقل إن

---

(۱) البيت فى الديوان.

(۲) البيت فى ديوان المتنبى ۱/

۱۴۱، یعیی: یعجز، ضمیر قابضه للشعاع، الطرف. النظر، الشعاع:

فاعل یعیی و ضمیره مضاف إلیه. و البیت من قصیده مطلعها:

دمع جری فقضی فی الربع ما وجبا لأهله و شفی أنّی و لا کربا

(۳) علق علیه أبو فهر قائلا: هو فی زیادات دیوان العباس بن الأحنف، و هو فی الوساطه ص ۲۰۱ منسوبا إلیه، و فی المخطوطه و مطبوعه ریتر: «ثبت الإشراق، و فی مطبوعه رشید رضا و الوساطه ما أثبت».

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۲۲

النعمه إنما عمّت لأنها شمس، و لکن أراک لعمومها و شمولها قیاسا، و تحرّی أن یکون ذلک القیاس من شی ء شریف له بالنعمه شبه من جهه أوصافه الخاصّه، فاختار الشمس. و کذلک لم یرد ابن أبی عیینه أن یقول إنها إنما دنت و نأت لأنها شمس، أو لأنها الشمس، بل قاس أمرها فی ذلک کما عرّفتک.

و أمّا العبّاس فإنه قال: إنها إنما کانت بحیث لا تنال، و وجب الیأس من الوصول إلیها، لأجل أنها الشمس، فاعرفه فرقا واضحا.

و مما هو علی طریقه بیت العبّاس فی الاحتجاج، و إن خالفه فیما أذکره لک، قول الصابئ فی بعض الوزراء یهنّئه بالتخلّص من الاستتار «۱»: [من الخفیف]

صحّ أنّ الوزیر بدر منیر إذ تواری کما تواری

البدور

غاب، لا غاب، ثمّ عاد كما كا ن على الأفق طالعا يستنير

لا تسلنى عن الوزير فقد بيّ نت بالوصف أنه سابور

لا خلا منه صدر دست، إذا ما قرّ فيه تقرّ منه الصدور

فهو كما نراه يحتجّ أن لا- مجاز فى البين، و أنّ ذكر البدر و تسميه الممدوح به حقيقه، و احتجاجه صريح لقوله: «صح» أنه كذلك. و أما احتجاج العبّاس و صاحبه فى قوله: «قد زرّ أزراره على القمر»، فعلى طريق الفحوى. فهذا وجه الموافقه، و أما وجه المخالفه، فهو أنّهما ادّعيا الشّمس و القمر بأنفسهما، و ادّعى الصابئ بدرا، لا البدر على الإطلاق.

و من ادّعاه الشمس على الإطلاق قول بشّار «۲»: [من الوافر]

بعثت بذكرها شعرى و قدّمت الهوى شركا

فلمّا شاقها قولى و شبّ الحبّ فاحتنكا

أتتنى الشمس زائره

و لم تک تبرح الفلکا

وجدت العيش فی سعدی و کان العيش قد هلکا

فقوله: «و لم تک تبرح الفلکا»، يريک أنه ادّعی الشمس نفسها.

و قال أشجع يرثی الرشيد، فبدأ بالتعريف، ثم نکّر فخلط إحدی الطريقتين بالأخری، و ذلک قوله: [من الرمل]

---

(۱) علق عليه أبو فهر قائلا: «الوزير هو أبو نصر سابور بن أردشير، انظر اليتيمه ۳/ ۱۰۹- ۱۱۶، و لم أقف علی أبيات الصابئ».

(۲) راجع الإشارات للجرجانی ص ۲۲۴، و الإيضاح للقزوينی ص ۴۳۵.

غربت بالمشرق الشم س فقل للعين تدمع

ما رأينا قطّ شمسا غربت من حيث تطلع «۱»

فقوله: «غربت بالمشرق الشمس» علی حدّ قول بشار: «أتتنی الشمس زائره»، فی أنه خيّل إليک شمس السماء. و قوله بعد: «ما رأينا قطّ شمسا»، يفتّر أمر هذا التخييل، و يميل بک إلی أن تکون الشمس فی قوله: «غربت بالمشرق الشمس»، غير شمس السماء، أعنی غير مدّعی أنها هی، و ذلک مما يضطرب

عليه المعنى و يقلق، لأنه إذا لم يدّع الشمس نفسها، لم يجب أن تكون جهه خراسان مشرقا لها، و إذا لم يجب ذلك، لم يحصل ما أراده من الغرابه فى غروبها من حيث تطلع. و أظنّ الوجه فيه أن يتأوّل تنكيره للشمس فى الثانى على قولهم: «خرجنا فى شمس حارّه»، يريدون فى يوم كان للشمس فيه حراره و فضل توقّد، فيصير كأنه قال:

«ما عهدنا يوما غربت فيه الشمس من حيث تطلع، و هوت فى جانب المشرق».

و كثيرا ما يتفق فى كلام الناس ما يوهم ضربا من التنكير فى الشمس كقولهم:

«شمس صيفيه»، و كقوله «٢»: [من البسيط] و اللّه لا ـ طلعت شمس و لا ـ غربت و لا ـ فرق بين هذا و بين قول المتنبى «٣»: [من السريع]

لم ير قرن الشّمس فى شرقه فشكّت الأنفس فى غربه

و يجى ء التنكير فى القمر و الهلال على هذا الحدّ، فمنه قول بشّار «۴»: [من المديد]

أملى لا تأت فى قمر بحديث و اتّق الدّرعا

و توقّ الطيب ليلتنا إنّه واش إذا سطعا

---

(١) البيتان لأبى الوليد أشجع بن عمرو السلمى يرثى هارون الرشيد. راجع ترجمه الشاعر و أخباره مع الرشيد فى الأغانى ١٨/ ٢۵٧ و ما قبلها، و يكنيه أبو

فهر أبا الشيص و لم أتحقق من هذه الكنيه، و أبو الشيص لقب شاعر آخر معاصر لبشار. راجع الأغانى ۱۶/ ۴۳۲.

(۲) لم أهتد إليه.

(۳) البيت لأبى الطيب المتنبى فى ديوانه ۲/ ۳۲۵ بشرح مصطفى سبيتى، و قرن الشمس أول إشراقها، و المعنى أن من يرى شروق الشمس يتبادر إلى ذهنه غروبها يقينا.

(۴) الدّرع ك (صرد) ثلاث ليال قيل: إنها الليالى البيض، و قيل: الثلاث اللاتى بعدها و الواحده درعه على القياس مثل ظلم، و قال البعض: الواحده درعاء على غير القياس. راجع لسان العرب ۲/ ۱۳۶۲.

فهذا بمعنى: لا تأت فى وقت قد طلع فيه القمر. و هذا قول عمر بن أبى ربيعه «۱»: [من الطويل]

و غاب قمير كنت أرجو غيوبه و روّح رعيان و نوّم سمّر

ظاهره يوهم أنه كقولك: «جاءنى رجل»، و ليس كذلك فى الحقيقه، لأن الاسم لا يكون نكره حتى يعمّ شيئين و أكثر، و ليس هنا شيئان يعمّهما اسم القمر.

و هكذا قول أبى العتاهيه: [من الوافر]

تسرّ إذا نظرت إلى هلال و نقصك إذ نظرت إلى الهلال

ليس المنكّر غير المعرّف، على أنّ للهلال فى هذا التنكير فضل تمكّن ليس للقمر، أ لا تراه

قد جمع فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّهِ قُلْ هِيَ [البقره:

۱۸۹]، و لم يجمع القمر على هذا الحدّ.

و من لطيف هذا التنكير قول البحترى: [من الطويل]

و بدرين أنضيناهما بعد ثالث أكلناه بالإيجاف حتى تمحّقا

و مما أتى مستكرها نابيا يتظلم منه المعنى و ينكره، قول أبى تمام: [من الطويل]

قريب النّدى نائى المحلّ كأنّه هلال قريب النّور ناء منازله

سبب الاستكراه، و أنّ المعنى ينبو عنه: أنه يوهم بظاهره أنّ هاهنا أهلّه ليس لها هذا الحكم، أعنى أنه ينأى مكانه و يدنو نوره. و ذلك محال فالذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرّفا على حدّه فى بيت البحترى «۲»: [من الكامل]

كالبدر أفرط فى العلوّ و ضوؤه للعصبه السّارين جدّ قريب

فإن قلت: أقطع و أستأنف فأقول: «كأن هلال» و أسكت، ثم أبتدئ و آخذ فى

---

(۱) البيت من قصيده مشهوره أنشدها عمر بن أبى ربيعه لعبد اللّه بن عباس فى المسجد الحرام فحفظها، و روّح رعيان: عادوا إلى بيوتهم فى المراح، نوّم: نام و التشديد للمبالغه. راجع الأغانى ۱/ ۸۱، ۹۳.

(۲) قبله:

دان على أيدى العفاه و شاسع

عن كل ندّ فى الندى و ضريب

راجع شرح عقود الجمان ۲/ ۶، و الإشارات و التنبيهات للجرجانى ص ۱۷۲، و الإيضاح بتحقيقى ص ۲۰۳.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۲۵

الحديث عن شأن الهلال بقولى: «قريب النور نـاء منازله» أمكنك، و لكنك تعلم ما يشكوه إليه المعنى من نبوّ اللفظ به و سوء ملاءمه العباره. و استقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض، و حقه أنه يفرد له فصل.

و أعود إلى حديث المجاز و إخفائه، و دعوى الحقيقه و حمل النفس على تخيّلها.

فممّا يدخل فى هذا الفنّ و يجب أن يوازن بينه و بين ما مضى، قول سعيد بن حميد: [من الخفيف]

وعد البدر بالزياره ليلا فإذا ما وفى قضيت نذورى

قلت: يا سيّدى، و لم تؤثر اللى ل على بهجه النهار المنير

قال لى: لا أحبّ تغيير رسمى هكذا الرّسم فى طلوع البدور

قالوا: و له فى ضدّه: [من الخفيف]

قلت زورى، فأرسلت

أنا آتيک سحره

قلت: فالليل كان أخ فى و أدنى مسرّه

فأجابت بحجّه زادت القلب حسره

أنا شمس، و إنما تطلع الشّمس بكره

و ينبغى أن تعلم أنّ هـذه القطعه ضـدّ الأولى، من حيث اختار النهار وقتا للزياره فى تلك، و الليل فى هذه، فأمّا من حيث يختلف جوهر الشعر و يتّفق، و خصوصا من حيث ننظر الآن، فمثل و شبيه، و ليس بضدّ و لا نقيض.

ثم اعلم أنّا إن وازنّا بين هاتين القطعتين و بين ما تقدّم من بيت العباس: [من المتقارب] هى الشـمس مسكنها فى السماء «۱» و ما هو فى صورته، وجـدنا همـا أمرا بين أمرين: بين ادّعـاء البـدر و الشـمس أنفسـهما، و بين إثبـات بـدر ثان و شـمس ثانيه، و رأينا الشـاعر قـد شـاب فى ذلـك الإنكار بالاعتراف، و صادفت صوره المجاز تعرض عنك مرّه، و تعرض لك أخرى. فقوله: «البـدر» بـالتعريف مع قوله: «لاـ أحبّ تغيير رسـمى»، و تركه أن يقول: «رسم مثلى»، يخيّـل إليك البـدر نفسه. و قوله: «فى طلوع البـدور» بالجمع دون أن يفرد فيقول: «هكذا

---

(۱) سبق تخريجه ص ۲۲۰.

الرسم فى طلوع البدور» يلتفت بك إلى بدر ثان، و يعطيك الاعتراف بالمجاز على وجه. و هكذا القول فى القطعه الثانيه لأنّ قوله: «أنا شمس» بالتنكير، اعتراف بشمس ثانيه أو كالاعتراف.

و مما يدلّ دلاله واضحه على دعوى الحقيقه، و لا يستقيم إلا عليها قول المتنبى «۱»: [من الكامل]

و استقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معا

أراد: فأرتنى الشمس و القمر، ثم غلّب اسم القمر كقول الفرزدق «۲»: [من الطويل]

أخذنا بآفاق السّماء عليكم لنا قمراها و النّجوم الطوالع

لو لا- أنه يخيّل الشمس نفسها، لم يكن لتغليب اسم القمر و التعريف بالألف و اللام معنى. و كذلك لو لا ضبطه نفسه حتى لا يجرى المجاز و التشبيه فى وهمه، لكان قوله: «فى وقت معا»، لغوا من القول، فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غاده حسناء فى وقت طلوع القمر و توسّطه السماء، هذا أظهر من أن يخفى.

و أمّا تشبيه أبى الفتح لهذا البيت بقول القائل «۳»: [من الكامل]

و إذا الغزاله فى السماء ترفّعت و بدا النهار لوقته يترجّل

أبدت لوجه الشمس وجها مثله تلقى السماء بمثل ما تستقبل

فتشبيه على الجمله، و من حيث أصل المعنى و صورته فى المعقول، فأما الصّوره الخاصّه التى تحدث له بالصنعه، فلم يعرض لها.

و مما له طبقه عاليه فى هذا القبيل و شكل يدلّ على شدّه الشكيمه و علوّ المأخذ، قول الفرزدق: [من الطويل]

---

(۱) البيت فى ديوانه ۱/ ۱۶۲ من قصيده مطلعها:

أ ركائب الأحباب إن الأدمعا تطس الخدود كما تطسن اليرمعا

و القمرين: الشمس و القمر و أراد وجهها.

(۲) البيت فى ديوانه ۱/ ۴۱۹ من قصيده مطلعها:

منّا الذى اختير الرجال سماحه و خيرا إذا هب الرياح الزعازع

(۳) ترجلت الشمس: ارتفعت و ترجل النهار: ارتفع و منه قول الشاعر: و هاج به لما ترجّلت الضّحى.

راجع لسان العرب ۳/ ۱۶۰۰.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۲۷

أبى أحمد الغيثين صعصعه الذى متى تخلف الجوزاء و الدّلو يمطر

أجار بنات الوائدين و من يجر

على الموت يعلم أنه غير مخفر «۱»

أ فلاـ تراه كيف ادّعى لأبيه اسم الغيث ادّعاء من سلّم له ذلك، و من لا يخطر بباله أنه مجاز فيه، و متناول له من طريق التشبيه، و حتى كأنّ الأمر فى هذه الشهره بحيث يقال: «أىّ الغيثين أجود؟» فيقال: «صعصعه»، أو يقال: «الغيثان»، فيعلم أنّ أحدهما صعصعه، و حتى بلغ تمكّن ذلك فى العرف إلى أن يتوقّف السامع عند إطلاق الاسم، فإذا قيل: «أتاك الغيث!»، لم يعلم أ يراد صعصعه أم المطر.

و إن أردت أن تعرف مقدار ما له من القوّه فى هذا التخييل، و أن مصدره مصدر الشى ء المتعارف الذى لا حاجه به إلى مقدّمه يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول: «أبى نظير الغيث و ثان له، و غيث ثان»، ثم تقول: «و هو خير الغيثين» لأنه لا يخلف إذا أخلفت الأنواء، فانظر إلى موقع الاسم، فإنك تراه واقعا موقعا لا سبيل لك فيه إلى حلّ عقد التثنيه، و تفريق المذكورين بالاسم. و ذلك أن «أفعل» لا تصحّ إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر، فلا يقال: «جاءنى أفضل زيد و عمرو»، و لا:

«إنّ أعلم بكر و خالد عندى»، بل ليس إلاـ أن تضيف إلى اسم مثّنى أو مجموع فى نفسه، نحو: «أفضل الرّجلين»، و «أفضل الرجال». و ذلك أنّ أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبدا، فحقّه أن يضاف إلى اسم يحويه و غيره. و إذا كان الأمر كذلك، علمت أنه اللّفظ بالتشبيه، و الخروج عن صريح جعل اللّفظ للحقيقه متعذر عليك، إذ لا يمكنك أن تقول: «أبى أحمد الغيث و الثانى له و

الشبيه به»، و لا شيئا من هذا النحو، لأنك تقع بذلك فى إضافه «أفعل» إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر.

و إذ قد عرفت هذا، فانظر إلى قول الآخر «٢»: [من المنسرح]

قد أقحط الناس فى زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدّرر

غيثان فى ساعه لنا اتّفقا، فمرحبا بالأمير و المطر

فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزله، و ذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثا و لا يدّعى فيه

---

(١) البيتان من قصيده بعنوان «أبى أحمد الغيثين». راجع ديوانه ١/ ٣٧٩، و فى الروايه «أبى أحد الغيثين» بدل أحمد.

(٢) الدّرر جمع الدّرّه: و هى هنا بمعنى المتابعه فى المطر، و منه قول النّمر بن تولب:

سلام الإله و ريحانه و رحمته و سماء درر

قحط الناس، و أقحطوا: كرهها بعضهم. راجع لسان العرب ٢/ ١٣٥٧- ٥/ ٣٥٣٦.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٢٨

عرفا جاريا، و أمرا مشهورا متعارفا، يعلم كل واحد منه ما يعلمه، و ليس بمتعذّر أن تقول: «غيث و ثان للغيث اتفقا»، أو تقول: «الأمير ثانى الغيث و الغيث اتّفقا».

فقد حصل من هذا

الباب: أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت فی مكانه، و كان موضعه من الكلام أضنّ به، و أشدّ محاماه عليه، و أمنع لك من أن تتركه و ترجع إلى الظاهر و تصرّح بالتشبيه، فأمر التخييل فيه أقوى، و دعوى المتكلم له أظهر و أتمّ.

و اعلم أن نحو قول البحترى: [من الكامل]

غيثان إن جدب تتابع أقبلا و هما ربيع مؤمّل و خريفه

لا يكون مما نحن بصدده فی شی ء، لأنّ كلّ واحد من الغيثين فی هذا البيت مجاز، لأنه أراد أن يشبّه كل واحد من الممدوحين بالغيث، و الذى نحن بصدده، هو أن يضمّ المجاز إلى الحقيقه فی عقد التثنيه، و لكن إن ضممت إليه قوله «١»: [من الطويل]

فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا، إذا الهيّابه النكس كذّبا

كان لك ذلك، لأن أحد الضرغامين حقيقه و الآخر مجاز.

فإن قلت: فهاهنا شی ء يردّك إلى ما أبيته من بقاء حكم التشبيه فی جعله أباه الغيث، و ذلك أن تقدير الحقيقه فی المجاز إنما يتصوّر فی نحو بيت البحترى:

فلم أر ضرغامين من حيث عمد إلى واحد من الأسود، ثم جعل الممدوح أسدا على الحقيقه قد قارنه و ضامّه. و لا سبيل للفرزدق إلى ذلك، لأن الذى يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق، و إذا كان الغيث على الإطلاق، لم يبق شی ء يستحقّ هذا الاسم إلا و يدخل تحته. و إذا كان كذلك، حصل

منه أن لا يكون أبو الفرزدق غيثا على الحقيقه.

فالجواب أن مـذهب ذلك ليس على ما تتوهّمه، و لكن على أصل هو التشبيه، و هو أن يقصـد إلى المعنى الـذى من أجله يشـبّه الفرع بالأصل كالشجاعه فى الأسد، و المضاء فى السيف، و ينحّى سائر الأوصاف جانبا. و ذلك المعنى فى الغيث هو النّفع العامّ، و إذا قدّر هذا التقدير، صار جنس الغيث كأنه عين واحده و شى ء واحد. و إذا

---

(۱) الهيّابه: كثير الخوف مبـالغه من هاب، و النكس بكسـر النون المشـدده: الرجل الضـعيف المقصّـد عن غايه النجـده و الكرم. راجع لسان العرب ۶/ ۴۵۴۱، ۴۷۳۰.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۲۹

عاد بك الأمر إلى أن تتصوّره تصوّر العين الواحده دون الجنس، كان ضمّ أبى الفرزدق إليه بمنزله ضمّك إلى الشمس رجلا أو امرأه تريد أن تبالغ فى وصفهما بأوصاف الشمس، و تنزيلهما منزلتها، كما تجده فى نحو قوله «۱»: [من البسيط]

فليت طالعه الشّمسين غائبه و ليت غائبه الشّمسين لم تغب

فصل فى الفرق بين التشبيه و الاستعاره

فصل فى الفرق بين التشبيه و الاستعاره

اعلم أن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهه بينهما، كان ذلك على ما مضى من الوجهين:

أحـدهما: أن تسـقط ذكر المشـبّه من البين، حتى لاـ يعلم من ظـاهر الحال أنك أردته، و ذلك أن تقول: «عنّت لنا ظبيه»، و أنت تريد امرأه، و «وردنا برا»، و أنت تريد

الممـدوح. فـأنت فى هـذا النحو من الكلاـم إنّمـا تعرف أن المتكلم لم يرد مـا الاسم موضوع له فى أصل اللغه، بـدليل الحال، أو إفصاح المقال بعد السؤال، أو بفحوى الكلام و ما يتلوه من الأوصاف.

مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله «٢»: [من البسيط]

ترنّح الشّرب و اغتالت حلومهم شمس ترجّل فيهم ثم ترتحل

استدللت بذكر الشّرب، و اغتيال الحلوم، و الارتحال، أنه أراد قينه. و لو قال:

«ترجلت شـمس»، و لم يـذكر شيئا غيره من أحوال الآـدميين، لم يعقل قطّ أنه أراد امرأه إلا بإخبار مسـتأنف، أو شاهـد آخر من الشواهد.

و لـذلك تجـد الشـى ء يلتبس منه حتّى على أهـل المعرفه، كمـا روى أن عـدىّ بن حاتم اشـتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى:

---

(١) البيت للمتنبى من قصيده مطلعها:

يـا أخت خير أخ يـا بنت خير أب* كنـايه بهما عن أشـرف النسب طالعه الشمسـين: شـمس النهار، غائبه الشمسـين: المرثيه و هى أخت سيف الدوله. راجع ديوانه ٢/ ١٩٥.

(٢) الترنّح: تمزّز الشراب (عن أبى حنيفه) و ترنّح الرجل: تمايل من السكر. راجع لسان العرب ماده:

(رنح). و الترجّل: الارتفاع و قد سبق.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٣٠

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ [البقره: ١٨٧]، و حمله على ظاهره. فقـد روى أنه قـال لمـا نزلت هـذه الآـيه: «أخذت عقالا أسود و عقالا أبيض، فوضعتهما تحت و سادتى،

فنظرت فلم أتبيّن، فذكرت ذلک للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: إن وسادک لطویل عریض، إنما هو اللیل و النهار».

و الوجه الثانی: أن تذکر کلّ واحد من المشبّه و المشبّه به فتقول: «زید أسد» و «هند بدر»، و «هذا الرجل الذی تراه سیف صارم علی أعدائک». و قد کنت ذکرت فیما تقدّم، أن فی إطلاق الاستعاره علی هذا الضّرب الثانی بعض الشبهه، و وعدتک کلاما یجی ء فی ذلک، و هذا موضعه.

اعلم أنّ الوجه الذی یقتضیه القیاس، و علیه یدلّ کلام القاضی فی الوساطه، أن لا تطلق الاستعاره علی نحو قولنا: «زید أسد» و «هند بدر»، و لکن تقول: هو تشبیه، و إذا قال: «هو أسد، لم تقل: «استعار له اسم الأسد»، و لکن تقول: «شبّهه بالأسد»، و تقول فی الأول إنه استعاره لا تتوقف فیه و لا تتحاشی البتّه. و إن قلت فی القسم الأول: إنه تشبیه کنت مصیبا، من حیث تخبر عمّا فی نفس المتکلم و عن أصل الغرض، و إن أردت تمام البیان قلت: أراد أن یشبّه المرأه بالظبیه فاستعار لها اسمها مبالغه.

فإن قلت: فکذلک فقل فی قولک: «زید أسد»، إنه أراد تشبیهه بالأسد، فأجری اسمه علیه، أ لا تری أنک ذکرته بلفظ التّنکیر فقلت: «زید أسد»، کما تقول: «زید واحد من الأسود»، فما الفرق بین الحالین، و قد جری الاسم فی کل واحد منهما علی المشبّه؟

فالجواب أن الفرق بیّن، و هو أنک عزلت فی القسم الأول الاسم الأصلیّ عنه و اطّرحته، و جعلته کأن لیس هو باسم له، و جعلت الثانی هو الواقع علیه و المتناول له، فصار قصدک التشبیه أمرا مطویّا فی نفسک مکنونا فی ضمیرک، و صار فی ظاهر

الحال و صوره الكلام و نصبته، كأنه الشى ء الذى وضع له الاسم فى اللغه و تصوّر- إن تعلّقه الوهم- كذلك. و ليس كذلك القسم الثانى، لأنك قد صرّحت فيه بذكر المشبّه، و ذكرك له صريحا يأبى أن تتوهّم كونه من جنس المشبّه به. و إذا سمع السامع قولك:

«زيد أسد» و «هذا الرجل سيف صارم على الأعداء»، استحال أن يظنّ و قد صرّحت له بذكر زيد أنك قصدت أسدا و سيفا، و أكثر ما يمكن أن يدّعى تخيّله فى هذا: أن يقع فى نفسه من قولك: «زيد أسد»، حال الأسد فى جراءته و إقدامه و بطشه، فأمّا أن يقع فى وهمه أنه رجل و أسد معا بالصوره و الشخص، فمحال.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٣١

و لمّا كان كذلك، كان قصد التشبيه من هذا النحو بيّنا لائحا، و كائنا من مقتضى الكلام، و واجبا من حيث موضوعه، حتى إن لم يحمل عليه كان محالا.

فالشى ء الواحد لا يكون رجلا و أسدا، و إما يكون رجلا و بصفه الأسد فيما يرجع إلى غرائز النفوس و الأخلاق، أو خصوص فى الهيئه كالكراهه فى الوجه. و ليس كذلك الأول، لأنه يحتمل الحمل على الظّاهر على الصحه، فلست بممنوع من أن تقول «عنّت لنا ظبيه»، و أنت تريد الحيوان و «طلعت شمس»، و أنت تريد الشّمس، كقولك: «طلعت اليوم شمس حارّه» و كذلك تقول: «هززت على الأعداء سيفا» و أنت تريد السيف، كما تقوله و أنت تريد رجلا باسلا استعنت به، أو رأيا ماضيا وفّقت

فيه، و أصبت به من العدوّ فأرهبته و أثّرت فيه.

و إذا كان الأمر كذلك، وجب أن يفصل بين القسمين، فيسمّى الأوّل:

«استعاره» على الإطلاق، و يقال فى الثانى إنه: «تشبيه». فأما تسميه الأول تشبيها فغير ممنوع و لا غريب، إلّا أنه على أنك تخبر عن الغرض و تنبئ عن مضمون الحال، فأمّا أن يكون موضوع الكلام و ظاهره موجبا له صريحا، فلا.

فإن قلت: فكذلك قولك: «هو أسد»، ليس فى ظاهره تشبيه، لأن التشبيه يحصل بذكر الكاف أو «مثل» أو نحوهما.

فالجواب أن الأمر و إن كان كذلك، فإنّ موضوعه من حيث الصّوره يوجب قصدك التشبيه، لاستحاله أن يكون له معنى و هو على ظاهره.

و له مثال من طريق العاده، و هو أنّ مثل الاسم مثل الهيئه التى يستدلّ بها على الأجناس، كزىّ الملوك و زىّ السّوقه، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقه، و نفيت عنه كل شى ء يختصّ بالسوقه، و ألبسته زىّ الملوك، فأبديته للناس فى صوره الملوك حتى يتوهّموه ملكا، و حتى لا يصلوا إلى معرفه حاله إلا بإخبار أو اختبار و استدلال من غير الظاهر، كنت قد أعرته هيئه الملك و زيّه على الحقيقه. و لو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعرّيه من المعانى التى تدل على كونه سوقه، لم تكن قد أعرته بالحقيقه هيئه الملك، لأن المقصود من هيئه الملك أن يحصل بها المهابه فى النفس، و أن يتوهّم العظمه، و لا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالّه على أن الرجل سوقه.

افرض هذه الموازنه فى الشى ء الواحد، كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفردا، و إنما اعتبر الهيئه و هى تحصل بمجموع أشياء، و

ذلک أن الهیئه

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۳۲

هی التی یشبه حالها حال الاسم، لأن الهیئه تخصّ جنسا دون جنس، کما أن الاسم کذلک، و الثوب علی الإطلاق لا یفعل ذلک إلاـ بخصائص تقترن به و ترعی معه، فإذا کان السامع قولک: «زید أسد» لا یتوهّم أنک قصدت أسدا علی الحقیقه، لم یکن الاسم قد لحقه، و لم تکن قد أعرته إیاه إعاره صحیحه، کما أنک لم تعر الرجل هیئه الملک حین لم تزل عنه ما یعلم به أنه لیس بملک.

هذا، و إذا تأمّلنا حقیقه الاستعاره فی اللغه و العاده، کان فی ذلک أیضا بیان لصحه هذه الطریقه، و وجوب الفرق بین القسمین. و ذاک أن من شرط المستعار أن یحصل للمستعیر منافعه علی الحدّ الذی یحصل للمالک، فإن کان ثوبا لبسه کما لبسه، و إن کان أداه استعملها فی الشی ء تصلح له، حتی إنّ الرائی إذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ما هو ملک ید لیس بعاریّه، و إما یفضله المالک فی أنّ له أن یتلف الشی ء جمله، أو یدخل التلف علی بعض أجزائه قصدا، و لیس للمستعیر ذلک. و معلوم أنّ ما هو کالمنفعه من الاسم أن یوجب ذکره القصد إلی الشی ء فی نفسه. فإذا قلت: «زید»، علم أنک أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم، و إذا قلت:

«لقیت أسدا»، علم أنک علّقت اللقاء بواحد من هذا الجنس.

و إذا کان الأمر کذلک، ثم وجدنا الاسم فی قولک: «عنّت ظبیه»، یعقل من إطلاقه أنک قصدت الجنس

المعلوم و لا يعلم أنك قصدت امرأه، فقد وقع من المرأه فى هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحه، فكان ذلك بمنزله أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه، فيلبسه لبسه، و يتجمّل به تجمّله، و يكون مكانه عنده مكان الشى ء المملوك، حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له.

و لما وجدنا الاسم فى قولك: «زيد أسد»، لا يقع من زيد ذلك الموقع، من حيث إنّ ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقا عليه، و متناولا له على حدّ تناوله ما وضع له، كان وزان ذلك وزان أن تضع عند الرجل ثوبا و تمنعه أن يلبسه، أو بمنزله أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليك، فلا يكون ذلك عاريّه صحيحه، لأنك لم تدخله فى جملته، و لم تعطه صوره ما يختص به و يصير إليه، و يخفى كونه لك دونه. فاعرفه.

و هاهنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام، يبيّن وجوب الفرق بين القسمين:

و هو أن الحاله التى يختلف فى الاسم إذا وقع فيها، أ يسمّى استعاره أم لا يسمّى؟ هى الحاله التى يكون الاسم فيها خبر مبتدأ أو منزّلا منزلته، أعنى أن يكون خبر «كان»،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٣٣

أو مفعولا ثانيا لباب «علمت»، لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ و خبر أو يكون «حالا»، لأن الحال عندهم زياده فى الخبر. فحكمها حكم الخبر فيما قصدته هاهنا خصوصا، و الاسم إذا وقع فى هذه المواضع، فأنت واضع كلامك لإثبات معناه، و إن أدخلت النّفى على كلامك تعلّق النفى

بمعناه.

تفسير هـذه الجمله: أنک إذا قلت: «زيد منطلق»، فقد وضـعت کلامک لإثبات الانطلاق لزيد. و لو نفيت فقلت: «ما زيد منطلقا»، کنت نفيت الانطلاق عن زيـد. و کذلک: «أ کان زيد منطلقا»، و «علمت زيدا منطلقا»، و «رأيت زيدا منطلقا»، أنت فی ذلک کلّه واضع کلامک و مزج له لتثبت الانطلاق لزيد، و لو خولفت فيه انصرف الخلاف إلی ثبوته له. و إذا کان الأمر کذلک، فأنت إذا قلت:

«زيـد أسـد» و «رأيته أسـدا»، فقـد جعلت اسم المشـبّه به خبرا عن المشـبّه. و الاـسم إذا کـان خبرا عن الشـی ء کان خبرا عنه، إمّا لإثبات وصف هو مشتقّ منه لذلک الشی ء، کالانطلاق فی قولک: «زيد منطلق»، أو إثبات جنسيه هو موضوع لها کقولک:

«هـذا رجـل». فـإذا امتنع فی قولنا: «زيـد أسـد» أن تثبت شـبه الجنس، فقـد اجتلبنا الاسم لنحـدث به التشبيه الآن، و نقرّره فی حيّز الحصول و الثبوت. و إذا کان کذلک، کان خليقا بأن تسمّيه تشبيها، إذ کان إنما جاء ليفيده و يوجبه.

و أمّـا الحاله الأخری التی قلنا: «إن الاسم فيها يکون اسـتعاره من غير خلاف»، فهی حاله إذا وقع الاسم فيها لم يکن الاسم مجتلبا لإثبات معناه للشی ء، و لا الکلام موضوعا لذلک، لأن هذا حکم لا يکون إلا إذا کان الاسم فی منزله الخبر من المبتدأ.

فأمّـا إذا لم يکن کـذلک، و کان مبتـدأ بنفسه، أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه، فأنت واضع کلامک لإثبات أمر آخر غير ما هو معنی الاسم.

بيان ذلک: أنک إذا قلت: «جاءنی أسد» و «رأيت أسدا» و «مررت بأسد»، فقد وضعت الکلام لإثبات المجی ء واقعا من الأسد، و الرؤيه و المرور واقعين منک عليه.

و کذلک إن قلت:

«الأسد مقبل»، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد، لا لإثبات معنى الأسد. و إذا كان الأمر كذلك، ثم قلت: «عنّت لنا ظبيه»، و «هززت سيفا صارما على الأعداء» و أنت تعنى بالظبيه امرأه، و بالسيف رجلا لم يكن ذكرك للاسمين فى كلامك هذا لإثبات الشّبه المقصود الآن. و كيف يتصوّر أن تقصد إلى إثبات الشبه منهما بشى ء، و أنت لم تذكر قبلهما شيئا ينصرف إثبات الشبه إليه، و إنما تثبت الشّبه من طريق الرجوع إلى الحال، و البحث عن خبئ فى نفس المتكلم؟

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۳۴

و إذا كان كذلك، بان أن الاسم فى قولك: «زيد أسد»، مقصود به إيقاع التشبيه فى الحال و إيجابه، و أما فى قولك: «عنّت لنا ظبيه» و «سللت سيفا على العدوّ»، فوضع الاسم هكذا انتهازا و اقتضابا على المقصود، و ادّعاء أنه من الجنس الذى وضع له الاسم فى أصل اللغه.

و إذا افترقا هذا الافتراق، وجب أن نفرق بينهما فى الاصطلاح و العباره، كما أنّا نفصل بين الخبر و الصفه فى العباره، لاختلاف الحكم فيهما، بأنّ الخبر إثبات فى الوقت للمعنى، و الصفه تبيين و توضيح و تخصيص بأمر قد ثبت و استقرّ و عرف.

فكما لم نرض لاتفاق الغرض فى الخبر الصّفه على الجمله و اشتراكهما إذا قلت:

«زيد ظريف» و «جاءنى زيد الظّريف»، فى التباس زيد فى الظرف و اكتسائه له، أن تجعلهما فى الوضع الاصطلاحىّ شيئا واحدا، و لا نفرّق بتسميتنا هذا خبرا و ذلك صفه كذلك ينبغى أن لا يدعونا-

اتفاق قولنا: «جاءنى أسد» و «هززت سيفا صارما» و قولنا: «زيد أسد» و «سيف صارم»، فى مطلق التشبيه- إلى التسويه بينهما، و ترک الفرق من طريق العباره، بل وجب أن نفرّق، فنسمّى ذاک «الاستعاره» و هذا تشبيها».

فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعاره على هذا القسم الثانى، فينبغى أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز فى كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه فيه بسهوله، و ذلک نحو قولک: «هو الأسد» و «هو شمس النهار» و «هو البدر حسنا و بهجه، و القضيب عطفا»، و هكذا كل موضع ذكر فيه المشبّه به بلفظ التعريف. فإن قلت: «هو بحر» و «هو ليث» و «وجدته بحرا»، و أردت أن تقول إنه استعاره، كنت أعذر و أشبه بأن تكون على جانب من القياس، و متشبّثا بطرف من الصواب. و ذلک أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه، فلو قلت: «هو كأسد» و «هو كبحر»، كان كلاما نازلا- غير مقبول، كما يكون قولک: «هو كالأسد»، إلا- أنّه و إن كان لا يحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه «كأنّ» كقولک: «كأنه أسد»، أو ما يجرى مجرى «كأنّ» فى نحو «تحسبه أسدا» و «تخاله سيفا». فإن غمض مكان الكاف و «كأن»، بأن يوصف الاسم الذى فيه التشبيه بصفه لا تكون فى ذلک الجنس، و أمر خاصّ غريب فقيل: «هو بحر من البلاغه»، و «هو بدر يسكن الأرض»، و «هو شمس لا تغيب»، و كقوله «١»: [من الكامل]

شمس تألّق و الفراق غروبها عنّا، و بدر و الصّدود كسوفه

---

(۱) البيت للبحترى. راجع الإيضاح بتحقيقنا ص ۲۵۶.

فهو أقرب إلى أن نسمّيه استعاره، لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه، إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنيه الكلام و تبدّل صورته فتقول: «هو كالشمس المتألّقه، إلا أن فراقها هو الغروب، و كالبدر إلا أن صدوده الكسوف».

و قد يكون فى الصفات التى تجى ء فى هذا النحو، و الصّلات التى توصل بها، ما يختلّ به تقدير التشبيه، فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه «الاستعاره» من بعض الوجوه، و ذلك مثل قوله «۱»: [من الكامل]

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريص الموت منه ترعد

لا- سبيل لك إلى أن تقول: «هو كالأسد» و «هو كالموت»، لما يكون فى ذلك من التناقض، لأنك إذا قلت: «هو كالأسد» فقد شبّهته بجنس السبع المعروف، و محال أن تجعله محمولا- فى الشّبه على هذا الجنس أوّلا، ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس، خضاب يده، لأنّ حملك له عليه فى الشّبه دليل على أنه دونه، و قولك بعد «دم الهزبر من الأسود خضابه»، دليل على أنه فوقها. و كذلك محال أن تشبّهه بالموت المعروف، ثم تجعله يخافه، و ترتعد منه أكتافه.

و كذا قوله «۲»: [من الطويل]

سحاب عدانى سيله و هو مسبل

و بحر عدانی فیضه و هو مفعم

و بدر أضاء الأرض شرقا و مغربا و موضع رحلی منه أسود مظلم

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت: «هو كالبدر»، ثم جئت تقول:

«أضاء الأرض شرقا و مغربا و موضع رحلى مظلم لم يضئ به»، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء و يمنعه رحلك، و ذلك محال، و إنما أردت أن تثبت من الممدوح بدرا مفردا له هذه الخاصيه العجيبه التى لم تعرف للبدر. و هذا إنما يتأتّى بكلام بعيد من هذا النظم، و هو أن يقال: «هل سمعت بأن البدر يطلع فى أفق، ثم يمنع ضوءه موضعا من المواضع التى هى معرّضه له و كائنه فى مقابلته، حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره و فيما بينهما قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوؤه؟ و معلوم بعد هذا من طريقه البيت، فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحد له حكم و خاصّه لم تعرف.

---

(١) البيت للمتنبى فى ديوانه، و الهزبر: الشديد البأس، و أسد. خبر لمبتدإ محذوف تقديره هو، و دم: مبتدأ خبره خضابه، الفريص: جمع الفريصه و هى: اللحمه التى بين الكتف و الصدر. و البيت مبالغه فى مدح شجاع بن محمد الطائى. راجع الديوان ١/ ٩٢، و لسان العرب ماده: (فرص).

(٢) البيتان للبحترى فى مدح الفتح بن خاقان نديم المتوكل. راجع الإيضاح بتحقيقنا ص ٢٥٧.

و إذا كان الأمر كـذلك، صار كلامك موضوعا لا لإثبات الشـبه بينه و بين البدر، و لكن لإثبات الصّـِفه فى واحد متجدّد حادث من جنس البدر، لم تعرف تلك الصـفه للبدر، فيصـير بمنزله قولك: «زيد رجل يقرى الضيوف و يفعل كيت و كيت»، فلا يكون قصـدك إثبـات زيـد رجلاـ و لكن إثبـات الصـفه التى ذكرتها له. فإذا خرج الاسم الـذى يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصودا بالإثبات، تبيّن أنه خارج عن الأصل الذى تقدّم، من كون الاسم لإثبات الشبه. فالبحترى فى قوله:

و بـدر أضاء الأرض قـد بنى كلامه على أن كون الممـدوح بدرا، أمر قد اسـتقرّ و ثبت، و إنما يعمل فى إثبات الصـفه الغريبه، و الحـاله التى هى موضع التعجّب. و كمـا يمتنع دخول «الكاف» فى هـذا النحو، كـذلك يمتنع دخول «كأن» و «تحسب» و «تخال». فلو قلت: «كأنه بدر أضاء الأرض شرقا و مغربا و موضع رحلى منه مظلم»، كان خلفا من القول.

و كـذلك؛ إن قلت: «تحسـبه بدرا أضاء الأرض و رحلى منه مظلم»، كان كالأوّل فى الضـعف. و وجه بعده من القبول بيّن، و هو أنّ «كـأن» و «حسـبت» و «خلت» و «ظننت» تـدخل إذا كـان الخبر و المفعول الثـانى أمرا معقولاـ ثابتا فى الجمله، إلا أنه فى كونه متعلقـا بمـا هو اسم «كـأن» أو المفعول الأوّل من «حسـبت» مشـكوك فيه، كقولنا: «كأن زيـدا منطلق»، أو مجاز يقصـد به خلاف ظاهره، نحو: «كأنّ زيدا أسد»، فالأسد على الجمله ثابت معروف، و الغريب هو كون زيد إياه و من جنسه.

و النكره فى نحو

هذه الأبيات موصوفه بأوصاف تدلّ على أنك تخبر بظهور شى ء لا يعرف و لا يتصوّر. و إذا كان كذلك، كان إدخال «كأن» و «حسبت» عليه، كالقياس على المجهول.

و تأمّل هذه النكته فإنه يضعف ثانيا إطلاق «الاستعاره» على هذا النحو أيضا، لأن موضوع الاستعاره- كيف دارت القضيه- على التشبيه. و إذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس إذا فليته عن سرّه، و نقّرت عن خبيئه، فمحصوله أنك تدّعى حدوث شى ء هو من الجنس المذكور، إلا أنه اختصّ بصفه غريبه و خاصيه بديعه، لم يكن يتوهّم جوازها على ذلك الجنس، كأنك تقول: «ما كنّا نعلم أن هاهنا بدرا هذه صفته» كان تقدير التشبيه فيه نقضا لهذا الغرض، لأنه لا معنى لقولك: «أشبّهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف».

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٣٧

و هذا موضع لطيف جدّا لا تنتصف منه إلّا باستعانه الطبع عليه، و لا يمكن توفيه الكشف فيه حقّه بالعباره، لدقّه مسلكه.

و يتصل به أن فى «الاستعاره» الصحيحه: ما لا يحسن دخول كلم التشبيه عليه. و ذلك إذا قوى التشبّه بين الأصل و الفرع، حتى يتمكن الفرع فى النفس بمداخله ذلك الأصل و الاتحاد به، و كونه إياه. و ذلك فى نحو «النور» إذا استعير للعلم و الإيمان، و «الظلمه» للكفر و الجهل. فهذا النحو لتمكّنه و قوّه شبهه و متانه سببه، قد صار كأنه حقيقه، و لا يحسن لذلك أن تقول فى العلم: «كأنه نور»، و فى الجهل: «كأنه ظلمه»، و لا تكاد تقول للرجل فى هذا

الجنس: «كأنّك قد أوقعتنى فى ظلمه» بل تقول: «أوقعتنى فى ظلمه». و كذلك الأكثر على الألسن و الأسبق إلى القلوب أن تقول: «فهمت المسأله فانشرح صدرى و حصل فى قلبى نور»، و لا تقول: «كأنّ نورا حصل فى قلبى».

و لكن إذا تجاوزت هذا النوع إلى نحو قولك: «سللت منه سيفا على الأعداء»، وجدت «كأن» حسنه هناك كثيره، كقولك: «بعثته إلى العدوّ فكأنى سللت سيفا» و كذلك فى نحو: «زيد أسد» و «كأن زيدا أسد». و هكذا يتدرج الحكم فيه، حتى كلّما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى و أغمض و أبعد من العرف، كان الإتيان بكلمه التشبيه أبين و أحسن و أكثر فى الاستعمال.

و مما يجب أن تجعله على ذكر منك أبدا، و فيه البيان الشافى: أنّ بين القسمين تباينا شديدا أعنى بين قولك: «زيد أسد» و قولك: «رأيت أسدا» و هو ما قدّمته لك من أنك قد تجد الشى ء يصلح فى نحو: «زيد أسد» حيث تذكر المشبّه باسمه أوّلا، ثم تجرى اسم المشبّه به عليه، و لا يصلح فى القسم الآخر الذى لا تذر فيه المشبّه أصلا و تطرحه.

و من الأمثله البيّنه فى ذلك قول أبى تمام «۱»: [من الوافر]

و كان المطل فى بدء و عود دخانا للصّنيعه و هى نار

قد شبّه المطل بالدّخان، و الصنيعه بالنار، و لكنه صرّح بذكر المشبّه، و أوقع المشبّه به خبرا عنه، و هو كلام مستقيم.

---

(۱) البيت فى ديوانه ۱۳۵ بلفظ «و كان المدح فى عود و بدء»، و القصيده فى مدح أبى الحسين

محمد ابن الهيثم بن شبابه، راجع الأبيات التى قبله من قوله:

رأيت صنائعا معكت فأحست ذبائح و المطال لها شفار

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۳۸

و لو سلكت به طريقه ما يسقط فيه ذكر المشبّه فقلت مثلا: «أقبستنى نارا لها دخان»، كان ساقطا. و لو قلت: «أقبستنى نورا أضاء أفقى به»، تريد علما، كان حسنا، حسنه إذا قلت: «علمك نور فى أفقى». و السبب فى ذلك أنّ اطّراح ذكر المشبّه و الاقتصار على اسم المشبّه به، و تنزيله منزلته، و إعطاءه الخلافه على المقصود، إنما يصحّ إذا تقرّر الشّبه بين المقصود و بين ما تستعير اسمه له، و تستبينه فى الدّلاله. و قد تقرّر فى العرف الشبه بين النور و العلم و ظهر و اشتهر، كما تقرر الشّبه بين المرأه و الظبيه، و بينها و بين الشمس و لم يتقرر فى العرف شبه بين الصّنيعه و النار، و إنما هو شى ء يضعه الآن أبو تمام و يتمحّله، و يعمل فى تصويره، فلا بدّ له من ذكر المشبّه و المشبّه به جميعا حتى يعقل عنه ما يريده، و يبين الغرض الذى يقصده، و إلّا كان بمنزله من يريد فى إعلام السامع أنّ عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا، فيقول له: «عندى زيد»، و يسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول:

«عندى رجل مثل زيد»، أو غيره من

المعانى. و ذلك تكليف علم الغيب.

فاعرف هذا الأصل و تبيّنه، فإنك تزداد به بصيره فى وجوب الفرق بين الضربين، و ذلك أنهما لو كانا يجريان مجرى واحدا فى حقيقه الاستعاره، لوجب أن يستويا فى القضيّه، حتى إذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر، فاعرفه.

فإن قلت: فما تقول فى نحو قولهم: «لقيت به أسدا» و «رأيت منه ليثا».

فإنه مما لا وجه لتسميته استعاره، أ لا تراهم قالوا: «لئن لقيت فلانا ليلقينّك منه الأسد»، فأتوا به معرفه على حدّه إذا قالوا: «احذر الأسد!»، و قد جاء على هذه الطريقه ما لا يتصوّر فيه التشبيه، فظنّ أنّه استعاره، و هو قوله عز و جل: لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ [فصلت: ٢٨]، و المعنى:- و اللّه أعلم- أنّ النّار هى دار الخلد، و أنت تعلم أن لا معنى هاهنا لأن يقال: «إن النار شبّهت بدار الخلد»، إذ ليس المعنى على تشبيه النّار بشى ء يسمّى «دار الخلد»، كما تقول فى زيد: «إنه مثل الأسد»، ثم تقول: «هو الأسد»، و إنما هو كقولك: «النار منزلهم و مسكنهم»، نعوذ باللّه منها.

و كذا قوله «١»: [من البسيط] يأبى الظلامه منه النّوفل الزّفر

---

(١) هو عجز بيت لأعشى باهله صدره «أخو رغائب يعطيها و يسألها»، و النوفل: الذى ينفى عنه الظلم من قومه، و الزّفر: الشجاع. راجع لسان العرب ماده: (نفل).

المعنى على أنه «النّوفل الزّفر»، و ليس الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد، فيقال إنه شبّه الممدوح به، و إنما

هو صفه كقولك: «هو الشجاع» و «هو السيّد» و «هو النهّاض بأعباء السياده».

و كذلك قوله «١»: [من المنسرح]

يا خير من يركب المطيّ و لا يشرب كأسا بكفّ من بخلاف

لا يتصور فيه التشبيه، و إنما المعنى: أنه ليس ببخيل.

هذا، و إنما يتصوّر الحكم على الاسم بالاستعاره، إذا جرى بوجه على ما يدّعى أنه مستعار له، و الاسم فى قولك: «لقيت به أسدا» أو «لقينى منه أسدا»، لا يتصوّر جريه على المذكور بوجه، لأنه ليس بخبر عنه، و لا صفه له، و لا حال، و إنما هو بنفسه مفعول «لقيت» و فاعل «لقينى». و لو جاز أن يجرى الاسم، هاهنا مجرى المستعار المتناول المستعار له، لوجب أن نقول فى قوله «٢»: [من الرجز]

حتّى إذا جنّ الظّلام و اختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

إنه استعار اسم الذئب للمذق، و ذلك بيّن الفساد.

و كذا نحو قوله «٣»: [من البسيط]

نبّئت أنّ أبا قابوس أوعدنى و لا قرار على زأر من الأسد

لا يكون استعاره، و إن كنت تجد من يفهم البيت قد يقول: أراد بالأسد

---

(١) الصواب «بخلا» بدل «بخلاف».

(٢) البيت يدور فى كتب النحاه، و أنشده المبرّد لأحد الرجاز بلفظ

بتنا بحسان و معزاه تئطّ ما زلت أسعى بينهم و ألتبط

حتى إذا كاد الظلام يختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

قيل: هو للعجاج، لم يذكره لسان العرب فى «ذئب، مذق»، و حسان: اسم رجل، و المعزى: من الغنم، و تئطّ: يصوّت جوفها من الجوع، و ألتبط: أسعى هنا و هناك. راجع الكامل بتحقيقى ۲/ ۴۳۸، و لسان العرب ماده: (مذق)، و المصنف على حق فى عدم صحه الاستعاره هنا.

(۳) البيت نسبه ابن منظور للنابغه، و نسبه أبو الفرج الأصفهانى إليه قائلا: غنّاه الهذلى أى: أن هذا البيت مما غنّى من قصائد النابغه التى اعتذر فيها لأبى قابوس، و القابوس: الجميل الوجه الحسن اللون، و أبو قابوس: كنيه النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى ملك العرب. راجع الأغانى ۱۱/ ۳۹، و لسان العرب ماده: (قبس).

النّعمان، أو شبّهه بالأسد، لأن ذلك بيان للغرض. فأمّا القضيه الصحيحه و ما يقع فى نفس العارف، و يوجبه نقد الصّيرف، فإنّ الأسد واقع على حقيقته حتى كأنه قال:

«و لا قرار على زأر هذا الأسد»، و أشار إلى الأسد خارجا من عرينه مهدّدا موعدا بزئيره. و أىّ وجه للشكّ فى ذلك، و هو يؤدّى إلى أن يكون

الكلام على حدّ قولك:

«و لا قرار على زأر من هو كالأسد»؟ و فيه من العیّ و الفجاجه شی ء غير قليل.

هذا، و من حقّ غالط غلط فی نحو ما ذكرت- على قلّه عذره- أن لا يغلط فی قول الفرزدق «۱»: [من الوافر]

قياما ينظرون إلى سعيد كأنّهم يرون به هلالا

و لا يتوهّم أن «هلالا» استعاره لسعيد، لأن الحكم على الاسم بالاستعاره مع وجود التشبيه الصريح، محال جار مجرى أن يكون كلّ اسم دخل عليه كاف التشبيه مستعارا. و إذا لم يغلط فی هذا فالباقی بمنزلته، فاعرفه.

فصل «فی الاتّفاق فی الأخذ و السّرقه و الاستمداد و الاستعانه»

فصل «فی الاتّفاق فی الأخذ و السّرقه و الاستمداد و الاستعانه»

اعلم أنّ الشاعرين إذا اتفقا، لم يخل ذلك من أن يكون فی الغرض على الجمله و العموم، أو فی وجه الدلاله على ذلك الغرض.

و الاشتراك فی الغرض على العموم: أن يقصد كلّ واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعه و السخاء، أو حسن الوجه و البهاء، أو وصف فرسه بالسرعه، أو ما جرى هذا المجرى.

و أمّا وجه الدّلاله على الغرض، فهو أن يذكر ما يستدلّ به على إثباته له الشجاعه و السخاء مثلا. و ذلك ينقسم أقساما:

منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ و الغايه البعيده، كالتشبيه بالأسد، و بالبحر فی البأس و الجود، و البدر و الشّمس فی الحسن و البهاء و الإناره و الإشراق.

---

(۱) البيت من قصيده قالها الفرزدق فی مدح سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميه. راجع ديوانه ۲/ ۶۹.

و منها ذكر هيئات تدلّ على الصّيفه من حيث كانت لا تكون إلا فيمن له الصّيفه، كوصف الرّجل فى حال الحرب بالابتسام و سكون الجوارح و قلّه الفكر، كقوله «۱»: [من الطويل]

كأنّ دنانيرا على قسماتهم و إن كان قد شفّ الوجوه لقاء

و كذلك الجواد يوصف بالتّهلّل عند ورود العفاه، و الارتياح لرؤيه المجتدين، و البخيل بالعبوس و القطوب و قلّه البشر، مع سعه ذات اليد و مساعده الدهر.

فأما الاتفاق فى عموم الغرض، فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ و السرقه و الاستمداد و الاستعانه، لا ترى من به حسّ يدّعى ذلك، و يأبى الحكم بأنه لا يدخل فى باب الأخذ، و إنما يقع الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل، و لا ينعم التأمّل، فيما يؤدّى إلى ذلك، حتى يدّعى عليه فى المحاجّه أنه بما قاله قد دخل فى حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصوّر معنى الشجاعه، و أنّها مما يمدح به، و أن الجهل مما يذمّ به، فأمّا أن يقوله صريحا، و يرتكبه قصدا، فلا.

و أمّا الاتفاق فى وجه الدّلاله على الغرض، فيجب أن ينظر، فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته، و كان مستقرّا فى العقول و العادات، فإنّ حكم ذلك، و إن كان خصوصا فى المعنى، حكم العموم الذى تقدّم ذكره.

من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعه، و بالبحر فى السخاء، و بالبدر

فى النور و البهاء، و بالصبح فى الظهور و الجلاء و نفى الالتباس عنه و الخفاء. و كذلك قياس الواحد فى خصله من الخصال على المذكور بذلك و المشهور به و المشار إليه، سواء كان ذلك ممن حضرك فى زمانك، أو كان ممن سبق فى الأزمنه الماضيه و القرون الخاليه، لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم، و لا يحتاج فى العلم به إلى رويّه و استنباط و تدبّر و تأمّل، و إنما هو فى حكم الغرائز المركوزه فى النفوس، و القضايا التى وضع العلم بها فى القلوب.

و إن كان مما ينتهى إليه المتكلّم بنظر و تدبّر، و يناله بطلب و اجتهاد، و لم يكن كالأوّل فى حضوره إياه، و كونه فى حكم ما يقابله الذى لا معناه عليه فيه، و لا حاجه به إلى المحاوله و المزاوله و القياس و المباحثه و الاستنباط و الاستثاره، بل كان من دونه

---

(۱) البيت لمحرز بن مكعبر الضّبىّ، القسمات: مجارى العيون، و قيل ما بين الحاجبين. و قد فصّلنا القول فى هذا البيت فراجعه فى كتاب الكامل للمبرّد بتحقيقنا. راجع أيضا لسان العرب ماده:

(قسم).

حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر، و عليه كمّ يفتقر إلى شقّه بالتفكير، و كان درّا فى قعر بحر لا بدّ له من تكلّف الغوص عليه، و ممتنعا فى شاهق لا يناله إلّا بتجشّم الصعود إليه و كامنا كالنار فى الزّند، لا يظهر حتى تقتدحه، و مشابكا لغيره كعروق الذهب التى

لا تبدى صفحتها بالهوينا، بل تنال بالحفر عنها و تعريق الجبين فى طلب التمكن منها.

نعم، إذا كان هذا شأنه، و هاهنا مكانه، و بهذا الشرط يكون إمكانه، فهو الذى يجوز أن يدّعى فيه الاختصاص و السّبق و التقدّم و الأوّليه، و أن يجعل فيه سلف و خلف، و مفيد و مستفيد، و أن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل و التباين، و أنّ أحدهما فيه أكمل من الآخر، و أنّ الثانى زاد على الأوّل أو نقص عنه، و ترقّى إلى غايه أبعد من غايته، أو انحطّ إلى منزله هى دون منزلته.

و اعلم أن ذلك الأوّل الذى هو المشترك العامىّ، و الظاهر الجلىّ، و الذى قلت إنّ التفاضل لا يدخله، و التفاوت لا يصحّ فيه، إنما يكون كذلك ما كان صريحا ظاهرا لم تلحقه صنعه، و ساذجا لم يعمل فيه نقش فأمّا إذا ركّب عليه معنى، و وصل به لطيفه، و دخل إليه من باب الكنايه و التعريض، و الرّمز و التلويح، فقد صار بما غيّر من طريقته، و استؤنف من صورته، و استجدّ له من المعرض، و كسى من دلّ التعرض، داخلا فى قبيل الخاصّ الذى يتملّك بالفكره و التعمّل، و يتوصّل إليه بالتدبّر و التأمّل. و ذلك كقولهم، و هم يريدون التشبيه: «سلبن الظّباء العيون»، كقول بعض العرب «۱»: [من الوافر]

سلبن ظباء ذى نفر طلاها و نجل الأعين البقر الصّوارا

و كقوله «۲»: [من البسيط]

إنّ السحاب لتستحيى إذا نظرت

إلى نداک، فقاسته بما فيها

و كقوله «۳»: [من الكامل]

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلّا بوجه ليس فيه حياء

---

(۱) الطّلى: الأعناق و مفردها الطّلاه مثل تقاه تقى، و قيل مفردها الطّلوه، و نجل الأعين: من إضافه الصفه إلى الموصوف، و الصوار بالضّم و الكسر: القطيع من بقر الوحش.

(۲) البيت من قصيده يمدح فيها أبو نواس العباس بن الفضل بن الربيع. راجع ديوانه ص ۹۰، و الإيضاح للقزوينى بتحقيقنا ص ۲۳۹.

(۳) البيت من قصيده يمدح فيها المتنبى أبا على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الكاتب، و استعار فيه الوجه للشمس للمشاكله و المعنى: لو كان عند الشمس حياء لما ظهرت أمام وجهك الأكثر ضياء منها. راجع ديوان المتنبى بشرح مصطفى سبيتى ۱/ ۱۷۴.

و كقوله «۱»: [من الكامل]

و اهتزّ فى ورق النّدى فتحيّرت حركات غصن البانه المتأوّد

و كقوله «۲»: [من الطويل]

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابه أقابل بدر الأفق حين أقابله

إلى مسرف فى الجود، لو أنّ حاتما لديه، لأمسى حاتم و هو عاذله

فهـذا كله فى أصـله و مغزاه و حقيقه معنـاه تشبيه، و لكن كنى لك عنه، و خودعت فيه، و أتيت به من طريق الخلابه فى مسـلك السـحر و مذهب التّخييل، فصار لذلك غريب الشـكل، بديع الفن، منيع الجانب، لا يدين لكل أحد، و أبىّ العطف لا يدين به إلّا للمروىّ المجتهـد. و إذا حقّقت النظر، فالخصوص الذى تراه، و الحاله التى تراها، تنفى الاشتراك و تأباه، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مـدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف، بل هو فى حـدّ لحن القول و التعميه اللّـذين يتعمّـد فيهما إلى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطرارا، يعرف امتحانا و اختيارا، كقوله: [من الوافر]

مررت بباب هند فكلّمتنى فلا و اللّه ما نطقت بحرف

فكما يوهمك بإتقان اللفظ أنه أراد الكلام، و أن الميم موصوله باللام، كذلك المشـبّه إذا قال: «سرقن الظباء العيون»، فقد أوهم أن ثمّ سـرقه و أنّ العيون منقوله إليها من الظباء، و إن كنت تعلم إذا نظرت أنّه يريد أن يقول: إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن و الهيئه و فتره النظر. و كذلك يوهمك بقوله: «إن السحاب لتستحيى»، أن السحاب حىّ يعرف و يعقل، و أنه يقيس فيضه بفيض كفّ الممدوح فيخزى و يخجل.

فالاحتفال و الصّنعه فى التصويرات التى تروق السامعين و تروعهم، و

التخييلات التى تهزّ الممدوحين و تحرّكهم، و تفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس النّاظر إلى التصاوير التى يشكّلها الحذّاق بالتّخطيط و النقش، أو بالنّحت و النقر. فكما أن تلك تعجب و تخلب، و تروق و تؤنق، و تدخل النفس من مشاهدتها حاله غريبه لم تكن قبل رؤيتها، و يغشاها ضرب من الفتنه لا ينكر مكانه، و لا يخفى شأنه.

---

(۱) البيت فى ديوان البحترى.

(۲) البيت فى ديوان البحترى.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۴۴

فقد عرفت قضيّه الأصنام و ما عليه أصحابها من الافتتان بها و الإعظام لها.

كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور، و يشكّله من البدع، و يوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهّم بها الجماد الصامت فى صوره الحىّ الناطق، و الموات الأخرس فى قضيه الفصيح المعرب و المبيّن المميّز، و المعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد، كما قدّمت القول عليه فى باب التمثيل، حتى يكسب الدنىّ رفعه، و الغامض القدر نباهه. و على العكس يغضّ من شرف الشريف، و يطأ من قدر ذى العزّه المنيف، و يظلم الفضل و يتهضّمه، و يخدش وجه الجمال و يتخوّنه، و يعطى الشبهه سلطان الحجّه، و يردّ الحجّه إلى صيغه الشبهه، و يصنع من الماده الخسيسه بدعا تغلو فى القيمه و تعلو، و يفعل من قلب الجواهر و تبديل الطبائع ما ترى به الكيمياء و قد صحّت، و دعوى الإكسير و قد وضحت، إلّا أنها روحانيه تتلبّس بالأوهام و الأفهام، دون الأجسام و الأجرام، و لذلك قال «۱»: [من

الطويل]

يرى حكمه ما فيه و هو فكاهه و يقضى بما يقضى به و هو ظالم

و قال: [من الطويل]

عليم بإبدال الحروف و قامع لكلّ خطيب يقمع الحقّ باطله

و قال ابن سكّره فأحسن: [من مخلع البسيط]

و الشعر نار بلا دخان و للقوافى رقى لطيفه

لو هجى المسك، و هو أهل لكل مدح، لصار جيفه

كم من ثقيل المحلّ سام هوت به أحرف خفيفه

و قد عرفت ما كان من أمر القبيله الّذين كانوا يعيّرون بأنف الناقه، حتى قال الحطيئه: [من البسيط]

قوم هم الأنف و الأذناب غيرهم، و من يسوّى بأنف النّاقه الذّنبا

فنفى العار، و صحّح الافتخار، و جعل ما كان نقصا و شينا، فضلا و زينا، و ما كان لقبا و نبزا يسوء السمع، شرفا و عزّا يرفع

الطرف، و ما ذاك إلا بحسن الانتزاع، و لطف القريحه الصّناع، و الذّهن الناقد فى دقائق الإحسان و الإبداع، كما كساهم الجمال من حى كانوا عروا منه، و أثبتهم فى نصاب الفضل من حيث نفوا عنه، فلربّ

---

(۱) البيت من قصيده لأبى تمام يمدح فيها أحمد بن أبى دؤاد. راجع ديوانه ص ۲۶۹.

أنف سليم قد وضع الشعر عليه حدّه فجدعه، و اسم رفيع قلب معناه حتى حطّ به صاحبه و وضعه، كما قال: [من الكامل]

يا حاجب الوزراء! إنّك عندهم سعد، و لكن أنت سعد الذابح

و من العجيب فى ذلك قول القائل فى كثير بن أحمد: [من مخلع البسيط]

لو علم اللّه فيه خيرا ما قال: «لا خير فى كثير»

فانظر من أى مدخل دخل عليه، و كيف بالهوينا هدى البلاء إليه؟ و كثير هذا هو الذى يقول فيه الصاحب: [من الطويل] و مثل كثير فى الزّمان قليل فقد صار الاسم الواحد وسيله إلى الهدم و البناء، و المدح و الهجاء، و ذريعه إلى التزيين و التهجين.

و من عجيب ما اتفق فى هذا الباب قول ابن المعتزّ فى ذمّ القمر، و اجتراؤه بقدره البيان على تقبيحه، و هو الأصل و المثل،

و عليه الاعتماد و المعوّل فى تحسين كل حسن، و تزيين كلّ مزيّن، و أوّل ما يقع فى النفوس إذا أريد المبالغه فى الوصف بالجمال، و البلوغ فيه غايه الكمال، فيقال: «وجه كأنه القمر»، و «كأنه فلقه قمر»، ذلك لثقته بأنّ هذا القول إذا شاء سحر، و قلب الصور، و أنه لا يهاب أن يخرق الإجماع، و يسحر العقول و يقتسر الطباع، و هو «۱»: [من الكامل]

يا سارق الأنوار من شمس الضّحى يا مثكلى طيب الكرى و منغّصى

أمّا ضياء الشمس فيك فناقص و أرى حراره نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل، متسلّخ بهقا كلون الأبرص

و قد علم أن ليس فى الدنيا مثله أخزى و أشنع، و نكال أبلغ و أفظع، و منظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارا، و يزعج القلوب استفظاعا له و استنكارا، و يغرى الألسنه بالاستعاذه من سوء القضاء، و درك الشقاء، من أن يصلب المقتول و يشبّح فى الجذع، ثم قد ترى مرثيه أبى الحسن الأنبارى لابن بقيّه حين صلب، و ما صنع فيها من السّحر، حتى قلب جمله ما يستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها، و تأوّل

---

(۱) الأبيات تحت عنوان «سارق الأنوار»، و سارق الأنوار هنا:

القمر، و البهق بالفتح: بياض دقيق يعترى ظاهر البشره. راجع ديوان ابن المعتز ص ۲۸۶.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۴۶

فيها تأويلات أراك فيها و بها ما تقضى منه العجب «۱»: [من الوافر]

علوّ فى الحياه و فى الممات بحقّ أنت إحدى المعجزات

كأنّ الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيّام الصّلات

كأنك قائم فيهم خطيبا و كلّهم قيام للصّلاه

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدّهما إليهم بالهبات

و لما ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ علاك من بعد الممات

أصاروا الجوّ قبرك و استنابوا عن الأكفان ثوب السّافيات

لعظمك فی النفوس تبيت ترعی بحرّاس و حفّاظ ثقات

و تشعل عندك النيران ليلا كذلك كنت أيام الحياه

ركبت مطيّه، من قبل زيد علاها فی السّنين الماضيات

و تلك فضيله فيها تأس تباعد عنك تعيير العداه

أسأت إلی الحوادث فاستثارت، فأنت قتيل ثأر النائبات

و لو أنّی قدرت علی قيامی بفرضك و الحقوق الواجبات

ملأت الأرض من نظم القوافی، و نحت بها خلال النائحات

و لكنّی أصبّر عنك نفسی

مخافه أن أعدّ من الجناه

و ما لک تربه فأقول تسقى، لأنّک نصب هطل الهاطلات

علیک تحیّه الرّحمن تترى برحمات غواد رائحات

و مما هو من هذا الباب، إلّا أنه مع ذلک احتجاج عقلی صحیح، قول المتنبی:

و ما التأنیث لاسم الشمس عیب و لا التذکیر فخر للهلال «۲»

فحقّ هذا أن یکون عنوان هذا الجنس، و فی صدر صحیفته، و طرازا لدیباجته، لأنه دفع لنقص، و إبطال له، من حیث یشهد العقل للحجّه التی نطق بها بالصّحه.

و ذلک أن الصّفات الشریفه شریفه بأنفسها، و لیس شرفها من حیث الموصوف.

---

(۱) قال عنها الشیخ شاکر معلقا: «ذکرها صاحب یتیمه الدهر فی ترجمه الأنباری ۲/ ۳۴۴، و ذکر بعضها صاحب الوافی بالوفیات فی ترجمه ابن بختیار، و فی تاریخ ابن خلّکان ۵/ ۱۲۰ و غیرها من الکتب».

(۲) البیت من قصیده مشهوره قالها أبو الطیب المتنبی فی رثاء والده سیف الدوله و یعزّیه بها. انظر دیوانه ۲/ ۱۲ و مطلع القصیده:

نعد المشرفیه و العوالی و تقتلنا المنون بلا قتال

و كيف؟ و الأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات، فكان الموصوف شريفا أو غير شريف من حيث الصفه، و لم تكن الصفه شريفه أو خسيسه من حيث الموصوف.

و إذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يعترض على الصفات الشريفه بشى ء إن كان نقصا، فهو فى خارج منها، و فيما لا يرجع إليها أنفسها و لا حقيقتها. و ذلك الخارج هاهنا هو كون الشخص على صوره دون صوره. و إذا كان كذلك، كان الأمر: مقدار ضرر التأنيث إذا وجد فى الخلقه على الأوصاف الشريفه، مقداره إذا وجد فى الاسم الموضوع للشى ء الشريف، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل فى تلك الأوصاف فى الحالين على صوره واحده، لأن الفضائل التى بها فضّل الرجل على المرأه، لم تكن فضائل لأنها قارنت صوره التذكير و خلقته، و لا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقه دون تلك، بل إنما أوجبته لأنفسها و من حيث هى، كما أنّ الشى ء لم يكن شريفا أو غير شريف من حيث أنّث اسمه أو ذكّر، بل يثبت الشرف و غير الشرف للمسمّيات من حيث أنفسها و أوصافها، لا من حيث أسماؤها، لاستحاله أن يتعدّى من لفظ، هو صوت مسموع، نقص أو فضل إلى ما جعل علامه له، فاعرفه.

و اعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير هذا البيت، و الطريقه المستقيمه فى الموازنه بين تأنيث الخلقه و تأنيث الاسم، لا أن يقال إنّ المعنى أن المرأه إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل و

الفضل و سائر الخلال الممدوحه، كانت من حيث المعنى رجلا، و إن عدّت فى الظاهر امرأه، لأجل أنه يفسد من وجهين:

أحدهما أنه قال: «و لا التذكير فخر للهلال»، و معلوم أنه لا يريد أن يقول: إن الهلال و إن ذكّر فى لفظه فهو مؤنّث فى المعنى، لفساد ذلك.

و لأجل أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلاـ لتأنيث المرأه، على معنى أنها فى المعنى رجل، و أن يثبت لها تذكيرا، فأىّ معنى لأن يعود فينحى على التذكير، و يغضّ منه و يقول: «ليس هو بفخر للهلال» هذا بيّن التناقض.

فصل «فى حدّى الحقيقه و المجاز»

فصل «فى حدّى الحقيقه و المجاز»

و اعلم أن حدّ كل واحد من وصفى المجاز و الحقيقه إذا كان الموصوف به المفرد، غير حدّه إذا كان الموصوف به الجمله، و أنا أبدأ بحدّهما فى المفرد.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۴۸

كلّ كلمه أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع، و إن شئت قلت: فى مواضعه، وقوعا لا تستند فيه إلى غيره فهى «حقيقه». و هذه عباره تنتظم الوضع الأوّل و ما تأخّر عنه، كلغه تحدث فى قبيله من العرب، أو فى جميع العرب، أو فى جميع الناس مثلاـ أو تحدث اليوم و يدخل فيها الأعلام منقوله كانت كزيد و عمرو، أو مرتجله كغطفان و كلّ كلمه استؤنف لها على الجمله مواضعه، أو ادّعى الاستئناف فيها.

و إنما اشترطت هذا كلّه، لأنّ وصف اللّفظه بأنها حقيقه أو مجاز، حكم فيها من حيث إنّ لها دلاله على الجمله، لا من حيث هى

عربيه أو فارسيه، أو سابقه فى الوضع، أو محدثه، مولّده. فمن حقّ الحدّ أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالّه.

و نظير هذا نظير أن تضع حدّا للاسم و الصفه، فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغه غير لغه العرب، وجدته يجرى فيها جريانه فى العربيه، لأنك تحدّ من جهه لا اختصاص لها بلغه دون لغه. أ لا ترى أن حدّك «الخبر» بأنه «ما احتمل الصدق و الكذب» مما لا يخصّ لسانا دون لسان؟ و نظائر ذلك كثيره، و هو أحد ما غفل عنه الناس، و دخل عليهم اللبس فيه، حتى ظنّوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقليه، و أنّ مسائله مشبّهه باللغه، فى كونها اصطلاحا يتوهّم عليه النقل و التبديل. و لقد فحش غلطهم فيه، و ليس هذا موضع القول فى ذلك.

و إن أردت أن تمتحن هذا الحدّ، فانظر إلى قولك: «الأسد»، تريد به السّبع، فإنك تراه يؤدّى جميع شرائطه، لأنّك قد أردت به ما تعلم أنّه وقع له فى وضع واضع اللغه. و كذلك تعلم أنه غير مستند فى هذا الوقوع إلى شى ء غير السّبع، أى: لا يحتاج أن يتصوّر له أصل أدّاه إلى السبع من أجل التباس بينهما و ملاحظه. و هذا الحكم إذا كانت الكلمه حادثه، و لو وضعت اليوم، متى كان وضعها كذلك، و كذلك الأعلام. و ذلك أنّى قلت: «ما وقعت له فى وضع واضع أو مواضعه» على التنكير، و لم أقل: «فى وضع الواضع الذى ابتدأ اللغه»، أو «فى المواضعه اللغويه»، فيتوهّم أن الأعلام أو غيرهما مما تأخّر وضعه عن أصل اللغه يخرج عنه. و معلوم أن الرجل يواضع قومه فى اسم ابنه، فإذا سمّاه «زيدا»، فحاله

الآن فيه كحال واضع اللغه حين جعله مصدرا «لزاد يزيد»، و سبق واضع اللغه له فى وضعه للمصدر المعلوم، لا يقدح فى اعتبارنا، لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعا باتّا، و لا تستند حاله هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۴۹

و أمّا المجاز، فكلّ كلمه أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها، لملاحظه بين الثانى و الأوّل، فهى مجاز و إن شئت قلت: «كلّ كلمه جزت بها ما وقعت به فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعا، لملاحظه بين ما تجوّز بها إليه، و بين أصلها الذى وضعت له فيوضع واضعها، فهى «مجاز».

و معنى «الملاحظه»: هو أنها تستند فى الجمله إلى غير هذا الذى تريده بها الآن، إلا أنّ هذا الاستناد يقوى و يضعف. بيانه ما مضى من أنّك إذا قلت: «رأيت أسدا»، تريد رجلا شبيها بالأسد، لم يشتبه عليك الأمر فى حاجه الثانى إلى الأوّل.

إذ لا يتصوّر أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذى أردته على التشبيه على حدّ المبالغه، و إيهام أنّ معنى من الأسد حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه اسما للسبع إزاء عينيك. فهذا إسناد تعلمه ضروره، و لو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا.

فمتى عقل فرع من غير أصل، و مشبّه من غير مشبّه به؟ و كلّ ما طريقه التشبيه فهذا سبيله أعنى: كل اسم جرى على الشى ء للاستعاره، فالاستناد فيه قائم ضروره.

و أما ما عدا

ذلـک، فلا یقوی استناده هـذه القوه، حتی لو حاول محاول أن ینکره أمکنه فی ظاهر الحال، و لم یلزمه به خروج إلی المحال، و ذلک کالید للنعمه: لو تکلّف متکلّف فزعم أنه وضع مستأنف أو فی حکم لغه مفرده، لم یمکن دفعه إلّا برفق و باعتبار خفیّ، و هو ما قدّمت من أنّا رأیناهم لا یوقعون هذه اللفظه علی ما لیس بینه و بین هذه الجارحه التباس و اختصاص.

و دلیـل آخر، و هو أن «الیـد» لاـ تکاد تقع للنعمه إلا و فی الکلام إشاره إلی مصـدر تلک النعمه، و إلی المولی. لها، و لا تصـلح حیث تراد النعمه مجرّده من إضافه لها إلی المنعم أو تلویح به.

بیـان ذلک: أنک تقول: «اتسـعت النعمه فی البلـد»، و لا تقول: «اتّسـعت الیـد فی البلـد»، و تقول: «أقتنی نعمه»، و لا تقول: «اقتنی یـدا»، و أمثال ذلک تکثر إذا تأمّلت و إنما یقال: «جلّت یده عندی»، و «کثرت أیادیه لدیّ»، فتعلم أن الأصل صـنائع یده و فوائده الصادره عن یده و آثار یده. و محال أن تکون «الید» اسما للنعمه هکذا علی الإطلاق، ثم لا تقع موقع النعمه. لو جاز ذلک، لجاز أن یکون المترجم للنعمه بـاسم لهـا فی لغه أخری، واضـعا اسـمها من تلـک اللغه فی مواضع لاـ تقع النعمه فیها من لغه العرب، و ذلک محال.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۵۰

و نظیر هذا قولهم فی صفه راعی الإبل: «إنّ له علیه إصبعا»، أی: أثرا حسنا، و أنشدوا «۱»: [من الطویل]

ضعيف العصا، بادى العروق، ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

و أنشد شيخنا رحمه اللّه مع هذا البيت قول الآخر: [من الرجز] صلب العصا بالضّرب قد دمّاها أى: جعلها كالدّمى فى الحسن. و كأن قوله: «صلب العصا»، و إن كان ضدّ قول الآخر: «ضعيف العصا»، فإنهما يرجعان إلى غرض واحد، و هو حسن الرّعيه، و العمل بما يصلحها و يحسن أثره عليها. فأراد الأول بجعله «ضعيف العصا» أنه رفيق بها مشفق عليها، لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائده، فهو يتخيّر ما لان من العصىّ، و أراد الثانى أنه جيّد الضّبط لها عارف بسياستها فى الرّعى، و يزجرها عن المراعى التى لا تحمد، و يتوخّى بها ما تسمن عليه، و يتضمّن أيضا أنه يمنعها عن التشرّد و التبدّد و أنها، لما عرفت من شدّه شكيمته و قوه عزيمته، و تنساق و تستوسق فى الجهه التى يريدها، من غير أن يجدّد لها فى كل حال ضربا.

و قال آخر: [من الرجز] صلب العصا جاف عن التّغزّل فهذا لم يبيّن ما بيّنه الآخر و أعود إلى الغرض فأنت الآن لا تشكّ أن «الإصبع» مشار بها إلى إصبع اليد، و أن وقوعها بمعنى الأثر الحسن، ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين. أ لا تراهم لا يقولون:

«رأيت أصابع الدار»، بمعنى: آثار الدار، و «له إصبع حسنه»، و «إصبع قبيحه»، على معنى: أثر حسن و أثر قبيح و نحو ذلك، و إنّما أرادوا أن يقولوا: «له عليها أثر حذق»،

---

(١) البيت للراعى

النميرى فى ديوانه ص ۱۶۲، و الإيضاح ص ۲۹۰ بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى.

من قصيده مطلعها:

بنى وابش إنا هوينا جواركم و ما جمعتنا نيّه قبلها معا

و أجدب الناس: أى أصيبوا بالقحط، و البيت فى المدح و جعل «ضعيف العصا» كنايه عن حسن الرعيه و غايه الشفقه فالسائس المشفق يختار العصا اللينه و أراد بالإصبع الأثر الناتج من حسن الرعيه من التسمين و التوليد. انظر اللسان (صلب)، (صبع)، (عصا)، و تاج العروس (صلب)، (صبع)، (عصا).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۵۱

فدلّوا عليه بالإصبع، لأن الأعمال الدقيقه له اختصاص بالأصابع، و ما من حذق فى عمل يد إلا و هو مستفاد من حسن تصريف الأصابع، و اللّطف فى رفعها و وضعها، كما تعلم فى الخطّ و النقش و كلّ عمل دقيق. و على ذلك قالوا فى تفسير قوله عزّ و جلّ: بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ [القيامه: ۴]، أى: نجعلها كخفّ البعير فلا تتمكّن من الأعمال اللّطيفه.

فكما علمت ملاحظه «الإصبع» لأصلها، و امتناع أن تكون مستأنفه بأنك رأيتها لا يصحّ استعمالها حيث يراد الأثر على الإطلاق، و لا يقصد الإشاره إلى حذق فى الصنعه، و أن يجعل أثر الإصبع إصبعا كذلك ينبغى أن تعلم ذلك فى «اليد» لقيام هذه العلّه فيها، أعنى: إن لم يجعل أثر اليد يدا، لم تقع للنعمه مجرّده من هذه الإشارات، و حيث لا يتصوّر

ذلك كقولنا: «أقتنى نعمه»، فاعرفه.

و يشبه هذا فى أن عبّر عن أثر اليد و الإصبع باسمهما، وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم: «عليه خاتم الملك»، و «عليه طابع من الكرم»، و المحصول أثر الخاتم و الطابع، قال «۱»: [من الطويل]

و قلن حرام قد أخلّ بربّنا و تترك أموال عليها الخواتم

و كذا قول الآخر «۲»: [من الوافر]

إذا قضّت خواتمها و فكّت يقال لها دم الودج الذبيح

و أما تقدير الشيخ أبى علىّ فى هذين البيتين حذف المضاف، و تأويله على معنى: «و تترك أموال عليها نقش الخواتم»، و «إذا فضّ ختم خواتمها»، فبيان لما يقتضيه الكلام من أصله، دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرت من جعل أثر الخاتم خاتما. و أنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصّه به، و ذقته بالحاسّه المهيّأه لمعرفه طعمه، لم تشكّ فى أن الأمر على ما أشرت لك إليه و يدلّ على أن المضاف قد

---

(۱) البيت للأعشى فى ديوانه ص ۱۲۹، و سر صناعه الإعراب ۲/ ۵۸۱، و بلا نسبه فى الخصائص ۲/ ۴۹۰، و سر صناعه الإعراب ۲/ ۶۶۶، ۷۶۹، و شرح المفصل ۱۰/ ۲۹، و جاء البيت فى المعجم المفصل للشواهد بلفظ «يقلن» بدل «فقلن». و قال الشيخ شاكر معلقا عليه: و فى المخطوطه و المطبوعتين: «قد أحل بربنا» بالحاء المهمله، و هو خطأ: يقال: «خلّ الرّجل، و أخلّ به» إذا

افتقر و ذهب ماله و احتاج اه.

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى شرح أشعار الهذليين ص ١٧٢، و لسان العرب (ذبح)، و تاج العروس (ذبح). و البيت قاله فى وصف الخمر حين يفضّ عنها دنّها، و أراد بالمذبوح عنه المشقوق و الأصل فى الذبح: الشقّ، و قيل ذبيح: وصف للدماء.

وقع فى المنسأه، و صار كالشّريعه المنسوخه، تأنيث الفعل فى قوله «إذا فضّت خواتمها»، و لو كان حكمه باقيا لذكّرت الفعل كما تذكّره مع الإظهار، و لاستقصاء هذا موضع آخر.

و ينظر إلى هذا المكان قولهم: «ضربته سوطا»، لأنهم عبّروا عن الضربه التى هى واقعه بالسّوط باسمه، و جعلوا أثر السّوط سوطا. و تعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم: إن المعنى: «ضربته ضربه بسوط»، بيان لما كان عليه الكلام فى أصله، و أنّ ذلك قد نسى و نسخ، و جعل كأن لم يكن، فاعرفه.

و أمّا إذا أريد باليد القدره، فهى إذن أحنّ إلى موضعها الذى بدئت منه، و أصبّ بأصلها، لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدره، إلا و الكلام مثل صريح، و معنى القدره منتزع من «اليد» مع غيرها، أو هناك تلويح بالمثل.

فمن الصريح قولهم: «فلان طويل اليد»، يراد: فضل القدره، فأنت لو وضعت القدره هاهنا فى موضع اليد أحلت، كما أنك لو حاولت فى قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قد قالت له نساؤه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أيّتنا أسرع لحاقا بك يا رسول اللّه»؟ فقال: «أطولكنّ يدا»، يريد

السخاء و الجود و بسط اليد بالبذل أن تضع موضع «اليد» شيئا مما أريد بهذا الكلام، خرجت من المعقول. و ذلك أن الشّبه مأخوذ من مجموع الطويل و اليد مضافا ذاك إلى هذه، فطلبه من «اليد» وحدها طلب الشى ء على غير وجهه.

و من الظاهر فى كون الشبه مأخوذا ما بين «اليد»، و غيرها قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ [الحجرات: ١]، المعنى: على أنهم أمروا باتّباع الأمر، فلما كان المتقدّم بين يدى الرّجل خارجا عن صفه المتابع له، ضرب جمله هذا الكلام مثلا للاتباع فى الأمر، فصار النّهى عن التقدّم متعلّقا باليد نهيا عن ترك الاتباع. فهذا مما لا يخفى على ذى عقل أنه لا تكون فيه «اليد» بانفرادها عباره عن شى ء، كما قد يتوهّم أنها عباره عن النعمه و متناوله لها، كالوضع المستأنف، حتى كأن لم تكن قطّ اسم جارحه.

و هكذا قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، و يسعى بذمّتهم أدناهم، و هم يد على من سواهم»، المعنى: و إن كان على قولك: «و هم عون على من سواهم»، فلا تقول: إن «اليد» بمعنى: العون حقيقه، بل المعنى: أن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الاتّفاق بينهم، مثل اليد الواحده فكما لا يتصوّر أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا، و أن تختلف بها الجهه فى التصرف، كذلك سبيل المؤمنين فى

تعاضدهم على المشركين، لأن كلمه التوحيد جامعه لهم، فلذلك كانوا كنفس واحده. فهذا كله

مما يعترف لك كل أحد فيه، بأنّ «اليد» على انفرادها لا تقع على شى ء، فيتوهّم لها نقل من معنى إلى معنى على حدّ وضع الاسم و استئنافه.

فأمّا ما تكون «اليد» فيه للقدره على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح، حتى ترى كثيرا من الناس يطلق القول: إنها بمعنى القدره و يجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين، فكقوله تعالى: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: ۶۷]، تراهم يطلقون «اليمين» بمعنى: القدره، و يصلون إليه قول الشمّاخ «۱»: [من الوافر]

إذا ما رايه رفعت لمجد تلقّاها عرابه باليمين

كما فعل أبو العباس فى الكامل، فإنه أنشد البيت ثم قال: «قال أصحاب المعانى: معناه: بالقوه»، و قالوا مثل ذلك فى قوله تعالى: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ.

و هذا منهم تفسير على الجمله، و قصد إلى نفى الجارحه بسرعه، خوفا على السامع من خطرات تقع للجهّال و أهل التشبيه جلّ اللّه و تعالى عن شبه المخلوقين و لم يقصدوا إلى بيان الطريقه و الجهه التى منها يحصل على القدره و القوه. و إذا تأمّلت علمت أنه على طريقه المثل.

و كما أنّا نعلم فى صدر هذه الآيه و هو قوله عز و جل: وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ [الزمر: ۶۷]، أن محصول المعنى على القدره، ثم لا نستجيز أن نجعل القبضه اسما للقدره، بل نصير إلى القدره من طريق التأويل و المثل، فنقول: إنّ المعنى و اللّه أعلم أن مثل الأرض فى تصرّفها تحت أمر اللّه و قدرته، و أنه لا يشذّ شى ء مما فيها من سلطانه عزّ و جلّ، مثل الشى ء

يكون فى قبضه الآخذ له منّا و الجامع يده عليه.

كـذلك حقّنـا أن نسـلك بقوله تعالى: مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ هـذا المسـلك، فكأنّ المعنى- و اللّه أعلم- أنه عزّ و جلّ يخلق فيها صـفه الطيّ حتى ترى كالكتاب المطويّ بيمين الواحد منكم، و خصّ «اليمين» لتكون أعلى و أفخم للمثل.

---

(١) البيت للشـماخ و هو ابن ضرار الغطفانى، و البيت من ديوانه ص ٣٣۶، و الإيضاح ٢٠١، ٢٧۴ بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و الكامل بتحقيقنا ١/ ١٨۶، و لسـان العرب (عرب)، (يمن)، و تهـذيب اللغه ٨/ ٢٢١، ۵/ ۵٢٣، و جمهره اللغه ٣١٩، ٩٩۴، و تاج العروس (عرب)، و مقاييس اللغه ۶/ ١۵٨، و قد أورده ابن جنى فى الخصائص فى الجزء الثالث بلا نسـبه. و عرابه: اسم رجل من الأنصار من الأوس.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢۵۴

و إذا كنت تقول: «الأمر كلّه للّه»، فتعلم أنه على سبيل أن لا سـلطان لأحـد دونه و لا اسـتبداد و كـذلك إذا قلت للمخلوق: «الأمر بيدك»، أردت المثل، و أنّ الأمر كالشى ء يحصل فى يده من حيث لا يمتنع عليه.

فما معنى التوقّف فى أن «اليمين» مثل، و ليست باسم للقـدره، و كاللغه المسـتأنفه؟ و من أين يتصوّر ذلك و أنت لا تراها تصـلح حيث لاـ وجه للمثـل و التشبيه؟ فلاـ يقـال: «هو عظيم اليمين»، بمعنى عظيم القـدره، و «قـد عرفت يمينك على هـذا»، كما تقول: «عرفت قدرتك».

و هكذا شأن البيت، إذا أحسنت النّظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل، و لم تأخذ مجموع

المعنى من مجموع التلقّى و اليمين على حدّ قولهم: «تقبّلته بكلتا اليدين»، و كقوله «١»: [من الطويل]

و لكن باليدين ضمانتى و ملّ بفلج فالقنافذ عوّدى

و قبل هذا البيت «٢»: [من الطويل]

لعمرك ما ملّت ثواء ثويّها دليجه، إذ ألقى مراسى مقعد

و هو يشكوك إلى طبع الشعر، و رأيت المعنى يتألّم و يتظلّم.

و إن أردت أن تختبر ذلك فقل:

إذا ما رايه رفعت لمجد تلقّاها عرابه باليمين «٣»

---

(١) البيت لأوس بن حجر فى ديوانه يمدح فيهما حليمه بنت فضاله بن كلده و يذكر فضلها و ذلك حين صرعته ناقته. الأغانى ١١/ ٧٦. و يروى الشطر الثانى منه بلفظ:

و حلّ بشرج م القبائل عوّدى و الضمانه: مرض يصيب الجسد من كبر أو بلاء أو نحوهما. و الفلج و القنافذ: موضعان فالفلج موضع بين البصره و ضريّه، و قيل: هو واد بطريق البصره إلى مكه، و القنافذ: أرض فيها صعود و هبوط، و قيل: أجبل رمل. و عوّدى: جمع عائد، و هو الذى يعود المريض و أضيفت إلى ياء المتكلم.

(٢) البيت لأوس بن حجر فى ديوانه و هو يسبق البيت السابق فى الترتيب، و هو فى الأغانى أيضا ١١/ ٧٦. و الثواء: الإقامه و الثوىّ: المقيم و هو الضيف. «و ألقى

مراسى مقعد» يريد أقام عندها لا يستطيع الحركه، و المقعد: الذى أقعده المرض أو غيره. و يروى البيت «حليمه» بدل «دليجه».

انظر السابق.

(۳) سبق تخريجه، و يروى «تناولها عرابه باقتدار» بدل «باليمين».

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۵۵

ثم انظر، هل تجد؟ ما كنت تجد، إن كنت ممّن يعرف طعم الشعر، و يفرّق بين التّفه الذى لا يكون له طعم و بين الحلو اللذيذ؟

و ممّا يبيّن ذلك من جهه العباره: أنّ الشعر كما تعلم لمدح الرّجل بالجود و السخاء، لأنه سأل الشمّاخ عمّا أقدمه؟ فقال: «جئت لأمتار»، فأوقر رواحله تمرا و أتحفه بغير ذلك. و إذا كان كذلك، كان المجد الذى تطاول له و مدّ إليه يده، من المجد الذى أراده أبو تمام بقوله «۱»: [من الوافر]

توجّع أن رأت جسمى نحيفا كأنّ المجد يدرك بالصّراع

و لو كان فى ذكر البأس و البطش و حيث تراد القوه و الشده، لكان حمل اليمين على صريح القوّه أشبه، و بأن يقع منه فى القلب معنى يتماسک أجدر. فإن قال: أراد تلقّاها بجدّ و قوّه رغبه، قيل فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هذه المواضع. و من التزم ذلک فالسكوت عنه أحسن. و ما زال الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثّه على الأمر، و أن يأخذ فيه بالجدّ: «أخرج يدک اليمنى!» و ذاک أنها أشرف اليدين و أقواهما، و التى لا غناء

للأخرى دونها، فلا عنى إنسان بشى ء إلا بدأ بيمينه فهيّأها لنيله. و متى ما قصدوا جعل الشى ء فى جهه العنايه، جعلوه فى اليد اليمنى، و على ذلك قول البحترى «٢»: [من الوافر]

و إنّ يدى، و قد أسندت أمرى إليه اليوم، فى يدك اليمين

«إليه»، يعنى إلى يونس بن بغا، و كان حظيّا عند الممدوح، و هو المعتز باللّه.

و لو أن قائلا قال:

إذا ما رايه رفعت لمجد و مكرمه مددت لها اليمينا

لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشمّاخ فيه.

و لو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قتّه العدوىّ «٣»: [من الوافر]

بنى تيم بن مرّه إنّ ربّى كفانى أمركم و كفاكمونى

---

(١) البيت لأبى تمام فى ديوانه ص ١٨١، من قصيده قالها يمدح مهدى بن أصرم مطلعها:

خذى عبرات عينك عن زماعى و صونى ما أذلت من القناع

و الزماع: الاعتزام، كانت نساء العرب إذا أيقن بالفراق كشفن رءوسهن و أبدين محاسنهن و بكين ليدعون بذلك إلى ترك الرحيل.

(٢) البيت فى ديوانه فانظره.

(٣) الأبيات لسليمان بن قته العدوى، و هو مولى تيم قريش. تيم

بن مره بن كعب بن لؤى. و الفرس:

مصدر فرس الأسد فريسته الكسر، قال ابن الأعرابى: الفرس أن تدقّ الرقبه قبل أن تذبح الشاه و افترس الدّابه: أخذه فدقّ عنقه. اللسان (فرس). الضّغن: الحقد، و الضّغين: الرجل إذا وغر صدره و دوى،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۵۶

فحيّوا ما بدا لكم، فإنّى شديد الفرس للضغن الحرون

يعانى فقدكم أسد مدلّ شديد الأسر يضبث باليمين

لكانوا أعـذر فيه، لأن المدح مدح بالقوه و الشده. و على ذلك فإنّ اعتبار الأصل الذى قدّمت، و هو أنك لا ترى «اليمين» حيث لا معنى لليد، يقف بنا على الظاهر، كأنه قال: إذا ضبث ضبث باليمين.

و مما يبيّن موضع بيت الشمّاخ، إذا اعتبرت به، قول الخنساء «۱»: [من المتقارب]

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا

فنال الذى فوق أيديهم من المجد، ثم مضى مصعدا

إذا رجعت إلى نفسك، لم تجد فرقا بين أن

يمدّ إلى المجد يدا، و بين أن يتلقّى رايته باليمين. و هذا إن أردت الحقّ أبين من أن تحتاج فيه إلى فضل قول. إلّا أنّ هذا الضرب من الغلط، كالداء الدّوىّ، حقّه أن يستقصى فى الكىّ عليه و العلاج منه، فجنايته على معانى ما شرف من الكلام عظيمه، و هو مادّه للمتكلفين فى التأويلات البعيده و الأقوال الشّنيعه.

و مثل من توقّف فى التفات هذه الأسامى إلى معانيها الأوّل، و ظنّ أنها مقطوعه عنها قطعا يرفع الصله بينها و بين ما جازت إليه، مثل من إذا نظر فى قوله تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ [ق: ٣٧]، فرأى المعنى على الفهم و العقل ١ أخذه ساذجا و قبله غفلا، و قال: «القلب، هاهنا بمعنى: العقل» و ترك أن يأخذه من جهته، و يدخل إلى المعنى من طريق المثل فيقول: «إنّه حين لم ينتفع بقلبه، و لم يفهم بعد أن كان القلب للفهم، جعل كأنه قد عدم القلب جمله و خلع من صدره خلعا، كما جعل الذى لا يعى الحكمه و لا يعمل الفكر فيما تدركه عينه و تسمعه

و امرأه ذات ضغن على زوجها إذا أبغضته و تضاغن القوم: انطووا على الأحقاد. اللسان (ضغن).

و الحرون: الصعب الذى لا ينقاد. و فرس حرون من خيل حرن: لا ينقاد إذا اشتد به الجرى. المدلّ:

الجرى ء، يقال: هى تدلّ عليه أى تجترئ عليه، يقال: ما دلّك علىّ؟ أى: ما جرّاك علىّ؟ و دلّ علىّ قومى أى: جرّأهم. اللسان (دلل). و الأسر: السجن و الحبس و القوه و أسرت الرجل أسرا فهو أسير و مأسور أى: محبوس، و الإسار: الرباط. اللسان (أسر). و الضبث: قبضك بكفّك على الشى ء.

(١)

البيتان من المتقارب للخنساء فى ديوانها ص ۳۵، ۳۶، و فى الكامل بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى ۳/ ۲۴۵.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۵۷

أذنه، كأنه عادم للسمع و البصر، و داخل فى العمى و الصمم» و يذهب عن أنّ الرجل إذا قال: «قد غاب عنى قلبى»، و «ليس يحضرنى قلبى» فإنه يريد أن يخيّل إلى السامع أنه قد فقد قلبه، دون أن يقول: «غاب عنى علمى و عزب عقلى»، و إن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك، كما أنه إذا قال: «لم أكن هاهنا»، يريد شدّه غفلته عن الشى ء، فهو يضع كلامه على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته و بذاته، دون أن يريد الإخبار بأنّ علمه لم يكن هناك.

و غرضى بهذا أن أعلمك أنّ من عدل عن الطريقه فى الخفىّ، أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلىّ، و صار من دقيق الخطأ إلى الجليل، و من بعض الانحرافات إلى ترك السبيل. و الذى جلب التّخليط و الخبط الذى تراه فى هذا الفنّ، أنّ الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذا من الشى ء وحده، و بين أن يؤخذ ما بين شيئين، و ينتزع من مجموع كلام، هو كما عرّفتك فى الفرق بين الاستعاره و التمثيل باب من القول تدخل فيه الشّبهه على الإنسان من حيث لا يعلم، و هو «۱» من السّهل الممتنع، يريك أن قد انقاد و به إباء، و يوهمك أن قد أثّرت فيه رياضتك و به بقيّه شماس.

و من خاصّيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق و

المخالف، و المعترف به و المنكر له، فإنك ترى الرجل يوافقك فى الشى ء منه، و يقرّ بأنه مثل، حتى إذا صار إلى نظير له خلّط: إمّا فى أصل المعنى، و إما فى العباره.

فالتخليط فى المعنى كما مضى، من تأوّل اليمين على القوه. و كذكرهم أن القلب فى الآيه بمعنى العقل، ثم عدّهم ذلك وجها ثانيا.

و التخليط فى العباره، كنحو ما ذكره بعضهم فى قوله «٢»: [من المتقارب]

هوّن عليك فإنّ الأمور بكفّ الإله مقاديرها

فإنه استشهد به فى تأويل خبر جاء فى عظم الثواب على الزكاه إذا كانت من

---

(١) أى: الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذا من الشى ء الواحد أو ما بين شيئين. (رشيد).

(٢) البيت للأعور الشنّى فى الدرر ٤/ ١٣٩، و فى الإيضاح ص ٢٧٥ بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٣٨، و شرح شواهد المغنى ١/ ٤٢٧، ٢/ ٨٧٤، و الكتاب ١/ ٦٤، و لبشر بن أبى خازم فى العقد الفريد ٣/ ٢٠٧، و نسبها فى كتاب العمده إلى عمر بن الخطاب، و نقل البغدادى عن البيهقى فى الأسماء و الصفات بإسناده أن عمر كان يكثر إنشادهما دون نسبه و قال البغدادى فى شرح شواهد المغنى: رأيتهما فى ديوان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، و قال الشيخ شاكر: الصواب هو الأول يقصد للأعور الشنّى.

ثم قال: «الكفّ هاهنا بمعنى: السلطان و الملك و القدره، قال: و قيل الكف هاهنا بمعنى: النعمه». و الخبر هو ما رواه أبو هريره عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ أحدكم إذا تصدّق بالتمره من الطّيّب- و لا يقبل اللّه إلّا الطيب- جعل اللّه ذلك فى كفّه، فيربّيها كما يربّى أحدكم فلوّه «١» حتى يبلغ بالتمره مثل أحد»، ما يظنّ بمن نظر فى العربيه يوما أن يتوهّم أن «الكفّ» يكون على هذا الإطلاق، و على الانفراد، بمعنى السلطان و القدره و النعمه، و لكنه أراد المثل فأساء العباره، إلّا أنّ من سوء العباره ما أثر التقصير فيه أظهر، و ضرره على الكلام أبين.

و استقصاء هذا الباب لا يتمّ حتى يفرد بكلام، و الوجه الرجوع إلى الغرض.

و يجب أن تعلم قبل ذلك أنّ خلاف من خالف فى «اليد» و «اليمين»، و سائر ما هو مجاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل، لا يقدح فيما قدّمت من حدّث الحقيقه و المجاز، لأنه لا يخرج فى خلافه عن واحد من الاعتبارين، فمتى جعل «اليمين» على انفرادها تفيد القوه، فقد جعلها حقيقه، و أغناها عن أن تستند فى دلالتها إلى شى ء و إن اعترف بضرب من الحاجه إلى الجارحه و النظر إليها، فقد وافق فى أنها مجاز. و كذا القياس فى الباب كله، فاعرفه.

فصل «فى المجاز العقلى و المجاز اللغوى و الفرق بينهما»

فصل «فى المجاز العقلى و المجاز اللغوى و الفرق بينهما»

و الذى ينبغى أن يذكر الآن: حدّ الجمله فى الحقيقه و المجاز، إلّا أنك تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها و مقدّمته أصلا، و هو المعنى الذى من أجله اختصّت الفائده بالجمله، و لم يجز حصولها بالكلمه الواحده، كالاسم الواحد، و الفعل

من غير اسم يضمّ إليه. و العلّه فى ذلک أن مدار الفائده فى الحقيقه على الإثبات و النفى، أ لا ترى أن «الخبر» أوّل معانى الكلام و أقدمها، و الذى تستند سائر المعانى إليه و تترتّب عليه؟ و هو ينقسم إلى هذين الحكمين. و إذا ثبت ذلک، فإن الإثبات يقتضى مثبتا و مثبتا له، نحو أنک إذا قلت «ضرب زيد» أو «زيد ضارب»، فقد أثبتّ الضرب فعلا أو وصفا لزيد و كذلک النفى يقتضى منفيّا و منفيّا عنه، فإذا قلت: «ما ضرب زيد» و «ما زيد ضارب»، فقد نفيت الضرب عن زيد و أخرجته عن أن يكون فعلا له. فلما

---

(١) الفلوّ و الفلوّ: المهر الصغير أو الجحش إذا فطما، و جمعه: أفلاء.

كان الأمر كذلک احتيج إلى شيئين يتعلّق الإثبات و النفى بهما، فيكون أحدهما مثبتا و الآخر مثبتا له و كذلک يكون أحدهما منفيّا و الآخر منفيّا عنه. فكان ذانک الشيئان:

المبتدأ و الخبر، و الفعل و الفاعل. و قيل للمثبت و للمنفى «مسند» و «حديث»، و للمثبت له و المنفىّ عنه «مسند إليه» و «محدّث عنه». و إذا رمت الفائده أن تحصل لک من الاسم الواحد أو الفعل وحده، صرت كأنّک تطلب أن يكون الشى ء الواحد مثبتا و مثبتا له، و منفيّا و منفيّا عنه، و ذلک محال.

فقد حصل من هذا أنّ لكل واحد من حكمى الإثبات و النفى حاجه إلى أن تقيّده مرّتين، و تعلّقه بشيئين.

تفسير ذلک: أنک إذا قلت: «ضرب زيد»،

فقد قصدت إثبات الضرب لزيد.

فقولك: «إثبات الضرب»، تقييد للإثبات بإضافته إلى الضرب ثم لا يكفيك هذا التقييد حتى تقيّده مرّه أخرى فتقول: «إثبات الضرب لزيد»، فقولك: «لزيد»، تقييد ثان و فى حكم إضافه ثانيه. و كما لا يتصوّر أن يكون هاهنا إثبات مطلق غير مقيّد بوجه أعنى أن يكون إثبات و لاـ مثبت له و لاـ شى ء يقصد بذلك الإثبات إليه، لاـ صفه و لاـ حكم و لاـ موهوم بوجه من الوجوه كذلك لا يتصوّر أن يكون هاهنا إثبات مقيّد تقييدا واحدا، نحو إثبات شى ء فقط، دون أن تقول: «إثبات شى ء لشى ء»، كما مضى من إثبات الضرب لزيد. و النفى بهذه المنزله، فلا يتصوّر نفى مطلق، و لا نفى شى ء فقط، بل تحتاج إلى قيدين كقولك: «نفى شى ء عن شى ء».

فهذه هى القضيه المبرمه الثابته التى تزول الرّاسيات و لا تزول. و لا تنظر إلى قولهم: «فلان يثبت كذا»، أى: يدّعى أنه موجود، و «ينفى كذا»، أى: يقضى بعدمه كقولنا: «أبو الحسن يثبت مثال جخدب بفتح الدال، و صاحب الكتاب ينفيه»، لأنّ الذى قصدته هو الإثبات و النفى فى الكلام.

ثم اعلم أن فى الإثبات و النفى بعد هذين التقييدين حكما آخر: هو كتقييد ثالث، و ذلك أنّ للإثبات جهه، و كذلك النفى. و معنى ذلك: أنك تثبت الشى ء للشى ء مرّه من جهه، و أخرى من جهه غير تلك الأولى.

و تفسيره: أنّك تقول: «ضرب زيد»، فتثبت الضرب فعلا لزيد و تقول «مرض زيد» فتثبت المرض وصفا له، و هكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز و الطباع، و ذلك فى الجمله على ما لا يوصف الإنسان بالقدره عليه، نحو: كرم و ظرف و حسن و قبح و

طال و قصر. و قد يتصوّر فی الشی ء الواحد أن تثبته من الجهتين جميعا، و ذلک فی

أسرار البلاغه فی علم البيان، ص: ۲۶۰

كل فعل دلّ على معنى يفعله الإنسان فی نفسه نحو: «قام» و «قعد». إذا قلت: «قام زيد»، فقد أثبتّ القيام فعلا له من حيث تقول: «فعل القيام» و «أمرته بأن يفعل القيام»، و أثبتّه أيضا وصفا له من حيث أن تلک الهيئه موجوده فيه، و هو فی اكتسابه لها كالشخص المنتصب، و الشجره القائمه على ساقها التی توصف بالقيام، لا- من حيث كانت فاعله له، بل من حيث كان وصفا موجودا فيها.

و إذ قد عرفت هذا الأصل، فها هنا أصل آخر يدخل فی غرضنا: و هو أن الأفعال على ضربين: «متعدّ» و «غير متعدّ»، فالمتعدّی على ضربين:

ضرب يتعدّى إلى شی ء هو مفعول به، كقولک: «ضربت زيدا»، «زيدا» مفعول به، لأنک فعلت به الضرب و لم يفعله بنفسه.

و ضرب يتعدّى إلى شی ء هو مفعول على الإطلاق، و هو فی الحقيقه «كفعل» و كلّ ما كان مثله فی كونه عامّا غير مشتقّ من معنى خاصّ «كصنع، و عمل، و أوجد، و أنشأ». و معنى قولی: «من معنى خاصّ» أنه ليس «كضرب» الذی هو مشتقّ من «الضرب» أو «أعلم» الذی هو مأخوذ من العلم. و هكذا كل ما له مصدر، ذلک المصدر فی حكم جنس من المعانی. فهذا الضّرب «۱» إذا أسند إلى شی ء كان المنصوب له مفعولا لذلک الشی ء على الإطلاق، كقولک: «فعل زيد القيام»، فالقيام مفعول فی نفسه و

ليس بمفعول به.

و أحقّ من ذلك أن تقول: «خلق اللّه الأناسىّ، و أنشأ العالم، و خلق الموت و الحياه»، و المنصوب فى هذا كله مفعول مطلق لا تقييد فيه، إذ من المحال أن يكون معنى: «خلق العالم» «فعل الخلق به»، كما تقول فى «ضربت زيدا» «فعلت الضرب بزيد»، لأن «الخلق» من «خلق» «كالفعل» من «فعل»، فلو جاز أن يكون المخلوق كالمضروب، لجاز أن يكون المفعول فى نفسه كذلك، حتى يكون معنى:

«فعل القيام» «فعل شيئا بالقيام»، و ذلك من شنيع المحال.

و إذ قد عرفت هذا، فاعلم أن الإثبات فى جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول، و ليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول. فإذا قلت: «فعل زيد الضرب»، كنت أثبتّ الضرب فعلا لزيد، و كذلك تثبت «العالم» فى قولك: «خلق اللّه العالم»، خلقا للّه تعالى. و لا يصحّ فى شى ء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا البته، و توهّم ذلك خطأ عظيم و جهل نعوذ باللّه منه.

---

(١) يريد بهذا الضرب نحو فعل و صنع إلخ. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٦١

و أما الضرب الآخر: و هو الذى منصوبه مفعول به، فإنك تثبت فيه المعنى الذى اشتقّ منه فعل فعلا للشى ء، كإثباتك الضرب لنفسك فى قولك: «ضربت زيدا»، فلا يتصوّر أن يلحق الإثبات مفعوله، لأنه إذا كان مفعولا به، و لم يكن فعلا لك، استحال أن تثبته فعلا، و إثباته وصفا أبعد فى الإحاله.

فأما قولنا فى نحو: «ضربت زيدا»، إنك أثبتّ زيدا مضروبا، فإنّ ذلك يرجع إلى أنك

تثبت الضرب واقعا به منك، فأمّا أن تثبت ذات زيد لك، فلا يتصوّر، لأن الإثبات كما مضى لا بدّ له من جهه، و لا جهه هاهنا. و هكـذا إذا قلت: «أحيا اللّه زيـدا»، كنت فى هـذا الكلام مثبتا الحياه فعلا للّه تعالى فى زيـد، فأما ذات زيد، فلم تثبتها فعلا للّه بهذا الكلام، و إنمـا يتـأتّى لـك ذلـك بكلام آخر، نحو أن تقول: «خلق اللّه زيـدا» و «و أوجـده» و ما شاكله، مما لا يشـتقّ من معنى خاصّ كالحياه و الموت و نحوهما من المعانى.

و إذ قـد تقرّرت هـذه المسائل، فينبغى أن تعلم أن من حقك إذا أردت أن تقضـى فى الجمله بمجاز أو حقيقه، أن تنظر إليها من جهتين:

إحداهما: أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات، أ هو فى حقه و موضعه، أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه؟

و الثانيه: أن تنظر إلى المعنى المثبت أعنى: ما وقع عليه الإثبات كالحياه فى قولك: «أحيا اللّه زيدا»، و الشـيب فى قولك: «أشاب اللّه رأسى»، أ ثابت هو على الحقيقه، أم قد عدل به عنها؟

و إذا مثّل لك دخول المجاز على الجمله من الطريقين، عرفت ثباتها على الحقيقه منهما.

فمثال ما دخله المجاز من جهه الإثبات دون المثبت قوله «١»: [من الطويل]

و شيّب أيّام الفراق مفارقى و أنشزن نفسى فوق حيث تكون

---

(١) البيت لجميل فى ديوانه و جاء بروايه لفظها:

و تشيّب روعات الفراق مفارقى

و أنشزن نفسى فوق حيث تكون

و فى الإيضاح ص ۳۱ بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى و نسبه البعض لجرير بن عطيه. و المفارق جمع مفرق، و هو مواضع افتراق الشعر، و المعنى: أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها من الجسم و بلغت بها الحلقوم.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۶۲

و قوله «۱»: [من المتقارب]

أشاب الصغير و أفنى الكبى ر كرّ الغداه و مرّ العشى

المجاز واقع فى إثبات الشيب فعلا للأيام و لكرّ الليالى، و هو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه، لأن من حق هذا الإثبات، أعنى إثبات الشّيب فعلا، أن لا يكون إلا مع أسماء اللّه تعالى، فليس يصحّ وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه. و قد وجّه فى البيتين كما ترى إلى الأيام و كرّ الليالى، و ذلك ما لا يثبت له فعل بوجه، لا الشيب و لا غير الشيب. و أما المثبت فلم يقع فيه مجاز، لأنه الشيب و هو موجود كما ترى.

و هكذا إذا قلت: «سرّنى الخبر» و «سرّنى لقاؤك»، فالمجاز فى الإثبات دون المثبت، لأن المثبت هو «السرور»، و هو حاصل على حقيقته.

و مثال ما دخل المجاز فى مثبته دون إثباته، قوله عز و جل: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ [الأنعام: ۱۲۲]، و ذلك

أن المعنى- و اللّه أعلم- على أن جعل العلم و الهـدى و الحكمه حياه للقلوب، على حـدّ قوله عز و جل: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا [الشورى: ۵۲]، فالمجاز فى المثبت و هو «الحياه»، فأما الإثبات فواقع على حقيقته، لأنه ينصـرف إلى أن الهـدى و العلم و الحكمه فضل من اللّه و كائن من عنده.

و من الواضـح فى ذلـك قوله عز و جل: فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [فاطر: ۹]، و قوله: إِنَّ الَّذِی أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى [فصلت: ۳۹]، جعل خضـره الأرض و نضـرتها و بهجتها بما يظهره اللّه تعالى فيها من النّبات و الأنوار و الأزهار و عجائب الصنع، حياه لها، فكان ذلك مجازا فى المثبت، من حيث جعل ما ليس

---

(۱) البيت للصـلتان العبدى و هو فى الكامل بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى ۳/ ۲۵، و البيت جاء ضـمن عده أبيات له فى الشعر و الشعراء و منها:

إذا ليله هرّمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتى

نروح و نغدو لحاجاتنا و حاجه من عاش لا تنقضى

و هو من الشـعر المسـتحسن له و جاءت الأبيات عنه فى خزانه الأدب ۱/ ۳۰۸، و عيون الأخبار ۳/ ۱۳۲، و ديوان الحماسه بشرح المرزوقى ۳/ ۱۲۰۹، و الحيوان ۳/ ۴۷۷، إلا أن الجاحظ نسبها للصلتان السعدى و الأبيات بلا نسبه فى لسان العرب (هرم).

بحياه حياه على التشبيه، فأما نفس الإثبات فمحض الحقيقه، لأنه إثبات لما ضرب الحياه مثلا له فعلا للّه تعالى، لا حقيقه أحقّ من ذلک.

و قد يتصوّر أن يدخل المجاز الجمله من الطريقين جميعا. و ذلک أن يشبّه معنى بمعنى و صفه بصفه، فيستعار لهذه اسم تلک، ثم تثبت فعلا لما لا يصحّ الفعل منه، أو فعل تلک الصفه، فيكون أيضا فى كل واحد من الإثبات و المثبت مجاز، كقول الرجل لصاحبه: «أحيتنى رؤيتک»، يريد: آنستنى و سرّتنى و نحوه، فقد جعل الأنس و المسرّه الحاصله بالرؤيه حياه أوّلا، ثم جعل الرؤيه فاعله لتلک الحياه.

و شبيه به قول المتنبى «۱»: [من الطويل]

و تحيى له المال الصّوارم و القنا و يقتل ما يحيى التّبسّم و الجدا

جعل الزياده و الوفور حياه فى المال، و تفريقه فى العطاء قتلا، ثم أثبت الحياه فعلا للصوارم، و القتل فعلا للتبسم، مع العلم بأنّ الفعل لا يصحّ منهما. و نوع منه:

«أهلک النّاس الدينار و الدرهم»، جعل الفتنه هلاكا على المجاز، ثم أثبت الهلاک فعلا للدينار و الدرهم، و ليسا مما يفعلان، فاعرفه.

و إذ قد تبيّن لک المنهاج فى الفرق بين دخول المجاز فى الإثبات، و بين دخوله فى المثبت، و بين أن ينتظمهما عرفت الصوره فى الجميع، فاعلم أنه إذا وقع فى الإثبات فهو متلقى من العقل، و إذا عرض فى المثبت فهو

متلقّى من اللغه، فإن طلبت الحجّه على صحه هذه الدّعوى، فإنّ فيما قدّمت من القول ما يبيّنها لک، و يختصر لک الطريق إلى معرفتها.

و ذلک أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يقيّد مرّتين كقولك: «إثبات شى ء لشى ء»، و لزم من ذلک أن لا يحصل إلا بالجمله التى هى تأليف بين حديث و محدّث عنه، و مسند و مسند إليه، علمت أن مأخذه العقل، و أنه القاضى فيه دون اللغه، لأن اللغه لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت و تنفى، و تنقض و تبرم. فالحكم بأن الضّرب

---

(١) البيت فى ديوانه ص ١٢۴ من قصيده يمدح بها سيف الدوله و يهنئه بعيد الأضحى، مطلعها:

لكلّ امرئ من دهره ما تعودا و عاده سيف الدوله الطعن فى العدا

انظر البيت فى الإيضاح بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى، و شرح التبيان للعكبرى ١/ ١٩۵، و الإشارات و التنبيهات ص ٢۶. و الصوارم: السيوف، و القنا: جمع قناه و هى الرمح، و الجدا: العطاء و الجدا مقصور الجدوى، و الجدا: المطر العام و المعنى الأول هو الأنسب للبيت، و قد ذكره شارح ديوانه، إذ لا محل لكونه بمعنى المطر هنا و يثبته أيضا تعليق الخطيب بعده.

فعل لزيد، أو ليس بفعل له، و أن المرض صفه له، أو ليس بصفه له، شى ء يضعه المتكلم و دعوى يدّعيها. و

ما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب، أو اعتراف أو إنكار، و تصحيح أو إفساد، فهو اعتراض على المتكلّم، و ليس اللغه من ذلك بسبيل، و لا منه فى قليل و لا كثير.

و إذا كان كذلك، كان كلّ وصف يستحقّه هذا الحكم من صحه و فساد، و حقيقه و مجاز، و احتمال و استحاله، فالمرجع فيه و الوجه إلى العقل المحض و ليس للغه فيه حظّ، فلا تحلى و لا تمرّ، و العربىّ فيه كالعجمىّ، و العجمىّ كالتركىّ، لأن قضايا العقول هى القواعد و الأسس التى يبنى غيرها عليها، و الأصول التى يردّ ما سواها إليها.

فأما إذا كان المجاز فى المثبت كنحو قوله تعالى: فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ [سوره فاطر: ۹]، فإنما كان مأخذه اللغه، لأجل أنّ طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياه على ما ليس بحياه، تشبيها و تمثيلا، ثم اشتقّ منها- و هى فى هذا التقدير- الفعل الذى هو «أحيا»، و اللغه هى التى اقتضت أن تكون الحياه اسما للصّفه التى هى ضدّ الموت، فإذا تجوّز فى الاسم فأجرى على غيرها، فالحديث مع اللغه، فاعرفه.

إن قال قائل فى أصل الكلام الذى وضعته على أن المجاز يقع تاره فى الإثبات، و تاره فى المثبت، و أنه إذا وقع فى الإثبات فهو طالع عليك من جهه العقل، و باد لك من أفقه و إذا عرض فى المثبت فهو آتيك من ناحيه اللغه:

ما قولكم إن سوّيت بين المسألتين، و ادّعيت أن المجاز بينهما جميعا فى المثبت و أنزّل هكذا فأقول: «الفعل» الذى هو مصدر «فعل» قد وضع فى اللغه للتأثير فى وجود الحادث، كما أن الحياه موضوعه للصفه المعلومه، فإذا قيل: «فعل الرّبيع النّور»، جعل

تعلّق النّور فى الوجود بالربيع من طريق السّـبب و العاده «فعلا»، كما تجعل خضره الأرض و بهجتها حياه، و العلم فى قلب المؤمن نورا و حيـاه. و إذا كـان كـذلك، كـان المجـاز فى أن جعل ما ليس بفعل فعلا، و أطلق اسم الفعل على غير ما وضع له فى اللغه، كما جعل ما ليس بحياه حياه و أجرى اسمها عليه، فإذا كان ذلك مجازا لغويّا، فينبغى أن يكون هذا كذلك.

فالجواب أنّ الذى يدفع هذه الشبهه، أن تنظر إلى مدخل المجاز فى المسألتين.

فإن كان مدخلهما من جانب واحد، فالأمر كما ظننت، و إن لم يكن كذلك استبان لك الخطأ فى ظنّك.

و الذى بيّن اختلاف دخوله فيهما، أنك تحصل على المجاز فى مسأله «الفعل»

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۶۵

بالإضـافه لاـ بنفس الاـسم، فلو قلت: «أثبتّ النّور فعلاـ» لم تقع فى مجـاز، لأـنه فعـل للّه تعالى، و إنما تصـير إلى المجاز إذا قلت: «أثبتّ النّور فعلا للربيع».

و أمـا فى مسـأله «الحيـاه»، فإنـك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافه، و ذلك قولك: «أثبت بهجه الأرض حياه» أو «جعلها حياه»، أ فلا ترى المجاز قد ظهر لك فى «الحياه» من غير أن أضفتها إلى شى ء، أى: من غير أن قلت:

«لكذا»؟

و هكـذا إذا عبّرت بـالنفس، تقول فى مسـأله الفعـل: «جعـل مـا ليس بفعل للربيع فعلا له»، و تقول فى هـذه: «جعل ما ليس بحياه حياه» و تسكت، و لا تحتاج أن تقول: «جعل ما ليس بحياه للأرض حياه للأرض»، بل لا

معنى لهذا الكلام، لأن يقتضى أنک أضفت حياه حقيقه إلى الأرض، و جعلتها مثلا تحيا بحياه غيرها، و ذلک بيّن الإحاله.

و من حقّ المسائل الدقيقه أن تتأمّل فيها العبارات التى تجرى بين السائل و المجيب، و تحقّق، فإنّ ذلک يکشف عن الغرض، و يبيّن جهه الغلط. و قولک:

«جعل ما ليس بفعل فعلا» احتذاء لقولنا: «جعل ما ليس بحياه حياه» لا يصحّ- لأن معنى هذه العباره أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدّعى أو شى ء کالشبه، لا أن يعطّل الاسم من الفائده، فيراد بها ما ليس بمعقول.

فنحن إذا تجوّزنا فى «الحياه»، فأردنا بها العلم، فقد أودعنا الاسم معنى، و أردنا به صفه معقوله کالحياه نفسها و لا يمکنک أن تشير فى قولک: «فعل الربيع النّور»، إلى معنى تزعم أن لفظ «الفعل» ينقل عن معناه إليه، فيراد به، حتى يکون ذلک المعنى معقولا منه، کما عقل التأثير فى الوجود، و حتى تقول: «لم أرد به التأثير فى الوجود، و لکن أردت المعنى الفلانيّ الذى هو شبيه به أو کالشبيه، أو ليس بشبيه مثلا، إلا أنه معنى خلف معنى آخر على الاسم، إذ ليس وجود النور بعقب المطر، أو فى زمان دون زمان، مما يعطيک معنى فى المطر أو فى الزمان، فتريده بلفظ «الفعل»، فليس إلا أن تقول: «لما کان النّور لا يوجد إلا بوجود الربيع، توهّم للربيع تأثير فى وجوده، فأثبتّ له ذلک»، و إثبات الحکم أو الوصف لما ليس له قضيّه عقليه، لا تعلّق لها فى صحّه و فساد باللغه، فاعرفه.

و مما يجب ضبطه فى هذا الباب: أن کل حکم يجب فى العقل وجوبا حتى لا

يجوز خلافه، فإضافته إلى دلاله اللّغه و جعله مشروطا فيها محال لأن اللغه تجرى مجرى العلامات و السّمات، و لا معنى للعلامه و السّمه حتى يحتمل الشى ء ما جعلت العلامه دليلا عليه و خلافه، فإنما كانت «ما» مثلا علما للنفس، لأن هاهنا نقيضا له و هو الإثبات. و هكذا إنما كانت «من» لما يعقل، لأن هاهنا ما لا يعقل، فمن ذهب يدّعى أن فى قولنا: «فعل» و «صنع» و نحوه دلاله من جهه اللغه على القادر، فقد أساء من حيث قصد الإحسان، لأنه- و العياذ باللّه- يقتضى جواز أن يكون هاهنا تأثير فى وجود الحادث لغير القادر، حتى يحتاج إلى تضمين اللفظ الدلاله على اختصاصه بالقادر، و ذلك خطأ عظيم.

فالواجب أن يقال: «الفعل» موضوع للتأثير فى وجود الحادث فى اللغه، و العقل قد قضى و بتّ الحكم بأن لا حظّ فى هذا التأثير لغير القادر.

و ما يقوله أهل النظر من أنّ من لم يعلم الحادث موجودا من جهه القادر عليه، فهو لم يعلمه فعلا لا يخالف هذه الجمله، بل لا يصحّ حقّ صحّته إلا مع اعتبارها.

و ذلك أن «الفعل» إذا كان موضوعا للتأثير فى وجود الحادث، و كان العقل قد بيّن بالحجج القاطعه و البراهين الساطعه استحاله أن يكون لغير القادر تأثير فى وجود الحادث، و أن يقع شى ء مما ليس له صفه القادر، فمن ظنّ الشى ء واقعا من غير القادر، فهو لم يعلمه فعلا، لأنه لا يكون مستحقّا هذا الاسم حتى يكون واقعا من غيره. و من نسب وقوعه إلى ما لا يصح

وقوعه منه، و لا يتصوّر أن يكون له تأثير فى وجوده و خروجه من العدم، فلم يعلمه واقعا من شـى ء البته. و إذا لم يعلمه واقعا من شى ء، لم يعلمه فعلا، كما أنه إذا لم يعلمه كائنا بعد أن لم يكن، لم يعلمه واقعا و لا حادثا، فاعرفه.

و اعلم أنـك إن أردت أن ترى المجاز و قـد وقع فى نفس الفعـل و الخلق، و لحقهمـا من حيث همـا لا ـ إثباتهمـا، و إضافتهمـا، فالمثـال فى ذلـك قولهم فى الرجـل يشـفى على هلكه ثم يتخلّص منها: «هو إنما خلق الآن» و «إنما أنشـئ اليوم» و «قـد عـدم ثم أنشـئ نشـأه ثـانيه»، و ذلـك أنك تثبت هاهنا خلقا و إنشاء، من غير أن يعقل ثابتا على الحقيقه، بل على تأويل و تنزيل، و هو أن جعلت حاله إشـفائه على الهلكه عـدما و فناء و خروجا من الوجود، حتى أنتـج هـذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود و خلقا و إنشاء.

أ فيمكنك أن تقول فى نحو: «فعل الربيع النور» بمثل هذا التأويل، فتزعم أنك

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۶۷

أثبتّ فعلا وقع على النّور من غير أن كان ثمّ فعل، و من غير أن يكون النّور مفعولا؟

أو هو مما يتعوّذ باللّه منه، و تقول: الفعل واقع على النّور حقيقه، و هو مفعول مجهول على الصّـحه، إلا أن حقّ الفعل فيه أن يثبت للّه تعالى، و قد تجوّز بإثباته للربيع؟ أ فليس قد بان أن التجوّز هاهنا فى إثبات الفعل للربيع لا فى الفعل

نفسه، فإن التجوّز فى مسأله المتخلّص من الهلكه حيث قلت: «إنه خلق مره ثانيه» فى الفعل نفسه، لا فى إثباته؟ فلك كيف نظرت فرق بين المجاز فى الإثبات، و بينه فى المثبت.

و ينبغى أن تعلم أن قولى: «فى المثبت مجاز»، ليس مرادى أن فيه مجازا من حيث هو مثبت، و لكن المعنى أن المجاز فى نفس الشى ء الذى تناوله الإثبات نحو أنك أثبتّ الحياه صفه للأرض فى قوله تعالى: يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [سوره الحديد: ١٧]، و المراد غيرها، فكان المجاز فى نفس الحياه لا فى إثباتها هذا، و إذا كان لا يتصوّر إثبات شى ء لا لشى ء، استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقه.

و مما ينتهى فى البيان إلى الغايه أن يقال للسائل: هبك تغالطنا بأن مصدر «فعل» نقل أوّلا من موضعه فى اللغه، ثم اشتقّ منه، فقل لنا ما نصنع بالأفعال المشتقّه من معان خاصّه، كنسج، و صاغ، و وشّى، و نقش؟ أ تقول إذا قيل «نسج الربيع» و «صاغ الربيع» و «وشّى»: إن المجاز فى مصادر هذه الأفعال التى هى النّسج و الوشى و الصّوغ، أم تعترف أنه فى إثباتها فعلا للربيع؟ و كيف تقول: «إن فى أنفسها مجازا»، و هى موجوده بحقيقتها؟ بل ما ذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها، لو أمكنك، و لا يمكنك أن تقتصر عليها فى كون الكلام مجازا- أعنى لا يمكنك أن تقول: «إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجا و وشيا»، و تدع حديث نسبتها إلى الربيع جانبا؟

هذا، و هاهنا مالا وجه لك لدعوى المجاز فى مصدر الفعل منه كقولك:

«سرّنى الخبر»، فإن السرور بحقيقته موجود، و الكلام

مع ذلـك مجـاز. و إذا كان كـذلك، علمت ضـروره ليس المجاز إلّا فى إثبات السـرور فعلا للخبر، و إيهام أنه أثّر فى حـدوثه و حصوله. و يعلم كلّ عاقل أن المجاز لو كان من طريق اللغه، لجعل ما ليس بالسرور سرورا، فأمّا الحكم بأنه فعل للخبر، فلا يجرى فى وهم أنه يكون من اللغه بسبيل، فاعرفه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۶۸

فـإن قـال: «النسـج فعـل معنى، و هو المضامّه بين أشـياء، و كـذلك الصّوغ فعل الصوره فى الفضّه و نحوها، و إذا كان كـذلك، قدّرت أن لفظ الصّوغ مجاز من حيث دلّ على الفعل و التأثير فى الوجود، حقيقه من حيث دلّ على الصّوره، كما قدّرت أنت فى «أحيا اللّه الأرض»، أنّ «أحيا» من حيث دلّ على معنى فعل حقيقه، و من حيث دلّ على الحياه مجاز».

قيل: ليس لك أن تجى ء إلى لفظ أمرين، فتفرّق دلالته و تجعله منقولا عن أصـله فى أحـدهما دون الآخر. لو جاز هـذا لجاز أن تقول فى اللطم الـذى هو ضـرب باليـد، أنه يجعـل مجـازا من حيث هو ضـرب، و حقيقه من حيث هو باليـد، و ذلك محال- لأن كون الضـرب باليـد لاـ ينفصل عن الضـرب، فكـذلك كون الفعل فعلا للصوره لا ينفصل عن الصوره. و ليس الأمر كـذلك فى قولنـا: «أحيـا اللّه الأـرض»، لأـن معنـا هنا لفظين: أحـدهما مشـتقّ و هو «أحيا»- و الآخر: مشـتقّ منه و هو «الحياه»، فنحن نقـدّر فى المشتقّ أنه نقل عن معناه الأصلى فى اللّغه إلى معنى آخر، ثم

اشتقّ منه «أحيا» بعد هذا التقدير و معه، و هو مثل أنّ لفظ اليد ينقل إلى النعمه، ثم يشتقّ منه «يديت»، فاعرفه.

و مما يجب أن تعلم فى هذا الباب: أن الإضافه فى الاسم كالإسناد فى الفعل.

فكلّ حكم يجب فى إضافه المصدر من حقيقه أو مجاز، فهو واجب فى إسناد الفعل. فانظر الآن إلى قولك: «أعجبنى وشى الربيع الرياض، و صوغه تبرها، و حوكه ديباجها»، هل تعلم لك سبيلا فى هذه الإضافات إلى التعليق باللغه، و أخذ الحكم عليها منها، أم تعلم امتناع ذلك عليك؟

و كيف، و الإضافه لا تكون حتى تستقرّ اللغه، و يستحيل أن يكون للغه حكم فى الإضافه و رسم، حتى يعلم أنّ حقّ الاسم أن يضاف إلى هذا دون ذلك؟

و إذا عرفت ذلك فى هذه المصادر التى هى «الصوغ» و «الوشى» و «الحوك» فضع مصدر فعل الذى- هو عمدتك فى سؤالك، و أصل شبهتك- موضعها و قل:

«أما ترى إلى فعل الربيع لهذه المحاسن»، ثم تأمّل هل تجد فصلا بين إضافته و إضافه تلك؟ فإذا لم تجد الفصل البته، فاعلم صحه قضيّتنا، و انفض يدك بمسألتك، و دع النّزاع عنك، و إلى اللّه تعالى الرغبه فى التوفيق.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۶۹

فصل

فصل

قال أبو القاسم الآمدى فى قول البحترى «۱»: [من البسيط]

فصاغ ما صاغ من تبر و من ورق و حاك ما حاك من

وشى و ديباج

صوغ الغيث النبت و حوكه النبات، ليس باستعاره بل هو حقيقه، و لذلك لا يقال: «هو صائغ» و لا «كأنه صائغ» و كذلك لا يقال: «حائك» و «كأنه حائك»، على أن لفظه «حائك» خاصّه فى غايه الركاكه، إذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام فى قوله «٢»: [من الطويل]

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنّه خلت حقب حرس له و هو حائك

و هذا قبيح جدّا، و الذى قاله البحترى: «و حاك ما حاك»، حسن مستعمل، فانظر ما بين الكلامين لتعلم ما بين الرّجلين.

قد كتبت هذا الفصل على وجهه، و المقصود منه منعه أن تطلق الاستعاره على «الصوغ» و «الحوك»، و قد جعلا فعلا للربيع، و استدلاله على ذلك بامتناع أن يقال:

«كأنه صائغ» و «كأنه حائك».

اعلم أن هذا الاستدلال كأحسن ما يكون، إلا أن الفائده تتمّ بأن تبيّن جهته، و من أين كان كذلك؟ و القول فيه: إن التشبيه كما لا يخفى يقتضى شيئين مشبّها و مشبّها به. ثم ينقسم إلى الصريح و غير الصريح، فالصريح أن تقول: «كأنّ زيدا الأسد»، فتذكر كل واحد من المشبّه و المشبّه به باسمه- و غير الصريح أن تسقط المشبّه به من الذكر، و تجرى اسمه على المشبّه كقولك: «رأيت أسدا»، تريد رجلا شبيها بالأسد، إلا أنك تعيره اسمه مبالغه و إيهاما أن لا فصل بينه و بين الأسد، و أنه قد استحال إلى الأسديه.

---

(١) البيت فى ديوانه فانظره. و التّبر: الذهب كله و قيل: الذهب المكسور، و قيل: الفتات من الذهب

و الفضه و الورق و الورق: الدراهم المضروبه. و الوشی: من الثیاب و هو یکون من کل لون و الجمع:

و شاء. و الدیباج: ضرب من الثیاب و الدّبج: النقش و التزیین و الدیباج جمعها: دبابیج و دیابیج.

(۲) البیت فی دیوانه ص ۲۱۱، و البیت فیه «أتت» بدل «خلت» و هو من قصیده یمدح فیها أبا سعید محمد بن یوسف الثغری مطلعها:

قری دراهم منّی الدموع السوافک و إن عاد صبحی بعدهم و هو حالک

و السوافک: المنصبه، و الحالک: الأسود. و قال الشیخ شاکر: انتهی کلام أبی القاسم الآمدی هنا و هو فی کتابه الموازنه ۱/ ۴۹۷، ۴۹۸ (المعارف). و نقله الشیخ (یقصد عبد القاهر) فی دلائل الإعجاز رقم ۶۴۷ ص ۵۵۳ اه. و الحقبه: مده من الدهر جمعها حقب، و الحرس: الدهر.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۷۰

فإذا کان الأمر کذلک و أنت تشبّه شخصا بشخص، فإنک إذا شبّهت فعلا بفعل کان هذا حکمه، فأنت تقول مرّه: «کأن تزیینه لکلامه نظم درّ»، فتصرّح بالمشبّه و المشبّه به، و تقول أخری: «إنما ینظم درّا»، تجعله کأنه ناظم درّا علی الحقیقه.

و تقول فی وصف الفرس: «کأن سیره سباحه»، و «کأن جریه طیران طائر»، هذا إذا صرّحت، و إذا أخفیت و استعرت قلت: «یسبح براکبه»، و «یطیر بفارسه»، فتجعل حرکته سباحه و طیرانا.

و من لطیف ذلک ما کان کقول أبی دلامه

يصف بغلته «۱»: [من الوافر]

أرى الشهباء تعجبن إذ غدونا برجليها، و تخبز باليمين

شبّه حركه رجليها حين لم تثبتهما على موضع تعتمـد بهما عليه و هوتا ذاهبتين نحو يديها، بحركه يدى العاجن، فإنه لا يثبت اليد فى موضع، بل يزلّها إلى قدّام، و تزلّ من عند نفسـها لرخاوه العجين- و شـبّه حركه يديها بحركه يد الخابز، من حيث كان الخابز يثنى يـده نحو بطنه، و يحـدث فيها ضـربا من التقويس، كما تجـد فى يـد الدابّه إذا اضـطربت فى سيرها، و لم تقف على ضـبط يـديها، و لن ترمى بها إلى قـدّام، و لن تشـدّ اعتمادها، حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه فلا تزول عنه و لا تنثنى و أعود إلى المقصود.

فإذا كان لا تشبيه حتى يكون معك شيئان، و كان معنى الاستعاره أن تعير المشبّه لفظ المشبّه به، و لم يكن معنا فى «صاغ الربيع» أو «حاك الربيع» إلا شـى ء واحد، و هو الصّوغ أو الحوك، كان تقدير الاسـتعاره فيه محالا جاريا مجرى أن تشبّه الشى ء بنفسه، و تجعل اسمه عاريّه فيه، و ذلک بيّن الفساد.

فـإن قلت: أ ليس الكلام على الجمله معقودا على تشبيه الربيع بالقادر، فى تعلّق وجود الصوغ و النسـج به؟ فكيف لم يجز دخول «كأنّ» فى الكلام من هذه الجهه؟

فـإن هـذا التشبيه ليس هو التشبيه الـذى يعقـد فى الكلام و يفاد بكأن و الكاف و نحوهما، و إنما هو عباره عن الجهه التى راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر فى إسناد الفعل إليه. وزانه وزان قولنا: إنهم

يشبّهون «ما» بليس، فيرفعون بها

---

(١) البيت لأبى دلامه و قيل: إنه قاله فى مدح بغلته التى كانت تسمى الشهباء، و العاجن من الرجال:

المعتمد على الأرض بجمعه إذا أراد النهوض، و عجنت الناقه: تضرب بيديها إلى الأرض فى سيرها.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٧١

المبتدأ و ينصبون بها الخبر فيقولون: «ما زيد منطلقا»، كما يقولون: «ليس زيد منطلقا»، فنخبر عن تقدير قدّروه فى نفوسهم، وجهه راعوها فى إعطاء «ما» حكم «ليس» فى العمل. فكما لا- يتصوّر أن يكون قولنا: «ما زيد منطلقا»، تشبيها على حدّ «كأنّ زيدا الأسد»، كذلك لا يكون «صاغ الربيع» من التشبيه. فكلامنا إذن فى تشبيه مقول منطوق به، و أنت فى تشبيه معقول غير داخل فى النطق. هذا، و إن يكن هاهنا تشبيه، فهو فى الربيع لا- فى الفعل المسند إليه، و اختلافنا فى «صاغ» و «حاك» هل يكون تشبيها و استعاره أم لا؟ فلا يلتقى التشبيهان، أو يلتقى المشئم و المعرق.

و هذا هو القول على الجمله إذا كانت حقيقه أو مجازا، و كيف وجه الحدّ فيها؟

فكلّ جمله وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل، و واقع موقعه منه، فهى حقيقه. و لن تكون كذلك حتى تعرى من التأوّل، و لا فصل بين أن تكون مصيبا فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئا و صادقا أو غير صادق.

فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحه و اليقين و القطع قولنا:

«خلق اللّه تعالى الخلق، و أنشأ العالم، و أوجد كل

موجود سواه». فهـذه من أحقّ الحقائق و أرسـخها فى العقول، و أقعدها نسـبا فى العقول، و التى إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك، و متى هممت بالتوقّف فى ثبوتها استولى النّفى على معقولك، و وجدتک كالمرمىّ به من حالق إلى حيث لا مقرّ لقدم، و لاـ مسـاغ لتـأخّر و تقـدّم، كما قال أصـدق القائلين جلّت أسـماؤه، و عظمت كبرياؤه: وَ مَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّيحُ فِی مَكانٍ سَحِيقٍ [الحج: ۳۱].

و أمّا مثال أن توضع الجمله على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل، و ليس كـذلک، إلا أنه صادر من اعتقاد فاسد و ظنّ كـاذب، فمثـل مـا يجى ء فى التنزيل من الحكايه عن الكفار نحو: وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الـدَّهْرُ [الجاثيه: ۲۴]، فهـذا و نحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنّه متأوّل، بل أطلقه بجهله و عماه إطلاق من يضع الصّفه فى موضعها، لا يوصف بالمجاز، و لكن يقال: «عند قائله أنه حقيقه»، و هو كذب و باطل، و إثبات لما ليس بثابت، أو نفى لما ليس بمنتف، و حكم لا يصحّحه العقل فى الجمله، بل يردّه و يدفعه، إلّا أن قائله جهل مكان الكذب و البطلان فيه، أو جحد و باهت.

و لا يتخلّص لک الفصل بين الباطل و بين المجاز، حتى تعرف حدّ المجاز،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۷۲

و حدّه: أنّ كلّ جمله أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأوّل، فهى

مجاز.

و مثاله ما مضـى من قولهم: «فعل الربيع»، و كما جاء فى الخبر «إنّ ممّا ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلمّ»، قد أثبت الإنبات للربيع، و ذلـك خـارج عن موضـعه من العقل، لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصـحّ فى قضايا العقول، إلّا أن ذلک على سبيل التأوّل، و على العرف الجـارى بين الناس، أن يجعلوا الشـى ء، إذا كان سـببا أو كالسـبب فى وجود الفعل من فاعله، كأنه فاعل. فلما أجرى اللّه سـبحانه العاده و أنفذ القضـيّه أن تورق الأشجار، و تظهر الأنوار، و تلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع، صار يتوهّم فى ظاهر الأمر و مجرى العاده، كأنّ لوجود هذه الأشياء حاجه إلى الربيع، فأسند الفعل إليه على هذا التأوّل و التنزيل.

و هذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن، فمنه قوله تعالى: تُؤْتِی أُكُلَها كُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها [إبراهيم: ۲۵]، و قوله عزّ اسمه: وَ إِذا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیـاتُهُ زادَتْهُمْ إِیماناً [الأنفال: ۲]، و فى الأـخرى: فَمِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ أَیُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِیمانـاً [التوبه: ۱۲۴]، و قـوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها [الزلزله: ۲]، و قوله عز و جل:

حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَیِّتٍ [الأعراف: ۵۷] أثبت الفعل فى جميع ذلک لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول، على معنى السّـبب. و إلّـا فمعلوم أن النخله ليست تحـدث الأكل، و لا الآيات توجـد العلم فى قلب السامع لها، و لا الأرض تخرج الكامن فى بطنها من الأثقال، و لكن إذا حدثت فيها الحركه بقدره اللّه، ظهر ما كنز فيها و أودع جوفها.

و إذا ثبت ذلک، فالمبطل و الكاذب لا يتأوّل فى إخراج الحكم عن موضعه و إعطائه غير المستحق،

و لا- يشبه كون المقصود سببا بكون الفاعل فاعلا، بل يثبت القضيه من غير أن ينظر فيها من شى ء إلى شى ء، و يردّ فرعا إلى أصل، و تراه أعمى أكمه يظنّ ما لا يصحّ صحيحا، و ما لا يثبت ثابتا، و ما ليس فى موضعه من الحكم موضوعا موضعه. و هكذا المتعمّد للكذب يدّعى أن الأمر على ما وضعه تلبيسا و تمويها، و ليس هو من التّأويل فى شى ء.

و النكته أن المجاز لم يكن مجازا لأنه إثبات الحكم لغير مستحقّه، بل لأنه أثبت لما لا يستحق تشبيها و ردّا له إلى ما يستحقّ، و أنه ينظر من هذا إلى ذاك، و إثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحقّ، و يتضمّن الإثبات للأصل الذى هو

المستحقّ، فلا- يتصوّر الجمع بين شيئين فى وصف أو حكم من طريق التشبيه و التأويل، حتى يبدأ بالأصل فى إثبات ذلك الوصف و الحكم له. أ لا تراك لا تقدر على أن تشبّه الرجل بالأسد فى الشجاعه، ما لم تجعل كونها من أخصّ أوصاف الأسد و أغلبها عليه نصب عينيك؟ و كذلك لا يتصوّر أن يثبت المثبت الفعل للشى ء على أنه سبب، ما لم ينظر إلى ما هو راسخ فى العقل من أن لا- فعل على الحقيقه إلا- للقادر، لأنه لو كان نسب الفعل إلى هذا السبب نسبه مطلقه- لا يرجع فيها إلى الحكم القادر، و الجمع بينهما من حيث تعلّق وجوده بهذا السبب من طريق العاده، كما يتعلق بالقادر من

طريق الوجوب- لما اعترف بأنه سبب، و لا يدّعى أنه أصل بنفسه، مؤثّر فى وجود الحادث كالقادر. و إن تجاهل متجاهل فقال بذلك- على ظهور الفضيحه و إسراعها إلى مدّعيه- كان الكلام عنده حقيقه، و لم يكن من مسألتنا فى شى ء، و لحق بنحو قول الكفار: وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ [الجاثيه:

۲۴]. و ليس ذلک المقصود فى مسألتنا، لأن الغرض هاهنا ما وضع فيه الحكم واضعه على طريق التأوّل، فاعرفه.

و من أوضح ما يدلّ على أنّ إثبات الفعل للشى ء على أنه سبب يتضمّن إثباته للمسبّب، من حيث لا يتصوّر دون تصوّره، أن تنظر إلى الأفعال المسنده إلى الأدوات و الآلات، كقولک: «قطع السكّين» و «قتل السيف»، فإنک تعلم أنه لا يقع فى النفس من هذا الإثبات صوره، ما لم تنظر إلى إثبات الفعل للمعمل الأداه و الفاعل بها. فلو فرضت أن لا يكون هاهنا قاطع بالسكّين و مصرّف لها، أعياک أن تعقل من قولک: «قطع السكين» معنى بوجه من الوجوه. و هذا من الوضوح، بحيث لا يشکّ عاقل فيه.

و هذه الأفعال المسنده إلى من تقع تلک الأفعال بأمره، كقولک: «ضرب الأمير الدرهم» و «بنى السّور»، لا تقوم فى نفسک صوره لإثبات الضّرب و البناء فعلا للأمير، بمعنى الأمر به، حتى تنظر إلى ثبوتهما للمباشر لهما على الحقيقه. و الأمثله فى هذا المعنى كثيره تتلقّاک من كل جهه، و تجدها أنّى شئت.

و اعلم أنه لا يجوز الحكم على الجمله بأنها مجاز إلا بأحد أمرين:

فإمّا أنه يكون الشى ء الذى أثبت له الفعل مما لا يدّعى أحد من المحقّين و المبطلين أن مما يصحّ أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له، و ذلک نحو قول الرجل:

«محبّتک جاءت بی إلیک»، و کقول عمرو بن العاص فی ذکر الکلمات التی استحسنها: «هنّ مخرجاتی من الشأم»، فهذا ما لا یشتبه علی أحد أنّه مجاز.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۷۴

و إمّا أنه یکون قد علم من اعتقاد المتکلّم أنه لا یثبت الفعل إلا للقادر، و أنه ممن لا یعتقد الاعتقادات الفاسده، کنحو ما قاله المشرکون و ظنّوه من ثبوت الهلاک فعلا للدهر، فإذا سمعنا نحو قوله «۱»: [من المتقارب]

أشاب الصغیر و أفنی الکبی ر کرّ الغداه و مرّ العشی

و قول ذی الإصبع «۲»: [من المنسرح]

أهلکنا اللیل و النهار معا و الدّهر یعدو مصمّما جذعا

کان طریق الحکم علیه بالمجاز، أن تعلم اعتقادهم التوحید، إما بمعرفه أحوالهم السابقه، أو بأن تجد فی کلامهم من بعد إطلاق هذا النحو، ما یکشف عن قصد المجاز فیه، کنحو ما صنع أبو النجم، فإنه قال أوّلا «۳»: [من الرجز]

قد أصبحت أمّ الخیار تدّعی علیّ ذنبا کلّه لم أصنع

من أن رأت رأسی کرأس الأصلع

ميّز عنه قنزعا عن قنزع

جـذب الليـالى: أبطئى أو أسـرعى فهـذا على المجـاز و جعـل الفعـل للّيالى و مرورها، إلّا أنه خفىّ غير بادى الصـفحه، ثم فسّـر و كشف عن وجه التأوّل و أفاد أنه بنى أول كلامه على التخيّل فقال:

---

(١) البيت للصلتان العبدى و هو فى الكامل بتحقيق د. عبد الحميد هنداوى ٣/ ٢٥، و البيت سبق تخريجه فارجع له إن شئت.

(٢) البيت فى ديوانه، و فى الأغانى ٣/ ٩٣، و جاء الأول لأربعه أبيات قالها بعد ما كبر و خرف فهجره أصهاره و لاموه فقال:

أهلكنا الليل و النهار معا و الدهر يعدو مصمّما جذعا

فليس فيما أصابنى عجب إن كنت شيبا أنكرت أو صلعا

و كنت إذ رونق الشباب به ماء شبابى تخاله شرعا

و الحىّ فيه الفتاه ترمقنى حتى مضى شأو ذاك فانقشعا

و الجذع من الرجال: الشاب الحدث، و انقشع: انجلى عنه.

(٣) الأبيات لأبى النجم و أورده محمد بن على الجرجانى فى الإشارات

ص ۲۵، و عزاه لأبی النجم، و بـدر الـدین بن مالک فی المصـباح ص ۱۴۴، و الطیبی فی التبیـان ۱/ ۳۲۱ بتحقیق د. عبد الحمید هنـداوی، و هو فی الإیضاح ص ۲۸، و المفتـاح ص ۵۰۴، بتحقیق د. عبـد الحمیـد هنـداوی، و دلائل الإعجاز ص ۲۷۸. و البیت الثانی معروف فیه روایتان إحداهما: «طیّر عنها قنزعا» و الأخری «سـیّر عنه». و الأصـلع: من لا شعر له. و القنزع: ما ارتفع من الشعر و طال، و قیل: هو القلیل من الشعر إذا کان فی وسط الرأس خاصه. و قیل: هو الشّعر حوالی الرأس و الجمع قنازع.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۷۵

أفناه قیل اللّه للشمس اطلعی حتّی إذا و اراک أفق فارجعی «۱»

فبیّن أن الفعل للّه تعالی، و أنه المعیـد و المبـدی، و المنشـئ و المفنی، لأنّ المعنی فی «قیل اللّه»، أمر اللّه، و إذا جعل الفناء بأمره فقد صرّح بالحقیقه و بیّن ما کان علیه من الطریقه.

و اعلم أنه لا یصـحّ أن یکون قول الکفّار: وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الـدَّهْرُ، و من باب التأویل و المجاز، و أن یکون الإنکار علیهم من جهه ظاهر اللفظ، و أنّ فیه إیهاما للخطأ. کیف؟ و قد قال تعالی بعقب الحکایه عنهم: وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ [سوره الجاثیه: ۲۴]، و المتجوّز أو المخطئ فی العباره لا

يوصف بـالظن، إنّمـا الظـانّ من يعتقـد أن الأمر على ما قاله و كما يوجبه ظاهر كلامه. و كيف يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الدهر فاعلا للهلاك، و أنت ترى فى نصّ القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافه فعل الهلاك إلى الريح مع استحاله أن تكون فاعله، و ذلك قوله عز و جل: «مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ [آل عمران: ١١٧]، و أمثال ذلك كثير؟ و من قـدح فى المجاز، و همّ أن يصـفه بغير الصـدق، فقـد خبط خبطا عظيما، و يهرف بما لا يخفى.

و لو لم يجب البحث عن حقيقه المجـاز و العنايه به، حتى تحصّل ضـروبه، و تضـبط أقسامه، إلا للسـلامه من مثل هـذه المقاله، و الخلاص ممّا نحا نحو هذه الشّـبهه، لكان من حقّ العاقل أن يتوفّر عليه، و يصـرف العنايه إليه، فكيف و بطالب الدّين حاجه ماسّه إليه من جهـات يطول عـدّها، و للشـيطان من جـانب الجهـل به مـداخل خفيّه يأتيهم منها، فيسـرق دينهم من حيث لا يشـعرون، و يلقيهم فى الضـلاله من حيث ظنّوا أنهم يهتـدون؟ و قـد اقتسـمهم البلاء فيه من جانبى الإفراط و التفريط، فمن مغرور مغرى بنفيه دفعـه، و البـراءه منه جمله، يشـمئزّ من ذكره، و ينبـو عن اسـمه، يرى أن لزوم الظـواهر فرض لازم، و ضـرب الخيـام حولهـا حتم واجب، و آخر يغلو فيه و يفرط، و يتجـاوز حـدّه و يخبط، فيعـدل عن الظاهر و المعنى عليه، و يسوم نفسه التعمّق فى التأويل و لا سبب يدعو إليه.

---

(١) البيت لأبى النجم أيضا، و هو يعقب الأبيات السابقه فانظره

فی الإیضاح بتحقیق د. هنـداوی، و المفتاح کـذلک بتحقیقنا و البیت فی نفس المصادر السابقه فارجع لها إن شـئت. و أفناه: قیل الضمیر لجذب، و قیل: لشعر رأسه، و قیل: لأبی النجم و هو المناسب لما بعده، و قیل اللّه: أمره.

خزانه الأدب ۱/ ۳۶۵.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۷۶

أمّا التفریط، فما تجد علیه قوما فی نحو قوله تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ یَأْتِیَهُمُ اللَّهُ [البقره: ۲۱۰]، و قوله: وَ جاءَ رَبُّکَ [الفجر: ۲۲]، و: الرَّحْمنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَوی [طه: ۵]، و أشباه ذلک من النّبوّ عن أقوال أهل التحقیق. فإذا قیل لهم: «الإتیان» و «المجی ء» انتقال من مکان إلی مکان، و صـفه من صفات الأجسام، و أن «الاستواء» إن حمل علی ظاهره لم یصحّ إلّا فی جسم یشغل حیّزا و یأخذ مکانـا، و اللّه عز و جل خالق الأماکن و الأزمنه، و منشـئ کل ما تصـحّ علیه الحرکه و النّقله، و التمکن و السـکون، و الانفصال و الاتصـال، و الممـاسّه و المحـاذاه، و أن المعنی علی: «إلّـا أن یـأتیهم أمر اللّه» و «جـاء أمر ربک»، و أنّ حقه أن یعبّر بقوله تعالی: فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا [الحشر: ۲]، و قول الرجل: «آتیک من حیث لا تشعر»، یرید أنزل بک المکروه، و أفعل ما یکون جزاء لسوء صنیعک، فی حال غفله منک، و من حیث تأمن حلوله بک. و علی ذلک قوله: [من الطویل]

أتیناهم من أیمن الشّقّ عندهم

و يأتى الشقىّ الحين من حيث لا يدرى

نعم، إذا قلت ذلك للواحد منهم، رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه، فبين جنبيه قلب يتردّد فى الحيره و يتقلّب، و نفس تفرّ من الصواب و تهرب، و فكر واقف لا- يجى ء و لا- يذهب، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه، و يريه المرشد وجه الخلاص من عميائه، و يأبى إلا نفارا عن العقل، و رجوعا إلى الجهل، لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجرى فى قوله تعالى: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢]، على الظاهر، لأجل علمه أن الجماد لا- يسأل مع أنه لو تجاهل متجاهل فادّعى أن اللّه تعالى خلق الحياه فى تلك القريه حتى عقلت السؤال، و أجابت عنه و نطقت، لم يكن قال قولا يكفر به، و لم يزد على شى ء يعلم كذبه فيه فمن حقّه أن لا- يجثم هاهنا على الظاهر، و لا يضرب الحجاب دون سمعه و بصره حتى لا يعى و لا يراعى، مع ما فيه، إذا أخذ على ظاهره، من التعرض للهلاك و الوقوع فى الشرك.

فأمّا الإفراط، فما يتعاطاه قوم يحبّون الإغراب فى التأويل، و يحرصون على تكثير الوجوه، و ينسون أن احتمال اللفظ شرط فى كل ما يعدل به عن الظاهر، فهم يستكرهون الألفاظ على ما لا تقلّه من المعانى، يدعون السليم من المعنى إلى السقيم، و يرون الفائده حاضره قد أبدت صفحتها و كشفت قناعها، فيعرضون عنها حبّا للتشوّف، أو قصدا إلى التمويه و ذهابا فى الضلاله.

و ليس القصد هاهنا بيان ذلك فأذكر أمثلته، على أن كثيرا من هذا الفنّ مما

یرغب عن ذكره لسخفه، و إنما غرضی بما ذكرت أن أریک عظم الآفه فی الجهل بحقیقه المجاز و تحصیله، و أن الخطأ فیه مورّط صاحبه، و فاضح له، و مسقط قدره، و جاعله ضحكه یتفكّه به، و كاسیه عارا یبقی علی وجه الدهر، و فی مثل هذا قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «یحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ینفون عنه تحریف الغالین، و انتحال المبطلین، و تأویل الجاهلین» «۱»، و لیس حمله روایته و سرد ألفاظه، بل العلم بمعانیه و مخارجه، و طرقه و مناهجه، و الفرق بین الجائز منه و الممتنع، و المنقاد المصحب، و النّابی النافر.

و أقلّ ما كان ینبغی أن تعرفه الطائفه الأولی، و هم المنكرون للمجاز، أن التنزیل كما لم یقلب اللغه فی أوضاعها المفرده عن أصولها، و لم یخرج الألفاظ عن دلالتها، و أنّ شیئا من ذلک إن زید إلیه ما لم یكن قبل الشرع یدلّ علیه، أو ضمّن ما لم یتضمّنه أتبع ببیان من عند النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و ذلک كبیانه للصلاه و الحج و الزكاه و الصوم. كذلک لم یقض بتبدیل عادات أهلها، و لم ینقلهم عن أسالیبهم و طرقهم، و لم یمنعهم ما یتعارفونه من التشبیه و التمثیل و الحذف، و الاتساع.

و كذلک كان من حق الطائفه الأخری أن تعلم، أنه عزّ و جلّ لم یرض لنظم كتابه الذی سمّاه هدی و شفاء، و نورا و ضیاء، و حیاه تحیا بها

القلوب، و روحا تنشرح عنه الصدور ما هو عند القوم الذين خوطبوا به خلاف البيان، و فى حدّ الإغلاق و البعد من التبيان، و أنه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الإلباس و التعميه، كما يتعاطاه الملغز من الشعراء و المحاجى من الناس، كيف و قد وصفه بأنه عربىّ مبين؟

هذا، و ليس التعسّف الذى يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أولو الألغاز و أصحاب الأحاجى، بل هو شى ء يخرج عن كلّ طريق، و يباين كلّ مذهب، و إنما هو سوء نظر منهم، و وضع للشى ء فى غير موضعه، و إخلال بالشريطه، و خروج عن القانون، و توهّم أن المعنى إذا دار فى نفوسهم، و عقل من تفسيرهم، فقد فهم من لفظ المفسّر، و حتى كأنّ الألفاظ تنقلب عن سجيّتها، و تزول عن موضوعها، فتحتمل ما ليس من شأنها أن تحتمله، و تؤدّى ما لا يوجب حكمها أن تؤدّيه.

---

(۱) المراد بالغالين: المبتدعه، و بالمبطلين الذين يتعمدون الباطل و ينتحلون من كتاب اللّه و سنه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم ما يؤيد باطلهم. (رشيد).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۷۸

هذا كلام فى ذكر المجاز و فى بيان معناه و حقيقته

اشاره

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا كلام فى ذكر المجاز و فى بيان معناه و حقيقته

«المجاز» «مفعل» من «جاز الشى ء يجوزه»، إذا تعدّاه. و إذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغه، وصف بأنه «مجاز»، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلىّ، أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أوّلا.

ثمّ اعلم بعد أنّ فى إطلاق «المجاز» على اللفظ المنقول

عن أصله شرطا، و هو أن يقع نقله على وجه لا- يعرى معه من ملا-حظه الأصل. و معنى «الملاحظه»، أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه، بسبب بينه و بين الذين تجعله حقيقه فيه، نحو أن «اليد» تقع للنعمه، و أصلها الجارحه، لأجل أن الاعتبارات اللغويه تتبع أحوال المخلوقين و عاداتهم، و ما يقتضيه ظاهر البنيه و موضوع الجبلّه، و من شأن النعمه أن تصدر عن «اليد»، و منها تصل إلى المقصود بها، و الموهوبه هى منه.

و كذلك الحكم إذا أريد باليد القوه و القدره، لأن القدره أثر ما يظهر سلطانها فى اليد، و بها يكون البطش و الأخذ و الدفع و المنع و الجذب و الضرب و القطع، و غير ذلك من الأفاعيل التى تخبر فضل إخبار عن وجوه القدره، و تنبئ عن مكانها، و لذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئا لا ملابسه بينه و بين هذه الجارحه بوجه.

و لوجوب اعتبار هذه النكته فى وصف اللّفظ بأنه «مجاز»، لم يجز استعماله فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين، كبعض الأسماء المجموعه فى الملاحن، مثل أن «الثّور» يكون اسما للقطعه الكبيره من الأقط «۱»، و «النهار» اسم لفرخ الحبارى، و «الليل»، لولد الكروان، كما قال: [من المتقارب]

أكلت النّهار بنصف النّهار و ليلا أكلت بليل بهيم «۲»

---

(۱) الأقط: شى ء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل، و القطعه منه أقطه، و قيل: هو من ألبان الإبل خاصه. اللسان (أقط).

(۲) البيت لم أعثر على قائله،

و هو فى اللسان بغير نسبه (ليل).

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۷۹

و ذلك أن اسم «الثور» لم يقع على الأقط لأمر بينه و بين الحيوان المعلم، و لا «النهار» على الفرخ لأمر بينه و بين ضوء الشمس، أدّاه إليه و ساقه نحوه.

و الغرض المقصود بهذه العباره- أعنى قولنا: «المجاز»- أن نبيّن أن للّفظ أصلا مبدوءا به فى الوضع و مقصودا، و أنّ جريه على الثانى إنما هو على سبيل الحكم يتأدّى إلى الشى ء من غيره، و كما يعبق الشى ء برائحه ما يجاوره، و ينصبغ بلون ما يدانيه. و لذلك لم ترهم يطلقون «المجاز» فى الأعلام، إطلاقهم لفظ النّقل فيها حيث قالوا: «العلم على ضربين: منقول و مرتجل، و أن المنقول منها يكون منقولا عن اسم جنس، كأسد و ثور و زيد و عمرو، أو صفه، كعاصم و حارث، أو فعل، كيزيد و يشكر أو صوت كببّه، فأثبتوا لهذا كله النّقل من غير العلميه إلى العلميه، و لم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلا: إن «يشكر» حقيقه فى مضارع «شكر»، و مجاز فى كونه اسم رجل و أن «حجرا» حقيقه فى الجماد، و مجاز فى اسم الرجل. و ذلك أن «الحجر» لم يقع اسما للرجل لالتباس كان بينه و بين الصخر، على حسب ما كان بين اليد و النعمه، و بينها و بين القدره و لا كما كان بين الظّهر الكامل و بين المحمول فى نحو تسميتهم المزاده «راويه»، و هى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل و كتسميتهم البعير

«حفضا»، و هو اسم لمتاع البيت الذی حمل علیه و لا کنحو ما بین الجزء من الشخص و بین جمله الشخص، کتسمیتهم الرجل «عینا»، إذا کان ربیئه، و الناقه «نابا» و لا کما بین النّبت و الغیث، و بین السماء و المطر، حیث قالوا:

«رعینا الغیث»، یریدون النبت الذی الغیث سبب فی کونه و قالوا: «أصابنا السماء»، یریدون المطر. و قال «۱»: [من الرجز] تلفّه الأرواح و السمیّ

---

(۱) الرجز للعجاج فی دیوانه ۱/ ۵۱۲ و عجزه:

فی دف ء أرطأه لها حنیّ و هو فی صفه ثور الوحش و قد غمره المطر، شرح الإیضاح ص ۵۴۲، و شرح المفصل ۵/ ۴۴، و لسان العرب (سما)، و تاج العروس (غیف) و کتاب العین ۳/ ۳۰۲، و بلا نسبه فی شرح المفصل ۱۰/ ۳۰، و الممتع فی التصریف ۱/ ۲۳۶، و دیوان الأدب ۴/ ۴۷، و المخصص ۹/ ۴، ۱۱۶.

و السماء: المطر، یقال: ما زلنا نطأ السماء حتی أتیناکم. أی: المطر، قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعیناه و إن کانوا غضابا

و الأرواح: الریاح.

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۲۸۰

و ذلک أن فی هذا کله تأوّلا، و هو الذی أفضی بالاسم إلی ما لیس بأصل فیه «فالعین» لما کانت المقصوده فی کون الرجل ربیئه، صارت کأنها الشخص کلّه، إذ کان ما عداها لا یغنی شیئا مع فقدها و «الغیث»، لمّا کان

النبت يكون عنه، صار كأنه هو و «المطر» لما كان ينزل من السماء، عبروا عنه باسمها.

و اعلم أن هـذه الأسـباب الكائنه بين المنقول و المنقول عنه، تختلف فى القوه و الضـعف و الظهور و خلافه. فهـذه الأسـماء التى ذكرتها، إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ما هى له، و بين ما ردّت إليه، وجـدتها أقوى من نحو ما تراه فى تسـميتهم الشاه الـتى تذبـح عن الصبىّ إذا حلقت عقيقته، عقيقه «۱» و تجـد حالهـا بعـد أقوى من حـال «العقيره»، فى وقوعها للصوت فى قولهم: «رفع عقيرته»، و ذلك أنّه شى ء جرى اتفاقا، و لا معنى يصل بين الصّوت و بين الرجل المعقوره.

على أن القياس يقتضـى أن لا يسـمّى «مجازا»، و لكن يجرى مجرى الشى ء يحكى بعد وقوعه، كالمثل إذا حكى فيه كلام صدر عن قـائله من غير قصـد إلى قيـاس و تشبيه، بـل للإخبـار عن أمر من قصـده بالخطـاب كقولهـم: «الصّـيف ضـيّعت اللّبن»، و لهـذا الموضع تحقيق لا يتمّ إلّا بأن يوضع له فصل مفرد.

و المقصود الآن غير ذلك، لأن قصـدى فى هذا الفصل أن أبيّن أن «المجاز» أعمّ من «الاسـتعاره»، و أن الصـحيح من القضـيّه فى ذلـك: أن كـلّ اسـتعاره مجـاز، و ليس كـلّ مجـاز اسـتعاره. و ذلك أنّا نرى كلام العارفين بهـذا الشأن أعنى علم الخطابه و نقد الشـعر، و الّذين وضـعوا الكتـب فى أقسـام البـديع، يجرى على أن «الاسـتعاره» نقـل الاسم من أصـله إلى غيره للتشـبيه على حدّ المبالغه.

قال القاضـى أبو الحسن فى الحسن فى أثناء فصل يذكرها فيه: «و ملاك الاسـتعاره، تقريب الشّـبه، و مناسـبه المسـتعار للمسـتعار منه». و هكذا تراهم يعدّونها فى أقسام البديع، حيث يذكر «التجنيس» و «التطبيق»

و «الترشيح» و «ردّ العجز على الصدر» و غير ذلك، من غير أن يشترطوا شرطا، و يعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا: «و من البديع الاستعاره التى من شأنها كذا». فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغه، و إمّا قطعا و إمّا قريبا من المقطوع عليه، لما استجازوا ذكرها. مطلقه غير مقيّده.

يبيّن ذلك أنها إن كانت تساوق المجاز و تجرى مجراه حتى تصلح لكل ما

---

(١) العقيقه: أصلها الشّعر الذى يكون على رأس الصبى حين يولد و إنما سميت تلك الشاه التى تذبح عقيقه لأنه يحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح و هذا من الأشياء التى ربّما سميت باسم غيرها إذا كانت معها أو من سببها، فسميت الشاه عقيقه لعقيقه الشّعر.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٨١

يصلح له، فذكرها فى أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز، فهو بديع عندهم، حتى يكون إجراء «اليد» على النعمه بديعا، و تسميه البعير «حفضا»، و الناقه «نابا»، و الربيئه «عينا»، و الشاه «عقيقه»، بديعا كله، و ذلك بيّن الفساد.

و أمّا ما تجده فى كتب اللغه من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه فى الاستعاره، كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهره، فإنه ابتدأ بابا فقال: «باب الاستعارات» ثم ذكر فيه: أن «الوغى» اختلاط الأصوات فى الحرب، ثم كثر و صارت الحرب «وغى»، و أنشد «١»: [من السريع]

إضمامه من ذودها الثّلاثين

لها وغى مثل وغى الثّمانين

يعنى اختلاط أصواتها و ذكر قولهم: «رعينا الغيث و السّماء»، يعنى المطر و ذكر ما هو أبعد من ذلك فقال: «الخرس»، ما تطعمه النّفساء، ثم صارت الدّعوه للولاده «خرسا» و «الإعذار» الختان، و سمّى الطعام للختان إعذارا و أن «الظعينه» أصلها المرأه فى الهودج، ثم صار البعير و الهودج ظعينه و «الخطر» ضرب البعير بذنبه جانبى وركيه، ثم صار ما لصق من البول بالوركين خطرا، و ذكر أيضا «الرّاويه» بمعنى المزاده، و «العقيقه».

و ذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هى استعاره على الحقيقه، على طريقه أهل الخطابه و نقد الشعر، لأنه قال: «الظمأ»، العطش و شهوه الماء، ثم كثر ذلك حتى قالوا: «ظمئت إلى لقائك»، و قال: «الوجور» ما أوجرته الإنسان من دواء أو غيره، ثم قالوا: «أوجره الرمح»، إذا طعنه فى فيه.

فالوجه فى هذا الذى رأوه من إطلاق «الاستعاره» على ما هو تشبيه، كما هو شرط أهل العلم بالشعر، و على ما ليس من التشبيه فى شى ء، و لكنه نقل اللفظ عن الشى ء إلى الشى ء بسبب اختصاص و ضرب من الملابسه بينهما، و خلط أحدهما بالآخر أنهم كانوا نظروا إلى ما يتعارفه الناس فى معنى العاريّه، و أنها شى ء حوّل عن مالكه و نقل عن مقرّه الذى هو أصل فى استحقاقه، إلى ما ليس بأصل، و لم يراعوا عرف القوم. و وزانهم فى ذلك وزان من يترك عرف النحويين فى «التمييز»، و اختصاصهم له بما احتمل أجناسا مختلفه كالمقادير و الأعداد و ما شاركهما، فى أن

---

(۱) البيت ذكره ابن دريد فى جمهره اللغه ص ۱۲۵۵، و أسرار البلاغه ص ۴۰۰. و إضمامه: جماعه من الناس ليس

أصلهم واحدا، و لكنهم لفيف و الجمع الأضاميم.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۸۲

الإبهام الذى يراد كشفه منه هو احتماله الأجناس، فيسمّى الحال مثلا- تمييزا، من حيث أنك إذا قلت: «راكبا»، فقد ميّزت المقصود و بيّنته، كما فعلت ذلك فى قولك:

«عشرون درهما» و «منوان سمنا» و «قفيزان برّا» و «لى مثله رجلا» و «للّه درّه رجلا».

و ليس هذا المذهب بالمذهب المرضىّ، بل الصواب أن تقصر «الاستعاره» على ما نقله نقل التشبيه للمبالغه، لأن هذا نقل يطّرد على حدّ واحد، و له فوائد عظيمه و نتائج شريفه، فالتطفل به على غيره فى الذكر، و تركه مغمورا فيما بين أشياء ليس لها فى نقلها مثل نظامه و لا أمثال فوائده، ضعف من الرأى و تقصير فى النظر.

و ربما وقع فى كلام العلماء بهذا الشأن «الاستعاره» على تلك الطريقه العامّيه، إلا أنه لا يكون عند ذكر القوانين و حيث تقرّر الأصول. و مثاله أن أبا القاسم الآمدى قال فى أثناء فصل يجيب فيه عن شى ء اعترض به على البحترى فى قوله «۱»: [من الكامل]

فكأنّ مجلسه المحجّب محفل و كأنّ خلوته الخفيّه مشهد

أن المكان لا يسمّى مجلسا إلّا و فيه قوم. ثم قال: «أ لا ترى إلى قول مهلهل «۲»:

[من الكامل] و استبّ بعدك يا كليب المجلس

---

(۱) البيت للبحترى فى ديوانه، ذكره الآمدى فى الموازنه و قال أيضا:

و مما نسبوا فيه البحترى إلى سواء القسمه قوله:

فكأن مجلسه المحجب محفل و كأن خلوته الخفيه مشهد

و قـالوا: «إنه ليس فى المصـراع الثـانى من الفائـده إلاـ مـا فى الأول لأن مجلسه المحجب هى خلوته الخفيه، و قوله محفل كقوله مشـهد، و المعنى عندى صـحيح لأن المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعه الذين يخصـهم و فى الأكثر الأعم لا يسمى مجلسا إلا و فيه قوم. أ لا ترى إلى قول مهلهل:

و استب بعـدك يـا كليب المجلس. أى أهـل المجلس على الاسـتعاره فجعـل البحـترى مجلسه الـذى احتجب فيه مع من يخصـه كالحفـل و المحفل هو الجمع الكثير و الخلوه الخفيه قـد يكون منفردا أو يكون معه محبوبه فبينها و بين المجلس فرق أى: فكأنه إذا خلا خلوه خفيه ففيها معه من يشاهـده و من يشاهـده يجوز أن يكون واحدا أو اثنين، و المحفل لا يكون إلا عددا كثيرا، فهذا أيضـا فرق صـحيح بين المحفـل و المشـهد. و إنمـا أراد البحـترى أنه لاـ يفعـل فى مجلس المحجب إلاـ مـا يفعله إذا حضـره من يشاهده ينسبه إلى شده التصون و كرم السريره» اه. (رشيد).

(٢) البيت هو للمهلهل فى رثاء أخيه كليب و صدر البيت:

نبئت أن النار بعدك أوقدت و فى تاج العروس (جلس)، و أمالى القالى ١/ ٩٥، و سمط اللآلى ص ٢٩٨.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٨٣

على الاستعاره»، فأطلق

لفظ «الاستعاره» على وقوع «المجلس» هنا، بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور، و ليس «المجلس» إذا وقع على القوم من طريق التشبيه، بل على حدّ وقوع الشى ء على ما يتّصل به، و تكثر ملابسته إياه. و أىّ شبه يكون بين القوم و مكانهم الذى يجتمعون فيه؟ إلّا أنه لا يعتدّ بمثل هذا، فإنّ ذلك قد يتّفق حيث ترسل العباره.

و قال الآمدىّ نفسه: «ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثه أنواع أخر، يكتسى المعنى العامّ بها بهاء و حسنا، حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصا ثم قال: و هذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم البديع، و هى الاستعاره و الطباق و التجنيس».

فهذا نصّ فى وضع القوانين على أن «الاستعاره» من أقسام البديع، و لن يكون النّقل بديعا حتى يكون من أجل الشبيه على المبالغه كما بيّنت لك. و إذا كان كذلك، ثم جعل «الاستعاره» على الإطلاق بديعا، فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصص من النّقل دون كلّ نقل، فاعرف.

و اعلم أنّا إذا أنعمنا النظر، وجدنا المنقول من أجل التشبيه على المبالغه، أحقّ بأن يوصف بالاستعاره من طريق المعنى.

بيان ذلك: أن ملك المعير لا يزول عن المستعار، و استحقاقه إيّاه لا يرتفع.

فالعاريّه إنما كانت عاريّه، لأن يد المستعير يد عليها، ما دامت يد المعير باقيه، و ملكه غير زائل، فلا يتصوّر أن يكون للمستعير تصرّف لم يستفده من المالك الذى أعاره، و لا أن تستقرّ يده مع زوال اليد المنقول عنها، و هذه جمله لا تراها إلّا فى المنقول نقل التشبيه، لأنک لا تستطيع أن تتصوّر جرى الاسم على الفرع من غير أن تحوجه إلى الأصل. كيف؟ و لا يعقل تشبيه حتى يكون هاهنا مشبّه

و مشبّه به. هذا، و التشبيه ساذج مرسل، فكيف إذا كان على معنى المبالغه، على أن يجعل الثانى أنه انقلب مثلا إلى جنس الأوّل، فصار الرجل أسـدا و بحرا و بدرا، و العلم نورا، و الجهل ظلمه، لأنّه إذا كان على هذا الوجه، كانت حاجتك إلى أن تنظر به إلى الأصل أمسّ، لأنه إذا لم يتصوّر أن يكون هاهنا سبع من شأنه الجرأه العظيمه و البطش الشديـد، كان تقديرک شـيئا آخر تحوّل إلى صفته و صار فى حكمه، من أبعد المحال.

و أمّا مـا كـان منقولا لا لأجل التشبيه، كاليـد فى نقلها إلى النعمه، فلا يوجـد ذلک فيه، لأنک لا تثبت للنعمه بإجراء اسم «اليـد» عليها شيئا من صفات الجارحه المعلومه، و لا تروم تشبيها بها البته، لا مبالغا و لا غير مبالغ. فلو فرضنا أن تكون

اليد» اسما وضع للنعمه ابتداء، ثم نقلت إلى الجارحه، لم يكن ذلک مستحيلا.

و كـذلک لو ادّعى مدّع أنّ جرى اليد على النعمه أصل و لغه على حدتها، و ليست مجازا، لم يكن مدّعيا شـيئا يحيله العقل. و لو حاول محاول أن يقول فى مسألتنا قولا شبيها بهـذا، فرام تقدير شـى ء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاسـتعاره، مع فقد السبع المعلوم، و من غير أن يسبق استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغه، رام شيئا فى غايه البعد.

و عباره أخرى: العاريّه من شأنها أن تكون عند المستعير على صفه شبيهه بصفتها و هى عند المالک، و لسنا نجد

هـذه الصوره إلاـ فيمـا نقـل التشبيه للمبـالغه دون مـا سواه. أ لاـ ترى أن الاسم المسـتعار يتناول المسـتعار له، ليـدلّ على مشاركته المسـتعار منه فى صـفه هى أخصّ الصـفات التى من أجلهـا وضع الاـسم الأـول؟ أعنى أن الشـجاعه أقوى المعانى التى من أجلها سمّى الأسد أسدا، و أنت تستعير الاسم للشى ء على معنى إثباتها له على حدّها فى الأسد.

فأما «اليـد» و نقلها إلى النعمه، فليست من هـذا فى شـى ء، لأنها لم تتناول النعمه لتـدلّ على صـفه من صـفات اليد بحال. و يحرّر ذلك نكته: و هى أنك تريـد بقولك: «رأيت أسـدا»، أن تثبت للرجل الأسـديه، و لست تريـد بقولك: «له عنـدى يد»، أن تثبت للنعمه اليديّه، و هذا واضح جدّا.

و اعلم أنّ الواجب كان أن لا أعدّ وضع «الشـفه» موضع «الجحفله»، و «الجحفله» فى مكان «المشـفر»، و نظائره التى قدّمت ذكرها فى الاسـتعاره، و أضنّ باسـمها أن يقع عليه، و لكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات و عدّوه معدّها، فكرهت التشدّد فى الخلاف، و اعتـددت به فى الجمله، و نبّهت على ضـعف أمره بأن سـمّيته «اسـتعاره غير مفيده». و كان وزان ذلك وزان أن يقال: «المفعول على ضـربين مفعول صحيح، و مشبّه بالمفعول». فيتجوّز باعتداد المشبّه بالمفعول فى الجمله، ثم يفصل بالوصف. و وجه شبه هذا النحو الـذى هو نقـل «الشـفه» إلى موضع «الجحفله» بالاسـتعاره الحقيقيه، لأنـك تنقـل الاـسم إلى مجانس له. أ لا ترى أنّ المراد بالشـفه و الجحفله عضو واحد، و إنما الفرق أنّ هذا من الفرس، و ذاك من الإنسان، و المجانسه و المشابهه من واد واحد؟ فأنت تقول: أعير الشى ء اسمه الموضوع له هنالك أى فى الإنسان- هاهنا- أى فى الفرس-، لأن

أحدهما مثل صاحبه و شريكه فى جنسه، كما أعرت الرجل اسم الأسد، لأنه شاركه فى صفته الخاصّه به، و هى الشجاعه

البليغه. و ليس لليد مع النعمه هذا الشبه، إذ لا مجانسه بين الجارحه و بين النعمه، و كذا لا شبه و لا جنسيه بين البعير و متاع البيت، و بين المزاده و بين البعير، و لا بين العين و بين جمله الشخص فإطلاق اسم «الاستعاره» عليه بعيد.

و لو كان اللفظ يستحقّ الوصف بالاستعاره بمجرّد النقل، لجاز أن توصف الأسماء المنقوله من الأجناس إلى الأعلام بأنها مستعاره، فيقال: «حجر»، مستعار فى اسم الرجل، و لزم كذلك فى الفعل المنقول نحو: «يزيد و يشكر» و فى الصوت نحو: «ببّه» فى قوله «١»: [من الرجز]

لأنكحنّ ببّه جاريه خدبّه

مكرمه محبّه تجبّ أهل الكعبه

و ذلك ارتكاب قبيح، و فرط تعصّب على الصواب.

و يلوح هاهنا شى ء. هو أنّا و إن جعلنا «الاستعاره» من صفه اللفظ فقلنا: «اسم مستعار»، و «هذا اللفظ استعاره هاهنا و حقيقه هناك»، فإنّا على ذلك نشير بها إلى المعنى، من حيث قصدنا باستعاره الاسم، أن نثبت أخصّ معانيه للمستعار له.

يدلّك على ذلك قولنا: «جعله أسدا» و «جعله بدرا»

و «جعل للشمال يدا»، فلو لا أنّ استعاره الاسم للشى ء تتضمّن استعاره معناه له، لما كان هذا الكلام معنى.

لأن «جعل»، لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفه للشى ء، كقولنا: «جعله أميرا، و جعله لصّا»، نريد أنه أثبت له الإماره و اللصوصيه. و حكم «جعل» إذا تعدّى إلى مفعولين، حكم «صيّر»، فكما لا تقول: صيّرته أميرا» إلا على معنى أنك أثبتّ له صفه الإماره، و كذلك لم تقل: «جعله أسدا» إلا على أنه أثبت له معنى من معانى الأسود، و لا يقال: «جعلته زيدا»، بمعنى سمّيته زيدا، و لا يقال للرجل: «اجعل

---

(١) البيتان لهند بنت أبى سفيان فى لسان العرب (ببب)، و التنبيه و الإيضاح ١/ ٤٢، و تاج العروس (ببب)، و بلا نسبه فى جمهره اللغه ص ٢٦٣، و تهذيب اللغه ١٥/ ٣٩٣، و الأبيات بروايه أخرى لفظها:

و اللّه ربّ الكعبه لأنكحن ببّه

جاريه خدبّه مكرمه محبّه

تحبّ من أحبه تجبّ أهل الكعبه

و ببه: لقب عبد اللّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم و كانت أمه هند بنت أبى سفيان ترقصه بهذه الأبيات فلزمه اسم «ببّه» و «تجبّ أهل الكعبه» تغلب نساء قريش فى الحسن.

ابنك زيـدا» بمعنى سـمّه زيـدا، و لا يقال: «ولد لفلان ابن فجعله زيدا» أى: سـمّاه زيدا. و إنما يدخل الغلط فى ذلك على من لا يحصّل هذا الشأن.

فأما قوله تعالى: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً [الزخرف:

۱۹]، فإنما جاء على الحقيقه التى وصفتها، و ذلك أنهم أثبتوا للملائكه صفه الإناث، و اعتقدوا وجودها فيهم. و عن هذا الاعتقاد صـدر عنهم ما صـدر من الاسم- أعنى إطلاق اسم البنات، و ليس المعنى أنهم وضـعوا لها لفظ الإناث، أو لفظ البنات، اسـما من غير اعتقاد معنى، و إثبات صفه، هذا محال لا يقوله عاقل- أو ما يسمعون قول اللّه عز و جل: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ [الزخرف:

۱۹]، فـإن كـانوا لم يزيـدوا على إجراء الاـسم على الملاـئكه و لم يعتقـدوا إثبـات صـفه و معنى، فـأىّ معنى لأن يقال: «أشـهدوا خلقهم»؟ هذا، و لو كانوا لم يقصدوا إثبات صـفه، و لم يفعلوا أكثر من أن وضـعوا اسـما، لما اسـتحقّوا إلّا اليسـير من الذّم، و لما كان هذا القول كفرا منهم. و الأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى و لكن قد يكون للشـى ء المسـتحيل وجوه فى الاسـتحاله فتذكر كلّها، و إن كان فى الواحد منها ما يزيل الشبهه و يتمّ الحجّه.

فصل فى تقسيم المجاز إلى اللغوى و العقلى، و اللغوى إلى الاستعاره و غيرها

فصل فى تقسيم المجاز إلى اللغوى و العقلى، و اللغوى إلى الاستعاره و غيرها

و اعلم أن «المجـاز» على ضـربين: مجاز من طريق اللغه، و مجاز من طريق المعنى و المعقول. فإذا وصـفنا بالمجاز الكلمه المفرده كقولنا: «اليد

مجاز فى النعمه» و «الأسد مجاز فى الإنسان و كلّ ما ليس بالسبع المعروف»، كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغه، لأنا أردنا أنّ المتكلم قد جاز باللفظه أصلها الذى وقعت له ابتداء فى اللغه، و أوقعها على غير ذلك، إمّا تشبيها، و إمّا لصله و ملابسه بين ما نقلها إليه و ما نقلها عنه.

و متى وصفنا بالمجاز الجمله من الكلام، كان مجازا من طريق المعقول دون اللغه، و ذلك أن الأوصاف اللّاحقه للجمل من حيث هى جمل، لا يصحّ ردّها إلى اللّغه، و لا وجه لنسبتها إلى واضعها، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، و اسم إلى اسم، و ذلك شى ء يحصل بقصد المتكلم، فلا يصير «ضرب» خبرا عن «زيد» بواضع اللغه، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له، و هكذا: «ليضرب زيد»، لا يكون أمرا

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٨٧

لزيد باللغه، و لا «اضرب» أمرا للرجل الذى تخاطبه و تقبل عليه من بين كل من يصحّ خطابه باللغه، بل بك أيّها المتكلم. فالذى يعود إلى واضع اللغه، أنّ «ضرب» لإثبات الضرب، و ليس لإثبات الخروج، و أنه لإثباته فى زمان ماض، و ليس لإثباته فى زمان مستقبل. فأمّا تعيين من يثبت له، فيتعلّق بمن أراد ذلك من المخبرين بالأمور، و المعبّرين عن ودائع الصّدور، و الكاشفين عن المقاصد و الدّعاوى، صادقه كانت تلك الدعاوى أو كاذبه و مجراه على صحتها، أو مزاله عن مكانها من الحقيقه و جهتها و مطلقه بحسب ما تأذن

فيه العقول و ترسمه أو معدولا بها عن مراسمها نظما لها فى سلك التّخييل، و سلوكا بها فى مذهب التأويل.

فإذا قلنا مثلا: «خطّ أحسن مما وشّاه الربيع» أو «صنعه الربيع»، و كنّا قد ادعينا فى ظاهر اللفظ أن للربيع فعلا أو صنعا، و أنه شارك الحىّ القادر فى صحّه الفعل منه. و ذلك تجوّز من حيث المعقول لا من حيث اللغه، لأنه إن قلنا: «إنه مجاز من حيث اللغه»، صرنا كأنّا نقول: إن اللغه هى التى أوجبت أن يختصّ الفعل بالحىّ القادر دون الجماد، و إنها لو حكمت بأنّ الجماد يصحّ منه الفعل و الصّنع و الوشى و التزيين، و الصّبغ و التحسين، لكان ما هو مجاز الآن حقيقه، و لعاد ما هو الآن متأوّل، معدودا فيما هو حقّ محصّل، و ذلك محال.

و إنما يتصوّر مثل هذا القول فى الكلم المفرده، نحو «اليد» للنعمه، و ذاك أنه يصحّ أن يقال: لو كان واضع اللغه وضع «اليد» أوّلا للنعمه، ثم عدّاها إلى الجارحه، لكان حقيقه فيما هو الآن مجاز، و مجازا فيما هو حقيقه فلم يكن بواجب من حيث المعقول أن يكون لفظ «اليد» اسما للجارحه دون النعمه، و لا فى العقل أن شيئا بلفظ، أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ، لا سيما فى الأسماء الأول التى ليست بمشتقّه. و إنما وزان ذلك وزان أشكال الخطّ التى جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعه، فى أنه لا يتصوّر أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختصّ به، دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع و تواضع اتّفق. و لو كان كذلك، لم تختلف المواضعات فى الألفاظ و الخطوط، و لكانت اللغات واحده، كما وجب فى عقل

كل عاقل يحصّل ما يقول، أن لا يثبت الفعل على الحقيقه إلا للحيّ القادر.

فإن قلت: فإن اللغه رسمت أن يكون «فعل» لإثبات الفعل للشى ء كما زعمت، و لكنّا إذا قلنا: «فعل الربيع الوشى» أو «وشّى الربيع»، فإننا نريد بذلك معنى معقولا، و هو أن الربيع سبب فى كون الأنوار التى تشبه الوشى .. فقد نقلنا الفعل عن

حكم معقول وضع له، إلى حكم آخر معقول شبيه بذلك الحكم، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع إلى الرجل الشبيه به فى الشجاعه. أ فتقول: «الأسد» على الرجل مجاز من حيث المعقول، لا من حيث اللغه، كما قلت فى صيغه: «فعل» إذا أسندت إلى ما لا يصحّ أن يكون له فعل إنّها مجاز من جهه العقل، لا من جهه اللغه؟

فالجواب أن بينهما فرقا، و إن ظننتهما متساويين. و ذلك أن «فعل» موضوع لإثبات الفعل للشى ء على الإطلاق، و الحكم فى بيان من يستحق هذا الإثبات و تعيينه إلى العقل. و أما «الأسد» فموضوع للسبع قطعا، و اللغه هى التى عيّنت المستحقّ له، و برسمها و حكمها ثبت هذا الاستحقاق و الاختصاص، و لو لا نصّها لم يتصوّر أن يكون هذا السّبع بهذا الاسم أولى من غيره. فأمّا استحقاق الحيّ القادر أن يثبت الفعل له و اختصاصه بهذا الإثبات دون كل شى ء سواه، فبفرض العقل و نصّه لا باللغه، فقد نقلت «الأسد» عن شى ء هو أصل فيه باللغه لا بالعقل. و أمّا «فعل» فلم تنقله عن الموضع الذى وضعته

اللغه فیه، لأنه کما مضـی، موضوع لإثبات الفعل للشی ء فی زمان ماض، و هو فی قولک: «فعل الربیع» باق علی هذه الحقیقه غیر زائل عنها. و لن یستحقّ اللفظ الوصف بأنه مجاز، حتی یجری علی شی ء لم یوضع له فی الأصل. و إثبات الفعل لغیر مستحقّه، و لما لیس بفاعل علی الحقیقه، لا یخرج «فعل» عن أصـله، و لا یجعله جاریا علی شـی ء لم یوضع له، لأن الـذی وضع له «فعل» هو إثبـات الفعـل للشـی ء فقـط، فأمّـا وصف ذلک الشـی ء الـذی یقع هـذا الإثبات له، فخارج عن دلالته، و غیر داخل فی الموضـع اللغویّ، بـل لا یجوز دخوله فیه، لما قـدّمت من اسـتحاله أن یقال: «إنّ اللغه هی التی أوجبت أن یختصّ الفعل بالحیّ القادر دون الجماد»، و ما فی ذلک من الفساد العظیم، فاعرفه فرقا واضحا، و برهانا قاطعا.

و هاهنـا نکته جامعه، و هی أن «المجاز» فی مقابله «الحقیقه»، فما کان طریقا فی أحـدهما من لغه أو عقل، فهو طریق فی الآخر. و لست تشـکّ فی أنّ طریق کون «الأسـد» حقیقه فی السـبع، اللّغه دون العقل، و إذا کانت اللغه طریقا للحقیقه فیه، وجب أن تکون هی أیضا الطریق فی کونه مجازا فی المشبّه بالسّبع، إذا أنت أجریت اسم الأسـد علیه فقلت: «رأیت أسـدا»، تریـد رجلا لا تمیّزه عن الأسد فی بسالته و إقدامه و بطشه.

و کـذلک إذا علمت أن طریق الحقیقه فی إثبات الفعل للشـی ء هو العقل، فینبغی أن تعلم أنه أیضا الطریق إلی المجاز فیه. فکما أن العقل هو الذی دلّک حین

قلت: «فعل الحیّ القادر»، أنک لم تتجوّز، و أنک واضع قدمک علی محض الحقیقه، کذلک ینبغی أن یکون هو الدالّ و المقتضی، إذا قلت: «فعل الربیع»، أنک قد تجوّزت و زلت عن الحقیقه، فاعرفه.

فإن قال قائل: کان سیاق هذا الکلام و تقریره یقتضی أنّ طریق المجاز کلّه العقل، و أن لا حظّ للّغه فیه، و ذاک أنّا لا نجری اسم الأسد علی المشبّه بالأسد، حتی ندّعی له الأسدیه، و حتی نوهم أنه حین أعطاک من البساله و البأس و البطش، ما تجده عند الأسد، صار کأنه واحد من الأسود قد استبدل بصورته صوره الإنسان، و قد قدّمت أنت فیما مضی ما بیّن أنک لا تتجوّز فی إجراء اسم المشبّه به علی المشبّه، حتی تخیّل إلی نفسک أنه هو بعینه فإذا کان الأمر کذلک فأنت فی قولک: «رأیت أسدا»، متجوّز من طریق المعقول، کما أنک کذلک فی «فعل الربیع». و إذا کان کذلک، عاد الحدیث إلی أنّ المجاز فیهما جمیعا عقلیّ، فکیف قسّمته قسمین لغویّ و عقلی؟

فالجواب: أنّ هذا الذی زعمت- من أنک لا تجری اسم المشبّه به علی المشبّه حتی تدّعی أنه قد صار من ذلک الجنس، نحو أن تجعل الرجل کأنه فی حقیقه الأسد صحیح کما زعمت، لا یدفعه أحد. کیف السبیل إلی دفعه، و علیه المعوّل فی کونه التشبیه علی حدّ المبالغه، و هو الفرق بین الاستعاره و بین التشبیه المرسل؟ إلّا أن هاهنا نکته أخری قد أغفلتها، و هی أنّ تجوّزک هذا الذی طریقه العقل، یفضی بک إلی أن تجری الاسم علی شی ء لم یوضع له فی اللغه علی کل حال، فتجوز

بالاسم على الجمله الشى ء الذى وضع له، فمن هاهنا جعلنا اللغه طريقا فيه.

فإن قلت: لا أسلّم أنه جرى على شى ء لم يوضع له فى اللغه، لأنک إذا قلت:

«لا تجريه على الرجل حتى تدّعى له أنه فى معنى الأسد»، لم تكن قد أجريته على ما لم يوضع له، و إنما كان يكون جاريا على غير ما وضع له، أن لو كنت أجريته على شى ء لتفيد به معنى غير الأسديه. و ذلک ما لا يعقل، لأنک لا تفيد بالأسد فى التشبيه أنه رجل مثلا، أو عاقل، أو على وصف لم يوضع هذا الاسم للدلاله عليه البته.

قيل لک: قصارى حديثک هذا أنّا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبّه بالأسد على طريق التأويل و التخييل، أ فليس على كل حال قد أجريناه على ما ليس بأسد على الحقيقه؟ و ألسنا قد جعلنا له مذهبا لم يكن له فى أصل الوضع؟

و هبنا قد ادّعينا للرجل الأسديه حتى استحق بذلک أن نجرى عليه اسم الأسد،

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۹۰

أ ترانا نتجاوز فى هذه الدعوى حديث الشجاعه، حتى ندّعى للرجل صوره الأسد و هيئته و عباله عنقه و مخالبه، و سائر أوصافه الظاهره الباديه للعيون؟ و لئن كانت الشجاعه من أخصّ أوصاف الأسد و أمكنها، فإن اللغه لم تضع الاسم لها وحدها، بل لها فى مثل تلک الجثّه و هاتيک الصوره و الهيئه و تلک الأنياب و المخالب، إلى سائر ما يعلم من الصوره الخاصّه فى جوارحه كلّها. و لو كانت وضعته لتلک الشجاعه

التی تعرفها وحدها، لكان صفه لا اسما، و لكان كل شی ء يفضی فی شجاعته إلی ذلک الحدّ مستحقّا للاسم استحقاقا حقيقيّا، لا علی طريق التشبيه و التأويل.

و إذا كان كذلک، فإنّا و إن كنّا لم ندلّ به علی معنی لم يتضمّنه اسم الأسد فی أصل وضعه، فقد سلبناه بعض ما وضع له، و جعلناه للمعانی التی هی باطنه فی الأسد و غريزه و طبع به و خلق، مجرّده عن المعانی الظاهره التی هی جثّه و هيئه و خلق، و فی ذلک كفايه فی إزالته عن أصل وقع له فی اللغه، و نقله عن حدّ جريه فيه إلی حدّ آخر مخالف له.

و ليس فی «فعل»، إذا تجوّز فيه شی ء من ذلک، لأنّا لم نسلبه لا بالتأويل و لا غير التأويل شيئا وضعته اللغه له، لأنه كما ذكرت غير مرّه: لإثبات الفعل للشی ء من غير أن يتعرّض لذلک الشی ء ما هو، أو هو مستحقّ لأن يثبت له الفعل أو غير مستحق. و إذا كان كذلک، كان الذی أرادت اللغه به موجودا فيه ثابتا له فی قولک:

«فعل الربيع»، ثبوته إذا قلت: «فعل الحیّ القادر»، لم يتغيّر له صوره، و لم ينقص منه شی ء، و لم يزل عن حدّ إلی حدّ، فاعرفه.

فإن قلت: قد علمنا أنّ طريق المجاز ينقسم إلی ما ذكرت من اللغه و المعقول، و أنّ «فعل» فی نحو: «فعل الربيع»، مما طريقه المعقول، و أنّ نحو: «الأسد» إذا قصد به التشبيه، و استعير لغير السبع، طريق مجازه اللغه، و بقی أن نعلم لم خصّصت المجاز- إذا كان طريقه العقل- بأن توصف به الجمله من الكلام دون الكلمه الواحده. و هلّا جوّزت أن يكون «فعل» علی

الانفراد موصوفا به؟

فإنّ سبب ذلک أن المعنى الذى له وضع «فعل» لا يتصوّر الحكم عليه بمجاز أو حقيقه حتى يسند إلى الاسم، و هكذا كل مثال من أمثله الفعل، لأنه موضوع لإثبات الفعل للشى ء، فما لم نبيّن ذلک الشى ء الذى نثبته له و نذكره، لم يعقل أنّ الإثبات واقع موقعه الذى نجده مرسوما به فى صحف العقول، أم قد زال عنه و جازه إلى غيره.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۹۱

هذا، و قولک: هلّا جوّزت أن يكون «فعل» على الانفراد موصوفا به، محال، بعد أن نثبت أن لا مجاز فى دلاله اللفظ، و إنما المجاز فى أمر خارج عنه.

فإن قلت: أردت: هلّا جوّزت أن ينسب المجاز إلى معناه وحده، و هو إثبات الفعل فيقال: «هو إثبات فعل على سبيل المجاز»؟

فإنّ ذلک لا يتأتّى أيضا إلا بعد ذكر الفاعل، لأن المجاز أو الحقيقه، إنما يظهر و يتصوّر من المثبت و المثبت له و الإثبات، و إثبات الفعل من غير أن يقيّد بما وقع الإثبات له، لا يصحّ الحكم عليه بمجاز أو حقيقه، فلا يمكنک أن تقول: «إثبات الفعل مجاز أو حقيقه» هكذا مرسلا، إنما تقول: «إثبات الفعل للربيع مجاز، و إثباته للحىّ القادر حقيقه».

و إذا كان الأمر كذلک علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأنّ هاهنا مجازا أو حقيقه من طريق العقل، إلا فى جمله من الكلام. و كيف يتصوّر خلاف ذلک؟ و وزان الحقيقه و المجاز العقليين، و زان الصدق و الكذب، فكما يستحيل وصف الكلم المفرده بالصدق و الكذب،

و أن يجرى ذلك فى معانيها مفرّقه غير مؤلّفه، فيقال:

«رجل- على الانفراد- كذب أو صدق»، كذلك يستحيل أن يكون هاهنا حكم بالمجاز أو الحقيقه، و أنت تنحو نحو العقل إلا فى الجمله المفيده. فاعرفه أصلا كبيرا و اللّه الموفق للصواب، و المسئول أن يعصم من الزّلل بمنّه و فضله.

فصل فى الحذف و الزياده، و هل هما من المجاز أم لا

فصل فى الحذف و الزياده، و هل هما من المجاز أم لا

و اعلم أن الكلمه كما توصف بالمجاز، لنقلك لها عن معناها، كما مضى، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها، إلى حكم ليس هو بحقيقه فيها.

و مثال ذلك: أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢]، و الأصل: «و اسأل أهل القريه»، فالحكم الذى يجب للقريه فى الأصل و على الحقيقه هو الجرّ، و النصب فيها مجاز. و هكذا قولهم: «بنو فلان تطؤهم الطريق»، يريدون أهل الطريق، الرّفع فى «الطريق» مجاز، لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذى هو «الأهل»، و الذى يستحقّه فى أصله هو الجرّ.

و لا ينبغى أن يقال: «إن وجه المجاز فى هذا، الحذف»، فإن الحذف إذا تجرّد

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٢٩٢

عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسمّ مجازا. أ لا ترى أنك تقول:

«زيد منطلق و عمرو»، فتحذف الخبر، ثم لا توصف جمله الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز؟ و ذلك لأنه لم يؤدّ إلى تغيير حكم فيما بقى من الكلام.

و يزيده تقريرا: أن المجاز إذا كان معناه: «أن تجوز بالشى ء موضعه و

أصـله»، فالحذف بمجرّده لا يسـتحقّ الوصف به، لأنّ ترک الذکر و إسقاط الکلمه من الکلام، لا يکون نقلا لها عن أصلها، إنما يتصوّر النقل فيما دخل تحت النطق.

و إذا امتنع أن يوصف المحذوف بالمجاز، بقى القول فيما لم يحذف. و ما لم يحذف و دخل تحت الذکر، لا يزول عن أصـله و مکـانه حـتى يغيّر حکم من أحکـامه أو يغيّر عن معـانيه، فأمـا و هو على حـاله، و المحـذوف مـذکور، فتوهّم ذلـک فيه من أبعد المحال، فاعرفه.

و إذا صحّ امتناع أن يکون مجرّد الحذف مجازا، أو تحقّ صـفه باقى الکلام بالمجاز، من أجل حذف کان على الإطلاق، دون أن يحـدث هناک بسـبب ذلک الحذف تغيّر حکم على وجه من الوجوه علمت منه أنّ الزياده فى هذه القضـيه کالحذف، فلا يجوز أن يقال إن زياده «ما» فى نحو: فَبِما رَحْمَةٍ [آل عمران: ١٥٩] مجاز، أو أن جمله الکلام تصير مجازا من أجل زيادته فيه. و ذلک أنّ حقيقه الزياده فى الکلمه أن تعرى من معناها، و تذکر و لا فائده لها سوى الصّله، و يکون سقوطها و ثبوتها سواء.

و محـال أن يکون ذلـک مجـازا، لأـن المجـاز أن يراد بالکلمه غير ما وضـعت له فى الأصل أو يزاد فيه أو يوهم شـى ء ليس من شأنه، کإيهامک بظاهر النّصب فى «القريه» أن السؤال واقع عليها. و الزائد الذى سقوطه کثبوته لا يتصوّر فيه ذلک.

فأما غير الزائـد من أجزاء الکلام الـذى زيـد فيه، فيجب أن ينظر فيه، فإن حـدث هناک بسـبب ذلک الزائد حکم تزول به الکلمه عن أصلها، جاز حينئذ أن يوصف ذلک الحکم، أو ما وقع فيه، بأنه مجاز، کقولک فى نحو قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ

[الشورى: ۱۱]: إن الجرّ فى «المثل» مجاز، لأن أصله النصب، و الجرّ حكم عرض من أجل زياده «الكاف»، و لو كانوا إذ جعلوا «الكاف» مزيده لم يعملوها، لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام.

و يزيده وضوحا أن الزياده على الإطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز، لكان ينبغى أن يكون كل ما ليس بمزيد من الكلم مستحقّا الوصف بأنه حقيقه، حتى يكون «الأسد» فى قولك: «رأيت أسدا» و أنت تريد رجلا، حقيقه.

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۹۳

فإن قلت: المجاز على أقسام، و الزياده من أحدها.

قيل: هذا لك إذا حدّدت المجاز بحدّ تدخل الزياده فيه، و لا سبيل لك إلى ذلك، لأن قولنا: «المجاز»، يفيد أن تجوز بالكلمه موضعها فى أصل الوضع، و تنقلها عن دلاله إلى دلاله، أو ما قارب ذلك.

و على الجمله، فإنه لا يعقل من «المجاز» أن تسلب الكلمه دلالتها، ثم لا تعطيها دلاله أخرى، و أن تخليها من أن يراد بها شى ء على وجه من الوجوه. و وصف اللفظه بالزياده، يفيد أن لا يراد بها معنى، و أن تجعل كأن لم يكن لها دلاله قطّ.

فإن قلت: أو ليس يقال إن الكلمه لا تعرى من فائده ما، و لا تصير لغوا على الإطلاق، حتى قالوا: إنّ «ما» فى نحو: «فبما رحمه من اللّه»، تفيد التوكيد؟

فأنا أقول إنّ كون «ما» تأكيدا، نقل لها عن أصلها و مجاز فيها. و كذلك أقول:

إن كون الباء المزيده فى «ليس زيد بخارج»، لتأكيد النفى، مجاز فى الكلمه، لأن أصلها أن تكون

للإلصاق فإنّ ذلك على بعده لا يقدح فيما أردت تصحيحه، لأنه لا يتصوّر أن تصف الكلمه من حيث جعلت زائده بأنها مجاز، و متى ادّعينا لها شيئا من المعنى، فإنّا نجعلها من تلك الجهه غير مزيده.

و لذلك يقول الشيخ أبو على فى الكلمه إذا كانت تزول عن أصلها من وجه و لا تزول من آخر: «معتدّ بها من وجه، غير معتدّ بها من وجه»، كما قال فى اللّام من قولهم: «لا أبا لزيد»، و جعلها من حيث منعت أن يتعرّف «الأب» بزيد، معتدّا بها من حيث عارضها لام الفعل من «الأب» التى لا تعود إلا فى الإضافه نحو: «أبو زيد» و «أبا زيد»، غير معتدّ بها، و فى حكم المقحمه الزائده.

و كذلك توصف «لا» فى قولنا: «مررت برجل لا طويل و لا قصير»، بأنها مزيده و لكن على هذا الحدّ، فيقال: «هى مزيده غير معتدّ بها من حيث الإعراب، و معتدّ بها من حيث أوجبت نفى الطول و القصر عن الرجل، و لولاها لكانا ثابتين له».

و تطلق الزياده على «لا» فى نحو قوله تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ [الحديد: ٢٩]، لأنها لا تفيد النفى فيما دخلت عليه، و لا يستقيم المعنى إلّا على إسقاطها. ثم إن قلنا إنّ «لا» هذه المزيده تفيد تأكيد النفى الذى يجى ء من بعد فى قوله: أَلَّا يَقْدِرُونَ، و تؤذن به، فإنّا نجعلها من حيث أفادت هذا التأكيد غير مزيده، و إنما نجعلها مزيده من حيث لم تفد النفى الصريح فيما دخلت عليه، كما أفادته فى المسأله.

و إذا ثبت أنّ وصف الكلمه بالزیاده، نقیض وصفها بالإفاده، علمت أن الزیاده، من حیث هی زیاده، لا توجب الوصف بالمجاز.

فإن قلت: تكون سببا لنقل الكلمه عن معنی هو أصل فیها إلی معنی لیس بأصل كدت تقول قولا یجوز الإصغاء إلیه، و ذلك، إن صحّ، نظیر ما قدّمت من أن الحذف أو الزیاده قد تكون سببا لحدوث حكم فی الكلمه تدخل من أجله فی المجاز، كنصب القریه فی الآیه و جرّ المثل فی الأخری، فاعرفه.

و اعلم أن من أصول هذا الباب: أن من حقّ المحذوف أن المزید أن ینسب إلی جمله الكلام، لا إلی الكلمه المجاوره له، فأنت تقول إذا سئلت عن: «اسأل القریه»:

فی الكلام حذف، و الأصل: «أهل القریه»، ثم حذف «الأهل»، تعنی حذف من بین الكلام.

و كذلك تقول: «الكاف» زائده فی الكلام و الأصل: «لیس مثله شی ء».

و لا- تقول هی زائده فی «مثل»، إذ لو جاز ذلك، لجاز أن یقال إنّ «ما» فی «فبما رحمه»، مزیده فی الرحمه، أو فی «الباء» و أن «لا» مزیده فی «یعلم»، و ذلك بیّن الفساد، لأن هذه العباره إنما تصلح حیث یراد أن حرفا زید فی صیغه اسم أو فعل، علی أن لا یكون لذلك الحرف علی الانفراد معنی، و لا تعدّه وحده كلمه، كقولك: «زیدت الیاء للتصغیر فی رجیل، و التاء للتأنیث فی ضاربه». و لو جاز غیر ذلك، لجاز أن یكون خبر المبتدأ إذ حذف فی نحو: «زید منطلق و عمرو»، محذوفا من المبتدأ نفسه، علی حدّ حذف اللام من ید و دم، و ذلك ما لا یقوله عاقل.

فنحن إذا قلنا: إن «الكاف» مزیده فی «مثل»، فإنما

نعنى أنها لمّا زيدت فى الجمله وضعت فى هذا الموضع منها. و الأصحّ فى العباره أن يقال: «الكاف فى «مثل» مزيده»، يعنى الكاف الكائنه فى «مثل» مزيده، كما تقول: «الكاف التى تراها فى «مثل» مزيده» و كذلك تقول: «حذف المضاف من الكلام»، و لا تقول:

«حذف المضاف من المضاف إليه». و هذا أوضح من أن يخفى، و لكنّى استقصيته، لأنى رأيت فى بعض العبارات المستعمله فى المجاز و الحقيقه ما يوهم ذلك، فاعرفه.

و مما يجب ضبطه هنا أيضا: أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف، أو إسقاط مذكور، كان على وجهين:

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۲۹۵

أحدهما: أن يكون امتناع تركه على ظاهره، لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، و مثاله الآيتان المتقدم تلاوتهما. أ لا ترى أنك لو رأيت «اسأل القريه» فى غير التنزيل، لم تقطع بأن هاهنا محذوفا، لجواز أن يكون كلام رجل مرّ بقريه قد خربت و باد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظا و مذكّرا، أو لنفسه متّعظا و معتبرا: «اسأل القريه عن أهلها، و قل لها ما صنعوا»، على حد قولهم: «سل الأرض من شقّ أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك، فإنها إن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا» و كذلك:

إن سمعت الرجل يقول: «ليس كمثل زيد أحد»، لم تقطع بزياده الكاف، و جوّزت أن يريد: ليس كالرجل المعروف بمماثله زيد أحد.

الوجه الثانى: أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره، و لزوم الحكم بحذف أو زياده، من أجل الكلام نفسه، لا

من حيث غرض المتكلم به، و ذلک مثل أن يکون المحذوف أحد جزءى الجمله، کالمبتدإ فى نحو قوله تعالى: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ [يوسف: ١٨ و ٨٣]، و قوله: مَتاعٌ قَلِيلٌ [النحل: ١١٧]، لا بدّ من تقدير محذوف، و لا سبيل إلى أن يکون له معنى دونه، سواء کان فى التنزيل أو فى غيره، فإذا نظرت إلى: «صبر جميل» فى قول الشاعر «١»: [من الرجز]

يشکو إلىّ جملى طول السّرى صبر جميل، فکلانا مبتلى

وجدته يقتضى تقدير محذوف، کما اقتضاه فى التنزيل، و ذلک أن الداعى إلى تقدير المحذوف هاهنا، هو أن الاسم الواحد لا يفيد، و الصفه و الموصوف حکمهما حکم الاسم الواحد، و «جميل» صفه «للصبر».

و تقول للرجل: «من هذا؟»، فيقول: «زيد»، يريد: هو زيد، فتجد هذا الإضمار واجبا، لأن الاسم الواحد لا يفيد. و کيف يتصوّر أن يفيد الاسم الواحد، و مدار الفائده على إثبات أو نفى، و کلاهما يقتضى شيئين: مثبت و مثبت له، و منفىّ و منفىّ عنه؟

---

(١) البيت لم أعرف قائله و هو فى کتاب سيبويه ١/ ٣٢١، و فى شروح سقط الزند ص ٦٢٠ بروايه:

«صبرا جميلا»، و أمالى المرتضى ١/ ١٠٧، و يروى «شکا إلى». و بين الشطر الأول و الثانى عند المرتضى:

يا جملى ليس إلىّ المشتکى الدرهمان کلفانى ما ترى

و السرى: السير ليلا.

و أما وجوب الحكم بالزياده لهذه الجهه، فكنحو قولهم: «بحسبك أن تفعل»، و: كَفى بِاللَّهِ [سوره النساء: ۶، و آيات أخر]، إن لم تقض بزياده «الباء»، لم تجد للكلام وجها تصرفه إليه، و تأويلا تتأوله عليه البته، فلا بدّ لك من أن تقول: إن الأصل: «حسبك أن تفعل»، و «كفى اللّه»، و ذلك أن «الباء» إذا كانت غير مزيده، كانت لتعديه الفعل إلى الاسم، و ليس فى «بحسبك أن تفعل» فعل تعدّيه الباء إلى حسبك. و من أين يتصوّر أن يتعدّى إلى المبتدأ فعل، و المبتدأ هو المعرّى من العوامل اللفظيه؟ و هكذا الأمر فى «كفى» أو أقوى، و ذلك أن الاسم الداخل عليه الباء فى نحو: «كفى بزيد»، فاعل كفى، و محال أن تعدّى الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء، ففى الفعل من الاقتضاء للفاعل ما لا حاجه معه إلى متوسّط و موصل و معدّ، فاعرفه، و اللّه أعلم بالصواب.

تم بعون اللّه و توفيقه طبع كتاب (أسرار البلاغه) للإمام عبد القاهر الجرجانى

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنيه

فهرس الآيات القرآنيه

«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ» ۲۱۰/ ۲۷۶ «قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» ۲۶۰/ ۹۶ سوره آل عمران «مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ» ۱۱۷/ ۲۷۵ «فَبِما رَحْمَةٍ» ۱۵۹/ ۲۹۳ سوره النّساء «كَفى بِاللَّهِ» ۶/ ۲۹۷ «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ» ۱۱۴/ ۲۴۵ سوره الأنعام «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ»./ ۱۲۲/ ۶۰، ۲۶۳

سوره الأعراف «حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ» ۵۷/ ۲۷۲ «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» ۱۵۷/ ۵۴ «وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً» ۱۵۸/ ۵۰

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۰

سوره الأنفال «وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً» ۲/ ۲۷۲ سوره التوبه «فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً» ۱۲۴/ ۲۷۲ سوره يونس «إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ» ۲۴/ ۸۱، ۸۴، ۱۸۰ سوره هود «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا» ۳۷/ ۴۴ سوره يوسف «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» ۱۸، ۸۳/ ۲۹۶ «وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ» ۸۲/ ۱۸۰، ۲۷۶، ۲۹۲ سوره إبراهيم «تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها» ۲۵/ ۲۷۲ سوره النّحل «مَتاعٌ قَلِيلٌ» ۱۱۷/ ۲۹۶ سوره مريم «وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً» ۴/ ۱۹۷ سوره طه «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى » ۵/ ۲۷۶ «وَ

لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى» ۳۹/ ۴۴ سوره الحجّ «وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ» ۳۱/ ۲۷۱

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۱

سوره العنكبوت «كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً» ۴۱/ ۸۵ سوره سبأ «وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» ۱۹/ ۵۰ سوره فاطر «فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» ۹/ ۲۶۴ سوره الزّمر «وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» ۶۷/ ۲۵۳ «وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ» ۶۷/ ۲۵۳ سوره فصّلت «لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ» ۲۸/ ۲۳۸ «إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى » ۳۹/ ۲۶۳ سوره الشّورى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ» ۱۱/ ۲۹۳ «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» ۵۲/ ۲۶۳ «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم» ۵۲/ ۵۴ سوره الزّخرف «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً» ۱۹/ ۲۸۷ «أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ» ۱۹/ ۲۸۷ سوره الجاثيه «وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» ۲۴/ ۲۷۲، ۲۷۳، ۲۷۵ سوره الحجرات «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» ۱/ ۲۵۲ «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» ۱۳/ ۱۹۱ سوره ق «إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ» ۳۷/ ۲۵۶

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۲

سوره الرحمن «الرَّحْمنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيانَ» ۱- ۴/ ۱۳ سوره الحديد «يُحْيِ

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۳

فهرس الأحاديث النبويه

فهرس الأحاديث النبويه

قال صلّى اللّه عليه و

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۴

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۵

فهرس بعض الأقوال و الأمثال

فهرس بعض الأقوال و الأمثال

تؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيّهما شئت، و السلام»- رساله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد./ ۸۳

«حلّت ركابى، و شقّقت ثيابى، و ضربت صحابى»- مقاله أعرابىّ./ ۲۰

«سل الأرض فقل: من شقّ أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا»- الفضل بن عيسى الرقاشى./ ۲۰

«شكرا شكرا، إنّا و اللّه ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا، و لا لنبنى فيكم قصرا، فالآن عاد الأمر إلى نصابه، و طلعت الشمس من مطلعها، و الآن قد أخذ القوس باريها، و عاد النّبل إلى النزعه، و عاد الأمر إلى مستقرّه فى أهل بيت نبيّكم، أهل بيت الرّأفه و الرّحمه»- خطبه داود بن على العباسى./ ۱۸۷

«كانوا إذا اصطفّوا سفرت بينهم السّهام، و إذا تصافحوا بالسيوف قفز الحمام»- أعرابى./ ۳۰

«كيف الطّلا و أمّه»، «ما أصنع به؟ آكله أم أشربه»، «غرثان فاربكوا له»- أعرابى./ ۳۰

«كيف الطّلا و أمّه»، «ما أصنع به؟ آكله أم أشربه»، «غرثان فاربكوا له»- من قصه ابن لسان الحمّره./ ۳۸

«اللّهمّ هب لى حمدا، و هب لى مجدا، فلا مجد إلّا بفعال، و لا فعال إلّا بمال.

اللّهمّ لا يصلحنى القليل و لا أصلح عليه»- دعاء سعد بن عباده رضى اللّه عنه/ ۱۹ «ما الإنسان لو لا اللّسان، إلا صوره ممثّله، أو بهيمه مهمله»- من كلام خالد بن صفوان الخطيب./ ۲۰

«مات خزّان الأموال، و العلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقوده، و أمثالهم فى القلوب موجوده»- من قول على بن أبى طالب رضى اللّه عنه- انظر: «هلك

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۶

خزان الأموال».‌/ ۶۴

«هلك خزّان الأموال»- من قول على بن أبى طالب رضى اللّه عنه- انظر:

«مات خزان الأموال»/ ۶۴ «هنّ مخرجاتى من الشام»- من كلام عمرو بن العاص رضى اللّه عنه.‌/ ۲۷۴

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۷

فهرس الأبيات الشعريه

فهرس الأبيات الشعريه

برد فى العصب/ كشاجم/ الرمل/ ۲۰۳ فإن خاف نقص المحاق انتقب/ ابن بابك/ المتقارب/ ۱۰۵ بأبيض كالقبس الملتهب/ عنتره العبسى/ المتقارب/ ۱۲۳

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۸

.. ح و الليل من خوفه قد هرب/ ابن المعتز/ المتقارب/ ۲۱۰ ألا إنّها تلك العزوم الثواقب/ الشاشى/ الطويل/ ۲۰۲ منازله تعتسّ فيها الثعالب/ القتال الكلابى/ الطويل/ ۴۶ أسنّته فى جانبيها الكواكب/ المتنبى/ الطويل/ ۱۳۰ إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب/ النابغه/ الطويل/ ۱۰۷ و كل امرئ يولى الجميل محبب/ المتنبى/ الطويل/ ۱۹۱ غزال كحيل المقلتين ربيب/ ابن الدمينه/ الطويل/ ۱۷۶ فإنى و قيّارا بها لغريب/ ضابئ بن الحارث البرجمىّ/ الطويل/ ۱۴۵ إن السماء ترجّى حين تحتجب/ أبو تمام/ البسيط/ ۱۹۹ كأنها فضّه قد مسّها ذهب/ ذو الرّمه/ البسيط/ ۱۲۸ و تعم مطيه الجهل الشباب/ النابغه/ الوافر/ ۴۳ و لا تبكى و قد قطع الحبيب/ إنشاد الشبلىّ/ الوافر/ ۲۰۰ و هل ترقى إلى الفلك الخطوب/ المتنبى/ الوافر/ ۲۰۳ فيه الظنون أ مذهب أم مذهب/ أبو تمام/ الكامل/ ۱۶ يتّقى إخلاف ما ترجو الذئاب/ المتنبى/ الرمل/ ۲۱۲ حين يوفى و الضوء فيه اقتراب/ بشار بن برد/ الخفيف/ ۲۲۱ من كثره القتل نالها الوصب/ ابن المعتز أو ابن الرومى/ المنسرح/ ۲۰۲ مشرقه ليس لها حاجب/ الوزير المهلبى/ المنسرح/ ۱۳۵ عراكا إذا الهيّابه النّكس كذّبا/ البحترى/ الطويل/ ۲۲۸ جداول فى غاب سما فتأشّبا/ السرىّ الرفّاء/ الطويل/ ۱۵۹ و نكّب عن ذكر العواقب جانبا/ سعد بن ناشب المازنى/ الطويل/ ۹۸ و من يسوّى بأنف النّاقه الذّنبا/ الحطيئه/

البسيط/ ۲۴۴ شعاعها و يراه الطّرف مقتربا/ المتنبى/ البسيط/ ۲۲۱ فى دار حسّان أصطاد اليعاسيبا/ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت/ البسيط/ ۱۴۲ مراميها فراميها أصابا/ أبو فراس/ الوافر/ ۱۹۷ كساها دفنهم فى الترب طيبا/ المتنبى/ الوافر/ ۲۰۰ يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا/ المتنبى/ الكامل/ ۱۰۶ نسقا يطأن تجلّدا مغلوبا/ البحترى/ الكامل/ ۱۹

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۰۹

و إذا ما أردت كنت قليبا/ أبو تمام/ الخفيف/ ۱۸۴ لفّ الصّبا بقضيب قضيبا/ البحترى/ المتقارب/ ۱۵۰ خلائق أصفار من المجد خيّب/ البحترى/ الطويل/ ۱۶۸ و فى السّر منها و الصريح المهذّب/ عامر بن الطفيل/ الطويل/ ۱۹۰ تصول بأسياف قواض قواضب/ أبو تمام/ الطويل/ ۲۳ و شيئا من النّور أو روضا من العشب/ البحترى/ البسيط/ ۱۵۴ فإن ذاك ابتسام الرّأى و الأدب/ أبو تمام/ البسيط/ ۲۰۴ و ليت غائبه الشّمسين لم تغب/ المتنبى/ البسيط/ ۲۲۹ على أيدى العشيره و القلوب/ البحترى/ الوافر/ ۱۹ توارى الشمس فيه بالحجاب/ السّرىّ الرفّاء/ الوافر/ ۱۵۸ بيوم مثل سالفه الذّباب/ ابن المعتز/ الوافر/ ۹۸ رجيّه محموده الإسكاب/ ابن المعتز/ الكامل/ ۱۳۶ و قضيت من لذّاته آرابى/ ابن المعتز/ الكامل/ ۲۱۱ كالفجر فاض على نجوم الغيهب/ البحترى/ الكامل/ ۴۸ عن كلّ ندّ فى النّدى و ضريب/ البحترى/ الكامل/ ۹۰ فى شارق يضحك من غير عجب/ ابن المعتز/ الرجز/ ۲۱۱ للعصيه السّارين جدّ قريب/ البحترى/ الكامل/ ۲۲۴ فى سؤدد أربا لغير أريب/ البحترى/ الكامل/ ۱۹ و البغض عندى كثره الإعراب/ أبو بكر الخوارزمى/ الرجز/ ۵۹ إن تأمّلت من سواد

الغراب/ البحترى/ الخفيف/ ۱۹۴ ... دى الرزايا إلى ذوى الأحساب/ أبو تمام/ الخفيف/ ۱۹۸ ... بخت علما لم يأتهم بالحساب/ ابن الرومىّ/ الخفيف/ ۲۱۶ ... رجلته حدائد الضّرّاب/ ابن المعتز/ الخفيف/ ۱۶۴ و الليل قد همّ منه بالهرب/ الخالدى/ المنسرح/ ۲۱۰ سلام على الحاضر الغائب/ الوأواء الدمشقىّ/ المتقارب/ ۱۰۱ و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه/ بشار/ الطويل/ ۱۳۰- ۱۴۷ أبو أمّه حىّ أبوه يقاربه/ الفرزدق/ الطويل/ ۲۵- ۵۹ فى الشّعر، يكفى من صدقه كذبه/ البحترى/ المنسرح/ ۱۹۵

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۱۰

فأهلا بها و بتأنيبها/ ..../ المتقارب/ ۲۱۵ فشكّت الأنفس فى غربه/ المتنبى/ السريع/ ۲۲۳ قافيه التاء و طرت بمنصلى فى اليعملات/ مضرس بن ربعى/ الوافر/ ۴۷ فلما رأوها أقشعت و تجلّت/ ...../ الوافر/ ۸۲ بين الرياض على حمر اليواقيت/ الزاهى/ البسيط/ ۹۹ لحقّ أنت إحدى المعجزات/ أبو الحسن الأنبارى/ الوافر/ ۲۴۶ ليلا كظلّ الرّمح غير موات/ ابن المعتز/ الكامل/ ۹۸ مثل البغىّ تبرّجت لزناه/ ابن المعتز/ الكامل/ ۲۱۰ و باجتى تكرم ديباجتى/ أبو الفتح البستى/ السريع/ ۲۳ و أوهى الزمان قوى منّتى/ ابن بابك/ المتقارب/ ۲۰۷ ما عذرها فى تركها خيراتها/ المتنبّى/ الكامل/ ۲۰۳ قافيه الجيم و حاك ما حاك من وشى و ديباج/ البحترى/ البسيط/ ۲۶۹ أواخر الميس إنقاض الفراريج/ ذو الرمه/ البسيط/ ۷۰ قافيه الحاء و مسّح بالأركان من هو ماسح/ كثير، أو غيره/ الطويل/ ۲۶- ۲۷ يقال لها دم الودج الذبيح/ أبو ذؤيب/ الوافر/ ۲۵۱ سعد، و لكن أنت سعد الذابح/ جحظه/ الكامل/ ۲۴۵ وجه الخليفه

حین یمتـدح/ محمد بن وهیب/ الکامل/ ۱۶۴ سـکران من نومته طافح/ ابن المعتز/ السریع/ ۱۵۹ قتل البخل و أحیی السماحا/ ابن المعتز/ المدید/ ۴۶ فانطباقا مرّه و انفتاحا/ ابن المعتز/ المدیـد/ ۱۱۶، ۱۱۹، ۱۳۶ مجد، یهتزّ للسـماح ارتیاحا/ أبو طالب المأمونیّ/ الخفیف/ ۲۱۲ فاض جنـح الـدّجی کلا جنح/ الصـنوبریّ/ المنسـرح/ ۱۵۹ قـافیه الـدال ... ق إذا تصـوّب أو تصـعّد/ الصـنوبری/ الکامل/ ۱۲۰ ... ف لها سواق کالمبارد/ کشاجم/ الکامل/ ۱۵۷

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ۳۱۱

بثّت الإشراق فی کلّ بلد/ العباس بن الأحنف/ الرمل/ ۱۸۵- ۲۲۱ من نضار یتوقّد/ ...../ الرمل/ ۲۰۸ تقطّع السیف إذا ما ورد/ ابن المعتز/ السریع/ ۲۰۷ و نرجسـها مما دهی حسنه ورد/ الببغاء/ الطویل/ ۲۰۲ و لا رجلا قامت تعانقه الأسـد/ المتنبی/ الطویل/ ۲۱۸ قریب، و لکن فی تناولها بعد/ محمد بن أبی عیینه/ الطویل/ ۲۲۰ کما احمرّت من الخجل الخدود/ ابن المعتز/ الوافر/ ۱۴۶ و کأن خلوته الحفیّه مشهد/ البحتری/ الکامل/ ۲۸۳ موت فریص الموت منه ترعد/ المتنبی/ الکامل/ ۲۳۵ خجلا تورّدها علیه شاهد/ ابن الرومی/ الکامل/ ۲۰۴ و إن أنت أکرمت اللئیم تمرّدا/ المتنـبی/ الطویـل/ ۱۹۲ و یقتـل ما تحیی التبسّم و الجـدا/ المتنبی/ الطویل/ ۲۶۳ آل المهلّب دون النـاس أجسادا/ عمر بن لجأ/ البسـیط/ ۱۱۴ ... ک، و لم أخلهـا فی العـدا/ الصولی/ الکامل/ ۲۰۱ أ بجدّ ذا الهجر أم لیس جدّا/ ابن المعتز/ الخفیف/ ۲۱۴ إلی المجد مدّ إلیه یدا/ الخنساء/ المتقارب/ ۲۵۶ و ملّ بنجد فالقنافذ عوّدی/ أوس بن حجر/

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۱۲

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٣١٣

الطويل/ ۱۶۱ قافيه الطاء حواجبا ظلّت تمطّ/ الصنوبرىّ/ الرجز/ ۱۳۵ و طغيا من اللّهق الناشط/ أسامه بن الحارث الهذلىّ/ المتقارب/ ۳۴ قافيه العين ... س فقل للعين تدمع/ أبو الشيص/ أشجع السّلمىّ/ الرمل/ ۲۲۳ حبيبا فما ترقا لهنّ مدامع/ أبو تمام/ الطويل/ ۲۰۸ لنا قمراها و النجوم الطوالع/ الفرزدق/ الطويل/ ۲۲۶ و لا بدّ يوما أن تردّ الودائع/ لبيد/ الطويل/ ۹۳ و إن خلت أنّ المنتأى عنك واسع/ النابغه/ الطويل/ ۱۰۷ و لكنّه فى القلب أسود أسفع/ أبو تمام/ الطويل/ ۱۰۱ و هاب رجال حلقه الباب قعقعوا/ أبو الرّبيس الثعلبى/ و غيره// الطويل/ ۱۰۸ ينزو الرّباح خلا له كرع/ الأعشى/ الكامل/ ۱۳۶ أصمّ عمّا ساءه سمع/ ...../ السريع/ ۶۲ سنن لاح بينهنّ ابتداع/ القاضى التنوخىّ/ الخفيف/ ۱۶۵- ۱۶۷ يهدى إلى عينيك نورا ساطعا/ الراعى/ الطويل/ ۲۵۰ فأرتنى القمرين فى وقت معا/ المتنبى/ الطويل/ ۲۲۶ بحديث و اتّق الدّرعا/ بشار/ الطويل/ ۲۲۳ قد مات ضيفاه جميعا/ ابن الحجاج/ الطويل/ ۲۰۹ فإذا عاسرت ذقت السّلعا/ ...../ الرمل/ ۵۶

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۱۶

تصمت بالماء تولبا جدعا/ أوس بن حجر/ المنسرح/ ۳۷ و الدهر يعدو مصمّما جذعا/ ذو الإصبع العدوانىّ/ المنسرح/ ۲۷۴ جداول أمثال السيوف القواطع/ ذو الرمه/ الطويل/ ۱۵۸ على الماء خانته فروج الأصابع/ معاذ العقيلىّ/ الطويل/ ۹۵- ۹۶ و ها أنا هذا أرتجى مرّ أربع/ عمرو بن حممه الدوسى/ الطويل/ ۱۶۰ نجاه من البأساء بعد وقوع/ ابن طباطبا/ الطويل/ ۱۶۸ كأن المجد يدرك بالصّراع/ أبو تمام/ الوافر/ ۲۵۵ و حنين

والهه كقوس النازع/ إبراهيم بن المهدى/ الكامل/ ٢٠٩ أتبعته الأنفاس للتشيع/ المتنبى/ الكامل/ ٢١٣ و الماء فى بركـ البديع/ أبو نواس/ الكامل/ ١٥٤ له جذوه من زبرج اللّاذ لامعه/ ابن بابك/ الطويل/ ١١٩ قدّامه شامخ الرّفعه/ القاضى التنوخىّ/ السريع/ ١٤٦- ١٤٧ و لم يك بخلها بـدعه/ الخليل بن أحمد/ المتقارب/ ١١٧ بها وجـدها من غاده و ولوعها/ البحترى/ الطويل/ ١١٢ قافيه الفاء يكسين أعلام المطارف/ الحمانى/ الكامل/ ١٥٢ ثنائى على تلك العوارف وارف/ بعض المتأخرين/ الطويل/ ٢٤ يميل بها بدر و يمسكها حقف/ المتنبى/ الطويـل/ ١٥٦ كمـا تعـانق لاـم الكـاتب الألفـا/ بكر بن النطّاح/ و غيره/ البسـيط/ ١٥٠ صـواد إلى تلك الوجوه الصوادف/ البحترى/ الطويل/ ٢٣ فلاـ و اللّه ما نطقت بحرف/ .....‌/ الوافر/ ٢٤٣ شـغواء تغذو فرخين فى لجف/ أبو نواس/ المنسرح/ ١٦١ و للقوافى رقى لطيفه/ ابن سـكّره/ البسيط/ ٢٤٤ و همـا ربيع مؤمّل و خريفه/ البحترى/ الكامل/ ٢٢٨ عنّا، و بدر و الصـدود كسوفه/ البحترى/ الكامـل/ ٢٣٤ قـافيه القـاف و للسـيف حـدّ حين يسـطو و رونق/ البحـترى/ الطويـل/ ١٠٧ مـداهن درّ حشوهنّ عقيق/ ابن المعتز/ الطويل/ ٧٣، ١٦٠

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٣١٧

يبدو ضـئيلا ضـعيفا ثم يتّسق/ محمد بن يزداد الكاتب/ البسـيط/ ١٠۴ منها الشـموس و ليس فيها المشـرق/ المتنبى/ الكامل/ ٢١٨ كما يعرّى الفرس الأبلق/ ابن بابك/ السـريع/ ١٢٨ كـأنّ الزمان له عاشق/ محمـد بن وهيب/ المتقارب/ ٢٠١ صفاه الهدى من أن ترقّ فتخرقا/ البحترى/ الطويل/ ٥٠ أكلناه بالإجاف حتى تمحّقا/ البحترى/ الطويل/ ٢٢۴ بيت

أسرار البلاغه فى علم

البيان، ص: ٣١٩

لا ـ تصدق الأوهام فيه قيلا/ أبو طالب المأمونى/ الكامل/ ١٦٩ .... ر الروض فى الشّطين فصلا/ أبو فراس/ الكامل/ ١٥٧ يشرب كأسا بكفّ من بخلا/ الأعشى/ المنسرح/ ٢٣٩ و لا تبدّلت بعدكم بدلا/ ابن الرومى/ المنسرح/ ٢١٧ فعزّ الفؤاد عزاء جميلاـ/ العباس بن الأحنف/ المتقارب/ ٢٢٠ تسمع للسّيف فيها صليلا/ عبد قيس بن خفاق/ المتقارب/ ١٥٣ قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل/ امرؤ القيس/ الطويل/ ١۴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل/ امرؤ القيس/ الطويل/ ١٠٨ تعرّض أثناء الوشاح المفصّل/ امرؤ القيس/ الطويل/ ١٢۶ لدى و كرها العنّاب و الحشف البالى/ امرؤ القيس/ الطويل/ ١۴٢ سعيت و أوضعت المطيه فى الجهل/ الفرزدق/ الطويل/ ۴٣ يوم الوداع إلى توديع مرتحل/ الأخيطل/ البسيط/ ١٣٨ إن القنوع الغنى لا كثره المال/ محمد بن يسير/ البسيط/ ۶۶ و نقصك إذ نظرت إلى الهلال/ أبو العتاهيه/ الوافر/ ٢٢۴ فمرتجع بموت أو زوال/ أبو الفتح البستى/ الوافر/ ٢٢ فإن المسك بعض دم الغزال/ المتنبى/ الوافر/ ٩۴ و لا التذكير فخر للهلال/ المتنبى/ الوافر/ ١٠٧- ٢۴۶ كأنها من خلع الهلال/ المتنبى/ الرجز/ ٢١٢ كأنّك مستقيم فى محال/ المتنبى/ الوافر/ ١٠٧ لطرف أشهب ملقى الجلال/ ابن المعتز/ الوافر/ ١٢٧- ١۴٣ فالسيل حرب للمكان العال/ أبو تمام/ الكامل/ ١٩٣- ١٩٩ فيه بناظرها، حديد الأسفل/ البحترى/ الكامل/ ١٩ يوم الوغى من صارم لم يصقل/ البحترى/ الكامل/ ١٩۵ ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل/ أبو تمام/ الكامل/ ٩۴ و محسّن الضّحكات و الهزل/ أبو نواس/ الكامل/ ۴٣ ... ن و فى بعد المنال/ ابن الرومى/ الرمل/ ٢٠٩ مرح البلق جلن فى الأجلال/ كثير/ الخفيف/ ١٢٨ ... ن و يونان و العصور الخوالى/ ابن نباته/ الخفيف/

أسرار البلاغه فی علم البیان، ص: ٣٢٠

لمـا تخرّم أهل الكفر مخترما/ أبو تمام/ البسـيط/ ٢٢ أمسـيت من كبـدى و منها معدما/ المتنبى/ الكامل/ ٥٠ .. ت أغرّ أيـام كنت بهيما/ أبو تمام/ الخفيف/ ١٠١

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ٣٢١

فى الغروب مرامـا/ ابن المعتز/ مجزوء الخفيف/ ٧٣ عجارف غيث رائـح متهزّم/ عمر بن أحمر الباهلى/ الطويل/ ١٢٢ لعلّ بها مثل الذى بى من السّـقم/ المتنبى/ الطويل/ ٢٠٢ نيلا أدقّ من المعـدوم فى العدم/ ابن نباته/ البسـيط/ ٦١ من الصـباح طراز غير مرقوم/ ابن المعتز/ البسـيط/ ١٦٣ صـعود البرق فى الغيم الجهـام/ البحترى/ الوافر/ ١٤٥ و الرّجّح الأحسـاب و الأحلام/ أبو تمام/ الكامل/ ١٧٧ جذع البصـيره قارح الإقدام/ قطرى بن الفجاءه/ الكامل/ ١٠٨ ... رى فمـا زدتنى سوى التّعظيم/ ابن الرومى/ الخفيف/ ١١٤ و ليلاـ أكلت بليـل بهيم/ ...../ المتقارب/ ٢٧٩ إذ أصـبحت بين الشّـمال زمامها/ لبيد/ الكامل/ ٤١ قـافيه النون فقلت و الشكّ عـدوّ اليقين/ ابن بابك/ السريع/ ٢٠٧ بخير و ما كلّ العطاء يزين/ أميه بن أبى الصلت/ الطويل/ ٢١٣ و أنشزن نفسى فوق حيث تكون/ جميل/ الطويل/ ٢٦٢ إذا ما منحناه العيون عيون/ أبو نواس/ الطويل/ ١٥١ و سرّى فيك إعلان/ البحترى/ الهزج/ ١١٢ كمن يبشّره بالماء عطشانا/ المتنبى/ البسيط/ ٢١٣ و مكرمه مددت لها اليمينا/ صنع المؤلف/ الوافر/ ٢٥٥ و تخال ما طعنوا به أشطانا/ محمد بن الحارث التميمى المصـرى/ الكامل/ ١٥٨ لهـا حـدق لم تتّصـل بجفون/ ابن المعتز/ الطويل/ ١٢٨ نطير غرابـا ذا قـوادم جون/ ابن المعتز/ الطويل/ ١٣٢ سنا لهب لم

يتّصل بـدخان/ امرؤ القيس/ الطويل/ ۱۲۳ إليه اليوم فى يـدک اليمين/ البحـترى/ الوافر/ ۲۵۵ بجليها، و تخبز باليـدين/ أبو دلامه/ الوافر/ ۲۷۰ كفـانى أمركم و كفاكمونى/ سـليمان بن قته العـدوى/ الوافر/ ۲۵۵ تلقّاهـا عرابه باليمين/ الشـماخ/ الوافر/ ۲۵۳ شرابا صفوه صفو اليقين/ ...../ الوافر/ ۱۷۰

أسرار البلاغه فى علم البيان، ص: ۳۲۲

هى فى رقّه دينى/ أبو نواس/ الرمل/ ۱۷۰ أو دعانى أمت بما أو دعانى/ شمسويه البصرى/ الخفيف/ ۱۶ ... ک و قد رحت عنک بالحرمـان/ ابن طباطبا/ الخفيف/ ۱۶۹ .... سـد، مـاء جـار مع الإخوان./ ...../ الخفيف/ ۱۰۰ إن غب عنكم مغرّبـا بـدنه/ البحترى/ المنسرح/ ۱۰۱ حسـنا فسلّوا من قفاه لسانه/ أبو هلال العسـكرى/ الكامل/ ۲۰ قـافيه الهاء فلو رأتنا عيون ما خشـيناها/ أبو إسـحاق الفارسـى/ البسيط/ ۱۵۰ يحيى لـدى يحيى بن عبـد اللّه/ أبو تمـام/ الكامـل/ ۲۳ قـافيه الياء .... ر كرّ الغـداه و مر العشـى/ الصـلتان العبدى/ المتقارب/ ۲۶۲- ۲۷۴ لعـلّ خيالاـ منک يلقى خياليا/ المجنون/ الطويل/ ۲۱۳ و تطلع بين عينيه الثّريّا/ ابن نبـاته/ الوافر/ ۱۵۵ - ۲۰۵ مثل الجواشن مصـقولا حواشـيها/ البحترى/ البسـيط/ ۱۵۴ نور من البـدر أحيانـا فيبليهـا/ أبو المطاع بن ناصـر الـدوله/ البسيط/ ۲۱۹ إلى نـداک فقاسـته بما فيها/ أبو نواس/ البسـيط/ ۲۴۲ الأـلف المقصوره جرى دمعهـا فى خـدود الثّرى/ ابن المعتز/ المتقارب/ ۱۵۲ شـطر بيت و اللّه لاـ طلعت شـمس و لا غربت/ ...../ المتقارب/ ۲۲۳ و رمحـا طويل القناه عسولا/ عبـد القيس بن خفان/ البسيط/ ۱۶۰ عن أى ثغر تبتسم/ البحترى/ الكامل/ ۱۱۲

فهرس الرجز يتضمن الرجز من بحر الرجز، و الرجز من بحر السريع

فهرس الرجز يتضمن الرجز من بحر الرجز، و الرجز من بحر السريع

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ۹

المقدمة:
تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ۱۴۲۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.
وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:
مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونیة: المعارض الثلاثیة الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينیة والسياحیة

إنتاج الأفلام الكرتونیة والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمیة الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیة وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينیة والأخلاقیة والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمیة الالكترونیة لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونیة لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ۸ أنظمة؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونیة للكتاب على موقع القائمیة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیة والانجليزية والفارسیة

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.



مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩